مدينة الأقنعة

الجزء الثاني من سلسلة المكتبة الخفية

The Masked City



جينيفيف كوجمان

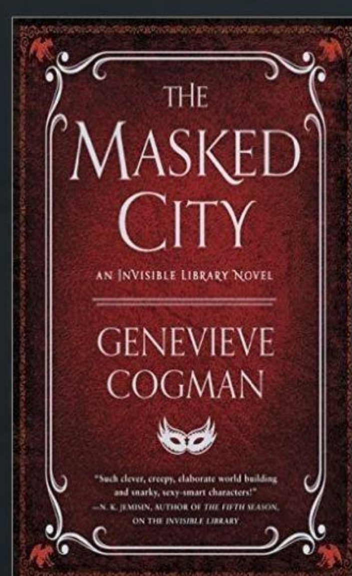
Genevieve Cogman

ترجمة : كاميليا

مدينة الأقنعة

جينيفيف كوجمان

بينما تمارس الجاسوسة وأمينة المكتبة "آيرين" عملها متخفية في نسخة بديلة من لندن، يختفي مساعدها "كاي" فجأة، لتتكشف أمامها حقيقة مرعبة: لقد وقع في قبضة "الفاي".
لكن الكارثة لا تتوقف عند حياة "كاي" فحسب، بل إن التداعيات تنذر بدمار قد يطال عوالم بأسرها. فدماء التنانين التي تجري في عروق "كاي" وإن كانت تمنحه حلفاء أقوياء، إلا أنها جعلت منه هدفاً ثميناً لأعداء لا يرحمون. وبهذا العمل العدواني، يوشك "الفاي" على إشعال فتيل حرب طاحنة بين قوى "النظام" وقوى "الفوضى".
الآن، وفي سباق محموم لإنقاذ "كاي" ومنع نهاية العالم، يتوجب على "إيرين" التوغل في نسخة مظلمة من مدينة "البندقية"، حيث يسود كرنفال أبدي غامض. هناك، وسط الأقنعة والظلال، ستُجبر "آيرين" على استخدام كل ما في جعبتها من حيل: الابتزاز، **اللغة**، والقتال المستميت... وإلا، فالموت بانتظارها.



ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

مدينة الأقنعة

THE MASKED CITY

@WADISTREAMBOO
KS

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks

ترجمة / كاميليا

جينيفيف كوجمان

GENEVIEVE COGMAN

مدينةُ الأقنعةُ

THE MASKED CITY



كتيب إرشادي لمتدربي المكتبة

مقتطف مأخوذ من وثيقة إحاطة حول التوجيه بين العوالم المختلفة

القسم 2.1، الإصدار 4.13

المؤلف: كوبيليا؛ **المحرر:** كوتشي

المراجعون: جيرفيس ونتيكوما

للموظفين المصرح لهم فقط.

مقدمة

بحلول هذا الوقت، ستكون قد اجتزت التدريب الأساسي، وستكون إما تعمل في الميدان مع أمين مكتبة أكثر خبرة أو تستعد للقيام بذلك. هذه الوثيقة السرية هي فحص أكثر تعمقاً لموقف المكتبة تجاه كل من **الفاي** والتنانين. ستساعدك هذه الوثيقة على فهم سبب بقائنا غير تابعين لأي من الجانبين.

الفاي—توجُّههم نحو الفوضى وقواهم

لا بد أنكم تدركون المخاطر التي يشكلها الفاي على البشرية. فهم يتغذون على التفاعلات العاطفية مع البشر، مقتاتين علينا بهذه الطريقة. وهم ينظرون إلى كل شخص غيرهم، سواء كانوا بشراً أو حتى فاي آخرين، كمجرد مشاركين—يؤدون أدواراً في الخلفية—في قصصهم الشخصية

الخاصة. وهنا لدينا "حلقة تغذية راجعة" مثيرة للاهتمام؛ فكلما تمكنوا من جعل قصصهم الشخصية أكثر درامية (على سبيل المثال، لعب دور الشرير، أو المحتال، أو البطل)، زادت القوة التي يمكن لـ الفاي اكتسابها. وكلما زادت قوتهم، أصبح هذا السلوك في لعب الأدوار أكثر نمطية. ونتيجة لكل هذا، تنمو وجهة نظر الفاي لتصبح أكثر اعتلالاً اجتماعياً (سيكوباتية) بمرور الوقت.

من حيث المخاطر الأخرى، يُظهر الفاي قوى تتراوح من القدرة على إكساء أنفسهم بـ "سحر تمويه" أساسي (من أجل التأثير على إدراك البشر لهم) إلى القدرة على التلاعب عاطفياً بمن حولهم. بالإضافة إلى ذلك، يُظهر الفاي الأقوياء أحياناً قوى سحرية أو جسدية محددة، اعتماداً على النمط البدائي الشخصي أو الصورة النمطية التي اختاروا تبنيها.

الفاي— عوالمهُم

تتوزع العوالم المعروفة على طيف يمتد من النظام إلى الفوضى. وكلما توغلنا أبعد في العوالم المتأثرة بالفوضى، زاد عدد الفاي الذين يمكن العثور عليهم هناك. في العوالم المتأثرة بالفوضى، هناك بالطبع خطر تعرض البشر لـ "تلوث الفوضى"، وهو ما قد يؤثر على قوى أمين المكتبة أو حتى يمنعه من دخول المكتبة مرة أخرى. في مثل هذه العوالم التي يهيمن عليها الفاي، تشكل البشرية طاقماً خلفياً؛ حيث تتراوح أدوارهم من حيوانات أليفة إلى طعام، ويُنظر إليهم كديكورات للدراما النفسية، أو الرومانسية، أو الانتقام التي ينغمس فيها الفاي من حولهم——حيث يكون هؤلاء الفاي ملوثين بالفوضى، قلباً وقالباً. قد يكون أفراد الفاي الضعفاء قادرين على التفاعل مع أمناء المكتبات المنفردين على مستوى "بشري" نسبياً، أما الأقوياء منهم، فإما أنهم لن يرغبوا في ذلك أو لن يكونوا قادرين عليه. احذروا من تشكيل التحالفات إذا قُدمت لكم مبادرات تبدو ودية، لأن الفاي ستظل لديهم دائماً دوافعهم الخاصة.

الفاي أم التنانين—الإيجابيات والسلبيات

لذا، قد تتساءلون، لماذا لا نتحالف صراحة مع التنانين؟ إنهم يمثلون النظام، تماماً كما يمثل الفاي الفوضى. إنهم يمثلون الواقع بنفس الطريقة التي يعتنق بها الفاي مفاهيم الخيال واللاواقع ويستمدون قوتهم منها. وعلى هذا النحو، تبجّل التنانين العالم "الحقيقي" والمادي فوق كل شيء آخر، ولا تملك سوى القليل من الصبر تجاه مسائل الخيال. فلماذا لا نرغب في اعتناق الواقع المادي؟ الجواب هو أن التنانين، بطريقتهم الخاصة، متحيزون وغير بشريين في وجهة نظرهم تماماً مثل الفاي.

التنانين—توجُّههم نحو النظام وقواهم

قد تمثل التنانين العالم المادي—العالم الذي يمكننا لمسه—لكن الواقع المادي ليس لطيفاً؛ إنه خام، ووحشي، ولا يرحم. قوى التنانين متجذرة في العالم المادي: يمكنهم التحكم في الطقس، والمد والجزر، والأرض، وما إلى ذلك. التنانين أيضاً عمليون للغاية في تفكيرهم، ولا يرون حاجة للمناقشات حول الديمقراطية، أو تقرير المصير للبشر، أو غيرها من التخيلات—فهم يعتبرون أنفسهم أقوى المخلوقات، ويعتقدون أن لديهم الحق التلقائي في الحكم بموجب هذه القوة. لذا، في العوالم ذات الدرجة العالية من النظام، تحكم التنانين، إما علناً أو من وراء الكواليس.

المكتبة—كيف تحافظ على التوازن

عبر روابط أبوابها بعوالم بديلة متعددة—وهي روابط أُنشئت عبر "صيد" كتب مفتاحية من هذه العوالم—تساعد المكتبة في الحفاظ على التوازن. تمنع هذه الروابط العوالم من الانجراف بسرعة نحو الفوضى أو النظام، مما يوفر بيئة مستقرة للبشر في منطقة وسطى. قد يتعرض أمناء المكتبات المبتدئون لعقوبات شديدة إذا عقدوا اتفاقيات غير مصرح بها مع الفاي، خاصة إذا أدت تلك الاتفاقيات لتقويض حيادية المكتبة التي يجب الحفاظ عليها بأي ثمن. يجب التأكيد على أننا لسنا هنا لنقرر ما هو

"الأفضل للبشرية"، بل يجب ترك البشرية لتتخذ قراراتها. غرض المكتبة هو حماية البشرية من الواقع المطلق أو اللاواقع المطلق.

وستفعلون ذلك من خلال جمع الكتب المُرشحة، للحفاظ على التوازن.

خفايا المكتبة

معلومات من الداخل عن «المكتبة» وجواسيسها

أهم خمس عمليات لسرقة الكتب في سجل إيرين

بصفتها جاسوسة مكتبة مبتدئة، تُرسل إيرين إلى أقاصي العوالم لجمع الكتب الشهيرة، والنادرة، والخطيرة، والعودة بها إلى «المكتبة». قد يكون الهدف من ذلك القضاء على فصيل خطير أو إنقاذ عالم بأسره — وهو أمر قد لا يُطلع عليه أمين المكتبة. أحيانًا يكون الكتاب في مكانه المفترض تمامًا، داخل مكتبة منسقة بعناية في عالم منظم، فتكون استعادة المجلد المطلوب مسألة بسيطة. وفي أحيان أخرى، تسير المهمة بشكل خاطئ للغاية، وبالكاد ينجو الجاسوس بحياته، ناهيك عن الاستحواذ على الهدف. وغني عن القول، أن جميع أمناء المكتبات لديهم حكاياتهم المفضلة عن سرقات الكتب وقصص الرعب التي عايشوها. لذا، طلبنا من إيرين مشاركة قائمتها لأهم خمس عمليات.

كتاب «أجاممنون» لـ ويليام شكسبير

أعتقد أن أول نص يتبادر للذهن هو مسرحية «أجاممنون» لـ شكسبير — فالجميع يرغب في التفاخر باستعادة عمل فريد لـ شكسبير، أليس كذلك؟ كانت واحدة من تلك الوظائف التي تعرف فيها بالضبط مكان النص (في مجموعة خاصة لملياردير منعزل)، لكن المشكلة تكمن في كيفية إخراجه من هناك. كان العالم الذي يحوي الكتاب لا يزال في خضم سلسلة طويلة من الحروب، تعود تواريخها لبعض الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر، وكانت الإمبراطورية البيزنطية هي القوة المهيمنة. والأكثر عرقلة، إنه كان أحد تلك العوالم التي تحتل فيها النساء موقعًا محددًا للغاية من الدرجة الثانية في المجتمع.

انتهى بي الأمر بـ «استعارة» نسخة من مسرحية «جهد الحب الضائع» لـ شكسبير من عالم آخر (لم تكن موجودة أبدًا في العالم المستهدف). ثم تركتها تقع تحت انتباه الملياردير. سمحت له بالاحتيال عليّ لأخذها مني كوسيلة للوصول إلى مجموعته. شعرت برضا تام عن نفسي بعد ذلك؛ إذ إنه على الأقل حصل على عمل لـ شكسبير لم يقرأه من قبل. أما المسرحية نفسها... حسنًا، وجدت أن شكسبير قد اقتبس معظم الحبكة الأساسية من eschylus (إسخيلوس)، كاتب التراجيديا الإغريقي القديم. لكن كالعادة، أضاف شكسبير بعض لمساته الخاصة. أتساءل عما إذا كان ينوي اقتباس بقية سلسلة «أوريستيا» لـ إسخيلوس أيضًا وتحويلها إلى ثلاثية...

«ملحمة سكيولدونغا»

المرة التي أُرسلت فيها لجلب نسخة من «ملحمة سكيولدونغا» هي واحدة من أسوأ ذكرياتي. نُقلتُ إلى عالم متوسط الفوضى، وعالي السحر، حيث كان هناك حمقى يلوحون بأسلحة ضخمة كلما انعطفت عند زاوية. تخيلوا سفنًا طويلة طائرة، وشعراء «السكالد» المنشدين للتعاويذ، والكثير الكثير من النُذر والضغائن. كل من كان له شأن كان يحاول بدء حروب جديدة. بدا الأمر وكأنهم يتوقعون حدوث «راغناروك[1]» غداً ويريدون التأكد من أنهم ذبحوا كل من يستطيعون قبل أن تحل القيامة.

لم يكن هناك أي «أمين مكتبة مقيم» مفيد في ذلك العالم. وبالكاد وجدت أي مكتبات. وكان هناك الكثير من «الـفاي». أسوأ من الصراصير. عملت كشاعرة متجولة وراوية قصص، وأعدت تدوير القصص الكلاسيكية بينما كنت أحاول الترفيه عن السكارى مفتولي العضلات في الحانات. إذا حدث وزرتم ذلك العالم وصادفتم رواية شفهية عن القبطان نيمو وهو يقاتل موبي ديك أثناء هروبه من الثورة الفرنسية، فأنتم تعرفون السبب الآن. والحرب التي اندلعت بالفعل لم تكن خطئي على الإطلاق. كان «الـفاي» متورطين أيضًا، وهم من فجروا "قنبلة غولينبورستي[2]". كنت مجرد عابرة سبيل سيئة الحظ.

---

[1] راغناروك: نهايةُ العالم في الأساطير الإسكندنافية؛ معركةٌ كونية فاصلة تفضي إلى دمارٍ شامل يعقبه بعثٌ ونشوءُ عالمٍ جديد

[2] غولينبورستي: الخنزير الذهبي في الأساطير الإسكندنافية

«المنارة» لـ إدغار آلان بو

كتاب آخر واجهت صعوبة في الحصول عليه هو «المنارة» لـ بو، بعد وفاة المؤلف. والنسخة التي كنت أبحث عنها كانت العمل المكتمل، رواية كاملة، على عكس النسخة غير المكتملة الموجودة في بعض العوالم. كان بو كاتبًا مشهورًا جداً خلال حياته في هذا العالم، رغم أنه ظل يعاني من مشاكل مع الشراب والمقامرة. عاش في الإمبراطورية الكونفدرالية الأمريكية، كما كانت تسمى هناك، وكانت زوجته ممارسة للسحر الشعبي المحلي.

وبينما كان السحر فعالًا في ذلك العالم ومادة رئيسية في الجامعات، كان معظم «الـفاي» هناك موجودين في أوروبا، لذا لم أضطر للقلق بشأنهم على الأقل. المشكلة هنا كانت أنه من المفترض وجود نص مشفر مخفي داخل الكتاب. كان أحد تلك السيناريوهات من نوع "حل اللغز وستحصل على ثروتي المتراكمة"، مما أدى لكون نسخ الكتاب نادرة للغاية (وقد نُشر كطبعة محدودة أيضًا). والعديد من الجمعيات السرية أو صائدي الكنوز المهووسين جعلوا العثور عليه أصعب. انتهى بي الأمر مطارَدَة عبر الغابات المحلية من قبل عدد كبير من القطط القاتلة المتحولة سحريًا، والاضطرار للغوص في البحيرة لتجنبها، ثم الزحف للخارج على الضفة الأخرى والتعرض للخلط بيني وبين شبح غريق... لم تكن واحدة من حلقاتي الأكثر انتصارًا. وليست طريقتي المفضلة لقضاء "الهالوين".

«حكاية الأبطال المخلصين والنبلاء الصالحين» لـ شي يوكون

بعد عام، أُرسلت للاستحواذ على نسخة من «حكاية الأبطال المخلصين والنبلاء الصالحين» — وهو تفريغ نصي لعروض شفهية للراوي شي يوكون. كان أحد تلك الكتب التي تظهر في عوالم كثيرة، لكن هذا الكتاب تحديداً كان فريداً — فقد كان يزيد مائة فصل عن النسخ الأخرى.

العالم الذي وجد فيه الكتاب كان هادئًا تمامًا، مما شكل تغييرًا لطيفًا. كان محكومًا من قبل الإمبراطورية الصينية، ولم يكن هناك الكثير من السحر أو التكنولوجيا، لكن كانت هناك تجارة وفيرة. توجب عليّ تأسيس هوية كطالبة أجنبية، والسفر عبر نصف مساحة الصين بقطار بطيء، والحصول على مكان في الجامعة في تشانغ آن للتمكن من الوصول لمكتبة الجامعة. كان هذا هو المكان الذي حُفظت فيه النسخة الوحيدة المعروفة من الأصل الكامل. أمضيت بعدها ثلاثة أشهر متواصلة أتسلل ليلًا وأنسخ المخطوطة يدويًا، ولم أضطر لمراوغة الحراس سوى بضع مرات. لم تكن مهمة مقيدة بوقت، وبهذه الطريقة تمكنت من ترك الأصل هناك. كانت مهمة ممتعة للغاية. حتى أنني تمكنت من إنجاز بعض الدراسة. حياتي ليست كلها ركضًا وصراخًا، كما تعلمون.

«نكران الليدي كاثرين» لـ جين أوستن

أخيرًا، هناك مهمة واحدة أتذكرها بشكل خاص بسبب الكتاب نفسه. لا أقول إن العالم لم يكن مثيرًا للاهتمام —كان يتمتع بتكنولوجيا عالية، ومستويات فوضى متوسطة، وديناصورات مستنسخة، وما إلى ذلك. لكن، والأهم من ذلك، كان هذا هو العالم الوحيد المسجل حيث اتجهت جين أوستن لكتابة روايات الجريمة والغموض.

بطبيعة الحال، تم توجيهي لاستعادة المجموعة الكاملة. الأصعب في العثور عليه كان كتابها الأخير، «نكران الليدي كاثرين»: المخطوطة اختفت مع وفاة أوستن. تمكنت من تتبعها إلى عزبة خاصة لعالم مجنون في ويلز. (لا أقول إن كل العلماء المجانين يقرؤون لـ جين أوستن، لكن عددًا مفاجئًا ممن قابلتهم يفعلون). ما يثير الانزعاج، أنه كان من النوع الذي يملأ حديقته الخاصة بالديناصورات المستنسخة آكلة اللحوم لضمان الخصوصية. اضطررت للتسلل عبر ممر تحت الأرض، من منجم فحم محلي مهجور. وحتى مع ذلك، أُسرت وكدت أنتهي كفأر تجارب. (بالطبع هربت. أنا أكتب هذا، أليس كذلك؟).

لا أزال أحتفظ بنسخة من الكتاب على أرففي الخاصة، إذا كنتم مهتمين. يبدأ الكتاب بجريمة قتل الليدي كاثرين دي بورغ...



تُعرف مدينة "البندقية" الإيطالية بلقب (مدينة الأقنعة) نسبةً إلى مهرجانها السنوي الشهير للأقنعة (Carnival of Venice) الذي يرمز إلى الغموض والفخامة والفن الباروكي.



تمهيد

كان هواء لندن مشبعًا بالدخان والقذارة. ومع أن حواس كاي تتفوق على حواس البشر — وهو أمر حاول ألا يتباهى به كثيرًا — إلا أنه حتى هو لم يكن بوسعه الرؤية في الأزقة المظلمة أفضل من أي لندني عادي. بل إن سكان لندن أنفسهم كانوا يسيرون بحذر بالغ في تلك الشوارع الضيقة الواقعة خلف محطة «كينغز كروس».

ولكن، حيثما ترعرعت الجريمة، نشط المحققون أيضًا. وكان هو هنا لمقابلة بيريجرين فيل، الصديق ومحارب الجريمة.

توقف ليتفحص واجهة متجر رهونات، محاولًا استكشاف الشارع خلفه. ورغم أنه لم يلحظ أحدًا يتبعه تحديدًا، إلا أن شيئًا ما في الأجواء جعله متوترًا؛ نذير خطر يلوح في الأفق. غير أن البشر الذين يجرؤون على تحدي تنين — حتى في هيئته البشرية — كانوا قلة نادرة، ولم يتوقع مصادفة أي منهم في هذه الأزقة الخلفية.

كان فيل في مستودع يقع عند الزاوية تمامًا. بضع خطوات ويصل، وحينها سيعرف طبيعة المساعدة التي يحتاجها فيل في قضيته.

وفجأة، صرخ أحدهم بالقرب منه. كانت صرخة امرأة، مرعوبة بصدق، بُترت في منتصفها بنباح مخنوق وسعال. استدار كاي فجأة محدقًا في الضباب المتماوج. رأى رجلين وامرأة متكومين عند طرف ممر شديد الرطوبة والعفونة. كانت المرأة مثبتة الذراعين خلف ظهرها بواسطة أحد المعتديين، بينما كان الآخر يرجع قبضته للوراء استعدادًا لتوجيه لكمة أخرى.

قال كاي بهدوء:

— "دعها تذهب."

كان بوسعه التعامل مع بشريين اثنين بسهولة تامة. حتى لو كانا مستذئبين، فلن يشكلا خطرًا يُذكر. لكن هذا سيؤخره عن موعده.

زمجر أحد الرجلين مبتعدًا عن المرأة ليواجهه:

— "تراجع. هذا الأمر لا يخصك، وليست منطقتك أصلاً."

أجابه كاي:

— "يخصني إن قررتُ أنا أن أجعله يخصني."

تقدم كاي في الزقاق نحو المجموعة، مقيمًا إياهم تلقائيًا كما دربه معلمو القتال لدى والده. كان الرجلان مفتولي العضلات عند الأكتاف، قويي البنية، لكن كلاهما أظهر علامات الكرش والإنهاك الناتج عن المجون. كان بمقدوره القضاء عليهما، تمامًا كما فعل مع غيرهما من نفس الصنف قبل بضعة أيام.

تقدم الرجل الحر نحوه رافعًا قبضتيه في وقفة ملاكم فجة. كان أخف حركة مما توقع كاي، لكنه لم يكن بالسرعة الكافية. ناوش بقبضته اليمنى، ثم سدد يسارية مستقيمة نحو فك كاي. تنحى كاي جانبًا، وصدم بيده كلى الرجل بقوة، ثم ركله خلف ركبته ليُفقده توازنه، وصدم رأسه بالحائط. سقط الرجل أرضًا.

قال الرجل الآخر وهو يتراجع إلى عمق الزقاق محتميًا بالمرأة كدرع بشري:

— "مهلاً، لا تكن هكذا."

بدأ الذعر يطل من عينيه، وتابع:

— "فلتنصرف من هنا ولن يتأذى أحد..."

صحح له كاي:

— "بل تترك أنت تلك المرأة، وحينها لن تتأذى."

مشى نحوه متفحصًا الثغرات. المراوغة لجهة والضرب على عنق الرجل قد يكون الخيار الأقل خطرًا على المرأة، ومع ذلك ——

قال صوت من الأعلى:

— "الآن."

انفتحت أبواب بعنف عن يمينه ويساره ومن خلفه، وفي اللحظة ذاتها هوى شيء من الأعلى مندفعًا نحوه في عقدة من الظلال. غاص كاي لجانب واحد بفعل الغريزة، لكن الزقاق امتلأ فجأة بالرجال. لاحظ الجزء المدرب قتاليًا من عقله وجود اثني عشر رجلًا، والمزيد خلف تلك الأبواب المفتوحة. لم يعد لديه مساحة للمراوغة، وبدا الأمر كمصيدة. لم ينتظروا حتى ليتلقى غيرهم الضربات الأولى كما هي عادة البلطجية؛ بل هجموا جميعًا، أغلبهم بأيدٍ عارية، والبعض بقبضات حديدية أو هراوات صغيرة مثقلة.

كان عليه التراجع والخروج. لا عار في ذلك. جزء من تدريب المحارب هو الاعتراف بتفوق القوة المعادية والتصرف بناءً على ذلك. التفّت ذراع حول عنقه من الخلف. أمسك بها، نزل على ركبة واحدة، وقذف الرجل من فوق رأسه نحو أولئك الذين يضيقون الخناق عليه. وبقائه منخفضًا، دار حول نفسه كاسحًا بقدمه ساقي مقاتل آخر ليسقطه. استغل قوة الدفع ليدور وينهض. كان هناك أربعة رجال بينه وبين المخرج. أربع عقبات يجب إزالتها.

لا بد أن قضية فيل مهمة للغاية لتستدعي هذا النوع من التدخل.

لاحظ كاي حلقات الشبكة التي أخطأته بالكاد وهي متشابكة على الأرض. كانت أداة خبيثة، حيكت أسلاك معدنية داخل حبالها. أمر مثير

للفضول. لماذا يتكبدون هذا العناء للإيقاع بي شخصيًا؟ إذا كانوا قد أمسكوا بـ فيل بالفعل، فسوف يندمون.

صدم بكوعه إلى الخلف، شاعرًا بالارتجاج حين اتصل بفك أحدهم، وانطلق للأمام في ركضة هجومية متأرجحة. كان يجب على واحد على الأقل من الرجال أمامه أن يتراجع...

لم يتوقع أن يهجموا عليه جميعًا دفعة واحدة، مثل موجة بشرية مفاجئة. سدد ضربة عالية للحنجرة، ثم منخفضة للفخذ — ضربات تهدف للتعطيل. لكنهم لم يسقطوا. شعروا بالألم، تأوهوا، ترنحوا، لكنهم ظلوا في طريقه.

باغتته ضربة على مؤخرة رأسه، مفجرة نوبة مفاجئة من الألم، وفقدت محاولته لضرب الأعصاب قوتها وهو يهبط على ركبة واحدة. أدرك أنه هدف سهل، لكن عضلاته رفضت الاستجابة لتلك اللحظة.

لكمه رجل آخر في وجهه. بصق الدم.

ألقى رجل من الخلف بنفسه فوق كاي، مثبتًا إياه على الرصيف القذر. جاهد كاي لالتقاط أنفاسه، والشرر يتراقص في عينيه. شعر بغضب خالص يسري في عروقه الآن. كيف يجرؤ هؤلاء البشر على الاعتداء عليه هكذا؟

لم يكن في داخله متسع للخوف. من المستحيل أن ينتصر هؤلاء الحثالة.

شعر بجسده الطبيعي يفرض نفسه؛ تحولت يداه إلى مخالب، وبدأت الحراشف ترسم طريقها عبر جلده مع صعود طبيعته الحقيقية ممتزجة بذلك الغضب. سيستدعي النهر ضدهم؛ سيمحوهم من لندن هذه؛ سيجعلهم يدفعون ثمن هذه الوقاحة.

عبر لندن، شعر بنهر التايمز وجميع روافده تضطرب استجابة لغضبه. قد يكون الأصغر والأقل شأنًا بين أبناء أبيه، لكنه لا يزال تنينًا من السلالة الملكية. وبدفعة حلزونية، اندفع بظهره للخلف، مجبرًا البلطجي على الابتعاد عنه، ونهض كاشفًا عن أنيابه في زمجرة.

صدمته أجساد أخرى وأسقطته أرضًا، وثبتت أياد ثقيلة معصميه على الرصيف. تركت مخالبه علامات في الأرض وهو يصارع للتمكن منهم. وللمرة الأولى شعر بوخزة شك. ربما كان من الأصوب التحول بالكامل لهيئته الحقيقية، تلك التي يستحيل عليهم تقييدها. سيُنذر ذلك لندن كلها بأن تنينًا يمشي بينهم، لكن إن خسر المعركة...

تشابكت يد في شعره ساحبة رأسه للوراء، وشعر بمعدن بارد يطبق حول عنقه. وفجأة، انتشرت في الهواء نكهة شرسة وكهربائية لسحر «الفاي» (Fae)، تحيط به وتقيده. صرخ من الصدمة المفاجئة بينما تلاشت الأنهار البعيدة واختفت من حواسه، واحتكت أصابعه — التي عادت بشرية تمامًا — بالخرسانة.

قال صوت بارد:

— "هذا سيفي بالغرض."

كانت تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها أي شخص طوال الهجوم، وكان آخر ما سمعه كاي.

تلقى ضربة أخيرة على رأسه، ثم استسلم للاوعي.

الفصل الأول

الليلة السابقة...

كان وجود السم في كأس نبيذها أمرًا مؤسفًا، هكذا حدثت إيرين نفسها. فالغرفة الموجودة تحت الأرض كانت حارة، وكأس من النبيذ المثلج كان سيكون منعشًا للغاية.

لم تكن بحاجة لهمس كاي من خلف كتفها؛ فقد كانت تراقب الرجل صاحب قناع الغراب في المرآة. اسمه الحقيقي تشارلز ميلانكورت، وكانا يطاردان الكتاب نفسه طوال الأسابيع القليلة الماضية. هو عميل لمشترٍ روسي، وإيرين عميلة لـ «المكتبة». وقد تصادفا كثيرًا أثناء تقصي المصادر ذاتها، وبالتأكيد قد تعرف عليها رغم قناعها، تمامًا كما تعرفت هي عليه.

انتهت المزايدة على القطعة الحالية، وهي مجموعة من النرد المطلي بالذهب نُقشت نقاطه بالياقوت، وسرت موجة خفيفة من التصفيق. كان الجميع ملثمين، حتى النوادل الذين يطوفون بصواني الطعام والنبيذ. لم يكن هذا المزاد غير قانوني تمامًا، لكنه كان مشبوهًا بلا شك. شمل الحضور غريبي الأطوار، والأثرياء الفاحشين، وعددًا كبيرًا من الأشخاص الذين وظفوا محامين فقط لإثبات براءتهم المطلقة (من أي شيء وكل شيء). كانت مصابيح الأثير تشتعل على الجدران، ملقية وهجًا أبيض على الغرفة، مما جعل الخرز على الفساتين الباهظة والأوسمة العسكرية يلمع بقدر القطع المعروضة للمزاد.

لقد ميزت بعضًا من «الـفاي» في لندن أيضًا خلف أقنعتهم. لكن اللورد سيلفر، زعيمهم غير الرسمي، لم يكن حاضرًا — وهي حقيقة كانت ممتنة لها للغاية.

تمكنت إيرين من الدخول بمساعدة فيل. لم يكن من الضار أن تكون صديقة شخصية لأعظم محقق في لندن. وفي المقابل، وعدت بأن تضمن خروجها هي وكاي من المكان قبل منتصف الليل، أي قبل موعد مداهمة الشرطة المجدولة. وهو وعد كانت تنوي الوفاء به. لقد أمضت الأشهر القليلة الماضية في هذا العالم البديل تبني هوية غطاء كمترجمة مستقلة، وسيكون وجود سجل جنائي أمرًا غير ملائم.

دوّى صوت الدلاّل بملل:

— "القطعة التالية. نسخة واحدة من كتاب «الساحرة» (La Sorcière[3]) لـ أبراهام، أو «برام» ستوكر، المستند إلى كتاب يحمل الاسم نفسه لـ جول ميشليه. نحن واثقون من أن ضيوفنا لا يحتاجون لتذكيرهم بأن هذا الكتاب حظرته الحكومة البريطانية. وقد شجبته الكنيسة بدعوى الفحش العام والهرطقة. لا شك أنه سيوفر للمشتري مادة مسلية للقراءة، ها ها."

خلت ضحكته من أي شيء يشبه الفكاهة، وتابع:

— "يُباع كجزء من تركة مجهولة. يبدأ المزاد بألف جنيه. هل أسمع أي عروض؟"

رفعت إيرين يدها. وفعل ميلانكورت المثل.

أعلن الدلاّل:

— "السيدة صاحبة قناع الدومينو الأسود، ألف جنيه."

---

[3] كتاب «الساحرة» (*La Sorcière*): كتاب حقيقي للكاتب الفرنسي جول ميشليه، صدر عام ١٨٦٢م، ويتناول صورة الساحرة في الخيال الأوروبي وتاريخ اضطهادها في العصور الوسطى.

صاح ميلانكورت:

– "ألف وخمسمائة!"

إذن فهو ينوي القفز بالسعر قفزات كبيرة بدلًا من رفعه تدريجيًا. عادلٌ بما يكفي. على الأقل بدا أنهما الوحيدان المهتمان بهذه الصفقة.

قالت إيرين بوضوح:

– "ألفان."

أعلن ميلانكورت:

– "ألفان وخمسمائة!"

أثار ذلك بعض الهمسات من المزايدين الآخرين. الكتاب كان نادرًا، لكن ليس بتلك الدرجة الهائلة. تمتلك متاحف معينة نسخًا منه، لذا كانت إيرين تتصرف بفضيلة نسبية بشرائها المجلد في مزاد للعالم السفلي؛ إذ كان بإمكانها سرقته في نهاية المطاف. جعلتها الفكرة تبتسم.

قالت:

– "ثلاثة آلاف."

– "خمسة آلاف!"

تسببت هذه القفزة المفاجئة في السعر بصمت الغرفة. نظر الناس إلى إيرين ليروا ما ستفعله.

مال كاي فوق كتفها. ووفاءً لغطائه كحارس شخصي، ظل واقفًا طوال الوقت، رافضًا الطعام والشراب، ومراقبًا الحقيبة القماشية التي تحوي ضمان الدفع الخاص بهم.

همس لها:

– "يمكننا أن نتركه يفوز، ثم نزوره لاحقًا."

همست إيرين ردًا عليه:

— "مخاطرة كبيرة."

تناولت كأس النبيذ من الصينية التي كان يحملها، ورفعتها إلى شفتيها، ولم تخطئ ملاحظة التوتر المفاجئ في وضعية جسد ميلانكورت. نعم، كان هذا من تدبيره. لقد توقعت ذلك.

تمتمت بـ «اللغة»:

— "**نبيـــذ، اِغلِ**."

ووضعت الكأس بسرعة مرة أخرى حيث سخن الزجاج تحت أصابعها. كان النبيذ يغلي بالفعل، وفاض على الصينية، مصدرًا فحيحًا وبخارًا أثناء تبخره. توترت يدا كاي، لكنه أبقى الصينية ثابتة.

كان الصمت قد تعمق. وكسرته إيرين قائلة بلا مبالاة:

— "عشرة آلاف."

هوى ميلانكورت بقبضته على فخذه شاتمًا.

تساءل الدلاّل وسط همهمة متصاعدة من الهمسات:

— "هل أسمع أي عروض أخرى؟ عشرة آلاف من السيدة صاحبة قناع الدومينو الأسود، العد الأول، العد الثاني... بيعت! إذا تفضلتِ بالتوجه لترتيب الدفع مع موظفينا يا سيدتي، شكرًا جزيلًا. القطعة التالية..."

تجاهلت إيرين القطعة التالية ونهضت واقفة. سلم كاي صينيته لأحد النوادل والتقط حقيبتهما القماشية، متبعًا إياها وهي تتوجه نحو مكتب الدفع. أبقت عينًا حذرة على ميلانكورت، لكنه كان مكومًا في مقعده، لا يحاول فعل أي شيء درامي. أومأ لها رجال ونساء باحترام وهي تمر، فردت التحية بأدب.

سأل الرجل في المكتب بنبرة محايدة:

— "دفعتك يا سيدتي؟"

كان خلفه عدة رجال ضخام مفتولي العضلات لمساعدة الزبائن المترددين في تغطية مشترياتهم. لكن لن تكون هناك حاجة إليهم هذه المرة.

أبقت إيرين ابتسامتها خفيفة بينما فحص كاتب المكتب ماساتها الصناعية بعدسة صائغ قبل إتمام الصفقة وتسليم الكتاب. كانت قد حصلت على الأحجار من أمين مكتبة يعمل في عالم بديل أكثر تقدمًا من الناحية التكنولوجية بكثير، وكانت تلك الأحجار تسدد الفواتير بشكل جيد. إنتاج الماس هناك كان رخيصًا نسبيًا، وكل ما أراده زميلها في المقابل هو مجموعة كاملة من الطبعات الأولى لأعمال فولتير من عالمها.

وصلا إلى الباب قبل أن يلحق بهما ميلانكورت.

قال بصوت منخفض لكن يائس:

— "يمكنني عقد صفقة. إذا أوصلتِني برئيسكِ—"

قاطعت إيرين:

— "أخشى أن ذلك مستحيل. أنا آسفة، لكن الأمر منتهٍ. عليك أن تعذرني."

تذكرت أن لديها موعدًا نهائيًا — والساعة كانت العاشرة والنصف بالفعل.

انزمّت شفتا ميلانكورت في خط رفيع تحت قناعه، وبصق قائلًا:

— "لا تُحمليني مسؤولية ما قد يحدث. وعليكِ أن تعذريني أيضًا. يجب أن أمضي في طريقي."

اندفع متجاوزًا كليهما، مناديًا نادلًا ليحضر له معطفه وقبعته.

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا بحلول الوقت الذي ابتعدا فيه عن المكان وخلعا قناعيهما. كانت الليلة صافية نسبيًا، وأظهرت مصابيح

الأثير كل عيب في شوارع سوهو. تلكأت بضع نساء عند نواصي الشوارع، لكن معظمهن كن في الحانات أو يعملن من الداخل، ولم تحاول أي منهن الاقتراب من كاي وإيرين. كان ميلانكورت قد اختفى عن الأنظار بالفعل.

سأل كاي مبقيًا صوته منخفضًا:

— "هل تظنين أنه سيحاول فعل شيء؟"

— "على الأرجح. لنتوجه إلى شارع «أكسفورد». سنكون بأمان كافٍ بمجرد وصولنا للطريق الرئيسي."

وبينما كانا يتوجهان في ذلك الاتجاه، تأملت إيرين كيف تغيرت حياتها في الأشهر القليلة الماضية. سابقًا، كانت أمينة مكتبة متجولة في مهمة، تقفز من عالم بديل إلى آخر لجمع الكتب للمكتبة البينية الأبعاد التي تخدمها. الآن أصبح لديها قاعدة ثابتة هنا بصفتها «أمين مكتبة مقيم»، ومتدرب تحترمه، بل وأصدقاء أيضًا. لم يكن السفر عبر العوالم أفضل وسيلة للحفاظ على الصداقات، خاصة عندما تضطر لقضاء نصف وقتها متنكرة. لكن الآن أصبح لديها أشخاص في هذا العالم، مثل فيل، يعرفون حقيقتها ويتقبلونها.

ولكي تكون صادقة، كانت تستمتع بعملها. كان من المجزي تلبية طلبات «المكتبة»، والقيام بذلك بسرعة وكفاءة. إن توفير كتب فريدة لـ «المكتبة» من عالم معين ساعد في استقرار العالم نفسه أيضًا، موازنًا إياه بين النظام والفوضى عبر تقوية رابطه بـ «المكتبة». لكنه كان أيضًا — لغياب وصف أفضل — مثيرًا. في الشهر الماضي اضطرا للتسلل إلى متاهة مليئة بالآلات الذاتية الحركة تحت إدنبرة لإنقاذ نسخة من سردية Regina Rosae المفقودة لـ إليزابيث باثوري. واليوم انزلقا داخل المزاد وخرجا منه دون أي متاعب. (محاولة التسميم الصغيرة تلك كانت تفصيلًا

ثانويًا). لم تكن إيرين متأكدة مما سيحمله الغد، لكنه وعد بأن يكون مثيرًا للاهتمام.

قال كاي بنبرة رضا خفيف بينما كانا ينعطفان عند الزاوية متجاوزين حانة نحو طريق مظلم:

— "آه. ظننت ذلك. نحن مُراقبان."

أدارت إيرين رأسها ولمحت رجلين خلفهما عند منعطف الشارع.

— "ملاحظة جيدة. هل هما اثنان فقط؟"

— "واحد آخر على الأقل. أظن أنهم يلتفون لقطع الطريق علينا، إذا مررنا عبر شارع «بيرويك»."

قطب كاي حاجبيه وسأل:

— "ماذا سنفعل؟"

قالت إيرين بحزم:

— "نمر عبر شارع «بيرويك» بالطبع. وإلا كيف سنعرف ما يجري؟"

نظر كاي إليها بطرف عينه، ومصابيح الأثير تُبرز ملامحه كتمثال رخامي حاد. ضاقت عيناه وبدتا مظلمتين في التباين الضوئي.

— "ستتركين لي التعامل مع الأمر؟"

— "سأترك لك القيادة. أنت تشتت انتباههم، وأنا أتولى الترتيب."

أومأ برأسه موافقًا على الأمر. لم تكن لتطلب القتال جنبًا إلى جنب معه في عراك شوارع؛ فهو تنين في نهاية المطاف، وحتى في هيئته البشرية يمكنه القفز في الهواء وركل الناس في رؤوسهم. وتنانير لندن الطويلة هذه لم تُصمم مع وضع القفز والركل في الحسبان.

كون كاي تنينًا كان أمرًا معقدًا. جعله ذلك متدربًا مفيدًا بقدرات تتجاوز المعيار البشري، لكنه عنى أيضًا أنه جاء محملًا بحصته من

المواقف المسبقة والتحيزات. كان يمقت «الـفاي» تمامًا باعتبارهم قوى للفوضى، وهو أمر محرج نظرًا لأن لهم وجودًا كبيرًا في هذا العالم. وكان يتصرف بغطرسة تنين ذي دم ملكي، رغم رفضه الخوض في تفاصيل نسبه. كانت إيرين خبيرة بما يكفي لتعرف أن هذا قد يعني — لا، بل سيعني على الأرجح — متاعب. لكن هنا والآن، كان هو الدعم الممتاز.

في هذا الوقت من الليل، كان سوق شارع «بيرويك» ومتاجر الأقمشة مغلقة، والشارع مظلمًا عدا مصابيح الأثير. سيكون الآن وقتًا مناسبًا لمطارديهم كي يتحركوا.

وكأنهم على موعد، بدأ الرجلان في تضييق الخناق بينما خرج رجل ثالث من الزاوية أمامهما. كان رث الثياب، معطفه ذو الأكمام المهترئة مفتوح ليكشف عن رابطة عنق معقودة بإهمال عند حلقه فوق قميص مفكوك الأزرار جزئيًا. كانت قبعته مسحوبة لأسفل فوق وجهه، مظللة عينيه.

زمجر قائلًا:

— "توقفا مكانكما."

توقف كاي وإيرين.

قال البلطجي:

— "والآن، يمكننا فعل هذا بالطريقة السهلة، أو بالطريقة الصعبة. أنا والشباب، لا نود إيذاءكما دون ضرورة، صحيح؟"

شهقت إيرين محاولةً أن تبدو غير مهددة:

— "أوه لا! ما هذا؟"

قال الرجل وقد تقدم خطوة للأمام:

— "مجرد قليل من العنف الضروري يا آنسة."

كان بإمكانها سماع الآخرين يقتربان من خلفهما، بسرعة أكبر الآن.

— "الآن، إذا ابتعدتِ عن هذا السيد الشاب هنا، فلن يكون لدي ولا لدى الشباب أي سبب لإزعاجك."

لابد أن السبب هو حمل كاي للحقيبة. لم يكن لدى ميلانكورت الوقت ليحذرهم من أنها قد تمتلك قدرات غير عادية. حسنًا، لم تكن إيرين لترفض ميزة كهذه.

تساءل كاي:

— "إذن ما السبب الذي لديكم لإزعاجي؟"

مرر الحقيبة لـ إيرين، فتراجعت خطوة للوراء، مفسحة له مجالًا للمناورة بينما تراجعت نحو جانب الشارع. بطرف عينها، رأت أضواء تومض في النوافذ العلوية وستائر تُزاح قليلًا. للحظة ظنت أنها رأت شيئًا يتحرك أعلى خط السقف المقابل، لكنها لم تكن متأكدة، وكان الخطر على مستوى الشارع أكثر إلحاحًا. لحسن الحظ، كانت لديها ثقة مطلقة في قدرة كاي على التعامل مع ثلاثة من بلطجية الشوارع بمفرده. ربما لن يتصبب عرقًا حتى.

أخرج الرجل الذي أمامهما هراوة ثقيلة صغيرة من جيبه، ووزنها في يده بطريقة توحي بالخبرة. سادة مدربون من الشوارع إذن. أكثر قليلًا من مجرد مجندين من أقرب حانة.

التفتت إيرين لتنظر للرجلين المقتربين من الخلف. تحولت مشيتهما من السير السريع إلى الهرولة المسترخية. والآن بعد أن تمكنت من رؤيتهما بوضوح أكبر في ضوء المصابيح، كانت وجنتاهما كثيفتي الشعر، وحواجبهما الثقيلة تلتقي فوق أنفيهما، ولم تكن أظافرهما طبيعية بالمرة.

مستذئبون. لم تكن تتوقع مستذئبين.

لم تكن هناك قوانين فعلية ضد كون المرء مستذئبًا في هذا العالم البديل. ومع ذلك، ما لم يكن المرء يمتلك المال، فإنهم كانوا عالقين بصرامة في الطبقة الاجتماعية المكرسة للعمل اليدوي والبلطجة العرضية. مال المستذئبون للتجمع في مجموعات شبه عائلية ممتدة في المدن الكبيرة، شاغلين نوبات عمل كاملة في المصانع أو على الأرصفة البحرية، أو ببساطة إدارة عمليات الحماية والابتزاز. لم تحاول إيرين أبدًا معرفة ما يفعله المستذئبون في الريف. ربما يمارسون حياة صحية في الهواء الطلق، صائدين الأرانب فقط، لكن لسبب ما شكت في ذلك.

لحسن الحظ، كان نقل عدوى الاستذئاب يتطلب وقتًا طويلًا وجهدًا مليئًا باللعاب عند اكتمال القمر. لذا لم يكمن الخطر الفوري هناك. لكنهم كانوا أصلب من البشر العاديين، ويصعب إبطاؤهم في القتال — إلا إذا كنت مستعدًا لإحداث ضرر جسيم.

دمدم الرجل الأول — أو المستذئب بالأحرى:

— "سنأخذ تلك الحقيبة التي مررتها لآنستك الشابة هناك."

لعق شفتيه. كان لسانه أطول قليلًا مما يبعث على الارتياح.

— "ثم ستوصل رسالة صغيرة لمن وظفك، إذا كنت تفهم ما أعنيه."

قال كاي، وهو يزحلق قدمه اليمنى للأمام فيما ميزته إيرين بشكل غامض كوقفة فنون قتالية نادرة:

— "لا أنصح بهذا. إذا تفضلتم أيها السادة بإخباري ببساطة من استأجركم —"

اندفع الاثنان خلفه فجأة للأمام، محاولين الإمساك بذراعي كاي. لكن كاي كان قد توقع هذا بوضوح. مد يده بسلاسة للخلف ليمسك بمعصميهما، ثم أرجحهما بعنف للأمام مستغلًا زخم حركتهما. ثم، حين



جذبهما للخلف مرة أخرى، كاد كلاهما يسقط. شتم أحدهما. وصمت الآخر، لكنه لعق شفتيه ببريق خبيث في عينيه.

قال الرجل الأول:

— "أوه، لدينا مهاجم ذكي هنا. حاصروه يا شباب. لنظهر له بعض الاحترام."

وبينما كان يتحدث، انزاح ليمينه، وأحدث حذاؤه صوت كشط على الرصيف، لكنه لم يتحرك بعد نحو كاي.

قال كاي:

— "لا أزال أود معرفة من أرسلكم أيها السادة."

ظلت وقفته مرنة ومسترخية. لم يرفع عينيه عن قائد الثلاثة، لكن إيرين كانت واثقة من أنه يراقب الآخرين أيضًا. كان من السهل أحيانًا نسيان أنه أمضى فترة كشبه مجرم في عالم «سايبربانك» عالي التقنية. ربما اعتاد هذا النوع من المواجهات. بل قد يشعر بالحنين لذلك.

زمجر الذي على يسار كاي:

— "أراهن أنك تود ذلك."

تسلل مبتعدًا في محيط الدائرة، أقرب للمكان الذي تقف فيه إيرين بجوار الجدار، محاولًا الالتفاف خلف كاي.

— "مؤسف أن كل ما ستتمكن من إخبارهم به هو —"

تحرك كاي في لحظة تشتته، مستديرًا ليأخذ خطوة مزدوجة سريعة نحوه. انزلقت قبضته المضمومة في لكمة مستقيمة لبطن الرجل، فتأوه الرجل وترنح. فتح كاي يده ليضرب ببطن كفه جانب عنق الرجل، ووجهه مركز، مهتم فقط بالشكل الصحيح للضربة. ترنح الرجل للخلف بقوة الصدمة، وتطاير اللعاب من فمه المفتوح. تنفس المستذئب بصعوبة،

وتهالك على ركبتيه، وقبضتاه المشعرتان تضربان الرصيف، وعيناه زائغتان وهو يصارع للبقاء واعيًا.

اندفع الآخران نحو كاي، وكلاهما يزمجر في عمق حلقه، أحدهما يحاول الاقتراب لإبقائه مشغولًا بينما يستخدم الأول هراوته. تحول الأمر كله إلى عراك وتبادل سريع للضربات. قطبت إيرين حاجبيها وهي ترى كاي يهبط على ركبة واحدة، وخطت للأمام للمساعدة. لكن البلطجي الأول نهض مترنحًا وحاول الإمساك بها، وأصابعه المشعرة ذات الأظافر الطويلة تحيط بذراعها.

بدأ يقول:

– "والآن، فقط اصرخي بصوت عالٍ وجميل حتى يسمعك السيد..."

نظرت إيرين لأسفل قدميه بسرعة. حذاء برقبة. حذاء بأربطة طويلة وثقيلة. هذا سيفي بالغرض.

قالت وهي تشعر بثقل «اللغة» في حلقها:

– "**ربــاطا حذائـــك معقـــودان ببعضـــــــهما**."

كانت أمينة مكتبة. وفي لحظات كهذه، كانت هذه الحقيقة مفيدة للغاية. العالم يسمع كلماتها ويغير نفسه استجابة لها. كان بإمكانها غلي النبيذ، فتح الأبواب، إسقاط المناطيد، بعث الحياة في الحيوانات المحنطة – وأشياء أسوأ بكثير. أو في هذه الحالة، ربط شريطي حذاء ببعضهما.

سأل البلطجي بذهول متوقع:

– "ماذا؟"

جذبت ذراعه وسحبتها بقوة. لكن البلطجي، بابتسامة متغطرسة خبيثة، حافظ على قبضته عليها واقترب أكثر – قبل أن يسقط مسطحًا على وجهه. لقد ربطت أربطة حذائه نفسها ببعضها بالفعل.

ضربت إيرين يده بكفها بكفاءة بينما كان يسقط، محررة نفسها. لم تكن لتصبح عميلة ميدانية فعالة إذا لم تستطع التعامل مع نفسها في قتال. كان البلطجي في تلك الأثناء يتخبط بجموح على الأرض، لذا ركلته إيرين بقوة في كليتيه. وعندما فعلتها مرة ثانية، توقف عن الحركة مفضلًا التقاط أنفاسه.

واحد أقل ليطاردنا عندما نهرب، فكرت بعبوس.

خفتت أصوات القتال خلفها وهي تنظر نحو كاي. كان ينفض الغبار عن أكمام معطفه بطريقة غير ضرورية، والبلطجيان الآخران المأجوران مكومين على الأرض بجانبه. أحدهما ذراعه ملتوية بزاوية غير طبيعية، والآخر مصاب بنزيف في الأنف. توقفت الستائر في النوافذ المطلة على الشارع عن الاهتزاز، واختفى الظل العابر من على أسطح المنازل. لابد أن ميلانكورت قرر تقليل خسائره.

اقترحت إيرين:

— "ربما يكون السيد صاحب الهراوة لطيفًا بما يكفي ليقدم بعض التفسيرات."

انحنى كاي، وسحب المستذئب الأول ليقفه، وأسنده على الحائط. كانت أظافر المستذئب قد انحسرت، وعاد شعر وجهه لمستوى رجل طبيعي لم يحلق ذقنه منذ فترة طويلة.

قال كاي:

— "والآن بعد أن انتهينا من المقدمات، هل يمكننا مناقشة الأمر؟"

أصدر البلطجي نخرة سعال. حرك يده بحذر نحو وجهه، وعندما اتضح أن كاي لن يحاول منعه، مسح الدم واللعاب.

– "يجب أن أقول، أنت أكثر قليلًا مما كنت أتوقع يا سيدي،" تمتم بصوت خافت. "حسنًا. طالما أننا متفاهمون على أنه لن تكون هناك شكاوى رسمية وما شابه؟"

طمأنه كاي:

– "مسألة شخصية بحتة. والآن، ربما تجيب على سؤال صديقتي. من أنتم؟ ومن أرسلكم؟"

قال المستذئب:

– "سأكون صادقًا معك يا سيدي."

تحسس كتفه وتألم.

– "يا إلهي، ركلتك قوية حقًا. قابلنا هذه المرأة في حانة «أولد سوان»، وهي حانة على بعد ثلاثة شوارع. قالت إنك ستأتي من هذا الطريق مع صديقة، وأعطتنا وصفك. أخبرتنا أنها تريد حقيبتك، وأن نوصل لك تحذيرًا بالبقاء بعيدًا عن شؤون الآخرين. لكنها لم ترد أيًا منكما ميتًا. كان علينا الاحتفاظ بالحقيبة وهي ستتصل بنا."

أومأت إيرين.

– "هل يمكنك إخباري بأي شيء عن المرأة التي استأجرتكم؟"

هز كتفيه، ثم تألم مرة أخرى.

– "سيدة محترمة، محفظتها ممتلئة، لكنها ليست صيدًا سهلًا لأي أحد. كانت تحمل مظلة وتخفي سكينًا في كمها. معطف سهرة، وقبعة وقفازات، لا شيء لافت للنظر، لكنه من الطراز الرفيع. دبوس وشاحها بدا ذهبيًا، لكني لم أتمكن من فعل أكثر من النظر. كان معها رجل يحرس ظهرها، لكنها كانت هي المسيطرة. شعر داكن تحت القبعة، وعينان داكنتان. لا أحد أعرفه."

سأل كاي بلا مبالاة:

– "هل كانت أجنبية؟"

كان سؤاله أقل تحديداً بقليل من: هل يمكن أن تكون من سفارة ليختنشتاين، وكر «الفاي» المحلي ومسكن اللورد سيلفر بالتحديد، الذي لديه عداء مستمر مع فيل؟ لكن الفكرة كانت موجودة.

هز الرجل رأسه.

– "إذا كانت كذلك، فلم يكن الأمر واضحًا. بدت طبيعية بما يكفي. لهجة راقية، مثلكما."

سألت إيرين وهي تتمسك بأي خيط:

– "ولا شيء لا ينسى بشأن الرجل؟ أو بشأن دبوس وشاحها؟"

قال البلطجي:

– "حسنًا، سأعرفه إذا رأيته ثانية يا آنسة. لكنني لست السيد فيل خاصتكم، أليس كذلك؟ لا أستطيع إلقاء نظرة واحدة عليه وأخبركِ من أين..."

خفف من حدة لغته بشكل واضح وتابع:

– "من أين أتى الطين العالق بحذائه. ودبوس وشاحها كان مجرد يدين تصافحان بعضهما – لا شيء مميز."

كان هذا سهلًا للغاية. التفتت إيرين لـ كاي.

– "إنه لا يخبرنا بكل شيء. اجعله يتكلم."

تقدم كاي للأمام، فتراجع المستذئب خائفًا.

– "انتظر! قلت إنك لن تؤذيني!"

ركزت إيرين. يمكن استخدام «اللغة» لتعديل إدراك الشخص. لا يدوم الأمر طويلًا، لكنه قد يكون فعالًا للغاية في الوقت والمكان المناسبين. خاطبت المستذئب:

– "في الواقع، هو لم يقل ذلك أبدًا. أنت تدرك أن صديقي شخص مرعب حقًا ومستعد لفعل أي شيء ليجعلك تخبرنا بالحقيقة."

كان العبث بعقول الناس يقع في الجانب المشكوك فيه أخلاقيًا، لكن إيرين طمأنت نفسها بأن ذلك أفضل من استخدام العنف لاستخراج المعلومات منه.

انهار الرجل قبل أن يصله كاي، منكمشًا وكاشفًا عن عنقه.

– "حسنًا، حسنًا!" قال مهلوسًا. "لقد تبعناها للخارج، أليس كذلك؟ ورأيناها تستقل عربة أجرة خاصة إلى سفارة ليختنشتاين لتقابل زوجها... هذا ما قالته للسائق. وهو خاطبها بلقب «سيدتي»!"

الآن، كان هذا مفيدًا أكثر. ورغم أن المرأة لم تكن بالضرورة من النبلاء، إلا أنه لا يمكن أن يكون هناك الكثير من النساء في السفارة ممن يستحقون صيغة الخطاب تلك.

سألت إيرين:

– "لكن هل أنت متأكد أن ذلك كان حقيقيًا، وليس مجرد خداع لكم؟"

رغم وضعه، بدا المستذئب فخورًا بنفسه.

– "لا، كان حقيقيًا، وأتعلمين لماذا؟ لأن الرجل الذي كان يقود العربة، صديقي جورج يعرفه. إنه سائق منتظم بالسفارة. حتى لو أرادت هي خداعنا، فالسائق كان حقيقيًا."

قالت إيرين بحزم:

— "اسمه."

تردد المستذئب، ونظر لـ كاي مرة أخرى، ثم استسلم. تمتم قائلًا:

— "فلاد بيتروف. لا أعرف أكثر من ذلك."

بدا ذلك صادقًا بما يكفي. والآن أصبح لديهم اسم للعمل عليه. قالت إيرين لـ كاي:

— "أعتقد أن هذا السيد قد أخبرنا بكل ما يستطيع."

التفت كاي عائدًا للبلطجي.

— "أتفق معكِ. لكن دعنا لا نلتقي مرة أخرى، همم؟"

وافق البلطجي بحماس:

— "كما تقول يا سيدي. الكلام القليل يصلح العليل، كما كانت أمي العجوز تقول دائمًا."

لم يكلف كاي نفسه عناء السؤال عما كان يفترض أن يعنيه ذلك. تراجع للخلف، وقال:

— "تصبحون على خير."

قدم ذراعه لـ إيرين، وتمشيا بعيدًا معًا. لم يتبعهما أحد.

انعطفا عند الزاوية. قال كاي بهدوء:

— "ما رأيكِ؟"

أجابت إيرين:

— "نوعيات رديئة جدًا."

راقبت كاي يومئ موافقًا، وتابعت:

— "وإهمال ممن استأجرهم. لقد كانوا محظوظين لأن موظفيهم الجدد لم يهاجموا الأشخاص الخطأ. وكل تلك المسألة المتعلقة بالحقيبة و«لا تتصل بي؛ سأتصل بك». هي حقًا لم ترد لهم التواصل معها."

أومأ كاي مجددًا.

— "لكن لا أستطيع تخيل أن يكون سيلفر هو الفاعل. البلطجية ليسوا أسلوبه حقًا. حتى لو كان مهتمًا بكتاب ستوكر. سيدتنا الغامضة من «الفاي» عرفت أننا سنأتي من المزاد، ومعنا الحقيبة — لذا فمن المؤكد أنها جاءت من هناك بنفسها. ربما كانت راعية ميلانكورت."

اضطرت إيرين للموافقة على الجزء الأول من حديثه. سيلفر — أو اللورد سيلفر، إن كان لا بد — كان من المرجح أكثر أن يرتب لمبارزين بالسياط وسيوف الشيش، أو يرسل قتلة ليهبطوا على منزلهم في منتصف الليل، إذا شعر حقًا بالحاجة للتعبير عن نفسه بتلك الطريقة.

قالت:

— "كونها من «الفاي» أمر منطقي. لكن التوقيت غير مضبوط. لست واثقة من أن شخصًا ما كان بإمكانه التواجد في المزاد، والمغادرة في نفس وقتنا، والتمكن من استئجار هؤلاء المستذئبين لمهاجمتنا."

قطب كاي مفكرًا:

— "كان بإمكانها المغادرة مبكرًا ثم استئجار المستذئبين لاعتراضنا — في حال حصلنا على الكتاب."

— "صحيح."

كانا قد وصلا تقريبًا لشارع «أكسفورد» الآن.

— "لكنه يبدو أمرًا عشوائيًا بعض الشيء، وطريقة مهملة للغاية في إدارة الأمور."

قال كاي بلطف:

— "أعرف أنكِ كنتِ لتفعلي أفضل من ذلك، لو كنتِ أنتِ."

رمقته إيرين بنظرة جانبية.

أضاف بسرعة:

— "أعني من حيث العملية المخطط لها. شيء جيد التنظيم وفعال، دون الوثوق بأول رعاع تصادفينهم للقيام بعمل جيد أو أن يتم التفوق عليهم تمامًا. كان ذلك إطراءً يا إيرين. حقًا."

رغم ذلك، لم يستطع إخفاء ابتسامته المتكلفة تمامًا.

قالت إيرين بحزم:

— "التخطيط الآن يوفر المتاعب لاحقًا. وكان هناك شخص يراقب من الأسطح. شخص ذو كفاءة أفضل قليلًا من هؤلاء الرجال. لم أستطع الحصول على رؤية جيدة له — أو لها."

أضافت بتفكير:

— "هل يمكن أن يكون مجرد لص؟"

عدلت إيرين حجابها وقالت:

— "قد يكون كذلك. لكن ماذا لو كان هو الشخص المكلف باستعادة الحقيبة، بمجرد أن ينتزعها المستذئبون منا؟"

— "أوه، هذا منطقي. من المؤسف أننا لم نستطع استجواب المراقب إذن."

قالت إيرين:

— "لقد رحلوا بحلول الوقت الذي أسقطت فيه الرجال. يبدو كما لو أن تلك السيدة وعملاءها أرادوا حقًا إخفاء أثرهم."

قال كاي برضا:

– "لكنهم فشلوا. لدينا اسم."

خرجا إلى شارع «أكسفورد»، ورفعت إيرين يدها لتشير لسيارة أجرة.

– "الجميع يواجه سوء الحظ أحياناً. مهما كانت الخطة جيدة."

لكنها لم تستطع التخلص من الشعور بأنها وكاي ربما كانا محظوظين أكثر قليلاً من اللازم الليلة.

الفصل الثاني

في الصباح التالي، أمضت إيرين جزءًا من وقتها وهي تمتدح هذه الحضارة على اختراعها «دُش» الاستحمام. وإن كانت هذه الحقبة تشبه في جوانب كثيرة ما يُعرف بـ «العصر الفيكتوري[4]» في عوالم بديلة عديدة (بما فيها من دخان، وعربات تجرها الخيول، وأخرى تعمل بـ «الأثير»، مع غياب وسائل الاتصال الفورية)، إلا أنها تفوقت في الأساسيات؛ فقد تمتعت بصرف صحي جيد – إذا استثنينا الدخان – ومياه نظيفة كافية، ووفرة في الشاي والقهوة. لذا، كان عليها أن تتحمل وجود المناطيد، والمستذئبين، ومصاصي الدماء، فضلًا عن غياب الهواتف (التي يتلبس مستخدميها الشياطين باستمرار). لكن الأمر قد يكون أسوأ؛ فعلى الأقل، تكفل الدخان بقتل معظم البعوض.

وبينما كانت تحت الماء، انشغل عقلها بالتفكير. كان لزامًا عليها إيصال كتاب ستوكر إلى «المكتبة» – وكلما أسرعت كان أفضل، قبل أن تقع محاولة سرقة أخرى. لكنها وكاي بحاجة أيضًا للتحقيق بشأن تلك المرأة. وسيكون فيل مفيدًا للغاية في هذا الصدد؛ فلا يكاد عصفور يُطعن في ظهره دون أن يسمع المحقق بذلك. وإذا ما حاولت هي أو كاي التشمم حول سفارة ليختنشتاين (التي تُعد ملاذًا لـ «الفاي» في هذا العالم)، فقد ينبهان طريدتهما إلى أنهما يعرفان مكان العثور عليها.

---

[4] العصر الفيكتوري: الفترة التاريخية التي امتدّت من تولّي الملكة فيكتوريا عرش بريطانيا عام ١٨٣٧م حتى وفاتها عام ١٩٠١م.

كان كاي منكبًّا على مكتبه في غرفة دراستهما المشتركة، وقلم الحبر يصدر صريرًا وهو يخط به قائمة بأسماء باعة الكتب. أومأ لها محييًا بأدب، لكن انتباهه كان مشتتًا بوضوح. ألقى مصباح الطاولة بضوئه الساطع وهجًا حادًا على جانب وجهه، مانحًا شعره الأسود لمعانًا إضافيًا.

ذكرت إيرين نفسها بأن السكن معًا كان فكرة سديدة؛ فهذا يعني قدرتها على إبقاء عينها على كاي. فبعد وقوعهما في مشاكل مع الخائن ألبريتش و«فاي» لندن، عبر سيلفر، لم ترغب في المخاطرة بأي شيء. كما أن كون المرء صديقًا لـ فيل هو مخاطرة بحد ذاتها — خاصة حين يتبادلان المساعدة في قضاياهما. هي وكاي بالغان، ويمكنهما مشاركة السكن دون الحاجة إلى «التورط» عاطفيًا.

لكن التنانين، حين تتخذ هيئة بشرية، تختار — فيما يبدو — هيئات شديدة الوسامة بصورة لا تُصدق. كان لـ كاي شعر أسود ناعم تتخلله لمعات زرقاء، وبشرة شاحبة كالرخام، وعينان داكنتان عميقتان، وعظام وجنتين تغري باللمس. كان يتحرك كراقص، بجسد يليق بذلك الوصف؛ ذلك النوع الدرامي من الراقصين الذي قد يلف بكِ حول حلبة الرقص قبل أن يحني خصرك ويضغط جسده ضدك، ومن ثم...

ذكرت إيرين نفسها بحزم: هو أيضًا تلميذك، ومتدربك، ومسؤوليتك. لم تكن المسألة تتعلق بمدى استعداده — رغم أنه ألمح بقوة إلى ذلك، وظل يلمح — أو بمدى استعدادها هي. المسألة تكمن فيما إذا كانت تملك الحق في استغلال عرضه. وفي الوقت الراهن، كانت راضية بوجوده كصديق وزميل، وممتنة لذلك.

فكرت باستياء: المسؤولية عبء ثقيل حقًا.

سألته:

— "هل أنت جاهز؟"

تلاعب كاي بقلمه قليلًا قبل أن يقول أخيرًا:

— "كنت فقط... وصلتني رسالة."

— "ممن؟"

من الواضح أن هذا الأمر سيستغرق بضع دقائق لتسويته. جلست إيرين قبالته، مسندة مرفقيها على الطاولة. برزت ندوب الشفاء القديمة على يديها من أشهر مضت بوضوح ضد بشرتها، مشكلة نمطًا متقاطعًا عبر راحة يدها وأصابعها.

التقط كاي لفافة من تحت كومة من الأوراق الأخرى. كان ختم الشمع عليها مكسورًا، والشريط مفكوكًا. ميزت إيرين ما بدا وكأنه حروف صينية بالحبر الأسود، ومذيلة بتوقيع أحمر.

قال:

— "من عمي. عمي الأكبر، الأخ الذي يلي والدي مباشرة في العمر. يطلب حضوري في مراسم عائلية بعد بضعة أشهر."

قالت إيرين فورًا:

— "حسنًا، يجب عليك الذهاب بالطبع. يمكنني تدبر أمري دونك لبضعة أيام. أو أسابيع — كم مدة الاحتفال؟"

كانت تعرف القليل جدًا عن التنانين، رغم مشاركتها السكن مع أحدهم، وربما يعتقدون أن الاحتفال العائلي الجيد يستمر لعدة سنوات.

قال كاي دون أي حماس حقيقي:

— "ربما أسبوعان."

حاولت إيرين تخيل المشكلة.

— "هل تشعر بالحرج من منصبك الحالي؟"

جاء رد كاي سريعًا بشكل يبعث على الرضا:

– "لا! لا، لم أكن لأفعل ذلك دون إذن عمي على أية حال."

– "إذن هو يعرف؟"

أوضح كاي:

– "لا، هذا عم مختلف. والدي لديه ثلاثة إخوة. الأصغر كان وصيي عندما بدأت العمل مع «المكتبة». هذا أخ أكبر، الثاني في ترتيب العائلة. لذا من الطبيعي أن أدين له بالولاء ويجب أن أحضر."

سجلت إيرين ملاحظة ذهنية بأن هذه المحادثة إذا طالت أكثر، فستضطر لطلب الأسماء ورسم شجرة العائلة.

– "لا أرى أين المشكلة إذن."

تململ كاي قليلًا في كرسيه.

– "فقط لم أتوقع أن يكونوا قادرين على الاتصال بي هنا. أي دعوات كان يجب أن تذهب لوصيي السابق، وبالطبع أنا أتحدث معه كل بضع سنوات. لكن أن تصل هكذا –"

قاطعته إيرين قبل أن يحوم حول الموضوع أكثر:

– "كيف وصلت؟"

– "عبر مرسال خاص."

فكرت إيرين في الأمر. من ناحية، يعني هذا أن تنينًا ما هناك يعرف عنوان كاي البريدي، وبالتالي عنوانها ضمنيًا. ومن ناحية أخرى، هل هذا بالضرورة أمر سيئ؟

قالت:

– "لا أزال لا أفهم سبب اعتراضك. لو انتظرت حتى تتحدث معهم المرة القادمة، لفاتتك هذه المناسبة العائلية."

– "أنتِ لا تفهمين!"

أوه، ربما وصلنا لجوهر الأمر الآن. بدا الأمر وكأنه نحيب أمير مراهق، أو على الأقل أمير يدرس في الجامعة – بعيدًا عن عائلته ويستمتع بحرية لم يعهدها من قبل. ربما بالنسبة لصغار التنانين، يعتبر قضاء بضع سنوات في استكشاف عوالم بديلة مثل عطلة نهاية الأسبوع للطالب في بلد أجنبي – وإن كان ربما يتضمن شربًا أقل.

تابع قائلًا:

– "إنهم يعرفون مكاني. قد يأتون للزيارة في أي وقت. وربما حتى لا يرضون عما كنت أفعله."

– "انتظر. لقد قلت للتو إنك لست محرجًا من وظيفتك. والآن تقول إنهم قد لا يرضون. هل السبب هو أنشطتنا الأخيرة؟"

مثل الذهاب لمزادات إجرامية، أو التسلل لأديرة محاكم التفتيش تحت «وينشستر»، أو تلك المرة التي اضطرا فيها لخداع أمير حرب كازاخستاني زائر باستخدام أدب رحلات طريق الحرير...

اعترف كاي بتردد:

– "من المحتمل ألا يفهم أعمامي التعقيدات الكاملة للعمل مع «المكتبة». أعتقد أنهم يظنونها مجرد وظيفة للبحث عن الكتب وشرائها."

رغبت إيرين في الشتم بسبب إضاعة الوقت. كان عليهما الانطلاق لرؤية فيل بخصوص المرأة، أو الذهاب لـ «المكتبة» لتسليم كتاب ستوكر. الاضطرار لإقناع كاي بالاعتراف بمشاكله العائلية كان أشبه بخلع ضرس أثناء الوقوف أمام قطار قادم. وإن كان بصراخ أقل، للامانة.

سألته:

– "حين تم تجنيدك لـ «المكتبة»، ألم تكن تتسكع مع المجرمين وقطاع الطرق في الشوارع؟ ألم يكن عمك يعرف بشأن ذلك؟"

تصلب ظهر كاي تمامًا، وظهر تورد عالٍ على وجنتيه.

– "إيرين، لو لم تكوني رئيستي في العمل، لندمتِ على قول ذلك!"

قالت إيرين بذهول، لكن بإعجاب بقواعده النحوية الدقيقة حتى تحت الضغط:

– "لكنك كنت تتسكع مع المجرمين وقطاع الطرق."

كان هذا نوع الأشياء التي يتعين عليك تعلمها حين تكون شابًا وسريع التأثر.

قال كاي ممتعضًا:

– "قد يكون ذلك صحيحًا. لكنه كان دون علم وصيي. هو يترفع عن مثل هذه الأمور."

فركت إيرين جبهتها بسخط.

– "لكنك كنت تقيم معه..."

خفت غضبه قليلًا وهو يقول:

– "لقد شجعني على تذوق الفن والأدب المحلي. حقيقة أنني تورطت مع المجرمين المحليين كانت مسألة جانبية تمامًا."

رفع ذلك من رصيد التنانين في النفاق بضعة آلاف من النقاط في ذهن إيرين. أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

– "نحن نبتعد عن صلب الموضوع. كاي، ستحضر ذلك التجمع العائلي. سيكون من الوقاحة ألا تفعل، وقد يشكون في أنني أعلمك سوء الأدب ويقررون نقلك."

رأت وجهه يتقلص؛ لم تخطر تلك الفكرة بباله.

تنهد كاي.

– "تتحدثين مثل كبار السن في عائلتي."

قالت إيرين:

— "أنا على الأرجح كذلك."

لقد عاشت أكثر من خمسة وعشرين عامًا خارج «المكتبة»، في عوالم بديلة حيث تتقدم في العمر بشكل طبيعي. لكن ما لا يقل عن اثني عشر عامًا أخرى قضتها داخل «المكتبة» على فترات متقطعة، وحيث لا يشيخ الناس داخل جدرانها.

— "حتى وإن كنتَ تنينًا."

سأل كاي عائدًا للنقطة الأساسية كقطة بلعبتها المفضلة:

— "لكن كيف تفترضين أنهم وجدوني هنا؟"

— "كتخمين عشوائي، مشرفتي كوبيليا مررت خبرًا لقومك، كي لا يقلقوا عليك."

نهضت إيرين وبدأت تبحث عن معطفها. لم تكن متحمسة لاحتمالية ظهور عائلة كاي على عتبة بابها، لكنها تفهمت الضرورة السياسية للقدرة على تبرير مكان وجوده.

— "لن تواجه أي مشاكل في الوصول لعمك حين تزوره، أليس كذلك؟"

هز كاي كتفه بلامبالاة متعمدة.

— "إيرين، أنا تنين. لا أحتاج لـ «المكتبة» للسفر بين العوالم. يمكنني فعل ذلك بسهولة تامة بنفسي."

كان عليها أن تمنحه تلك اللحظة من الغرور؛ فهي مبررة تمامًا. أمناء المكتبات يحتاجون لأدوات وبروتوكولات؛ لم يكن بوسعها ببساطة التنزه من عالم لآخر كما يفعل كاي.

سألت محاولة ألا تبدو غيورة:

— "هل تستطيع كل التنانين فعل ذلك؟"

— "الملكيون فقط. التنانين الأقل شأنًا يمكنهم القيام برحلات أصغر — الأمر لا يُترجم حقًا لمصطلحات مادية." أضاف بسرعة حين رفعت يدها لتسأل عما يعنيه برحلات أصغر: "أو يمكنهم اللحاق بركب تنين ملكي، إذا كان هو من يقود الطريق."

— "فهمت."

وجدت معطفها وبدأت تزرره.

— "الآن يجب أن نتحرك. الساعة تقترب من العاشرة."

تردد كاي:

— "إيرين..."

توقفت.

— "أنتِ لا تريدين التخلص مني، أليس كذلك؟"

حدقت فيه لثانية بذهول.

— "ماذا؟"

— "أنتِ ترسلينني لعائلتي. تعاملينني كأي متدرب آخر. لا يبدو أنك تكترثين لاحتمال أن يأمروني بالمغادرة. أنتِ لا..."

نظر إليها، ووجهه مليء بالشوق وعدم اليقين.

— "إذا كنتِ تريدين مني الذهاب، فسأذهب، لكن..."

لم يكن هذا نوعًا من الابتزاز العاطفي. كان صادقًا ونزيهًا، وجعل قلبها ينقبض في صدرها. تنهدت ومشت حول المكتب — لم تكن رشيقة مثله، ولا أنيقة، مجرد بشرية فانية — لتمسك يديه. كانت يداه نحيفتين وساخنتين في قبضتها، والتفت أصابعه الطويلة حول أصابعها.

— "كاي، ألا تفهم أنني أقول كل هذا لأنني لا أريد خسارتك؟ أنت صديقي. أنت الشخص الذي أثق به ليحمي ظهري، ليقاتل المستذئبين

لأجلي. ليدليني من المناطيد. ليقف متأهبًا بمطرقة حين أطعن مصاصي الدماء بالأوتاد. لا أعرف ما الذي قد يجعل عائلتك تأخذك بعيدًا. لا أريد أن أمنحهم عذرًا."

نهض واقفًا ونظر لوجهها، ضاغطًا بقوة على يديها.

– "هل تعنين ذلك؟ هل تعدينني بأنك تعنين ذلك؟"

سيكون من السهل جدًا قول نعم والتخلي عن المنطق السليم، ورفع يديها إلى كتفيه وضمه إليها. لقد أمضت شهورًا تحاول تجنب هذا النوع من الأفكار، وهذا النوع من المواقف.

قالت:

– "أعطيك كلمتي بأنني لا أريد خسارتك. أنت متدربي. أنت حليفي. أنت صديقي. ألا تصدقني؟"

نعم. وتوقف عن طلب المزيد، قبل أن أفعل شيئًا قد أندم عليه.

كان صوته أجشًا وهو يقول:

– "أريد ذلك. الأمر فقط هو أنني... إيرين، أنا خائف."

– "من حادثة السرقة بالإكراه؟ إذا كنت لا تشعر بالأمان –"

– "ليس ذلك!"

كاد أن يسخر من الفكرة، ما برد قليلًا من حرارة الموقف بينهما، كلمسة هواء منعش مفاجئة.

– "ليس من الخطر. ليس على نفسي. إنه... كل شيء."

تخلت عنه فصاحته ولباقته المعهودة.

– "أنت. فيل. «المكتبة». كل شيء. لم أعصِ والدي المبجل من قبل، لم أتحدَّ سلطَة من يكبرونني سنًا قط. ماذا سأفعل إذا أمروني بتركك؟"

ودّت إيرين لو تمنحه نوعًا من الطمأنينة، لكنها لم تملك أي إجابات سهلة. لم تملك حتى إجابات معقدة. لم يسعها سوى مبادلته ضغطة اليدين.

قالت بحزم:

— "سنعثر على حل. لابد من وجود طريقة. حتى لو اضطررت لسرقة نماذج شعرية من مائة عالم لإقناعهم بأنك في دورة دراسية عليا معتمدة. ستكون هناك طريقة."

لن تخسره.

تناهى إلى سمعها صوت تحطم قادم من الغرفة المجاورة، كصوت حصى يضرب زجاجًا. وفي اللحظة ذاتها، شعرت إيرين بضربة موجهة للحواجز السحرية التي وضعتها على مسكنهما؛ صفقة رعد في سمعها الميتافيزيقي. لم تكن قوية بما يكفي لإسقاط الحواجز، لكنها كانت ضربة حازمة ومدروسة، وليست دفقًا جاهلًا من القوة. وكانت بالتأكيد ملوثة بالفوضى. شخص ما يطرق، ويريد الدخول.

جاء الصوت من غرفة نوم كاي. ركضت عشرات الاحتمالات البغيضة عبر عقل إيرين، معظمها مرتبط بهجوم الليلة الماضية.

— "ماذا؟"

أفلتها كاي، وركض نحو الباب وفتحه بعنف.

— "من يجرؤ؟"

كانت غرفته مرتبة بشكل مفاجئ — خزانة ملابس ممتلئة، أرضية فارغة، طاولة صغيرة، ومذبح صغير مماثل مع لفة بخور. كانت النافذة المقوسة الكبيرة على الجانب الآخر من الغرفة سليمة، لكن شخصية درامية كانت تقف على الجانب الآخر منها، رافعة عصا لتقرع بها الزجاج.

كان عباءته وسترته ترفرفان في رياح لم تكن تهب بالتأكيد في وقت سابق، وشعره الفضي ينسدل شلالًا على كتفيه. وبريق وضاء يتلألأ في عينيه.

قالت إيرين بصبر عظيم:

— "كاي، لماذا يقف اللورد سيلفر على عتبة نافذتك؟"



الفصل الثالث

صاح سيلفر صارخًا:

– "افتحوا لي!"

ثم ضرب بعصاه على الزجاج الذي ارتد بالصوت نفسه الذي سمعاه سابقًا، دون أن يُخدش حتى. لحسن الحظ، كانت رغبة إيرين وكاي في جمع عدد حرج من الكتب تعني أن هذه الشقة قادرة على دعم تعويذات حماية على طراز «المكتبة». ومثل هذه الأشياء كانت بغيضة لـ «الـفاي». ورغم أن الحفاظ عليها تطلب من إيرين جهدًا منتظمًا، إلا أنها في لحظات كهذه كانت تستحق كل ذرة من العناء.

دفعت إيرين نفسها أمام كاي وقالت:

– "بالتأكيد لا! لورد سيلفر، كيف تجرؤ على التصرف بهذه الطريقة؟"

تشبث سيلفر بقوس النافذة بيد واحدة، وصوب رأس عصاه نحو إيرين. كان يرتدي حلة صباحية متقنة – بدلة وعباءة – وقبعته الطويلة مائلة بغرور، وبقيت بطريقة ما ثابتة على رأسه رغم وضعيته ونسيم الصباح.

– "هل ستخبرينني أنك لا تعرفين شيئًا عن الأمر؟"

راجعت إيرين ضميرها. كان نظيفًا نسبيًا. على الأقل، لم يذكرها بأي جرائم محددة فيما يتعلق بـ سيلفر.

– "شيئًا عن ماذا؟ ولماذا بحق السماء تقف على حافة النافذة وتصرخ عبر الزجاج؟"

أجاب سيلفر بنبرة توحي بأن الأمر أوضح من أن يُذكر:

– "لأنك لن تفتحي النافذة بالطبع. لقد جئت هنا لاستشارة خاصة بسيطة تمامًا، فوجدت مسكنكم موصدًا في وجهي. هل هو خطئي أنني اخترت الاقتراب بتكتم بدلًا من استخدام الباب الأمامي؟"

افترضت إيرين أن النافذة الخلفية في الطابق الأول أكثر تكتمًا من الباب الأمامي، لكن ليس بفارق كبير.

– "وما الذي تريد مناقشته معنا؟"

– "آه. أفهم من ذلك أنك لن تدعيني للدخول؟"

قالت إيرين وهي تنكز كاي قبل أن يتمكن من قول شيء أكثر حدة ولكنه سلبي بنفس القدر:

– "لا."

الوقت يمر. لم يكن لديها وقت لكل هذه الدراما الخاصة بـ «الفاي». لكن إذا كان بإمكان سيلفر الإجابة عن بعض الأسئلة حول أحداث الليلة الماضية، فسيكون من الغباء عدم سؤاله هنا والآن.

– "ما رأيك في أرض محايدة يا لورد سيلفر؟ هناك مقهى في آخر الشارع. سنقابلك هناك خلال خمس دقائق."

هز سيلفر كتفيه بلا مبالاة.

– "أجرؤ على القول إنه سيفي بالغرض. ما اسم المكان أيتها الفأرة الصغيرة؟"

تجاهلت إيرين وخزته الصغيرة وقالت:

– "«كورامز». بالقرب من مستشفى الأيتام. سننضم إليك هناك."

تجاوزت النقطة التي يمكنه فيها إغاظتها بسخريته. إذا كان يعتقد أن ذلك سيفقدها توازنها، فهو يضيع وقته.

أشار سيلفر بالموافقة، ثم قفز من حافة النافذة، وهبط بأناقة على الرصيف في الطابق الأسفل. تقدم خادم منتظر ليأخذ عصاه.

قالت إيرين:

— "فقط للتحقق، لم تكن تفعل أي شيء يجب أن أعرفه يا كاي؟"

لم تظن أنه فعل، لكن من الأفضل التحقق أولًا قبل البدء في تبادل اللوم.

وجد كاي معطفه وألقاه على كتفيه قائلًا:

— "لسوء الحظ لا. هل تظنين أن للأمر علاقة بالليلة الماضية؟"

— "يبدو ذلك مرجحًا، نظرًا لتوقيته. لنذهب ونكتشف الأمر."

كان التعامل مع «الفاي» دائمًا محفوفًا بالمشاكل. فرغم مظهرهم البشري، كانوا كيانات مدمرة للروح من خارج الزمان والمكان، يجلبون الفوضى للعوالم البديلة. إحدى طرقهم كانت تخريب حياة الناس العادية وسردياتهم، وجرهم إلى أنماط لا تنتهي من القصص. هذا يضعف الواقع والنظام الطبيعي للأشياء، حتى لا يعود السكان الأصليون يعرفون الحقيقة من الخيال. وعند تلك النقطة، يغرق العالم في بحر من الفوضى. وبشكل عملي أكثر، كانوا يحاولون باستمرار لعب دور البطل أو الشرير في سرديتهم الشخصية، ويصرون على أن تكون أنت شخصية في تلك القصة، رافضين التعامل معك بأي طريقة أخرى.

كان المقهى وكرًا للمتغطرسين، ولم يكن من الأماكن المفضلة لـ إيرين، مما جعله مثاليًا لمواجهة محتملة قد تنتهي بمنعها من دخوله للأبد، فلا تطأه قدمها مرة أخرى.

توقفت عربة تحمل شعار ليختنشتاين في الخارج، ومحركها يدور ويطلق ومضات عشوائية صغيرة من الأثير. جلس السائق في مكانه، محافظًا على اتزانه التام رغم الحرارة والدخان، لكن إيرين رأت عينيه تتابعانها هي وكاي وهما يقتربان من المقهى.

قالت إيرين:

— "كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. كان يمكن لـ سيلفر أن يصل بمنطاد خاص."

أومأ كاي.

— "أخبرني فيل أن لديهم طرازًا جديدًا. إنه أصغر حتى من طرازات الرجل الواحد التي تستخدمها المتاحف."

— "«لديهم» تعني ليختنشتاين؟"

أومأ كاي.

— "قال إن الجميع كانوا يزايدون عليها، وإن مستويات التجسس على هذه التكنولوجيا الجديدة قد بلغت عنان السماء."

تنهدت إيرين حين لم يضحك على تعليقها:

— "تمامًا مثل المناطيد؟"

ثم تمتمت:

— "الآن تذكر. كن مهذبًا. غير ملزم بشيء. لا تمنحه أي أعذار لافتعال المشاهد الدرامية."

قال كاي:

— "بالطبع."

انتصب بكامل قامته، وخطا خلف كتف إيرين، تاركًا لها قيادة الطريق للداخل.

تجمعت كل السيدات المترفهات في زاوية واحدة، ممسكات بأكواب القهوة تحت أنوفهن، يتهامسن فيما بينهن بفحيح نصف مذعور ونصف مفتون. كان انتباههن منصبًا بلا شك على سيلفر، المتكئ باسترخاء على طاولة شاغرة في الجانب الآخر من الغرفة. لم يكن ذلك مفاجئًا، نظرًا لسمعة سيلفر كواحد من أكبر المنحلات أخلاقيًا في لندن. وقف خادم نحيل وشاحب الوجه يرتدي الرمادي خلفه، حاملًا عصا سيلفر.

بدا سيلفر نفسه رثّاً بلا مبالاة، برابطة عنقه المعقودة عند حلقه، وشعره الفضي المنسدل، وبشرته المسمرة التي بدت ذهبية مقابل أكمامه وياقته البيضاء.

قال عند ملاحظته دخول إيرين:

— "آه. تفضلا بالانضمام إلي."

تلت كلماته موجة أخرى من الهمس من النساء في الجانب الآخر من المقهى. جلس الاثنان بينما تبادل كاي وسيلفر نظرات حذرة.

اقترح سيلفر:

— "قهوة؟ أنصح بنصف فنجان من مزيج البوربون."

بدا كاي مستعداً للرفض فورًا، من حيث المبدأ، حتى ألقى نظرة على القائمة.

— "بالطبع،" قال بابتسامة باهتة.

نظرت إيرين للقائمة خلسة. كانت أغلى علامة تجارية للقهوة مدرجة.

بدأ سيلفر:

— "على حسابي بالطبع."

قالت إيرين قبل أن يتمكن كاي من التصرف بقلة دبلوماسية:

– "أرجوك يا لورد سيلفر. لا نود أن نضع أنفسنا تحت أي التزام تجاهك."

فمثل هذه الأمور لها وزن عند «الـفاي».

هز سيلفر كتفيه.

– "لا يمكنكم لومي على المحاولة، رغم أنني أعطيكم كلمتي بأنه لن يترتب أي التزام على قهوتكم. ومع ذلك، أعتقد أن هذا الاجتماع سيخدم الغرض."

سأل كاي:

– "يخدم الغرض؟ أنت لم تقل حتى ما يدور حوله الأمر."

انحنى سيلفر للأمام، وبدا أن موقف الميلودراما اللامبالية ينزاح ويسقط عنه، تاركًا إياه جادًا تمامًا.

– "ولا أستطيع أن أقول. إذا سأل أي شخص، يمكنكم إخبارهم أن الأمر يتعلق بشيء يخص فيل. ليس لدي اعتراض على ربطكم لاسمه باسمي. لكنني هنا لمناقشة سلامتكم المستقبلية."

سخر كاي:

– "تهديدات؟"

تنهد سيلفر.

– "أوه، دعك من هذا. كان علي لفت انتباهكم بطريقة ما. لم أكن أحاول فعلًا اقتحام منزلكم."

قطبت إيرين حاجبيها.

– "لورد سيلفر، إذا لم يكن هذا تهديدًا، فما هو إذن؟ هل أنت هنا لتحذيرنا من شيء ما؟"

نظر سيلفر فوق كتفه.

— "جونسون، أحضر القهوة."

ثم عاد لـ إيرين.

— "لا، لا، بالطبع لا، نحن نجري مجرد محادثة صغيرة ممتعة. لأنني لو كنت هنا لتحذيركم من شيء، لكنت أحنث بقسم أقسمته بألا أحذركم من شيء. أثق أننا جميعًا واضحون تمامًا بشأن هذه النقطة؟"

تبادلت إيرين وكاي النظرات. قالت إيرين بسلاسة:

— "بالطبع. نحن فقط نشرب القهوة معًا."

قيل لها إن «الـفاي» ملزمون بالحفاظ على أيمانهم، لكنها لم تكن أبدًا في موقف تم فيه اختبار ذلك حقًا. إذا كان سيلفر صادقًا فعلًا هنا، فلديهم ما يقلقون بشأنه أكثر مما ظنوا.

قال سيلفر وقد بدا عليه الارتياح:

— "بالضبط. وأرجو ألا تظنوا أن جلسة شرب القهوة الصغيرة هذه نابعة من أي مودة فعلية تجاهكم، أيتها الفأرة الصغيرة. لقد اقتحمتِ حفلتي قبل بضعة أشهر، وانتزعتِ كتابًا من بين أصابعي، وفشلتِ تمامًا في ذكر أنكِ ممثلة لمكتبتكم تلك. أيّ دليل جيد للإتيكيت سيعطيكِ درجات سيئة في النقاط الثلاث."

رفعت إيرين حاجبيها.

— "كما أذكر، أنت دعوتني للحفل، والكتاب كان ملكية متنازع عليها في كل الأحوال."

تدخل كاي بغرور:

— "من يجد شيئًا فهو ملكه، أعتقد أن هذا هو المصطلح القانوني."

رمقه سيلفر بنظرة جانبية، والضوء ينعكس في عينيه الأرجوانيتين جاعلًا إياهما تلمعان.

– "شخص مثلك يجب أن يكون أكثر حذرًا. هذا المجال بالكاد هو الأكثر ضيافة لنوعك."

رفعت إيرين يدها قبل أن يتمكن كاي من الرد.

– "ظننت أننا لن نلجأ للتهديدات،" قالت ببرود.

تأملها سيلفر بينما وضع خادمه أكواب القهوة على الطاولة. قال أخيرًا:

– "من الصعب للغاية الإيحاء بأنكم قد تكونون في خطر شديد دون الوصول لدرجة «تحذيركم». أنا ببساطة أحتسي فنجان قهوة معكم، وأقترح أنكما قد ترغبان في توخي الحذر الشديد. لمَ لا تأخذان إجازة صغيرة إلى تلك المكتبة الخاصة بكم؟"

التراجع إلى «المكتبة» كان استجابة منطقية لخطر واضح. بالطبع، كل هذا يتوقف على كون سيلفر موثوقًا فعلًا، وهو أمر بعيد عن اليقين.

قالت إيرين وهي تلتقط فنجانها:

– "لورد سيلفر، أنت سفير ليختنشتاين، وحسب فهمي فهذا يجعلك واحدًا من أقوى أبناء جنسك في لندن. وربما حتى في إنجلترا."

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. سمعت قصصًا عن مخلوقات أخرى في براري الجزر البريطانية – «الصيد البري» (Wild Hunts)، ومحاكم الجنيات، وكل ذلك النوع من الأشياء – لكنه بدا وقتًا مناسبًا للإفراط في المديح.

– "لكن في الماضي كنا على طرفي نقيض. هل أصبحنا فجأة حلفاء ولم ألحظ ذلك؟"

كشر سيلفر عن أسنانه في ابتسامة لامعة.

– "كوني حليفًا قد تكون له مزاياه."

كانت أسنانه ناصعة البياض، مع لمحة من الحدة فيها. وجدت إيرين نفسها تتساءل كيف سيكون ملمسها على معصمها، ظهر يدها، جانب عنقها... سيكون لطيفًا، بالطبع؛ كانت تدرك من عينيه وابتسامته أنه سيكون لطيفًا، لكن في الوقت نفسه سيكون مسيطرًا، بتلك الأناقة السهلة للتحكم والمهارة و...

و... إنه يحاول إلقاء سحر «غلامور» (glamour) عليها. كان الـ «غلامور» أحد أكثر أدوات «الـفاي» ملاءمة، مزيج من الوهم والرغبة يتسلل بطريقة ما متجاوزًا كل الدفاعات الواعية، مثل أفضل أنواع الجنون. شعرت بحرقة عبر كتفيها حيث اشتعل وشم «المكتبة» على جلدها استجابة لذلك، فانتصبت في مقعدها مع نفخة صغيرة. أملت ألا تكون قد حدقت فيه كبلهاء فاغرة فاهها.

قال سيلفر وابتسامته تتسع:

— "يا لها من بشرة جميلة لديكِ، أيتها الفأرة الصغيرة."

رمقته إيرين بأكثر نظراتها برودة، مستحضرة ذكريات معلمات صارمات ومستقيمات بشكل خاص من المدرسة.

— "أكرر سؤالي. إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا ترغب في مساعدتنا؟"

لوح سيلفر بيده ذهابًا وإيابًا.

— "لنقل إنه قد لا يكون الأمر أنني أساعدكم بقدر ما أنني أعيق شخصًا آخر."

نظرت إيرين لـ كاي بطرف عينها. أعطاها إيماءة طفيفة جداً بالموافقة الحذرة. عادت بنظرها لـ سيلفر.

— "والذي لا يمكنك إخبارنا عنه، بالطبع."

قال سيلفر وهو يرتشف من قهوته:

– "بالضبط."

لابد من وجود طريقة يمكن لـ إيرين بها استغلال هذا الموقف. لكن «الـفاي» لا يمكن الوثوق بهم. كان ذلك مكتوبًا عمليًا في عقدهم الاجتماعي الضمني. إنهم يضعفون أي عالم يتجمعون فيه، ويزيدون من ميله نحو الفوضى، وكانت تتفق تمامًا مع كاي في ضرورة إيقافهم حيثما أمكن.

قالت ببرود قدر استطاعتها:

– "بشرتك جميلة جدًا أيضًا يا سيدي."

كانت بشرته مثالية، في الواقع، بذلك النوع من السمرة الذهبية المثالية التي تأتي مع توهج داخلي وشعور بالدفء يدعوك للميل ولمسه – تباً، إنه يحاول استخدام سحره عليها مرة أخرى. قررت الانتقال للهجوم.

– "أخبرني، هل اسم فلاد بيتروف يعني لك أي شيء؟"

– "فلاد بيتروف؟"

بدا سيلفر متحيرًا. مال للخلف ليهمهم لخادمه.

استغل كاي تشتت انتباهه ليهمس في أذن إيرين:

– "ألم يكن ذلك هو السائق الذي ذكروه الليلة الماضية؟"

أومأت إيرين ردًا بينما مال سيلفر للأمام مرة أخرى.

– "حسنًا، ليس لدي أي فكرة لماذا يجب أن أتذكر كل سائق في طاقم سفارتي. لا أرى سببًا لتوقعكم مني أن أكون على دراية بحقيقة تعيينه سائقًا لليدي جوانتيس أثناء إقامتها هنا، حتى لو كانت تحتكر شبكة مخبري السفارة. الله وحده يعلم ما كانت تفعله بهم. الضيوف يمكن أن يكونوا مزعجين جدًا، ويصعب رفضهم. بصدق، إذا كان هذا مثالًا على اهتماماتكم التافهة، فسأموت مللًا."

لكن كان هناك بريق في عينيه يوحي بأنها على الطريق الصحيح.

ليدي جوانتيس. والمرأة التي استأجرت أولئك البلطجية كانت «ليدي»... لكن هذا بالكاد يكفي للمضي قدمًا.

شيء آخر دغدغ مؤخرة عقل إيرين. «جوانتيس» (Guantes). قفازات. المرأة كانت ترتدي دبوس وشاح يظهر يدين... أو زوجًا من القفازات؟

إذا كان سيلفر موثوقًا، فقد أصبح لدى إيرين الآن اسم للتحقيق فيه. إذا. قد يكون كل هذا فخًا معقدًا لاستدراجهم إلى مصيدة أكبر. نخر الإحباط أحشاءها. ما كانت تحتاجه هو المزيد من المعلومات حول الليدي جوانتيس هذه.

قال سيلفر:

— "والآن، لنعد لموضوعنا السابق. ماذا تنوون أن تفعلوا؟"

أجابت إيرين فورًا:

— "طرح المزيد من الأسئلة. ما يعني أننا بحاجة للذهاب. سأتركك لقهوتك يا لورد سيلفر. بما أنك لم تحذرنا من أي شيء، فليس لدينا ما نشكرك عليه."

أومأ سيلفر.

— "في غضون ذلك، يمكنكم اعتبار هذه دعوة مفتوحة لسفارتي."

مد يده داخل معطفه وأخرج بطاقة، ونقرها عبر الطاولة نحو إيرين. انزلقت عبر سطح الطاولة اللامع، ودارت حول نفسها لتتوقف أمامها بالضبط.

كانت بطاقة كريمية ثقيلة مع بريق سري في كل حرف من الطباعة. على جانب واحد، سردت قائمة كاملة بألقاب سيلفر، بخط صغير جداً

لتسعها كلها. الجانب الآخر كان فارغًا، عدا خربشة تقول: *يُسمح بالدخول لحامل هذه البطاقة لمقابلتي فورًا* —— س.

سأل كاي وهو يقرأ من فوق كتف إيرين:

— "تظنين أننا سنحتاجها؟"

قال سيلفر وهو ينهض بلفة من عباءته:

— "أنا أخطط للأسوأ. بهذه الطريقة، على الأقل سأكون مرتديًا ما يليق بالمناسبة. جونسون! يجب ألا نجعل اللورد جوانتيس ينتظر. الفاتورة!"

تمتم جونسون:

— "مدفوعة بالفعل يا سيدي."

انحنى سيلفر لـ كاي. وانحنى لـ إيرين. كاد ينجح في الإمساك بمعصم إيرين وتقبيل يدها، لكنها تراجعت بنجاح، بينما حشرت بطاقة الزيارة في حقيبتها.

سأل كاي بينما كان سيلفر يغادر المكان:

— "ما رأيك في ذلك؟"

قالت إيرين:

— "أنه تركنا لندفع البقشيش للنادل. تصرف نموذجي."

— "لا، لا. غير ذلك. إنه ذاهب للتحدث مع اللورد جوانتيس؟"

قالت إيرين بعبوس:

— "نحن لا نعرف ما يكفي. وقد تأخرنا على أي حال. لنأمل ألا يكون ذلك هدفه في المقام الأول. كاي، سآخذ كتاب ستوكر إلى «المكتبة» وأقوم ببعض البحث عن الليدي جوانتيس. أو اللورد جوانتيس. إذا كانوا تهديدًا ملحوظًا لأمناء المكتبات، فقد يكون هناك شيء مسجل. أريدك أن تطلع

فيل على المستجدات، وتطرح الأسئلة، وتحصل على نصيحته. سأقابلك في مسكنه. لا ينبغي أن أتأخر."

وبحلول ذلك الوقت، يجب أن تعرف ما إذا كان التراجع إلى «المكتبة»، أو إجازة لقارة أخرى، هو الخيار الأفضل.

مد كاي يده ليلمس معصمها.

— "إيرين... كوني حذرة."

تمكنت من رسم ابتسامة ساخرة.

— "نعم، بالطبع. وأنت أيضًا. حتى لو لم نكن نرتدي ما يليق بالمناسبة."

الفصل الرابع

كان كاي لا يزال يخمّن احتمال خيانة سيلفر حين دفعته إيرين داخل عربة الأجرة. رسم صورة لفظية لكليهما وهما يُدفعان نحو جنون الارتياب، ثم يتحولان إلى قاتلين متسلسلين قبل أن ينحر أحدهما عنق من يحب بشكل مأساوي. دونت إيرين ملاحظة ذهنية لتعرف من أين يحصل كاي على حبكات «سويني تود[5]» هذه، وتصادرها منه.

صحيح تمامًا أن «الفاي» كانوا يحبون حياكة مؤامرات معقدة وميلودرامية، ويستمتعون بجر كل من بالجوار لأدوار في القصة. كانت إيرين قد حُذرت من ذلك، وتجنبت أكثر من واحدة من هذه الحبكات بنفسها في الماضي. وصحيح أيضًا أنه، بسبب وجود «الفاي»، كان لهذا العالم مستوى فوضى أعلى مما هو مريح، أو حتى آمن، نظرًا لاحتمالية تشويه الواقع. لقد انتشر فيه «الفاي» (كما قد يصفهم كاي) كانتشار الديدان في قبر معتق.

لكن هجوم الليلة الماضية كان حقيقيًا. وتحذير سيلفر بدا حقيقيًا أيضًا. كان من المطمئن معرفة أن كاي سيكون مع فيل بينما تكون إيرين نفسها في «المكتبة». كانت تثق بـ كاي؛ هي فقط لم تكن واثقة من أنه لن يفعل شيئًا شجاعًا لكن غبيًا.

لعدم قدرتها على التنزه بين العوالم كتنين، كان عليها استخدام مدخل مخصص لـ «المكتبة» لدخول قاعاتها. وكان «المعبر» الرئيسي الحالي من هذا العالم البديل إلى «المكتبة» يقع في المتحف البريطاني، فيما كان سابقًا

---

[5] سويني تود: شخصيةٌ أدبية/مسرحية بريطانية شهيرة

مكتب «أمين المكتبة المقيم». وبعد سلسلة من الأحداث المؤسفة، أصبح الآن غرفة صناديق، مما يعني أنها اضطرت للقيام برحلة خاصة للوصول إليه. والرحلات الخاصة يمكن تعقبها، لذا فقد حان الوقت لوسيلة نقل أكثر خطورة قليلًا.

كل ما يحتاجه أمين المكتبة حقًا للوصول لـ «المكتبة» هو مجموعة كبيرة بما يكفي من الكتب أو وسائط مشابهة. ولأغراض إيرين، احتاجت أيضًا مكانًا يمكنها فيه البقاء دون إزعاج لنصف ساعة أو أكثر. كانت مكتبة «مجلس الشيوخ» في شارع «ماليت» على مسافة قريبة سيرًا من مسكنها وستفي بالغرض تمامًا — وكانت قد سجلت فيها كطالبة مسبقًا، لذا فكل هوياتها ستكون سليمة.

جمعت كتاب ستوكر وتوجهت إلى هناك. كانت المكتبة معتدلة الازدحام، لكن إيرين لم تجد صعوبة في العثور على طريقها لممر جانبي، مستخدمة «اللغة» لفتح قفل «قسم محظور» بتمتمة سريعة: «**افتح، أيها القفل**»، ثم أغلقتها خلفها مرة أخرى. كانت الجدران مكتظة بصفوف من المجلدات المجلدة بالجلد، وعناوينها بالكاد يمكن تمييزها في ضوء الأثير الخافت من مصباح متأرجح. أشار الغبار على الأرفف والأرضية إلى أن هذه المنطقة لم تكن تُستخدم كثيرًا. كانت قد استطلعتها قبل بضعة أسابيع.

مشت بطول الممر إلى أول باب غرفة تخزين، ووضعت حقيبتها أرضًا، وأخرجت زجاجة حبر صغيرة وقلم حبر سائل. كانت هذه مهارة جديدة بالنسبة لها، نُقلت إليها فقط عندما أصبحت «أمين مكتبة مقيم». (كانت لا تزال مستاءة قليلًا بشأن ذلك؛ فقد كان ليكون مفيدًا للغاية. وكم من الأشياء الأخرى لا تزال مخفية عنها؟).

عادة، عند إنشاء مدخل مؤقت لـ «المكتبة»، ينطق أمين المكتبة كلمات محددة بـ «اللغة» أثناء استخدام نقطة وصول قوية (مثل مجموعة

كبيرة من الكتب) لإنشاء اتصال. يدوم هذا لفترة كافية ليمر العميل من خلاله. ثم يجب أن تترك الاتصال يُغلق خلفها، حيث يخرج المكانان عن التزامن. مؤخرًا، تم إطلاع إيرين أنه بالشكل المكتوب من «اللغة»، يمكن للمرء جعل الاتصال يدوم لفترة أطول قليلًا. فترة كافية للدخول لـ «المكتبة»، وإجراء بعض الأعمال، ثم العودة مرة أخرى لنفس الموقع في العالم البديل عبر الباب نفسه.

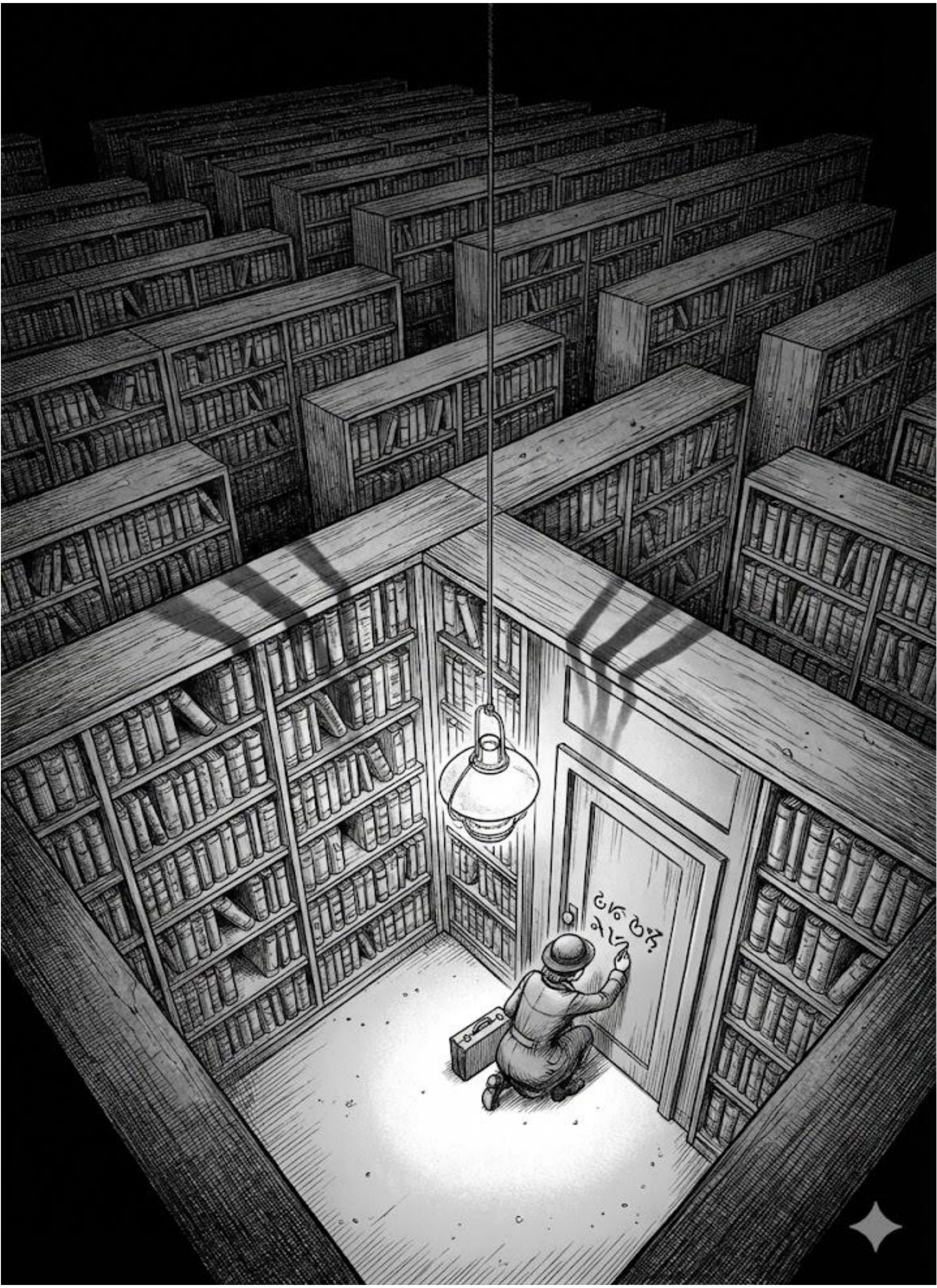
جثت بحذر على ركبة واحدة، ورسمت الرموز الدالة على: هذا الباب يفتح على المكتبة، فوق المقبض. كان سينجح الأمر بنفس القدر لو خربشت الكلمات عبر منتصف الباب، لكنها أحبت إبقاء الأمر غير ملفت للنظر.

وبينما كانت تنهي الرمز الأخير، شعرت بالتحول المفاجئ في الواقع، وانخفضت مستويات طاقتها لتغذية الاتصال. بقيت على ركبتيها، مركزة على تنفسها حتى استقر، ووضعت القلم والحبر جانبًا. كانت رموز «اللغة» تجف بوضوح على الخشب وبدأت تتلاشى بالفعل. ستدوم ربما لنصف ساعة. لم يكن لديها وقت طويل.

قالت: "**افتـــــح**"، مانحة الكلمة نبرتها الكاملة في «اللغة»، مع اللاحقة الخاصة التي تشير إلى أن الباب يجب أن يفتح على «المكتبة» نفسها.

وفُتح الباب.

دخلت إيرين غرفة أكثر دفئًا وسقفها مرتفع، وجدرانها مغطاة بألحفة حمراء وبيضاء. اشتعلت مصابيح متوهجة متعددة بضوء أبيض في السقف، لكن قطن الألحفة الناعم خفف التأثير، جاعلًا الغرفة أكثر احتمالًا.



بفضول، سحبت أحد الألحفة بعيداً عن الجدار. خلفه كانت هناك أرفف كتب، وكعوبها بخليط من الإنجليزية والسويدية والألمانية، بعناوين مثل بيت العشب الصغير في البراري، وقصص الاقتصاص من «غوتنبرغ» الجديدة، وأحجار الرون في أمريكا الشمالية. لم يكن هناك تفسير لسبب تغطية الألحفة لها. ولكن مرة أخرى، غالبًا لم يكن هناك سبب لهندسة «المكتبة» أو أثاثها.

خارج الغرفة، قرأت اللوحة النحاسية على بابها: ب_133 —— أدب أمريكا الشمالية —— القرن العشرين —— القسم الخامس. لم تكن غرفة تعرفها.

ووجدت نفسها في ممر مرصوف ومكسو بالرخام الأزرق والأبيض، بنوافذ ذات مصاريع كانت ستكون أعلى من أن يُرى منها أي شيء على أي حال. إلى يمينها كانت هناك مجموعة درجات، تؤدي لأسفل. وإلى يسارها كان منعطف بسيط في الممر.

كانت هذه هي المشكلة — حسنًا، واحدة من المشاكل — في القدوم عبر «معبر» عشوائي. لم تكن هناك طريقة للتأكد من المكان الذي ستظهر فيه. ما احتاجته، وبأسرع وقت ممكن، هو غرفة بها حاسوب حيث يمكنها البحث عن الليدي (وربما اللورد) جوانتيس. كما تطلبت خريطة محلية لـ «المكتبة»، لتتمكن من تحديد موقع فتحة حائط يمكنها إيداع كتاب ستوكر فيها وتلبية الطلب — نسخة «المكتبة» من البريد الداخلي.

أسرعت أسفل الممر، ملاحظة الديكور في حال أتت من هذا الطريق مرة أخرى. كانت العلامات الزرقاء تقع داخل الرخام الأبيض مثل بقع حبر بلون زرقة منتصف الليل، وكان عليها كبح الرغبة في فرك إحداها لترى إن كانت ستلطخ يدها.

لا يزال من السهل جداً تشتيت انتباهي.

بعد منعطفين، وصلت لمدخلين، مع فتحة إيداع بينهما. بتنهيدة ارتياح فتحت حقيبتها وأسقطت الظرف المحتوي على الكتاب. تمت مهمة واحدة. الآن يمكنها الانخراط في بعض البحث الجاد.

حمل المدخل على يسارها لوحة: ب-134 —— روايات مصورة بلجيكية —— القرن العشرين —— القسم الأول. دفعت الباب لتنظر للداخل، وارتاحت لرؤية حاسوب على الطاولة. كان قط برتقالي سمين ملتفًا على الكرسي، متظاهرًا بالنوم. وبنظرة خاطفة بالكاد على الجدران المكتظة بالأرفف — والصفحة الأولى المعروضة بوضوح بين الحين والآخر لصاروخ متجه للقمر أو مجموعة من المومياوات القزمة — دفعت القط عن الكرسي مع اعتذار متمتم، وجلست، وسجلت الدخول.

مسحت قائمة بريدها الإلكتروني الشخصي، وصنفتها كلها كغير ضرورية، وتجاهلتها. لم يكن هناك شيء من معلمتها، كوبيليا، ولا شيء من والديها. كل شيء آخر يمكن أن ينتظر.

بدلًا من ذلك، استدعت وظيفة الموسوعة. كان المفترض أن تكون خلاصة عامة للمعلومات من أمناء المكتبات في الميدان في العوالم البديلة. عمليًا، ورغم أنها أفضل من لا شيء، كانت المعلومات متفرقة — فـ «الفاي» والتنانين غالبًا ما استخدموا أسماء مستعارة بشكل مزعج.

طبعت: جوانتيس.

ظهر سجل واحد، عمره عشرون عامًا. قاومت إيرين الرغبة في التلويح بقبضتها في الهواء، ونقرت عليه.

«فاي» متوسط القوة. ذكر، يدعي عادة أنه عضو بالطبقة الأرستقراطية ويلقب نفسه باللورد. قادر على السفر بين العوالم. تشمل جوانبه النموذجية القوة، التلاعب، السيطرة، والقيادة. سيلاحظ القارئ أن اسمه هو الكلمة الإسبانية للقفازات وقد يجد هذا مؤشرًا على ميل للدهاء والتلاعب.

ألقت إيرين نظرة على اسم مؤلف هذا الإدخال: رادامانثيس. كانت حالته مسجلة كمتوفى. تباً، لا توجد طريقة لطرح أسئلة عليه الآن.

صُودف أصلًا في جي-112. [عالم من نوع غاما، مما يعني أنه يمتلك كلًا من السحر والتكنولوجيا.] كان العالم محايدًا في ذلك الوقت، بوجود قوى الفوضى والنظام معًا. كان جوانتيس يثير تمردًا أرستقراطيًا ضد الإمبراطور الروماني المقدس. الأخير كان مدعومًا من «فاي» قوي آخر يُدعى أرجنت. خلال صراع القوة بين الاثنين، سقطت الإمبراطورية، ووصلت للحكم ثيوقراطية بيزنطية مدعومة من أميرة تنين.

"أرجنت؟" شعرت إيرين بعبوسها يزداد. كانت المسألة مجرد لغات في النهاية: فضة (Silver)، أرجنت (Argent[6])...

عند تلك النقطة، غادر كلا «الفاي» ذلك العالم، وأعتقد أنهما عوقبا من قبل أعضاء أعلى رتبة من جنسهم. أنا شخصيًا لم أصادف السيد مرة أخرى...

مرت إيرين بسرعة على بقية الإدخال. لا شيء مفيد، مجرد بضع ملاحظات حول كون جوانتيس متلاعبًا على ما يبدو لكنه عرضة للتشتت بذكائه الخاص. ذلك النوع من المخططين الذين يبتكرون مخططات جديدة في منتصف المخططات الجارية ويفقدون مسار أهدافهم النهائية.

خطرت لها فكرة، وتحققت من ظروف وفاة رادامانثيس. مات في حادث بجرس غوص في نهر دنيبر. كان هذا أثناء ثورة روسية، بينما كان

---

[6] *Argent* باللاتينية والفرنسية تعني الفضة
Silver هي المقابل الإنجليزي للكلمة نفسها

يحاول استعادة بعض مجلدات الشعر الملحمي. على الأرجح لا علاقة للأمر بـ جوانتيس. على الأرجح.

حاولت البحث عن ترجمات واضحة لـ «قفازات» و«فضة». مع الروسية حالفها الحظ ووجدت حسابًا لـ «فاي» يُعرف بالأمير سيريبرو قبل مائة عام. كان لديه عداء مستمر مع لورد بيرتشاتكا (سيريبرو انتصر). خلال ذلك، كان أمين المكتبة الذي سجل الإدخال قد نهب أعمالًا محظورة من تحت كاتدرائية «العذراء السوداء». لا شيء مؤكد حول الزوج، لكنه بالتأكيد موحٍ.

كانت واعية للوقت الذي يمر. بسرعة صاغت بريدًا إلكترونيًا لمعلمتها، كوبيليا، متضمنًا الحقائق البارزة وسؤالًا عما إذا كانت أمينة المكتبة الأكبر سنًا تعرف أي شيء ذا صلة. لم تكن إيرين شخصًا يحب التقارير اليومية، لكن إذا كانت هناك فرصة لأن تعرف كوبيليا شيئًا، فسيكون من الغباء عدم السؤال.

حسنًا. كان هذا كل ما يمكنها معرفته بشكل معقول في الوقت الحالي.

وخز التوتر مؤخرة عنقها. كان لديها شعور فظيع بأنها نسيت شيئًا، أو فشلت في ملاحظة شيء مهم. احتاجت للتحدث مع فيل في أقرب وقت ممكن. واجه أمناء المكتبات تهديدات بالقتل من وقت لآخر، وبينما كان ذلك جزءًا من الوظيفة، إلا أنه لم يكن بالضبط على قائمة تجاربها المائة المفضلة. ومع ذلك، لم تكن تعرف حجم التهديد الحالي. وشراء كتاب بسيط ومحاولة اعتداء بدت وكأنها تفرز كل أنواع الروابط الجديدة. لم تكن هناك طريقة لمعرفة مدى السوء الذي قد تؤول إليه الأمور.

أغلقت حاسوبها وتوجهت عائدة لمخرجها — كان قد مر خمس وعشرون دقيقة بالفعل. ستعود لاحقًا اليوم، أو غدًا، وتتحقق من وجود رد من كوبيليا.

مع وخزة من الوشم عبر ظهرها، خطت إيرين خارجة من «المكتبة» وعائدة للزمان والمكان الحقيقيين. (أو، وفقاً لبعض الحجج، الزمان والمكان غير الحقيقيين، إذا كانت «المكتبة» هي «الواقع» الوحيد. لكن ذلك كان شيئاً للنقاشات الفلسفية). أُغلق الباب بحزم خلفها، وبينما ألقت نظرة للتحقق، تلاشت آخر بقايا حروفها المرسومة في الطلاء. لم يبق شيء، ولا حتى أثر باهت لحبر أو ظل على الخشب.

لقد نجحت في الذهاب والعودة، دون أن يعلم أحد بالأمر. ولم تستطع إلا الشعور بالقليل من الغبطة لأنها مرة أخرى – والآن، ما هي أفضل عبارة لهذا؟ – أفلتت بفعلتها.

نخب كوني عميلة سرية لمكتبة بين الأبعاد!

استمر وهج الرضا الذاتي حتى انعطفت عربتها لشارع «بيكر[7]». وبينما حاذت العربة مسكن فيل، رأت أنه لا أضواء تلمع في النوافذ العلوية، ما أوحى بأنه بالخارج. رغم أنه كان وقت الظهيرة فقط، إلا أن الضباب عنى أن مصابيح الشوارع والمنازل كانت مضاءة ضد العتمة. دفعت لسائق العربة وأسرعت للباب.

فتحت مدبرة المنزل. كانت امرأة في منتصف العمر ذات طبع رزين لا يتزعزع، وشعرها الرمادي مثبت في كعكة صلبة كالصخر.

– "هل يمكنني مساعدتك يا سيدتي—— أوه، إنها أنتِ، آنسة وينترز. السيد فيل قال هل تمانعين الانتظار، إذا وصلتِ بينما هو بالخارج."

هبط قلب إيرين في صدرها. شيء ما سار بشكل خاطئ. لم تكن تعرف ماذا بعد، لكن كان لديها ذلك الشعور فقط.

[7] شارع بيكر: شارع شهير في لندن، مرتبط في الذاكرة الشعبية بكونه مقرّ مسكن شيرلوك هولمز في الأدب الكلاسيكي

– "هل تعرفين أين هو؟" سألت، وهي تخطو للداخل وتغلق الباب خلفها.

قالت مدبرة المنزل وهي تأخذ قبعة إيرين وتساعدها في خلع معطفها:

– "خرج مبكرًا، بناءً على استدعاء من «سكوتلاند يارد»، يا آنسة وينترز. ثم مر صديقك السيد سترونغروك، قبل ساعة فقط—"

إذن لابد أن كاي جاء مباشرة هنا من مناقشتهما مع سيلفر، حسبت إيرين.

– "—وشخص ما قابله عند الباب. التقطت بضع كلمات، وكانت رسالة من السيد فيل لمقابلته في «إيست إند». وهكذا ذهب. ثم، عندما عاد السيد فيل، أخبرته بكل هذا، وانطلق هو نفسه لـ «إيست إند»، بأسرع ما يمكن. أخبرني بشكل خاص جدًا أنه إذا ظهرتِ، يا آنسة وينترز، فيجب أن أطلب منك انتظاره حتى يعود. أو، وقالها بصرامة شديدة، هو لا يستطيع ضمان العواقب."

كانت إيرين تومئ بينما تثرثر المرأة، لكن حلقها جف. كاي تم استدراجه بعيدًا. وفيل ذهب خلفه. أرادت الخروج من هنا، في هذه اللحظة، واستدعاء عربة لتأخذها لـ «إيست إند» أيضًا.

إلا أن المنطق السليم أشار إلى أن «إيست إند» مكان كبير. وفيل طلب منها تحديدًا انتظاره. اشتدت يداها في قبضتين، لكنها رسمت الهدوء على وجهها.

– "بالطبع سأنتظر عودة السيد فيل. هل قال إلى أين في «إيست إند» كان ذاهبًا؟"

هزت مدبرة المنزل رأسها.

– "تعرفين كيف هو يا آنسة. هل أحضر لك كوبًا من الشاي بينما تنتظرين؟"

انفتح الباب بقوة.

– "لن يكون ذلك ضروريًا،" قال فيل من خلفها.

استدارت إيرين لترى فيل واقفًا هناك، ينظر إليها من علياء طوله البالغ ستة أقدام. كانت ملابسه، كالعادة، متقشفة، لكنها مناسبة لرجل نبيل، ومن أغلى الأقمشة. (لا عجب أنه انسجم جيدًا مع كاي. كلاهما رفض ارتداء أي شيء سوى الأفضل). كان شعره الداكن ممشطًا للخلف عن وجهه، وبدت هيئته أشبه بالصقر أكثر من المعتاد.

– "أين كنتِ يا آنسة وينترز؟" تساءل بحدة.

قالت إيرين:

– "إلى مكتبة يا سيدي."

لم تدع نبرتها تنزلق للحدة تمامًا، لكن الأمر كان وشيكًا.

– "أرسلت كاي إليك. أين هو الآن؟"

– "مخطوف، يا آنسة وينترز——بينما كنتِ بالخارج في مكتبتك."

تمكن فيل من وضع كمية مذهلة من الاتهام والغضب البسيط في الكلمات.

– "وأود أن أعرف ما تقترحين فعله حيال ذلك."

اصطدمت دودة الذنب في أحشائها – أتركه وحده لخمس دقائق فيختطف – مع حرقة غضب مفاجئة من كلمات فيل.

– "استعادته بالطبع! كيف تجرأ——"

سعلت مدبرة المنزل بصوت عالٍ، والتفت كل من إيرين وفيل لينظرا إليها.

– "سأحضر الشاي الخاص بك للأعلى، سيد فيل،" قالت بحزم. "وبعضًا للسيدة أيضًا. أرى أن لديكما مسائل لمناقشتها."

قال فيل، دون أي لطف على الإطلاق:

— "أوه، حسنًا جداً."

وصعد الدرج إلى غرفه بخطوات ثقيلة، مع إيرين خلفه بخطوة.

كنت مخطئة، ردد عقلها. لم يكن تهديداً لنا. لم يكن تهديداً لي. كان تهديداً لـ كاي، وتركته وحيداً، وأمسكوا به.

الفصل الخامس

توجه فيل إلى النافذة المقوسة، ناظرًا إلى الشارع في الأسفل. كانت غرفه مكتظة بالأشياء المبعثرة كعادتها دائمًا، وإن كانت هناك منطقة خالية من الغبار تدل على المكان الذي أحرزت فيه مدبرة المنزل تقدمًا قبل وصول إيرين. لم يلتفت نحو إيرين وهو يقول:

– "يجب أن أعتذر عن ذلك يا وينترز. كانت كلماتي جائرة."

كان من دواعي الارتياح أنه عاد لاستخدام أسلوب خطابه المعتاد، بدلًا من «الآنسة وينترز» الأكثر رسمية.

نقرت إيرين مفتاح الإضاءة وأغلقت الباب، ثم عقدت ذراعيها.

– "قبلت اعتذارك. والآن، لعلنا نناقش كيفية استعادته."

استدار فيل ونظر إليها بتأمل، بطريقة كانت أكثر إرباكًا من نظرة غضبه السابقة.

– "تظهرين القليل جدًا من المشاعر الرقيقة."

سألت إيرين:

– "وكيف سيساعد ذلك في الوضع الراهن؟"

كان غضبها ولومها لذاتها يتجليان كغليان بطيء في معدتها. لكنها كانت عازمة على استخدامه لا السماح له بالسيطرة عليها.

– "أرجوك، هل يمكننا عدم إضاعة الوقت؟ قد يكون كاي في خطر عظيم الآن."

وافق فيل:

— "على الأرجح."

بدا أن غضبه قد انحسر، تمامًا كما تصاعد غضبها. أشار لها بالجلوس على كرسي.

— "لكن اتخاذ إجراء بدافع العاطفة اللحظية، دون معلومات كاملة، سيكون غير حكيم تمامًا كما كنت أنا قبل لحظات. أرجوكِ يا وينترز. اجلسي. أخبريني بما تعرفينه. من الواضح جدًا أنكِ تعرفين شيئًا ما."

جلست إيرين وعقدت يديها في حجرها.

— "هل يعني اسم جوانتيس أي شيء لك؟ ربما فيما يتعلق بـ «الـفاي»، وربما بـ سيلفر."

— "هممم."

مشى فيل بخطى سريعة نحو أحد سجلاته الكبيرة المكتظة بقصاصات الصحف والملاحظات المؤرشفة، وقلب صفحاته.

— "جرانت: شغب وفيضان «كوفنت غاردن». جيرنييه: قاتلة العطر. جوانتيس... جوانتيس... لا، لا شيء هنا. الاسم مألوف كوافد جديد إلى لندن من ليختنشتاين، هو وزوجته، لكن ليس لدي أي شيء محدد عنهما حتى الآن."

أغلق السجل بعنف وارتمى في الكرسي المقابل لـ إيرين، حانيًا جسده الطويل للأمام للتركيز عليها.

— "أخبريني بالمزيد يا وينترز."

سردت إيرين أحداث اليومين الماضيين: المزاد، العراك، المراقب الذي بالكاد شوهد، تحذير سيلفر، وتحقيقها الخاص. بالكاد لاحظت مدبرة المنزل أو الشاي الذي أحضرته المرأة؛ كان تركيزها منصبًا على تزويد فيل بكل معلومة ممكنة، وكل ما قد يستفيد منه. وفي حين كان

لديها خططها الخاصة للبحث في مكان آخر إذا لزم الأمر، خارج هذا العالم، كان فيل هو الخبير المحلي، وهي تريد خبرته.

استمع إليها، مقاطعًا فقط بسؤالين، حتى توقفت. ثم أومأ برأسه. كانت يداه تلتفان حول كوب الشاي الخاص به، لكنه لم يشرب منه.

قالت إيرين:

– "دورك الآن."

كان غضبها قد هدأ قليلًا وركزت نفسها الآن على التخطيط طويل المدى.

– "أفترض أنك عدت للتو من البحث عن كاي. أرجوك أخبرني بكل ما تعرفه."

كانت تدرك أن فيل، بصفته المحقق الخاص الرائد في لندن، هو من يقدم عادة مثل هذه الطلبات لعملائه. كان هو يدرك ذلك أيضًا، والتوت زاوية فمه بجفاف فيما يشبه الابتسامة تقريبًا.

وضع فيل الشاي الذي لم يمسه جانبًا.

– "أنت محققة يا وينترز. استُدعيت هذا الصباح باكرًا جداً، في قضية أخشى أنني لست في حل لمناقشتها. ومع ذلك، اتضح أن وجودي لم يكن ضروريًا. أيًا كان ما دفع المفتش لاستدعائي..."

قطب جبينه، فاقترحت إيرين:

– "محاولة متعمدة لتشتيت انتباهك، أتعتقد ذلك؟"

أومأ فيل.

– "بالنظر للأحداث اللاحقة... على أية حال، عدت هنا لأجد أن سترونغروك قد مر. قابله عند الباب أحد أطفال الشوارع، ووجهه لعنوان في

«إيست إند». لحسن الحظ، كان أحد باعة الصحف قريبًا بما يكفي لسماع التفاصيل. فتبعت الأثر."

نظر ليديه وقال:

— "كنت متأخرًا جدًا."

سألت إيرين بحدة:

— "ماذا حدث؟"

كانت نبرة فيل لاذعة، لكن المرارة هذه المرة كانت موجهة نحو ذاته.

— "عليكِ أن تفهمي أنني جمعت الحقائق بعد الحدث."

أدركت إيرين أنه يلوم نفسه بوضوح بقدر ما تلوم هي نفسها، وإن كان بمسوغ أقل.

— "لم يكن من الصعب تتبع أثره. بمجرد وصوله للعنوان حيث ظن أنه سيقابلني، قام رجل آخر — متنكرًا بزي شرطي من «سكوتلاند يارد» — بإعادة توجيهه لعنوان يبعد نصف ميل. كان مستودعًا قديمًا، حيث كان من المفترض أن أكون أحقق في جريمة قتل. وفي الطريق، تم استدراجه لزقاق جانبي، عبر اعتداء ظاهري على بريء عاجز. ضُرب وسقط فاقدًا للوعي بمزيج من التفوق العددي، وسحر «فاي»، وعقاقير مخدرة. ومن هناك، أُخذ — لمكان آخر."

قالت إيرين بتفكير:

— "هذا مسار ملتف للغاية. لماذا لم يوجهوه ببساطة لموقع الاختطاف؟ أو يحاولوا السيطرة عليه داخل عربة، حيث لن يملك مساحة للمناورة؟"

حدق فيل بتفكير في الفراغ أمامه.

— "أعتقد أن الهدف كان جعل المسار ملتفًا يا وينترز. في أي من تلك النقاط، كان يمكن لأي شخص يحاول تتبعه أن يفقد أثره بسهولة."

«باستثنائي»، لم يكن بحاجة لقولها.

— "لكن كما هو الحال، لدي أوصاف لشخصين في مسرح الجريمة قد يكونان هما الـ جوانتيس. رجل في منتصف العمر، أقصر مني قليلًا، بشعر ولحية رماديين. يرتدي ملابس أنيقة، وصوته آمر. المرأة كانت ذات شعر أسود ونحيلة. ارتدت عباءة فوق ملابس «أجنبية»، وإن لم يستطع مخبري تحديد الكيفية بدقة."

سألت إيرين:

— "وهل كان كلاهما يرتدي قفازات؟"

أجاب فيل ببطء:

— "نعم. كلاهما فعل. رغم أنه، للإنصاف، معظم الرجال والنساء الميسورين يرتدون قفازات."

أومأت إيرين. كان ذلك صحيحًا. لكنه لا يزال يبدو ذا دلالة بطريقة ما.

— "إلى أين أخذوا كاي؟"

بدا فيل منزعجًا.

— "تلك هي المشكلة يا وينترز. المرأة رافقتها عربة كانت تنتظر بالجوار. لدي العنوان الذي وجهت العربة إليه، وأنوي التحقيق فيه. لكن الرجل — يبدو أنه غادر لندن عبر طريق ما لـ «الـفاي». وأخذ كاي معه."

انقبضت يدا إيرين في حجرها، مجعدة ثنايا تنورتها.

— "كان يجب أن تقول ذلك في وقت أبكر."

دار عقلها في دوائر. كيف تقتفي أثره؟ كيف تتبعه وتنقذه؟

تنهد فيل.

— "وينترز، دعينا نؤجل اللوم لمناسبة أخرى. ما أحتاج لمعرفته الآن هو مدى السرعة التي يمكنك بها العثور عليه واستعادته. لا يمكننا تركه في أيديهم أطول مما يجب."

بالنسبة لـ فيل، كانت هذه مشاعر جياشة، والإلحاح في صوته كان ليعني الوقوف والدوران في الغرفة بعصبية لأي رجل آخر. كانت إيرين تعلم أن كاي يعتبر نفسه صديقًا لـ فيل. لكنها لم تدرك بنفس القدر أن فيل يعتبر كاي صديقًا له.

ومع ذلك، كانت هي آخر شخص يحكم على الناس لكبتهم مشاعرهم. عرضت بعد لحظة تفكير:

— "لدينا ثلاثة مسارات رئيسية للتحقيق كما أرى. الأول هو تتبع الـ جوانتيس داخل لندن، هنا. حتى لو أخذ اللورد جوانتيس كاي لمكان آخر، قد نتعلم شيئًا من المرأة. المسار الثاني هو أن أبحث عن مزيد من المعلومات داخل «المكتبة» — وإذا فشل كل شيء آخر، يمكنني الاتصال بعائلة كاي نفسها."

سأل فيل:

— "كيف؟"

— "يمكنني معرفة أين يقيم عمه، الذي كان وصيه — في العالم الذي جُند منه كاي أصلًا — وأذهب لطلب المعلومات."

لم تعجب الفكرة إيرين. لا أحد يحب تلقي الأخبار السيئة، وشكت في أن التنانين يحبونها أقل حتى من معظم الناس. لكن إذا كان هناك من يستطيع العثور على تنين مفقود، فقد يكون تنينًا آخر.

أومأ فيل موافقًا على كلماتها.

— "أفترض أن فكرتك الثالثة هي سؤال سيلفر؟"

قالت إيرين بأسف:

— "ليست فكرة أحبها. إلا إذا كان بإمكانك التفكير في طريقة لممارسة ضغط عليه؟"

نهض فيل من كرسيه ليتجول بتململ في أنحاء الغرفة.

— "أمر يستحق النظر. كونه غامضًا جدًا في تحذيراته السابقة قد يشير إلى أنه يقع بالفعل تحت ضغط من جهة أخرى. مسألة أخرى تستحق التحقيق. لكن..."

سمع طرق على الباب.

— "سيد فيل؟"

كان صوت مدبرة المنزل.

— "هناك رسالة لك."

تنهد فيل.

— "على الأرجح طلب عقيم آخر لمساعدتي. اعذريني لحظة من فضلك."

قطبت إيرين وهي تنظر ليديها، متأملة الخيارات بينما كانت خطوات فيل تقرقع نازلة الدرج. كونها أمينة مكتبة لم يمنحها أي قدرات متأصلة لتتبع الناس عبر العوالم البديلة. يمكنها السفر من عالم لآخر عبر «المكتبة» نفسها، لكنها بحاجة لمعرفة إلى أين أُخذ كاي.

ارتفعت صيحة من الطابق السفلي. صاح فيل:

— "وينترز! هنا، الآن!"

لملمت إيرين أطراف تنورتها وهرولت نازلة الدرج خلفه. كان واقفًا في المدخل، يحمل ظرفًا وورقة بعناية بين أصابعه. وصبي توصيل أشقر الشعر بزي فندق كان ينكمش أمامه، متمنيًا بوضوح لو هرب أسرع.

— "هذا الفتى لديه أخبار."

سألت إيرين:

— "أي أخبار؟"

كانت يدا فيل مشدودتين بتوتر، وخطوط مفاصله وأوتاره بارزة — لكنه أمسك الورقة برقة، وأطراف أصابعه تلامس الحافة بالكاد.

— "أخبرنا من أين حصلت على هذه الملاحظة."

بلل صبي التوصيل شفتيه بتوتر.

— "أعمل في فندق «سافوي» يا سيدي. نزيل نبيل هناك أراد توصيلها لك."

أومأ فيل.

— "اسمه ومظهره؟"

قال الصبي:

— "لم يعطِ اسمه يا سيدي."

كبت فيل تنهيدة، فتابع الصبي:

— "كان رجلًا نبيلًا رغم ذلك. له لحية."

تنهد فيل.

— "حسنًا جدًا. خذ."

أخرج عملة «نصف كراون» ورماها للصبي.

— "مقابل وقتك وجهدك. يمكنك الذهاب."

تساءلت إيرين بهمس بينما انطلق الصبي مسرعًا:

— "هل يجب أن ندعه يذهب؟"

قال فيل بثقة:

– "يمكنني العثور عليه إذا احتجت لذلك. رأيتِ كيف كان الزي يناسبه تمامًا؟ كان زيه الخاص، ليس تنكرًا مسروقًا. والأزرار الخمسة على كمه؟ إنه أحد كبار الصبية في «سافوي»، مع ترقية محتملة لخادم خاص في المستقبل القريب. كانت قفازاته نظيفة هذا الصباح، وحذاؤه ملمعًا حديثًا. لكنه لم يتمكن من إعطائنا أي وصف، سوى أن الرجل كان ذا لحية وتصرف كرجل نبيل، وهو على الأرجح سبب بقائه في مستوى صبي توصيل. موظف برتبة أعلى كان ليُتوقع منه ملاحظة أكثر من ذلك، حتى لو لم يتحدث عنه."

أومأت إيرين.

– "ماذا في الرسالة؟"

أمسكها فيل بحيث تتمكن من رؤيتها.

– "لا تلمسيها. ما زلت أفحصها."

كان ورقًا باهظ الثمن بوضوح. والكتابة المائلة بخط اليد كانت بحبر أسود:

«عاد كاي لعائلته. لا تحاولوا رؤيته مرة أخرى. هذا هو التحذير الوحيد الذي سيُعطى.»

رفعها فيل للضوء.

– "لا علامة مائية. نفس ورق الظرف. أحتاج لضوء أفضل لفحص هذه."

كان يتجه بالفعل لصعود الدرج مرة أخرى لغرفته.

تبعته إيرين.

– "إنها مزيفة بشكل ما. من المستحيل أن تكون من عائلته."

– "أوه؟ أنتِ متأكدة من ذلك؟"

— "قطعًا. رأيت إحدى رسائل عائلته سابقًا. كانت على لفافة، وبالصينية. لا شيء كهذا. ولو كان أحد أفراد قومه قد جاء لأخذ كاي، لما تم الأمر بالاختطاف."

كان بإمكانها تخيل كاي يجادل، لكنها لم تتخيله يُطرح أرضًا ويُحمل بالقوة.

— "فضلًا عن أنك قلت بالفعل إن لديك دليلًا على استخدام سحر «فاي» في اختطافه. لا يوجد تنين يحترم نفسه سيتعاون مع «الـفاي». والأهم من ذلك كله..."

تمتم فيل:

— "نعم؟"

كان قد ألقى بنفسه أمام طاولة مختبره وراح يفحص الرسالة والظرف بعدسة مكبرة.

كانت إيرين تجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا الآن، تفكر في الأمر.

— "لو كان هذا حقًا فعل تنين — ربما أحدهم شعر أن كاي يحط من قدره بمخالطة البشر، بمخالطتنا..."

أكثر من ذلك. بكونه صديقنا.

— "أي تنين يعتنق تلك الآراء بصدق لم يكن ليزعج نفسه بإرسال رسائل. لك أو لي."

تساءلت إن كانت هناك رسالة مطابقة في مسكنها. لم يكن هناك وقت للذهاب والتحقق.

— "سنكون أدنى من مستوى اهتمامهم."

لم يرفع فيل نظره عن فحصه للظرف.

— "هل كلهم لديهم ذلك الرأي إذن؟"

كانت نبرته أكاديمية، لكن شيئًا في طريقة إمالته لرأسه أوحى بكبرياء وغطرسة مماثلة لديه.

بالطبع، هو إيرل. وإنجليزي. والأهم من ذلك كله، أعظم محقق في لندن. كيف لمجرد كون المرء تنينًا أن يقارن بأي من ذلك؟

قالت وهي تجلس، باحثة عن الكلمات المناسبة:

– "قابلت واحدًا ذات مرة كان كذلك. لكنه كان مهذبًا بشأن الأمر. كانت هناك درجة من، أعتقد... «نبل الأخلاق يوجب الالتزام» (Noblesse oblige). المرء لا يسبب ضيقًا غير ضروري للكائنات الأدنى."

أدار فيل كرسيه.

– "كم نحن محظوظون. لا علامة مائية."

كرر تعليقه السابق وتابع:

– "ورق عالي الجودة للغاية، لكن لا يمكن تحديده دون مزيد من التحقيق. خط اليد ليس مما أعرفه. أضف لذلك، لن أدعي أنني أحد أولئك الذين يقرؤون الشخصية من خلال خط اليد، لكن الأسلوب يبدو متقلصًا ومكبوتًا نوعًا ما. أقترح أن الكاتب كان يحاول إخفاء خطه المعتاد. الظرف لم يكن مختومًا، لذا لا يوجد دليل يمكن الحصول عليه هناك. أفكارك؟"

مدت إيرين يدها للرسالة، ومررها فيل لها.

– "أفكاري منصبة على المحتوى أكثر من السياق. وعلى النتيجة النهائية. حتى لو لم نكن نعلم باختطاف كاي، فبالتأكيد كنا سندرك أن شيئًا ما مريب حين نتلقى هذه. أعتقد أنها راية حمراء قابلة للإنكار."

تساءل فيل:

— "راية حمراء؟"

— "محاولة لتنبيهنا بأن شيئًا ما خطأ، دون أن يعترف الشخص المعني بتوجيه تحذير لنا."

أومأ فيل.

— "آه. اللورد سيلفر، نعم. مع ذلك الإرسال الواضح للرسالة عبر رجل ملتحٍ، لتوجيهنا في ذلك الاتجاه."

أومأت إيرين أيضًا. كانت أكتافها متشنجة من التوتر. راجعت ذهنيًا الخيوط المحتملة. لقد استنزفوا كل شيء في الوقت الراهن. ما يعني أنها تستطيع التصرف أخيرًا.

— "يجب أن نتحرك. أحتاج للاستفسار في «المكتبة»، ولمعرفة ما إذا كان بإمكاني الاتصال بعم كاي، إن كانت لديهم طريقة لتحديد موقعه. وأنت——"

نهض فيل مقدمًا يده لمساعدتها على النهوض.

— "سألاحق الـ جوانتيس بالطبع. واللورد سيلفر، بينما أنا في صدد ذلك. إذا كان الرجل يخطط لشيء، فسأعرفه. أين نلتقي؟"

قالت إيرين بأسف:

— "على الأرجح يراقبون مسكني. ولابد أنهم يراقبون هنا أيضًا."

قطبت جبينها بينما تجمعت أفكارها.

— "إذا تم اعتراض كاي عند بابك الأمامي، فهم بالتأكيد يراقبون هنا، وقد يكونون على علم بأن كلينا هنا الآن ونقارن الملاحظات."

وافق فيل:

— "أوه، بلا شك. ومع ذلك، ذهابنا في اتجاهين مختلفين يجب أن يساعد نوعًا ما. هل ستتمكنين من الوصول لمكتبة قريبة، برأيك؟"

قالت إيرين بحزم:

— "آمل ذلك بالتأكيد."

كان هناك خيط من الرضا لأنه لم يفترض حاجته لمرافقتها للتعامل مع أي مشكلة، أو يعرض فعل ذلك. الاحترام المكتسب منه كان شيئًا تثمنه حقًا.

— "لا أعرف كم سأستغرق. أعلم أن الأمر عاجل. لكن إذا كان من الصعب الوصول لعم كاي... هل أبحث عنك في «سكوتلاند يارد»؟"

قطب فيل للحظة، ثم أومأ.

— "اذهبي لـ سينغ. إنه يتذكرك."

تذكرته إيرين أيضًا. المفتش سينغ، ربما أقرب حليف لـ فيل بين شرطة لندن.

— "إذا كانت لدي أي رسائل، سأتركها معه، ويمكنك فعل المثل."

كان لا يزال يمسك يدها. في الواقع، بدا أنه قد نسي أنه يفعل ذلك.

— "توخي الحذر يا وينترز. أعداؤنا يبدون مستعدين جيدًا. لو كان ممكنًا أن أرافقك، لكنت——"

قاطعته إيرين:

— "لكن ما يمكنك اكتشافه هنا أكثر أهمية."

كانت تود بشدة لو يكون في ظهرها، وتبًا للقواعد المتعلقة بإحضار الغرباء لـ «المكتبة». لكن ما قالته كان صحيحًا. كانا بحاجة لمعرفة ما كان يفعله الـ جوانتيس هنا.

— "ولا وقت لنضيعه. أنا أعتمد عليك."

كانت ابتسامته شاحبة لكنها حاضرة.

— "إذن من الأفضل ألا نجعل سترونغروك ينتظر."

الفصل السادس

كادت إيرين تتفاجأ، بل وتشعر بشيء من خيبة الأمل، حين لم يحاول أحد اختطافها وهي في طريقها إلى «المكتبة البريطانية». فلو حاول أحدهم اختطافها، لكانت على الأقل قد كوّنت فكرة أوضح عما يجري. لكن لم تكن هناك أي عربات غامضة تنتظر لتقلها إلى موقع مجهول، ولا بلطجية ملثمون يجرونها إلى أزقة خلفية، ولا أي شيء ذي فائدة على الإطلاق. وهذا ما جعلها في مزاج سيئ وهي تسير بخطى غاضبة عبر الغرف نحو المدخل الرئيسي لـ «المكتبة».

كان «المعبر» المؤدي إلى «المكتبة» ينفتح من غرفة تخزين صغيرة كانت في السابق مكتبًا، ولحسن الحظ لم يكن هناك زوار بالجوار ليروها وهي تدخل. لم يستغرق الأمر سوى لحظات لتغلق الباب خلفها باستخدام «اللغة»، وأسرعت نحو باب «المعبر». بدا الباب وكأنه خزانة مؤن، ولأي مستخدم آخر كان ليكون مجرد خزانة مؤن. لكنه كان مرتبطًا بشكل دائم بباب محدد في «المكتبة»، وكانت إيرين تمتلك المفتاح اللغوي.

قالت:

– "**افتـــح عـــلى «المكتـــبة»**."

شعرت بالاتصال يتشكل بينما تدحرجت كلماتها في الهواء. سحبت الباب لتفتحه ودخلت بسرعة.

أغلق الباب الثقيل ذو القضبان الحديدية خلفها بجلجلة في جانب «المكتبة». وعلى الجانب الآخر كانت لا تزال هناك ملصقات معلقة على

حواجز حول الباب، تعلن: تفشي فوضى مرتفع؛ الدخول بالتصريح فقط؛ حافظ على هدوئك وابق خارجًا.

قطبت إيرين جبينها عند كلمة «مرتفع» في الملصق الأول. في المرة الأخيرة التي مرت فيها عبر هذا المدخل، قبل بضعة أشهر، كان تفشي الفوضى بمستوى «قياسي» فقط.

إذا كان لهذا علاقة باختفاء كاي... آمل ألا يكون كذلك.

كان أحدهم يستخدم الغرفة لتكديس كتب أخرى، وبجانب الأرفف الممتلئة كانت هناك أكوام من الكتب ذات الغلاف الورقي الأصفر مبعثرة في كل أنحاء الأرضية. اضطرت إيرين لرفع أطراف تنورتها لتجنب إسقاط الأكوام وهي تشق طريقها نحو المخرج.

كانت أقرب غرفة حاسوب تبعد بضعة أبواب إلى يسارها. كانت فارغة في تلك اللحظة، فألقت بنفسها على الكرسي وسجلت الدخول، مرسلة بريدًا إلكترونيًا سريعًا لـ كوبيليا: اختفى كاي. ظروف مشبوهة. أطلب اجتماعًا فوريًا. إيرين.

جاء الرد في غضون خمس دقائق. كانت قد بدأت لتوها البحث عن (تنانين_ مفاوضات)، لكنها لم تحرز تقدمًا يذكر.

قرأت الرسالة: *تم التصريح بنقل عبر التحول السريع. أول منعطف لليسار، الطابق الثالث لأعلى، كلمة النقل هي «متماسك»*. كوبيليا.

سجلت إيرين الخروج، ورفعت تنورتها لركبتيها، وبدأت في الركض. التحولات السريعة تتطلب استهلاك طاقة عالية ولا تُبقى مفتوحة لفترة طويلة. وحقيقة أن كوبيليا رأت أنه من المناسب التصريح بواحد كانت مقلقة بحد ذاتها.

بعد صعود ثلاثة طوابق من السلالم، كانت الجدران مغطاة بورق حائط بطراز «آرت ديكو»، مما جعل خزانة النقل واضحة بشكل صارخ من

حيث الأسلوب. كان بابها من خشب البلوط الثقيل وبدا في غير محله تمامًا بين تمثالين جبسيين لنساء يرتدين أردية. وكانت بالكاد تتسع لشخص واحد وكومة من الكتب.

دخلت وأغلقت الباب. لا أضواء. لا صوت. فقط رائحة الغبار. مدت يديها إلى الجانبين لتسند نفسها على الجدران.

قالت بـ «اللغة»:

— "**متماسك**."

اهتزت الخزانة من حولها، كخزانة مصعد طعام تُسحب بسرعة عالية في عدة اتجاهات. أغمضت عينيها، مركزة على عدم التقيؤ.

وصلت الخزانة بصوت ارتطام مكتوم. أخذت إيرين لحظة لالتقاط أنفاسها، قبل دفع الباب وفتحه، والخطو إلى الغرفة المضاءة جيدًا في الخارج.

كانت تلك حجرة الدراسة الخاصة بكوبيليا الخاصة، المألوفة لها من ساعات طويلة قضتها هناك كطالبة ومساعدة شخصية لـ كوبيليا. كان محور الغرفة المكتب الضخم المصنوع من خشب الماهوجني، والذي ينحني في شكل حرف U واسع، مما يسمح بتوزيع مجموعة كاملة من المستندات على سطحه. كانت الجدران مليئة بأرفف الكتب بطبيعة الحال — لكن عدة أيقونات سلافية من الذهب والخشب الثقيل كانت معلقة عليها هنا وهناك، كاسرة جمود المساحة. لاحظت إيرين أن الوقت ليل في الخارج، وأضواء الدراسة تسطع عبر النافذة المقوسة، مضيئة بقسوة المشهد الثلجي في الخارج. الكراسي الإضافية المعتادة أزيلت من الغرفة، مما يعني أن كوبيليا جلست على الكرسي الوحيد، خلف مكتبها.

واقفة أمامها، تساءلت إيرين عما إذا كان المفترض بها أن تشعر كفتاة مدرسة تقدم تقريرًا لمعلمة، أو ربما مذنبة تعترف لمحقق. أيًا كان الأمر، شكت في أنه من المفترض أن تشعر بالتوتر.

بدت كوبيليا نفسها مسيطرة على مشاعرها كالمعتاد تقريبًا. غطاء رأس قرمزي يلف رأسها، وحواف شعرها الأبيض فقط هي الظاهرة عند جبهتها. اليوم كانت ترتدي رداءً صارمًا بلا أكمام من المخمل البني الداكن الناعم، يترك كامل ذراعها اليسرى الخشبية المنحوتة مرئية. كانت بنفس درجة لون خشب البلوط الشاحب مثل ذراعها اليمنى الطبيعية، لكن بنسيج مختلف تمامًا — كلها مفاصل وآليات دقيقة.

قالت بنبرة فيها حشرجة خفيفة:

— "تقرير فقير. إلا إذا كنتِ حقًا لا تعرفين أكثر مما أخبرتني به."

قالت إيرين بحزم:

— "تعمدت أن أعطيكِ الهيكل الأساسي فقط. بالنظر لأهمية الموقف، افترضت أنكِ سترغبين في سماع الباقي شخصيًا."

سألت كوبيليا:

— "بدلًا من إرسال بريد إلكتروني مفصل يمكن لأي شخص قراءته، أهذا ما تعنيه؟"

أجابت إيرين:

— "أنتِ تفترضين ذلك. أنا لم أقل."

كانت كوبيليا قد اختارت ترك مسألة أصل كاي التنيني المثير للجدل دون مناقشة في آخر لقاء لهما. لكن إيرين لم تكن متأكدة مما إذا كان الأمر معروفًا في الواقع من قبل الجميع في المستوى المناسب، أم أنه لا يزال سريًا حقًا.

رفعت كوبيليا يدها المكونة من لحم ودم لتدلك جبهتها.

— "أخبريني بما تعرفينه إذن."

سردت إيرين التفاصيل بسرعة. اضطرت لذكر تورط فيل بالطبع. لكن كوبيليا كانت تعرف بالفعل بشأن فيل، وأنه يعرف قدرًا كبيرًا بشكل غير مريح عن «المكتبة». أومأت كوبيليا برأسها قليلًا عند بعض النقاط — الدعوة من عائلة كاي، تحذير اللورد سيلفر، الـ جوانتيس، وتعليقات فيل على الرسالة (التي يُفترض أنها من عائلة كاي) — لكن عدا ذلك كانت صامتة وهي تستمع.

أخيرًا علقت قائلة:

— "ظروف مشبوهة. بالكاد أستطيع الاعتراض على هذا التعريف. أفكارك؟"

قالت إيرين بصراحة:

— "الرسالة مزيفة. ليس فقط بسبب التنسيق. كنت لأتوقع أسلوبًا أرقى إذا كانت من قوم كاي. مما قاله عنهم، فهم من الأسرة المالكة. والملوك لا يرسلون ملاحظات تحذير تافهة تقول «لا تحاولوا رؤيته مرة أخرى». فإما أنهم لن يكلفوا أنفسهم عناء التعامل مع العوام على الإطلاق، أو أنهم سيمرون ويخبروننا بفضل منهم أننا سنُحرم من وجوده. لذا فهو ليس حتى تضليلًا جيدًا جدًا."

علقت كوبيليا:

— "ومع ذلك أنتِ هنا. وتسألين عن عائلته. إذا كنتِ متأكدة جدًا أنه تضليل، فلماذا تهتمين؟"

قالت إيرين:

— "لأننا بحاجة للعثور عليه."

شبكت يديها خلف ظهرها، مخفية قبضتيها المضمومتين.

— "إذا استطاع فيل تتبع الـ جوانتيس، أو أيا كانوا، فهذا جيد. لكن إذا لم يستطع، فكيف نتتبع أثره؟ إنه مسؤوليتي."

علقت الكلمات في الهواء كوعد.

— "وبما أنه اختطف وهو تحت حمايتي، فقد تحملنا عائلته المسؤولية."

شبكت كوبيليا أصابعها على شكل هرم، لحم ضد خشب.

— "صحيح أن «المكتبة» ليس لديها أي رغبة مطلقًا في الدخول في عداء مع ذوي كاي. وانتقام التنانين أمر جلل. أعاصير، عواصف، أمواج مد، زلازل... لقد شهدت عالمًا يُدمر بهذه الطريقة وبالكاد تمكنت من النجاة. إذن، ماذا تريدين مني؟"

نحت إيرين جانبًا بعض الصور الذهنية البغيضة للغاية. هذا يستغرق وقتًا طويلًا.

— "أحتاج لأي شيء لدينا عن اللورد جوانتيس غير موجود في السجلات العامة. وأفترض أن «المكتبة» تعرف عن عائلة كاي أكثر مما أعرف. هل هناك أي احتمال أن يكون الاختطاف من فعلهم؟"

خطرت لها فكرة:

— "أو فعل شخص متصل بهم؟ فصيل منافس؟ أو خادم مفرط الحماس؟"

— "هممم. سؤال وجيه. تسعة من عشرة."

فكرت كوبيليا، دون أن ترفع عينيها الحادتين عن إيرين. لم تجرؤ إيرين على النظر بعيدًا.

– "من غير المرجح أن تختطفه عائلته المباشرة أو تترك رسالة تقول إنه غادر. سيكون ذلك على الأرجح دون مستواهم. ومع ذلك، أي عائلة ملكية لديها مرؤوسون، وأقارب أصغر، وبشكل عام أشخاص يأخذون تلميحات من نوع «ألا يوجد أحد يخلصني من هذا الكاهن المشاغب؟» بحماس زائد. أحدهم كان يمكن أن يفعل... وهناك فصائل بين التنانين. ليس كلهم يدعمون الملكية."

تنهدت إيرين. شك آخر يضاف للقائمة.

– "إذن لا يمكنني التأكد من تورطهم."

قالت كوبيليا:

– "لا. لا يمكنكِ. أو بالأحرى، لا يمكننا. ولا، ليس لدينا أي قنوات خلفية سرية يمكننا استخدامها للسؤال عن الأمر نيابة عن «المكتبة» أيضًا."

أمالت إيرين رأسها قليلًا.

– "نيابة عن «المكتبة»، ربما لا، لكن ماذا عن منظور خاص؟ ألا يوجد أي شخص هناك يعرف شخصًا يعرف شخصًا، يمكنه أن يسأل..."

تركت العبارة تتلاشى بأمل.

هزت كوبيليا رأسها، «لا» قاطعة، لكنها بدت حذرة أيضًا. بوضوح كان هناك شخص يعرف شخصًا يعرف شخصًا آخر هناك، حتى لو لم يتمكنوا من التعامل مع هذه القضية المحددة.

وافقت إيرين بمرارة:

– "بالطبع لا يوجد."

كان بإمكانها رؤية إلى أين يتجه هذا.

— "حتى لو كان لدى أحدهم وصول للتنانين، فسيكون ذا رتبة عالية جدًا داخل «المكتبة» ليتصرف بمفرده. و«المكتبة» لا يمكن جرها لهذا الأمر؟"

بسطت كوبيليا يديها.

— "بالضبط. هناك شخص واحد فقط في هذا الموقف يمكنه السؤال..."

— "حسنًا. حسنًا."

رأت إيرين عيني كوبيليا تضيقان بسبب نبرتها، فحاولت الهدوء.

— "حسنًا. لابد أن يكون أنا."

من يضع رأسه في فم التنين. ومن سيتحمل اللوم إذا ساءت الأمور.

— "لكن أود طرح سؤال أولًا. سؤال عام، قبل الدخول في التفاصيل."

قالت كوبيليا بحذر:

— "يمكنكِ السؤال بالتأكيد. إذا لم أجب، فليس لأنني أريد التسبب لكِ بمزيد من الصعوبات."

أومأت إيرين.

— "بالمعنى الأوسع إذن — لماذا أحضرتم كاي إلى «المكتبة»؟ بجدية. كنتم تعرفون ماهية كاي. لماذا تقبلونه كمتدرب أصلًا؟ ولماذا تعينونه لي؟"

كانت هذه محادثة يجب أن تُجرى خلف نوافذ موصدة أو ستائر مخملية ثقيلة. بدا من الخطأ إجراؤها بهذه الصراحة. خطأ، ومكشوف للغاية.

نظرت كوبيليا إلى المكتب.

— "كان هناك تنانين صغار آخرون هنا قبل كاي. لم يكن أي منهم رفيع النسب مثله، لكن — حسنًا، لقد حدث الأمر، ويتم تجاهله بأدب

حين يحدث. حتى لو اعتقد الأشخاص الذين يتوسطون في التعيين أن خداعهم ظل مخفيًا. هناك بروتوكولات خفية. هناك تفاهمات. لم يختر أي تنين بعد البقاء وأخذ نذور كأمين مكتبة. لأكون صادقة معكِ، أشك أن كاي سيفعل أيضًا. لن يكون ذلك في طبيعته."

أومأت إيرين متقبلة الكلمات.

— "لكن لماذا أنا؟"

ترددت كوبيليا، ثم أومأت لنفسها. قالت بـ «اللغة»، مما استلزم قول الحقيقة:

— "لأننا اعتقدنا أن ذلك سيكون الأفضل لكليكما."

عادت للإنجليزية، ناظرة لـ إيرين مرة أخرى.

— "وهذا كل ما سأخبرك به الآن."

قالت إيرين بجفاف:

— "لمصلحتنا؟"

لم يكن هناك وقت لكل هذه الألغاز اللعينة. كانت ابنة لأميني مكتبة، وهو مزيج غير معتاد — هل كان من المفترض أن يجعلها هذا أنسب للتعامل مع التنانين؟ لم ترَكيف.

هزت كوبيليا كتفيها.

— "نحن نتخذ أفضل القرارات التي نستطيع. هل تعترضين عليه؟"

ماطلت إيرين:

— "بأي معنى، أعترض؟"

علمت أنها تتجنب السؤال، لكنها لم تكن متأكدة من قصد كوبيليا.

أطلقت كوبيليا السؤال نحوها كرصاصة:

— "هل أساء إليكِ بأي شكل؟"

قالت إيرين:

— "إنه قمة في الأدب. كما تعلمين."

— "هل ألحق بكِ أي ضرر؟"

فكرت إيرين في عيني كاي، في تردده، في صدقه. لقد أراد حمايتها، بينما كانت مسؤوليتها هي حمايته.

— "لا، وأنتِ تعلمين ذلك. هل من الضروري حقًا الخوض في كل هذا، هنا والآن؟"

— "أنا أتحقق من أنه ليس لديكِ سبب للرغبة في التخلص منه بنفسك."

انفجرت إيرين:

— "رحمةً بالسماء! إذا كنتِ لا تثقين بي، فلا يوجد ما يقال. علاوة على ذلك، أرجوكِ امنحيني بعض التقدير لذكائي. لو كنت أحاول اختطافه بنفسي، لما كنت هنا أخبركِ عن الأمر الآن."

قالت كوبيليا:

— "يجب أن أكون متأكدة."

تحركت في كرسيها وتابعت:

— "هل فكرتِ في كيف قد يسير هذا الأمر؟"

قالت إيرين:

— "حسنًا، نعم."

كانت لا تزال غاضبة من تلميح كوبيليا بأنها قد تكون متورطة بأي شكل في اختفاء كاي، لكنها تمكنت من كبح جماح غضبها. إذا كان كاي في خطر، فكل ثانية تهم.

– "على الأرجح، بشكل فوضوي. كما أشرتِ للتو، قد يغضب التنانين – وقد يصبون غضبهم علي."

لاحظت كوبيليا:

– "و«المكتبة» قد تضطر للسماح بذلك. إذا تقرر أنكِ كنتِ المسؤولة عنه، وأخذ التنانين الأمر كإهانة، فقد نضطر لتجريدك من منصبك."

سرت قشعريرة في عمود إيرين الفقري.

– "لن تفعلوا،" قالت.

لكن الأمر حمل حقيقة الكوابيس، وأسوأ السيناريوهات.

– "وعلامة «المكتبة» لا يمكن إزالتها."

كانت عينا كوبيليا مليئتين بالأسف، لكن وجهها كان كالحجر.

– "عزيزتي إيرين، لا يمكننا المخاطرة بحرب من أجل تنين واحد. أو من أجل أمين مكتبة واحد. لقد قمتِ بعمل ممتاز كـ «أمين مكتبة مقيم»، لكن حين تشتد الأمور، سيتحتم على شخص ما تحمل اللوم."

قالت إيرين بجمود متجاهلة البرودة في معدتها:

– "لقد حُذرت كما ينبغي. لننتقل للعمل. كيف أتصل بعائلته؟"

قالت كوبيليا:

– "أسهل طريقة ستكون عبر العالم الذي جندناه منه. هل أعطاكِ رمزه من قبل؟"

أجابت إيرين:

– "فقط أنه واحد من عوالم غاما. إذن تكنولوجيا عالية وسحر متوسط، كما قال. هل سأجد عمه هناك؟"

– "إذا حالفك الحظ. أو أسرة عمه، على الأقل. أفهم أنه يحتفظ بمؤسسة هناك. الاسم الذي يستخدمه هو ريو جوين."

انتظرت إيماءة فهم من إيرين وتابعت:

— "«معبرنا» لذلك العالم — إنه جي-51، لتعرفي — يفتح داخل بقايا «مكتبة بالاتينا» في هايدلبرغ. ريو جوين كان في أوروبا في آخر تقرير قبل بضعة أسابيع، لذا إذا حالفك الحظ لا ينبغي أن تضطري للسفر بعيدًا جدًا. قيل لي إن شبكة القطارات عالية السرعة في ذلك البديل جيدة جدًا."

سألت إيرين:

— "من هو أمين مكتبتنا هناك؟ أفترض أن هناك «أمين مكتبة مقيم»؟"

أومأت كوبيليا.

— "اسمها موراساكي. ومع ذلك، أفضل أن تتجنبي الاتصال بها — كلما قل ما نضطر لشرحه جميعًا عن كاي، كان أفضل."

قالت إيرين:

— "إذا خرجت من «المعبر» وكانت جالسة هناك، سيكون الأمر محرجًا."

كان بإمكانها رؤية وجهة نظر كوبيليا، لكن في الوقت نفسه كان الأمر سيجعل حياتها أسهل بكثير لو تمكنت من الحصول على مساعدة فورية في عبور أوروبا جديدة غريبة. وملابس. ومال.

نخرت كوبيليا.

— "إذا حدث، فاختلقي عذرًا ما. ادعي أنكِ في مهمة تسوق لي إذا لم تستطيعي التفكير في شيء أفضل. حسنًا؟ أي أسئلة أخرى؟"

— "نعم. الـ جوانتيس. هل تعرفين أي شيء عنه، أو عنهم؟"

— "لسوء الحظ لا."

كان الاضطرار للاعتراف بالجهل يزعج كوبيليا بوضوح.

– "سأستفسر أكثر، لكن قد يستغرق الأمر وقتًا. وسأرى إن كان أي شخص يعرف أي شيء عن صراعات قوى «فاي» جارية. أي شيء ذي صلة، أعني."

كان هناك شيء آخر أرادت إيرين سؤاله.

– "هل يستطيع ألبريتش الوصول لي هناك؟ في جي-51؟"

ربما لم يكن الوقت مناسبًا للمخاوف الخاصة، لكن كان عليها أن تعرف. ألبريتش كان شخصية كابوسية، خائن «المكتبة» الأقوى – وقاتل ومسخ أيضًا. وقبل بضعة أشهر واجهته وانتصرت. نتيجة لذلك مُنع من عالم فيل، ولا يمكنه دخول «المكتبة»، لكن فكرة الذهاب لمكان يمكنه العثور عليها فيه جمدت أوصال إيرين. وتألمت الندوب عبر يديها استجابة لذلك. كان سيئًا بما يكفي أنه يقتل الناس، لكن ما يفعله بهم أولًا كان أسوأ.

تأملتها كوبيليا بتفكير، وتساءلت إيرين عما إذا كانت ستُعرض عليها كذبة مريحة لتبقيها في المهمة. أخيرًا قالت كوبيليا:

– "سيكون ممكنًا فيزيائيًا له دخول ذلك العالم. لكن ليس لديه طريقة لتتبعك، ولا سبب لافتراض أنكِ ستكونين هناك–"

اقترحت إيرين:

– "إلا إذا كان خلف اختطاف كاي."

– "لو كان كذلك" – شددت كوبيليا على الكلمة – "لكان قد اختطفكِ أنتِ أيضًا على الأرجح. ثمانية من عشرة لطرح الفرضية، لكن أربعة من عشرة للفشل في تطبيق «النصل الأكامي» ومضاعفة الاحتمالات أكثر من اللازم. الآن، كما كنت أقول، ألبريتش ليس لديه سبب لافتراض أنكِ ستكونين هناك. إنه أيضًا عالم ذو قانون عالٍ وفوضى منخفضة، لذا فهو بغيض لأمثال ألبريتش المرتبطين بـ «الفاي». رغم أن هذا على

الأرجح هو سبب تردد التنانين المحبين للنظام عليه. لا مكان آمن تمامًا سوى «المكتبة»، لكنه على الأرجح في الجانب الأكثر أمانًا من الأمور."

أومأت إيرين، لكن ظلًا من الرهبة بقي.

— "هذا منطقي. شكرًا لكِ."

ومع ذلك، علمت أن ألبريتش سيطارد أحلامها لفترة طويلة قادمة.

قالت كوبيليا بحيوية:

— "في الوقت الراهن أعتقد أن هذه مشكلة واحدة يمكنك تركها خارج الأمور."

دقت ساعة معلنة الوقت من رف مخفي، ونظرت هي وإيرين نحوها. الوقت يمر.

التفتت كوبيليا عائدة لـ إيرين.

— "ماذا تنوين فعله بعد الاتصال بعائلة كاي؟"

قالت إيرين بحزم:

— "أيًا كان ما يتطلبه الموقف."

أخذت نفسًا عميقًا.

— "سأتصل بكِ إذا بدا ذلك مناسبًا."

ابتسمت كوبيليا ببرود.

— "ورغبتك في اتخاذ قراراتك الخاصة لن تكون ذات صلة هنا؟"

أظهرت الابتسامة عمرها. وجهها الهادئ عادة، والمثال على التقدم في العمر بوقار، كان للحظة جمجمة ساخرة ومطلقة للأحكام.

قالت إيرين:

– "سلامة كاي تأتي أولًا. ورغبتي في فعل الأشياء «بطريقتي الخاصة» لن تعيق ذلك أبدًا."

خطت خطوة للأمام.

– "لقد وضعتموه في رعايتي، لذا أنا مسؤولة عنه. فقط دعيني أذهب وأقم بعملي."

بدت حجرة الدراسة هادئة جدًا بعد انفعالها. جلست كوبيليا مستندة بظهرها لكرسيها، ولا تزال تبتسم.

– "إذن أنتِ ذاهبة لاستعادته بدافع الواجب. بدلًا من أي سبب آخر."

انفعلت إيرين:

– "هل هذا ضروري حقًا؟ أحتاج للذهاب لـ جي_51."

سألت كوبيليا بينما تجمع الظلام حولهما وومضت الأضواء، وتغطت سماء الليل بالخارج بالغيوم:

– "ماذا ستقولين لو طلبت منك الإجابة بـ «اللغة»؟"

قالت إيرين:

– "**في هذا الزمـــان وهذا المـكان، لا فرق في سبب ذهـــابي لاستـــعادته، أو تركـــه مع عائلته.**"

لأنه لم يكن هناك فرق.

– "والآن، ماذا ستقولين لو سألتك لماذا أنتِ مصممة جدًا على اختباري؟"

علق السؤال في الهواء بينهما، دون إجابة. ثم مالت كوبيليا للأمام مرة أخرى ونقرت أمرًا سريعًا في شاشتها.

– "استخدمي خزانة النقل السريع مرة أخرى. ستأخذك لباب «معبر» جي_51. كلمة النقل هي «مسؤولية». وشيء أخير."

— "نعم؟"

— "لقد ذكرتني بأنك مسؤولة عن كاي، وكل ما يترتب على ذلك. وأنا أذكرك بأنني مسؤولة عنك. كلانا يعلم أنك تضعين نفسك في خطر. أرجوكِ توخي الحذر."

فاصل سردي (1)

كاي – في السجن

عاد الوعي إلى كاي ببطء وألم، وجسده كله يئن بطريقة توحي بأن هناك خطبًا ما في صميمه. لم يكن ألم عضلات مشدودة أو مفاصل مجهدة، ولا حتى نبض إصابة؛ بل بدا الأمر وكأن الهواء نفسه سام له، وكان هذا رد فعل جسده عليه.

لم يساعد وضعه الجسدي في تحسين الأمور؛ فقد كان ملقى ووجهه للأسفل على ظهر حصان، ويداه لا تزالان مكبلتين خلف ظهره، يتنفس رائحة عرق الخيل النفاذة مع كل جرعة هواء مثيرة للغثيان. كان الطوق حول عنقه يقيد قوته، حابسًا إياه في هذه الهيئة البشرية. لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكانه أو ما يحدث. لكنه أدرك أنه في عالم عالي «الفوضى»، عالم أكثر نفورًا وبشاعة لأبناء جنسه من أي مكان زاره من قبل.

دار رأسه بدوار، وقاوم الرغبة في إغلاق عينيه. تساءل كيف كانت إيرين لتتعامل مع الموقف لو كانت هي السجينة. ستتظاهر بفقدان الوعي، قرر ذلك، حتى تعرف كل ما يمكنها معرفته، ثم تهرب.

كان هناك ماء قريب، يحيط بهذا المكان، ورغم تلوثه بالفوضى وعدم قدرته على لمسه، إلا أنه استطاع استشعار وجوده.

حسنًا. الحقيقة الأولى جُمعت.

كان هناك أناس يمرون بالجوار، يرتدون ملابس زاهية الألوان. ملاحظة أخرى. استطاع سماع أناس يتحدثون بالإيطالية. الإيطالية والماء: لابد أن لهذا دلالة، لكن عقله عجز عن ربط الخيوط في تلك اللحظة.

تمكن من رفع رأسه بما يكفي ليرى ما يحدث أمامه. حصان آخر، يمتطيه رجل — الرجل الذي اختطفه.

اشتد الغضب في أحشائه. لن يتحمل هذا. سوف——سوف...

بدأ العالم يدور مرة أخرى، فخفض رأسه محاولًا التنفس بانتظام. توقفت الخيول، وتناهت إليه أصوات من الأمام.

— "سيدي اللورد جوانتيس، لقد وصلت أبكر من المتوقع. هل لنا أن نسأل إن كانت هناك مشكلة من نوع ما؟"

— "لا شيء مهم."

كان ذلك صوت خاطفه. انشقت شفتا كاي عن زمجرة.

— "اضطررنا لتسريع الخطة قليلًا. ستلحق بي زوجتي في القطار. هل السجن جاهز؟"

— "جاهز يا سيدي. سيسعدنا استلام أسيرك."

— "لا أظن ذلك."

كان هناك غطرسة حازمة في صوت خاطفه.

— "التنين يبقى في عهدتي حتى يصبح داخل الزنزانة، وسأحتفظ بمفتاح طوقه معي."

— "هل تشك في «العشرة» يا سيدي؟"

عض كاي على لسانه بقوة محاولًا التركيز. لابد من وجود شيء هنا يمكنه استخدامه. نجح في رفع رأسه مجددًا ليلقي نظرة أخرى على خاطفه.

بدا «الـفاي» مجهدًا من السفر، وعباءته الفروية الرمادية ملطخة بالغبار والمطر، لكنه لا يزال يحمل نفسه بكبرياء أرستقراطي وقائد.

قال اللورد جوانتيس:

— "أنا أشك في الجميع. هناك شخص واحد فقط في كل العوالم أثق به، وهي ليست هنا. بالطبع، أكنّ أعظم الاحترام لـ «العشرة» خاصتكم. لكن في الدوائر التي نقطنها، من الطبيعي للكبار أن يشكوا في بعضهم البعض."

أصبح صوته أكثر عمقًا، وأدرك كاي أن أشخاصًا آخرين توقفوا للاستماع، مأخوذين بحضور «الـفاي» وكلماته.

— "يا صديقي، نحن نتحرك نحو مستقبل جديد وأعظم، مستقبل نسير فيه جنبًا إلى جنب حتى تخضع عوالم أكثر لسيطرتنا. أنا لا أتحدث عن رؤية صوفية بعيدة المنال. أنا أعرض عليك — وأعرض على جميع «العشرة» الذين يحكمون هذا العالم — أرضًا صلبة وملموسة من الفرص."

أشار بيده إشارة واسعة، نحو أفق بعيد مجازي.

— "سنتقدم للأمام. سنشن حربًا مفتوحة ضد التنانين. ستسقط العوالم أمام «الـفاي» وحلفائنا، كما يسقط القمح أمام المنجل. مخططنا الحالي هو الأول من بين انتصارات عديدة. أولئك الذين يطيعونني سيتم تمجيدهم، سيصبحون آلهة!"

بدا مقنعًا تمامًا. حتى وهو مقيد، عاجز، وسجين، شعر كاي برغبة في الإيماء وقبول ما يقوله هذا الرجل — بل وحتى التطوع. لم يكن هذا سحر «غلامور» المغري الذي يمارسه اللورد سيلفر. كان شيئًا يتجه مباشرة إلى جذر الأمر والطاعة في جذع الدماغ. فهم كاي مبدأ طاعة الشيوخ والرؤساء، وكان هذا الخطاب يحاول العزف على تلك الأوتار نفسها. يمكن للتنين مقاومته. أما البشر فسيكونون أقل قدرة بكثير على المقاومة.



انقطعت جوقة الهمهمات المعجبة التي كانت تتصاعد في الخلفية عندما ارتج زلزال تحتهم، يغذيه موجة من قوة الفوضى. دفع ذلك كاي مرة أخرى نحو فقدان الوعي بينما صهلت الخيول، ترفع رؤوسها وتضرب الأرض بحوافرها. ارتجفت المياه استجابة لذلك، متلاطمة ضد حدودها.

قال اللورد جوانتيس، ولم يبدُ معتذرًا على الإطلاق:

— "أعتذر حقًا. أنجرف قليلًا أحيانًا. آمل أن يقدر سادتك حماسي."

قال الرجل الآخر:

— "بالطبع يا سيدي. لكنني أعتقد أنهم يفضلون أن توفر بلاغتك لأهدافها المناسبة، بدلًا من إهدارها على مواطنيهم العوام."

قال اللورد جوانتيس بمهادنة، وقد عادت نبرة القيادة لصورته مرة أخرى:

— "بالطبع، بالطبع."

لم يستطع كاي التنفس بشكل صحيح. كان الهواء كثيفًا بالفوضى، يسد رئتيه، وكان محاصرًا في هذا الجسد البشري الضعيف. قاوم ذلك، قاوم صوت جوانتيس، قاوم الفوضى المتغلغلة في هذا العالم، التي حرقته كمرض إشعاعي. لكن لم يكن هناك مكان صلب ليقف عليه، ولا شيء يمكنه فعله.

غرق في الظلام مرة أخرى. أبي. عمي. شكّل الأفكار كصلاة بينما يحاول التشبث بالوعي. أين أنتم؟

فيل. إيرين.

ساعدوني...

الفصل السابع

قررت إيرين بأسف أنه لم يكن مفاجئًا أن كاي قد تأقلم بسرعة مع عالم فيل البديل. فقد كان ملوثًا هناك تمامًا كما هو الحال هنا. الفرق الرئيسي هنا هو أن الناس لم يتجولوا بأوشحة تغطي وجوههم. فإما أنهم أثرياء ويقضون حياتهم داخل مبانٍ وسيارات ومكوكيات هوائية وعقارات خاصة مكيفة الهواء، أو أنهم فقراء ويتنفسون الهواء ببساطة — ومن المفترض أنهم يصابون باضطرابات رئوية. كانت الإعلانات المجسمة الوامضة تعرض رئات مزروعة، مستزرعة قسريًا من المخزون الجيني للشخص نفسه. لم يذكر أي من الإعلانات السحر، وهو ما وجدته إيرين مثيرًا للاهتمام. ربما لم تكن هناك طريقة للجمع بين السحر والتكنولوجيا هنا، أو أن السحر كان غير قانوني.

تمنت لو أنها تعرف القليل عن هذا العالم حقًا. حتى دقيقتين مع كتيب معلومات عامة كانتا لتكونا مفيدتين تعليميًا، رغم أنها زارت عوالم مماثلة من قبل. كان عليها افتراض المشاكل القياسية لهذا المستوى من التكنولوجيا: الكثير من المراقبة العامة، وكل شيء يتم إلكترونيًا.

لم يكن هناك أحد على الجانب الآخر من «المعبر»، مما سهّل الأمور. كانت المكتبة قديمة ومليئة بالغبار، والأثاث العتيق، والأرضيات المبلطة، والأقواس الخشبية. لم تكن تلك البهجة المجيدة لعشاق الكتب كما يفترض أنها كانت يومًا ما. لكن هذه كانت مخاطرة «المعابر» القديمة، التي ربما بدأت كمكتبة مهمة أو مجموعة كتب ثم تضاءلت — تاركة «المعبر» لا يزال مستقرًا في مكانه. ومع صعود وسقوط الملوك والطبقات

الأرستقراطية، ما كان يومًا تحفة للحاكم أصبح في النهاية مكتبة عامة باهتة أو متحفًا. مثل هذا المكان. كانت هناك حبال مخملية حمراء كافية ولافتات مفيدة لتوضيح أن هذا المبنى مفتوح للجمهور. لكن لم يكن هناك أثر لأي «أمين مكتبة مقيم»، وكانت إيرين ممتنة لذلك. لن تضطر لإضاعة الوقت في شرح موقفها.

تبعت مجموعة سياح ملائمة للخروج من المكان، وتنانيرها الطويلة بشكل غير متناسق مع هذا العالم ترفرف حول كاحليها. شعرت بأنها مكشوفة لكنها حاولت أن تبدو وكأنها ببساطة غير مواكبة للموضة.

وبعد ذلك، حاول أحدهم سرقتها بالإكراه، في اللحظة التي دخلت فيها زقاقًا قريبًا. وضع ذلك الختم النهائي على مزاجها السيئ، وحدقت في الشاب المرتدي ألوان عصابة والذي يواجهها. كان يصوب جهازًا صغيرًا يطلق شررًا كهربائيًا — نوعًا من أجهزة الصاعق التي تقول «مرحبًا، أنا خطير» — مباشرة نحوها.

قالت بـ «ألمانية» جليدية:

— "تفضل بإبعاد هذا الشيء. وإلا سأجعلك تندم بشدة. أنا في عجلة من أمري ولا وقت لدي لهذا."

رد الرجل:

— "لاا، لديك الكثير من الوقت لهذا."

تفحصها من أعلى لأسفل.

— "لنبدأ بهويتك وبطاقات الائتمان، إن استطعتِ العثور عليها تحت ذلك الفستان."

أخذت إيرين نفسًا عميقًا. كان بإمكانها تفجير سلاحه الإلكتروني، لكنها لم تكن تعرف اسمه الدقيق بـ «اللغة». قد تكون هناك أجهزة إلكترونية أخرى في مرمى السمع، والتي ستتأثر بشكل خطير إذا استخدمت

أسماء عامة — وربما يكون ذلك رد فعل مبالغًا فيه. القتال اليدوي سيكون سريعًا وفعالًا أيضًا، لكن كانت هناك فرصة لأن تخسر.

أما الخيار الثالث... استخدام «اللغة» بهذه الطريقة كان شديد الخطورة ومؤقتًا للغاية، لكن خمس دقائق قد تكون كافية.

قالت بـ «اللغة»، نادمة على عدم امتلاكها وصفًا أكثر تحديدًا لمناداته به:

— "**يا شاب، أنت تدرك الآن أنني شخص تعرف أنه خطير للغاية.**"

شعرت إيرين بالكون يتوتر من حولها وهو يحاول التصالح، داخل العالم المصغر لرأس الشاب، مع الطريقة التي غيرت بها الواقع. لسعها وشم «المكتبة» عبر ظهرها كحروق شمس مؤلمة، وشد صداع على صدغيها. سال الدم من فتحة أنفها اليمنى، فرفعت يدها لمسحه.

للحظة واحدة من الانغماس في الذات، كان من المرضي جدًا مشاهدة عيني الرجل تتسعان رعبًا. رأت أيضًا بقعة داكنة تظهر على بنطال الجينز الضيق بفن.

أمرت عائدة إلى الألمانية:

— "ألقِ سلاحك، وهويتك، وبطاقات ائتمانك. ثم اركض."

أسقط السلاح وكأنه أحرق أصابعه، ثم أخرج محفظة من سترته الشبكية بيد مرتجفة وانحنى ليضعها على الأرض. ثم تراجع عدة خطوات، غير راغب على ما يبدو في إبعاد عينيه عنها، قبل أن يستدير ليركض في الزقاق بسرعة الرعب الخالص.

كان من السهل بما يكفي التلاعب بالأشياء المادية باستخدام «اللغة». لكن العقول الواعية تقاوم، ودائمًا ما تعود في النهاية لوعيها السابق، مع المعرفة بأنها قد خُدعت. بمجرد أن يدرك الشاب أنه خُدع، سيلاحقها

للانتقام. ركلت إيرين السلاح لجانب واحد. ثم التقطت المحفظة، وفتحتها وهي تخرج من الزقاق مرة أخرى. تجاهلت نظرات المارة وتمنت مرة أخرى لو كانت ترتدي ملابس محلية. لم يكن هذا جزءًا من الخطة، لكن يمكنها استغلاله.

بعد ذلك، كان العمل قياسيًا إلى حد ما، وسهله حقيقة أنها لم تكن بحاجة للحفاظ على هوية طويلة الأمد هنا. مرت سنوات منذ احتاجت للعمل في عالم عالي التقنية، لكنها تذكرت المبادئ الأساسية. استخدام «اللغة» لتعديل المراقبة الحاسوبية والخدمات المصرفية حسب الضرورة — والاستمرار في التحرك، قبل أن تعيد النسخ الاحتياطية للكمبيوتر ضبط نفسها وتلاحظ وجود خطب ما.

بضع كلمات بـ «اللغة» مع آلية ائتمان في الجدار أفرغت حساب قاطع الطريق المحتمل وأنشأت حسابًا لها أيضًا. غادرت في عجلة قبل أن يحقق أي شخص في الكاميرات وآليات الأمان المعطلة. متجر محلي رخيص منحها بنطال جينز وسترة. ثم أوصلها ذلك لمتجر ملابس باهظ الثمن، حيث تمكنت من شراء بدلة عمل مهذبة تبدو أنيقة بما يكفي لزيارة مليونير خاص. لم يظهر قاطع الطريق، رغم وجود تدفق مفاجئ لمروحيات الشرطة ذات صفارات الإنذار. تساءلت بشعور قليل بالذنب عما إذا كانت قد أطلقت نوعًا من التنبيه عن مجرم مطلوب بإقناعه أنها شخص خطير للغاية. أوه حسنًا، ليست مشكلتي.

لكن طوال الوقت، وباستمرار، شعرت بإحساس رهيب بالإلحاح. كان يجب أن تكون مع عم كاي بالفعل، لتسأل...

لتسأل ماذا؟ تساءلت إيرين، ناظرة لنفسها في المرآة. لم يعكس مظهرها اضطرابها الداخلي على الإطلاق. كان عليها أن تبدو مناسبة للدور، وإلا فإن فرصها في الوصول إليه ستنخفض بشكل كبير. ريو جوين، عم كاي، كان تنينًا. ومما قاله كاي وكوبيليا، كان تنينًا رفيع المستوى أيضًا،

ومستقرًا في هذا العالم كجامع تحف مؤثر ورجل أعمال ناجح. ربما كانت هناك قصص حيث تفوز الفتيات القرويات تدريجيًا باهتمام ملوك التنانين من خلال تواضعهن الفطري وعذوبة شخصياتهن، لكنها لم تكن تملك سنوات لتضييعها.

تفحصت نفسها. الشعر مرتب، البدلة كلاسيكية، والجهاز اللوحي الصغير يتناسب تمامًا داخل حقيبة يدها الجديدة. كان يمكنها أن تكون رسمًا توضيحيًا نمطيًا في كتاب تمهيدي للأطفال: «س» ترمز لسيدة الأعمال التي تعقد الصفقات. توقف نزيف الأنف تقريبًا. كادت تتذوق يأسها. وكانت مستعدة للذهاب.

كان من المفترض أن يكون ريو جوين في مرسيليا، وفقًا لقنوات الأخبار على جهازها اللوحي. مر وقت طويل منذ استخدمت هذا المستوى من التكنولوجيا، لكنه عاد إليها بعد قليل من التعثر. تحققت من خيارات النقل. مكوك هوائي مستأجر كان باهظ الثمن، لكنه الخيار الأسرع للوصول إلى مرسيليا من ألمانيا. ولم تكن نقودها في النهاية. كان المال أقل مخاوفها في الوقت الراهن.

حامت أسراب من الناس حولها وهي تشق طريقها للمطار. وكان الأمر نفسه هناك أيضًا. كل شيء ساطع جدًا، صاخب جدًا، قاسٍ جدًا، ومتوهج بالأضواء والصور المجسمة. لقد أمضت أشهرًا تعود نفسها على أنماط عالم فيل، والآن بدا هذا المكان خاطئًا تمامًا. شقت طريقها عبر الحشد، وابتسامة باهتة مثبتة على وجهها، وأبقت نظرها على جهازها اللوحي بمجرد وصولها للمكوك الهوائي. حاولت تخيل نفسها كقرش بارد يشق طريقه عبر محيط من الناس، لكن الصورة ظلت تتحول في ذهنها لشيء أشبه بسمكة رنجة. سمكة على وشك أن تُملّح.

بعد ساعة، ولا يزال الصداع يلازمها، خرجت إيرين من سيارة أجرة ذاتية القيادة أمام ناطحة سحاب منعزلة في ضواحي مرسيليا. كانت واحدة

من ناطحات السحاب الأكثر أناقة في المنطقة، طويلة لكن غير طاغية، مصقولة لكن ليست لامعة بعدوانية. نجحت في نقل هالة من الديمومة والقدم، رغم أن السجلات عبر الإنترنت أظهرت أنها بنيت قبل أقل من خمسين عامًا. كانت مملوكة لائتلاف من الشركات، تصادف أنه يشمل شركة تصدير فنون معينة — «شراكات المحيط الشمالي». وكان ريو جوين مديرًا غير تنفيذي. كان كل شيء مرتبًا بعناية ليناسب تنينًا يريد البقاء بعيدًا عن الأنظار العامة، لكنه لا يستطيع مقاومة لمسة صغيرة من العظمة. حتى الشوارع المحيطة كانت نظيفة وشبه فارغة.

قالت للسكرتير في الاستقبال:

— "اسمي إيرين وينترز، وأحتاج لرؤية السيد ريو بشكل عاجل."

التزمت بالفرنسية، لعدم رغبتها في لفت الانتباه هنا. وكما هو الحال مع معظم أمناء المكتبات، كانت اللغات جزءًا أساسيًا من تعليمها — سواء للعمليات السرية أو لقراءة وفهم الأدب الذي ستجمعه.

كان الرجل خلف المكتب ناعمًا لدرجة أنه قد يكون قُدّ من البلاستيك. كان شعره قبعة سوداء مصقولة، تستقر على رأسه وكأنها ملصقة بالغراء، ووجهه خالٍ تمامًا من الحركة. لمعت شرائح سيبرانية صغيرة على طول أظافره، تطلق شررًا وهو يمرر أصابعه على الشاشة أمامه.

قال وصوته مسطح كعينيه، وفرنسيته مثالية:

— "أنا آسف. السيد ريو مشغول في الوقت الحالي. إذا كنتِ ترغبين في إرسال تفاصيلك إلينا——"

قالت إيرين:

— "هذه مسألة عاجلة، وإلا لما كنت هنا."

كرر السكرتير:

— "السيد ريو مشغول للغاية في الوقت الحالي."

استوعبت نظرته ملابس إيرين ومستويات ثرائها وموضتها، وبنفس السرعة صرفها كشخص غير مهم.

— "في حين أنه عُرف عنه رعاية فرص الاستثمار، إلا أن هذا يتم بناءً على توصية خاصة فقط. أخشى أنني يجب أن أطلب منكِ المغادرة يا سيدتي."

كان الردهة فارغة، فضاء له صدى بأرضية رخامية سوداء باهتة وأعمدة رمادية باردة. كانت إيرين والسكرتير الشخصين الوحيدين فيها. بضعة كراسي هشة قرب الباب لم تفعل شيئًا لكسر التأثير المهيب للغرفة. إذا كانت مصممة للترهيب، فقد نجحت.

رفعت إيرين ذقنها.

— "أنا ممثلة لـ «المكتبة». أعتقد أن السيد ريو قد تعامل مع مجموعتنا من قبل."

وحتى لو لم يفعل، فهذا يجب أن يجذب انتباهه.

بادلها السكرتير التحديق للحظة طويلة، ثم خفض عينيه ومرر أصابعه عبر الشاشة مرة أخرى.

توقف مؤقت.

ومضت الشاشة.

— "أخشى أن السيد ريو غير متاح في الوقت الحالي. شكرًا لاهتمامك بشركتنا. إذا كنتِ ترغبين في ترك رسالة، سيسعدنا الاتصال بكِ في وقت لاحق."

حسنًا. وقت خيار القوة الغاشمة، على أمل أن يمنحها عم كاي جلسة استماع، بدلًا من رميها ببساطة من النافذة.

مالت إيرين أقرب وقالت بصوت ناعم:

– "أنت تدرك أنه قد تم التصريـــح لك للتو بإرســـالي للأعلى لرؤية السـيد ريو."

ازداد صداعها عمقًا بينما طنّت «اللغة» في الهواء، لكنها دفعت الألم جانبًا بسهولة الممارسة. كانت قلقة أكثر من أن هذا لن يدوم لأكثر من بضع دقائق، أو حتى ثوانٍ. كلما زادت الأسباب التي تجعل الشخص يشك في إدراكه المتأثر بـ «اللغة»، زاد احتمال فشل التأثير.

لكن في الوقت الحالي نجح الأمر. رمش السكرتير بدهشة مما اعتقد أنه رآه. بلا شك هو نادرًا ما يرسل أشخاصًا للأعلى لرؤية السيد ريو.

– "تفضلي بأخذ المصعد للطابق الخمسين. المساعد الشخصي للسيد ريو، السيد تسوران، سيكون في انتظارك في المكتب على اليمين."

أومأت إيرين بأدب، كابحة ابتسامة ساخرة، وتوجهت للمصعد. لم يكن هناك صوت بينما ينزلق صعودًا، كهف واسع بجدران وأرضية من الزجاج الداكن المعتم. كان كبيرًا بما يكفي ليحمل شاحنة صغيرة بالإضافة لرجل أعمال، وحاشيته، ومجموعة من حراس الأمن، وحشد من الصحفيين فوق ذلك. علمت إيرين وهي تصعد أن كاميرات أمنية تراقبها في هذه اللحظة الدقيقة. حتى لو ظن السكرتير أنها تملك تصريحًا، فأمن المبنى سيعرف أفضل منه.

ومض طابق تلو الآخر على المؤشر العلوي. أملت أن يكون عم كاي – أو مساعده الشخصي على الأقل – فضوليًا بما يكفي لسماع الخطاب الذي أعدته. ذلك أفضل من أي من البدائل البغيضة.

انزلق الباب ليفتح على ممر بجدران وأرضية من البلاط الشاحب الأملس. نوافذ ضخمة على اليسار تطل على المدينة بالأسفل والبحر وراءها. وكان هناك باب واحد مجهول الهوية على اليمين.

كان هناك أيضًا ستة رجال ونساء يحيطون بمدخل المصعد، مجهولون في بدلات سوداء أنيقة ونظارات داكنة. لم يكن أي منهم يحمل أسلحة ظاهرة، لكنهم امتلكوا تلك الوقفة المتزنة لرياضيي الدفاع عن النفس المدربين، وشكت في وجود أغماد مخفية. وسواء كانت محققة أم لا، فقد كانوا خطرين بوضوح.

شخص سابع وقف وراءهم. كانت بدلة عملها الرمادية أغلى ثمنًا بمراحل من بدلاتهم، ومفصلة بقصة رجالية بالتأكيد، حتى مع الأخذ في الاعتبار الموضة هنا نحو ملابس عمل للجنسين. وجهها ذكر إيرين بوسامة كاي الدرامية. لم يكن كمال عارضة أزياء اللامع، بل الجمال الشبيه باللهب لشيء مفعم بالحياة أكثر مما ينبغي ليكون آمنًا، محبوسًا في هيئة بشرية مؤقتة. انحنى شعرها الفضي الطويل في فرق فوق حاجبها الأيمن وجُمع عند مؤخرة عنقها، لينسدل أسفل ظهرها في ذيل طويل يصل لوركها. أزرار أكمامها وربطة عنقها كانت سوداء غير لامعة. نظرت لـ إيرين نظرة تقييمية، ببرودة تهمس بـ: مفترس.

شعرت إيرين بأنها مكشوفة بشكل فظيع دون هوية منتحلة تختبئ خلفها. الجواسيس لا يلعبون دور أنفسهم أبدًا، وهي لم تضطر لفعل ذلك منذ — حسنًا، عقدين من الزمن على الأقل. لكن حياة كاي قد تكون على المحك.

قالت بأدب:

— "مساء الخير."

قالت المرأة في الزي الرمادي:

— "عليكِ أن توضحي موقفك."

— "أرجو المعذرة على تطفلي."

قدمت إيرين نصف انحناءة، من النوع الذي يظهر الاحترام دون أن يكون خضوعًا فعليًا. كانت واعية للتوتر المتزايد بينما تأرجحت يدها عبر سترتها.

– "اسمي إيرين، وأنا خادمة لـ «المكتبة»."

ابقي هادئة وواثقة من نفسك، ذكرت نفسها. أنتِ ممثلة لقوة عظمى. تتوقعين الاحترام اللائق كأمر مسلم به.

– "حقًا. هكذا أخبرتِ السكرتير في الأسفل، وهو بدوره أخبركِ أن سيدي مشغول."

أمالت المرأة رأسها، معطية انطباعًا بتشمم الهواء.

– "أقرّ بأنه لا يوجد شيء من الفوضى فيكِ. لستِ ملوثة بتلك الطريقة. لكن مع ذلك، هذا التطفل غير مرحب به."

قالت إيرين باتزان:

– "لم أتمكن من تقديم وصف كامل للأمور للحارس في الأسفل. بعض الأمور تتطلب خصوصية أكبر."

– "لم أكن على علم بأن سيدي «آو شون» قد أبدى أي اهتمام بزيارة خاصة من أي عضو في «المكتبة»."

خطت المرأة خطوتين غير مباليتين نحو إيرين.

– "ربما يمكنكِ الشرح؟"

تصفه بـ «سيدي» وليس «ملكي»، لاحظ الجزء التحليلي في عقل إيرين، مع عمل تدريبها. علاقة إقطاعية شخصية وثيقة؟ تبدو أنها تلعب دور المساعد الشخصي لـ جوين، إن كان لذلك قيمة. ولابد أن هذا هو الاسم الحقيقي لعم كاي، بدلًا من الاسم المستعار البشري.

قالت إيرين:

— "كنت مؤخرًا بصحبة فرد يسمي نفسه كاي، والذي كان يتدرب بـ«المكتبة» تحت توجيهي. لقد ذكر..."

أي لقب يجب أن أستخدم؟

— "أن عمه قد يوجد في هذا العالم، تحت اسم ريو جوين."

— "وتتجرئين بناءً على تلك المعرفة؟"

قبضت إيرين يديها عند السؤال حاد النبرة، واضطرت لإجبار يديها على الاسترخاء، شاعرة بخيوط النسيج الندبي على راحتيها مع عودة السيطرة.

— "على الإطلاق."

أخذت نفسًا وابتسمت بكياسة. الكياسة كانت أمرًا بالغ الأهمية لـ كاي، ولن يكون الأمر مختلفًا هنا.

— "لكن لدي شيء غير متوقع للإبلاغ عنه، بخصوص ابن أخ ريو جوين. اعتقدت أنه من الأفضل إبلاغ عمه وطلب نصيحته. هل تكون أنت السيد تسوران؟"

— "هذا صحيح،" قال التنين.

قررت إيرين التفكير في الشخص كتنين فقط، لأنه لا توجد طريقة ليكون هذا أي شيء سوى تنين.

— "عندما تقولين إن شيئًا قد حدث، ماذا تعنين بالضبط؟"

قالت إيرين، وصوتها ببرودة صوت تسوران:

— "لقد غادر كاي العالم الذي كان يتدرب فيه كمتدرب «مكتبة» لدي."

قررت اعتبار التنين ذكرًا. إذا قدم نفسه بـ «سيد»، فمن هي لتجادل في النقطة؟

– "تلقيت رسالة بعد وقت قصير تدعي أنها من عائلته – تقول إنه عاد إليهم. إذا كنت قد تسببت بشكل ما في إساءة لعائلته، فبطبيعة الحال أرغب في الاعتذار. لكن إذا كان شيء آخر قد حدث، حسنًا..."

بسطت يديها، مدركة أن الحراس الشخصيين الستة المفترضين يتوترون مرة أخرى.

– "مسؤوليتي الخاصة تجاه كاي جعلتني أرغب في التحقيق."

ساد صمت طويل. ثم قام تسوران بإيماءة صغيرة بيده اليسرى، وتراجعت حلقة الحراس للخلف.

– "تفضلي بالدخول لمكتبي."

كانت الغرفة وراء الباب على اليمين مليئة بالمساحة والضوء، ومبلطة بنفس بلاط الممر جدرانًا وأرضية. لكن سقفها ارتفع لضعف ارتفاع الممر بالخارج. لابد أن هذا الطابق والطابق الذي فوقه مدمجان بطريقة ما، أدركت إيرين. مكتب من الجرانيت الأسود في المركز خطف العين وسيطر على الغرفة، كما كان القصد بوضوح. على الجدار الأيمن كانت هناك نوافذ أكثر، لكن على اليسار سرها ملاحظة مجموعة مرتبة من أرفف الكتب، وخزانة ملفات داكنة أنيقة بصرامة. بدت الأخيرة في غير محلها في عالم مليء بتكنولوجيا الحاسوب كهذا. في الجدار البعيد كان هناك باب وحيد.

استند تسوران على المكتب.

– "الرسالة؟"

– "في وقت مبكر من هذا الصباح" – نعم، لا يزال اليوم نفسه، أليس كذلك؟ – "عدت للمنزل من العمل لأجد أن كاي لم يكن هناك، وكنا قد اتفقنا على اللقاء."

لم تكن لتقول مسكننا حتى تمتلك بيانات أكثر عن تعايش التنانين مع البشر.

— "كنا قد حُذرنا بأننا قد نكون في خطر، لذا قلقت. ثم تم توصيل هذه."

مدت يدها في حقيبتها وأخرجت الملاحظة، التي لا تزال في ظرفها، وقدمتها لـ تسوران.

أخذها تسوران بيد طويلة الأصابع، وظهر خط رفيع بين حاجبيه وهو يقرأ. كان تلميحًا للقلق، مخفيًا جيدًا لكنه لا يزال حاضرًا.

تابعت إيرين:

— "ثم وجد معارف مشتركون دليلًا على أن كاي قد تعرض لاعتداء وأُخذ بعيدًا. لا أعرف بالضبط ما الذي يجري. لكنك ستتفهم أنني كنت قلقة."

سأل تسوران دون أن يعيد الملاحظة:

— "وإذا كان ذلك من فعل عائلته؟"

صمدت إيرين في مكانها ونظرت في عين تسوران.

— "لم أعتقد ذلك. مما أعرفه عن التنانين، هذه ليست رسالة كانت عائلته لترسلها."

صمت تسوران للحظة، بدت طويلة جدًا. منحت إيرين وقتًا كافيًا لتخمن ما إذا كانت قد أهانته شخصيًا للتو، أو عائلة كاي تحديدًا، أو التنانين بشكل عام، وما ستكون العواقب في كل حالة.

قال أخيرًا:

— "إذن ما هو هدفك هنا؟"

هزت إيرين كتفيها، هادفة للامبالاة بينما ارتفع مستوى التهديد في الغرفة. رغم أنني لست من ملوك التنانين، ذكرت نفسها، فبصفتي ممثلة لـ «المكتبة»، أنا على مستوى طاقمه.

— "إذا حدث شيء لـ كاي، فأنا أرغب في التحقيق. أكنّ قدرًا كبيرًا من الاحترام له."

ومودة ودية، ورغبة، وانزعاجًا من عدد المرات التي اقترح فيها أن نذهب للفراش... لم تكن تعرف ما الذي سيؤثر في تسوران. كان تنينًا في النهاية، وليس بشريًا. في مواجهة نظرته الباردة غير المنفعلة، وجدت الكلمات تخونها.

— "أريد فقط التأكد من أنه بأمان. لن أتركه في الخطر."

هل كان ذلك تلميح تعاطف في عيني التنين؟

قال تسوران:

— "لقد فعلتِ الشيء الصحيح."

لا، لم يكن تعاطفًا بحد ذاته؛ كان استحسانًا. اجتاحت موجة ارتياح إيرين.

— "أرجو ألا تشعري بالحرج لقدومك لطلب مساعدتنا، أيتها الشابة. في ظل هذه الظروف، لم يكن ذلك الشيء اللائق لفعله فحسب، بل كان الشيء الذكي لفعله. أمهليني لحظة وسأتحدث مع سيدي."

حنت إيرين رأسها، مقاومة الرغبة في الجثو على ركبتيها بينما مشى تسوران نحو الباب البعيد. كانت هالة السلطة والقوة الخام المحيطة به صعبة التجاهل. حتى لو كان مجرد خادم، فهو خادم رفيع المستوى. والآن ربما تكون قد وصلت أخيرًا لـ ريو جوين نفسه.

باعتراف الجميع، مع لافتة كبيرة على ظهرها تقول: «قابلة للتضحية».

انفتح الباب الذي أُغلق خلف تسوران مرة أخرى. لم تكد تمر دقيقة. كان هذا إما جيدًا جدًا أو سيئًا جدًا.

وقف تسوران هناك، ممسكًا الباب مفتوحًا.

– "يمكنك الدخول. جلالة الملك «آو شون»، ملك المحيط الشمالي، يأذن لك بالمقابلة."

الفصل الثامن

كانت الغرفة خلف الباب أكبر بكثير من مكتب عادي. للنظرة الأولى المذعورة لـ إيرين، بدت وكأنها فضاء مظلم لا نهائي. لكن لحظة من رباطة الجأش مكنتها من رؤية حدود الجدران والسقف العالي، ومع ذلك، بقي ذلك التأثير الأول المذهل عالقًا بذهنها. بدا الهواء وكأنه يلتف حولها كالتيار، ساحبًا إياها إلى عمق أكبر.

لم تكن هناك نوافذ هنا، وكانت الجدران مكسوة بنفس المعدن الداكن كالأرضية، ومزخرفة بمنحنيات انسيابية متداخلة، ذكرت إيرين بزيارات للمتاحف وصور للرواسب المعدنية تحت الماء. رايات حريرية ثقيلة تدلت على مسافات منتظمة، واشتعلت بلورات على الجدار كالمشاعل. ألقت ضوءًا باردًا وغير ودود، ترك معظم الغرفة الضخمة غارقًا في الظلال. وببساطة لم يكن هناك مكان للذهاب إليه سوى نحو الشخصية في الطرف البعيد، الجالسة خلف مكتب على منصة مرتفعة.

أُغلق الباب خلفها بنقرة حين دخل تسوران وأغلقه.

قال التنين حاثًا إياها:

— "يمكنك الاقتراب."

كان يعلم بوضوح متى يحتاج السائل المبتدئ لتلميح صغير حول إتيكيت البلاط المناسب.

بدأت إيرين المشي بتوتر نحو العرش، ولم تستطع تأجيل النظر لملك التنانين أكثر من ذلك. وحين فعلت، تمنت لو لم تفعل، فقد كانت مرعوبة

تمامًا كما توقعت. لأن هذا التنين — جلالة الملك «آو شون»، ملك المحيط الشمالي — لم يكلف نفسه عناء اتخاذ هيئة بشرية.

كان عرشه موضوعًا خلف المكتب الرخامي، مما سمح لـ إيرين برؤية جيدة للملك التنين. جلس مضاءً، رغم غياب مصدر طاقة هنا، حيث ألقت قوته ضوءها الخاص. سقطت بضع خصلات من الشعر، داكنة كالجزع، عبر جبهته، لكن معظمه كان مربوطًا للخلف في جديلة طويلة. برز قرنان توأمان من شعره، كل منهما بطول بضع بوصات، وكل منهما مصقول وحاد. ولم تكن بشرته سوداء تمامًا؛ كانت بظلمة رمادية صافية كظلمة سماوات ملبدة بالغيوم بلا قرار. ظنت إيرين أنها تستطيع تمييز أنماط الحراشف الدقيقة عبر وجنتيه، حتى من مسافتها الحالية. أظافره — لا، بل مخالبه — كانت مشذبة مثل أظافر تسوران، باستثناء أنه لم يتظاهر بأنها أي شيء آخر غير مخالب. وكانت عيناه حمراوين كالحمم البركانية الطازجة، لكن باردتين ومتجمدتين. كان يرتدي رداء حريريًا أسود ثقيلًا وطويلًا، محفوفًا بالأبيض وغنيًا بالتطريزات.

حاولت إيرين حفظ كل شيء في ذاكرتها كما تعلمت، لأن ذلك منحها بعض الشعور بالسيطرة. وفي تلك اللحظة كانت تصارع للتعامل مع الثقل الساحق لحضور ملك التنانين. كانت الغرفة ممتلئة بقوة «آو شون»، وكان ينتظر ليرى ما إذا كانت تستطيع المشي نحوه عبرها.

فردت كتفيها وهي تتقدم للأمام، ولسع وشم «المكتبة» على ظهرها، غير مرئي لكنه مؤلم بحدة. وجدت نفسها فجأة، وبغباء، تتذكر دروس الوقفة الصحيحة من طفولتها. وأين يجب أن تتوقف؟ استقرت إيرين على بعد عشرة أقدام أمام العرش وانحنت من خصرها، مبقية الانحناءة لثلاث ثوان قبل أن تعتدل.

فتح «آو شون» يده اليمنى، باسطًا أصابعه ذات المخالب نحوها.



— "إيرين، خادمة «المكتبة». أرحب بك في مملكتي."

شكرًا لله، لم أرتكب أي خطأ فادح — حتى الآن.

أجابت وصوتها ثابت قدر استطاعتها:

— "يا صاحب الجلالة، أنا ممتنة للطفك. وأعتذر لأنه ليس لدي هدية مناسبة."

شعرت بوخزة من القلق. ففي النهاية، الهدايا كانت متوقعة في زيارات الدولة.

أمال «آو شون» رأسه.

— "أنا أتفهم أنكِ جئتِ في عجالة، وأضع القلق على سلامة ابن أخي فوق أي عدد من الهدايا."

فهمت إيرين التلميح للدخول في صلب الموضوع.

— "لقد أخبرت بالفعل..."

أي لقب تشريف يجب أن أستخدم؟ حسنًا، هو مساعد الملك الشخصي.

— "السيد تسوران بما أعرفه. قد أكون مخطئة تمامًا يا صاحب الجلالة، وإذا كان الأمر كذلك، فأنا أعتذر بتواضع. لكنني لم أستطع المخاطرة باحتمالية أن تكون الملاحظة مزيفة وأنني أترك كاي في خطر."

أشار لها «آو شون» لتكمل، وسردت إيرين بسرعة أحداث اليوم.

أومأ برأسه حين اقتربت من النهاية.

— "فهمت. وعلاقتك الخاصة بابن أخي علاقة متحفظة، ربما؟"

رمشت إيرين، وبدت الأرضية شيئًا رائعًا لتفحصه في هذه اللحظة بالذات. مناقشة «علاقتها» بـ كاي، مع عمه المرعب وغير البشري، ستكون صعبة للغاية. لكنه بالتأكيد لن يطردني لإفسادي أخلاق كاي — أليس

كذلك؟ خاصة وأنني لم أفسده. لقد بذلت جهداً عظيمًا لعدم إفساده. لكن وجنتيها توردتا حمرة، وكان بإمكانها تخمين كيف سيبدو ذلك.

كان عليها قول شيء ما.

— "نحن نتشارك السكن يا صاحب الجلالة، لكن، كما تقول، نحن متحفظان."

— "ممه."

كان الصوت غير ملزم. لكنه لم يكن عدوانيًا. استرخت إيرين بتردد للحظة وأملت ألا تكون قد ألزمت نفسها بعلاقة مدى الحياة.

سأل «آو شون»:

— "هل لي أن أسأل عن أسماء ونسب والديك؟"

أجابت:

— "والداي كلاهما أمينا مكتبة يا صاحب الجلالة."

ضاقت عينا «آو شون» فجأة، وشعرت بشيء بارد في معدتها. هل قالت الشيء الخطأ؟

— "اسم والدتي المختار هو رازيل[8]، ووالدي هو ليو شيانغ."

اسم أسطوري لـ «ملاك الأسرار» مأخوذ من عالم بديل، واسم تاريخي من بديل آخر، اختير تيمنًا بأول مفهرس لمكتبة إمبراطورية «هان» الصينية — لم يستطع أمناء المكتبات مقاومة الأسماء المستعارة ذات المعنى.

— "لم يخبراني أبدًا بما كانت أسماؤهم قبل الانضمام لـ «المكتبة»."

قال «آو شون»:

— "عليك أن تعذري دهشتي."

---

[8] رازيل (ملاك الأسرار): ملاك في التراث اليهودي يُقال إنه حارس الحكمة الخفية وأسرار الخلق، ومنسوب إليه كتاب يكشف المعارف المحجوبة عن البشر.

لم يبد الأمر كدهشة بقدر ما بدا تيقظًا باردًا، لكن إيرين فضلت بالتأكيد أن يكون دهشة.

— "لم أكن أعلم أن أولئك الذين أقسموا اليمين لـ «المكتبة» يتخذون شركاء وينجبون أطفالًا. قيل لي إن تفانيكم لواجبكم يأتي فوق كل الأشياء الأخرى."

شعرت إيرين باحمرار يزحف على وجهها مرة أخرى.

— "يا صاحب الجلالة، بسببهما أصبحت أمينة مكتبة بنفسي. لطالما أعجبت بعملهما."

أومأ «آو شون» ببطء. لم تكن لا تزال قادرة على قراءة تعابيره، وتمنت لو كان في هيئة بشرية كاملة مثل كاي.

— "في هذه الحالة، أنت تتبعين مسار عمل صحيح بالاستمرار في خدمة مكتبتك."

سمعت الباب يهمس مفتوحًا ومغلقًا مرة أخرى خلفها، وخاطب «آو شون» تسوران.

— "لديك الصور يا لي مينغ؟"

— "نعم،" قال تسوران — أو هل يجب أن يكون لي مينغ؟ التفتت إيرين قليلًا، بما يكفي لتراه واقفًا على جانب واحد. كان يحمل جهازًا لوحيًا رفيعًا، وشاشته تتوهج بضعف في الغرفة المظلمة.

قال «آو شون» مخاطبًا إياها مرة أخرى:

— "إيرين."

بدا غريبًا سماع اسمها الشخصي منه. ربما لأن صوته ذكرها بـ كاي، وذلك جعلها غير مرتاحة.

— "شوهد شخصان يراقبان منطقتي في هذا العالم. سيريح بالي لو تمكنت من إخباري أنك لم تريهما."

كان هناك شيء متعالٍ في موقفه الآن، حتى مع الأخذ في الاعتبار ترفعه الملكي. هل يصدقني حقًا بأن كاي في خطر؟ شعرت بوخزة نفاد صبر مقترنة بالرهبة — كاي قد يكون في خطر كبير الآن، بينما هي تثرثر مع عائلته.

أظهرت الشاشة اللوحية صورتين منفصلتين. على اليمين، امرأة واقفة. كان شعرها الداكن الطويل مثبتًا بمشبك عند قاعدة عنقها، وينسدل على كتف واحد في تموجات فضفاضة. كانت تعلو وجهها ابتسامة لطيفة، مع لمحة طفيفة جدًا من التحفظ في عينيها جعلت الابتسامة تبدو صادقة لا متكلفة. كانت تضع سترة زرقاء داكنة على كتف واحد، وترتدي قميصًا أبيض بلا أكمام وبنطالًا أزرق داكنًا يصل للكاحل. وكانت الخلفية رصيف ميناء قديم أو قرية صيد. غطت قفازات قطنية بيضاء رقيقة يديها، ممتدة على ذراعيها حتى المرفقين.

على اليسار رأت رجلًا جالسًا، وفي إحدى يديه المقفازتين سيجار. كان يجلس على طاولة في مطعم — ومطعم باهظ الثمن للغاية، بحسب ما يبدو من الديكور. كان ملتحيًا بعناية، مع شارب يؤطر فمه. انحسر شعره الرمادي الحديدي عن جبهته في «منبت شعر مثلثي»، وظللت حواجب محددة جيدًا عينيه. بدت ملابسه، وهي بدلة عمل وربطة عنق حريرية، باهظة الثمن بقدر المكان.

قطبت إيرين جبينها.

— "لا أعرف أيًا منهما. وأنا متأكدة من أنني كنت سأتذكرهما لو رأيتهما. لكن التقارير عن اختطاف كاي ذكرت رجلًا ملتحيًا..."

سأل «آو شون» وهو يميل للأمام:

– "هل أنتِ متأكدة؟ ربما كانا متنكرين بطريقة ما."

هزت إيرين رأسها.

– "أنا آسفة، لكنهما ليسا مألوفين. ولكن انتظر، من فضلك."

ترددت قليلًا ثم تابعت:

– "كان هناك هجوم علي وعلى كاي قبل ليلتين، شجار تافه عندما كنا عائدين للمنزل في وقت متأخر."

توقفت، فأومأ لها «آو شون» لتكمل.

– "كانوا مجرد بلطجية، ليسوا تهديداً خطيرًا على الإطلاق. قالوا إنهم استؤجروا من قبل امرأة في حانة محلية. في ذلك الوقت، اعتقدت أنه ربما كان هناك شخص يراقب من السقف بالأعلى – لكنني افترضت حينها أنه مجرد خيال مني..."

أدركت أنها على وشك الانزلاق في ثرثرة عصبية، فأطبقت فمها.

أولى «آو شون» الأمر بضع ثوانٍ من التفكير المتأمل، ثم هز رأسه.

– "الرابط ضعيف للغاية. لكن هل تتعرضين لمثل هذه الهجمات كثيرًا؟"

شعرت إيرين بدرجة حرارة الغرفة تنخفض درجتين. لم يكن الأمر مجازيًا. ضغطت نظرة «آو شون» عليها، وكادت تشعر بوجود لافتة مضيئة فوق رأسها تقول: «أقود ابن أخيك إلى الهاوية».

– "ليس دون سبب وجيه لها يا صاحب الجلالة."

أشاح «آو شون» بنظره عنها أخيرًا. تمكنت إيرين من سماع صوت شهيقها، عاليًا بشكل متطفل في صمت الغرفة.

– "جيد جدًا،" قال، رغم أنه لم يتضح ما الذي يعلق عليه. "لقد أثرتِ نقاطًا يجب عليّ التحقيق فيها أكثر."

مال للأمام وفتح درجًا في مكتبه، مخرجًا كيسًا من الحرير الأسود. وبجذبة للأربطة عند عنقه، انفتح الكيس، وسقط قرص صغير متلألئ معلق بسلسلة لامعة في راحة يد «آو شون».

حدق فيه. ازداد التوتر في الغرفة كثافة. ومن الخارج، ترددت دمدمة رعد زاحفة عبر الجدران بشكل خافت. عندما رفع «آو شون» رأسه مرة أخرى، كان تعبيره واضحًا. غضب.

قال، وقد بدأ الرعد يتردد في صوته الآن أيضًا:

— "عندما عُهد بابن أخي إلى رعايتي، صُنعت هذه التميمة بدمائنا الممتزجة. بمراقبة هذه التميمة، كنت أستطيع التأكد من أنه بخير وآمن، أينما ذهب. لكن الآن وقد أعطيتني سببًا لفحصها، أجد أنه أصبح خارج نطاقي حتى. هذا يعني أنه يسكن الآن عالمًا عميقًا جدًا داخل تيار الفوضى بحيث لا يمكنني المغامرة بالذهاب إلى هناك بنفسي. مثل هذه العوالم سمٌّ لبني جنسي. والأسوأ من ذلك، أن الظهور هناك سيعتبر عملًا حربيًا من قبل أولئك الذين يستوطنون ذلك الجزء من الواقع — اللعنة عليهم! وحتى من أجل ابن أخي، لا يمكنني المخاطرة بمثل هذا الشيء."

شعرت إيرين بالدم يهرب من وجنتيها. كانت قد تخيلت كاي يُسحب إلى عالم آخر، لكن ليس إلى عمق الفوضى. حتى «المكتبة» كانت تراقب أو تحظر روابطها بمثل هذه العوالم. وإذا لم تكن تعرف في أي عالم هو، فليس لديها طريقة للعثور عليه.

— "ولكن، يا صاحب الجلالة، بالتأكيد——"

نهض «آو شون» واقفًا.

— "هذا أمر لا يطاق."

كان الضغط في الغرفة يزداد، وكأنهم على عمق أميال تحت البحر.

— "لن يتم التسامح مع هذا."

— "يا صاحب الجلالة."

أجبرت إيرين نفسها على اتخاذ خطوة للأمام، مصارعة الثقل على كتفيها والطنين في أذنيها. شعرت بالدوار، وخفة الرأس، وعدم اليقين، لكنها عرفت أن عليها توضيح نواياها. جثت على ركبة واحدة.

— "أنوي العثور على كاي وإعادته. هذه الإساءة ضده هي إساءة لي أيضًا. ألتمس مساعدتك. إذا كانت هناك أي طريقة يمكنك بها مساعدتي، سأكون ممتنة."

تذكرت تحذير كوبيليا من أن إيرين قد تصبح أضحية لإنقاذ علاقة «المكتبة» مع ذوي كاي، إذا تم لومهم. لكنها أرادت أيضًا إنقاذ كاي بشدة.

غمر الصمت الغرفة. أجبرت إيرين نفسها على النظر للأعلى وملاقاة عيني «آو شون». ونظر إليها ألف عام من القوة والغضب في المقابل.

— "خذي."

مشى نحوها. استطاعت رؤية الغرض المتدلي من يده الآن؛ كان قلادة من اليشم الأسود في سلسلة فضية رفيعة كالخيط. كانت الزخرفة عبارة عن نقش غائر لولبي لتنين، مصمم على الطراز الصيني وملتف حول نفسه في حلقات متعددة. كان القرص بعرض بوصة واحدة فقط أو نحو ذلك، لكن كان له حضور خاص به.

— "قد يكون لديكِ اتصالات لا أملكها. أقترح أن تستخدميها. هذه التميمة يجب أن تساعدكِ في العثور على ابن أخي، إذا كنتما في العالم نفسه."

أمسك القلادة أمامها. وتخمينًا لما يدور في ذهنه، كورت إيرين يديها ليتمكن من إسقاطها فيهما. لم تلمس بشرته بشرتها، وسقطت القلادة، باردة كالثلج، في يديها.

– "قد تكون مفيدة لك أيضًا كعلامة على رضاي، إذا دعت الحاجة. ولكن الأهم من ذلك كله، إذا كنتِ في خطر – أو إذا كان ابن أخي في خطر – ضعي قطرة من دمكِ عليها وألقيها للرياح. سيتم إرسال المساعدة."

قالت إيرين وهي تحني رأسها مرة أخرى:

– "شكرًا لك يا صاحب الجلالة."

قال «آو شون» وهو يتراجع عنها:

– "لديكِ القليل من الوقت. أستطيع أن أدرك أنه ضعيف وفي محنة. واعلمي هذا يا إيرين."

كان هناك شيء محدد بشكل غير مريح في الطريقة التي نطق بها اسمها.

– "أقر بأن أي خطأ محدد في حمايته قد يكون مشتركًا بيننا. خطئي، لعدم رعايته بشكل أفضل، وخطؤك، بصفتك معلمته. ولكن إذا هلك، أو ما هو أسوأ، فإن العالم الذي اختُطف فيه سيكون عبرة لأولئك الذين قد يتحدون عائلتي. وأنا وإخوتي لن نتأخر في إيصال ذلك التحذير. هل تفهمين؟"

كان هناك رعد في صوته، وأعاصير، وأمواج مد، وكل الغضب الوحشي للطبيعة الهائجة.

– "نعم يا صاحب الجلالة،" تمتمت إيرين.

– "إذن يمكنكِ الانصراف."

جلس على عرشه مرة أخرى.

– "يمكنك إبلاغ رؤسائك أنه ليس لدينا شكوى بشأن سلوكك. أرجو أن تنقلي تحياتي لمن هم في السلطة فوقك."

نهضت إيرين وانحنت مرة أخرى.

— "شكرًا لك يا صاحب الجلالة. أنا ممتنة لاهتمامك بهذا الأمر. سأبذل قصارى جهدي."

أزّت فيها رغبة ملحة للانطلاق، مصارعة ضغط سلطته.

صرّ الباب مفتوحًا، وبينما مشت نحوه، سحبت تيارات الغرفة حول ساقيها كالماء، جارة إياها للخارج معها. كان من السهل فقط اتباعها، والعمل على إبقاء نفسها منتصبة، والتركيز على وضع قدم أمام الأخرى...

خطت للخارج إلى ضوء المكتب الخارجي، وانزاح الثقل فجأة عن كتفيها، تاركًا إياها فجأة خفيفة وغير مقيدة لدرجة أنها كادت تتعثر. اختفى ألم وشم «المكتبة» عبر لوحي كتفيها أيضًا، رغم أنه بدا مجرد إزعاج طفيف مقارنة بحضور الملك التنين. وبينما كانت غيوم العاصفة العظيمة تتجمع على الجانب الآخر من النوافذ، معتمة الغرفة، كان لا يزال هناك نوع مختلف تمامًا من الضوء هنا عما في أعماق قاعة العرش. لم تكن إيرين أبدًا مؤمنة كبيرة بقيمة ضوء الشمس كطفلة (بمعنى: ضعي الكتاب جانبًا واخرجي للعب)، لكنها في هذه اللحظة اعتقدت أن معلميها كانوا محقين في وجهة نظرهم.

أغلق تسوران — أو هل يجب أن تفكر فيه كـ لي مينغ، إذا كان ذلك اسمه الحقيقي؟ — الباب خلفها.

— "هل يمكنني تقديم أي مساعدة في رحلة عودتك؟" سأل بأدب.

بدا من العبث محاولة إخفاء طريقة سفرها، والسرعة كانت حيوية.

— "أحتاج للوصول إلى مكتبة،" قالت إيرين، محاولة جعل الأمر يبدو اعتياديًا.

قال لي مينغ:

— "بالطبع. أنا متأكد أن جلالته لا يريد أن يزعجك أي تأخير. والآن، هل تفي أي مكتبة بالغرض؟"

— "طالما أنها كبيرة بشكل معقول. بضع غرف من الكتب على الأقل، من فضلك."

كانت القلادة لا تزال في يدها، فوضعتها حول عنقها بينما تمتم لي مينغ في هاتف صغير. كان اليشم باردًا ضد بشرتها وظل باردًا، تذكيرًا بوجوده. لم تستطع استشعار أي شيء منه، كما كان «آو شون» يستطيع بوضوح. لكن ربما لو كانت أقرب لـ كاي، أو لو استخدمت «اللغة» بطريقة ما، لاستطاعت استخلاص المعلومات منه.

بعد نصف دقيقة، كان لي مينغ يرافقها للخارج إلى المصعد.

— "ستكون هناك مركبة بانتظارك في الأسفل،" شرح وهو يمشي بخطوات واسعة بجانبها. اضطرت للمشي بسرعة لمواكبته. "ستأخذك إلى «مكتبة بانييه[9]» (Bibliothèque du Panier)."

قالت إيرين:

— "شكرًا لك."

كانت طرقها المهذبة للتعبير عن الامتنان تنفد.

— "أنا ممتنة جدًا."

رد لي مينغ:

— "لا عليكِ. هذا أقل ما يمكننا فعله، في ظل الظروف. لا يسعني إلا الاعتذار عن تسرع سلوكي. والآن، إذا سمحتِ لي..."

كلانا لديه عمل لينجزه. كان المعنى الضمني غير المنطوق واضحًا جدًا لدرجة أن إيرين تركت نفسها تُستعجل عبر وداعات مهذبة وتُدفع للأسفل وللخارج. بطريقة ما، كان من المطمئن أن لي مينغ كان بوضوح في عجلة من أمره، بافتراض أن عمله الملح يتعلق بـ كاي — أو أنه أراد من

---

[9] *Bibliothèque du Panier* : مكتبة حقيقية تقع في حي لو بانّييه في مدينة مرسيليا بفرنسا

إيرين المضي قدمًا في محاولة إنقاذها. وبالفعل كانت هناك مركبة تنتظر، سيارة حوامة فاخرة بسائق، نقلتها بسرعة إلى وجهتها في دقائق، تحت سماء كانت تعقد نفسها في عاصفة رعدية كاملة.

عندما وصلت إيرين إلى المكتبة، أنشأت ممرًا غير مرصود للعودة إلى «المكتبة» بدافع الغريزة المحضة، مشغولة جدًا بتخيل التهديدات التي تواجه كاي لتقلق بشأن رؤيتها. بقي ذلك الإلحاح معها، حتى داخل «المكتبة». عبرت أرفف الكتب اللانهائية، وعبر الغرف الفارغة، حتى وجدت محطة حاسوب. وكان عليها حينها تلخيص كل شيء في بريد إلكتروني سريع لـ كوبيليا، واحد علمت أنه قد يُستشهد به لاحقًا كدليل ضدها: أمينة المكتبة المسؤولة عن أمن كاي حين اختطف...

وماذا كان عليها أن تقول؟ الأمر أسوأ مما ظننا. كاي في عمق الفوضى، وإذا كان عالمًا يسمم عمه، فقد يقتله هو أيضًا. إنه ضعيف وفي محنة. قد لا يحمل «آو شون» هذا ضد «المكتبة»، لكنه بالتأكيد سيحمله ضدي. وقد هدد حتى بتدمير عالم فيل. كدرس وعبرة.

لكن كل ما استطاعته هو الإبلاغ عن الحقائق. كانت القلادة لا تزال باردة ضد لحمها.

انتظرت إيرين ردًا، ناقرة بأصابعها على الطاولة المصنوعة من الحديد المطاوع التي يجلس عليها الحاسوب. نظرة غير صبورة حول الغرفة أكدت أنها مزينة بأسلوب ريفي خارجي — أرفف كتب مطلية بالكلس الأبيض، أثاث مطلي من الحديد المطاوع، ألواح أرضية خشنة.

لم تكلف نفسها عناء التحقق من الكتب الموجودة على الأرفف.

وبنصف انتباهها، استدعت خريطة لأسرع طريق إلى «المعبر» المؤدي لعالم فيل. وللدهشة، لم يكن بعيدًا جدًا. ساعة مشي. وربما نصف ساعة، إذا ركضت.

لا رد من كوبيليا.

الدقائق تمر.

أعلم أنكِ تفضلين الركض لرؤسائك طلبًا للأوامر، تردد صدى صوت فيل في مؤخرة عقلها من جدالات سابقة.

كنت بحاجة لجمع المعلومات والتحدث لقوم كاي، أخبرت نفسها. كان الشيء الصحيح لفعله. وكوبيليا أيدت ذلك. ومع ذلك، الذهاب للبحث عن كاي كان شيئًا مختلفًا تمامًا. كان من المفترض بـ «أمين المكتبة المقيم» البقاء في العالم البديل الذي عُين فيه. الركض بمفردها سيكون متهورًا، وغير حكيم، وغير مهني. قد تفقد منصبها. وقد تفقد أكثر من مجرد منصبها. قد تصل معلومات جديدة في أي دقيقة، ولن تكون هناك لتراها.

لا إجابة على الشاشة. لا بيانات إضافية حول الـ جوانتيس. لا شيء.

جاءتها الفكرة في لحظة مفاجئة من التحرر المرعب. ما الذي يمكن لـ كوبيليا أن تأمرها بفعله ولم تكن لتفعله على أي حال؟ كوبيليا تعلم أن إيرين ستبذل قصارى جهدها للعثور على كاي وحمايته.

وماذا لو لم تكن الأوامر هي العثور على كاي وحمايته؟

— "حسنًا،" قالت إيرين بصوت عالٍ وهي تقف.

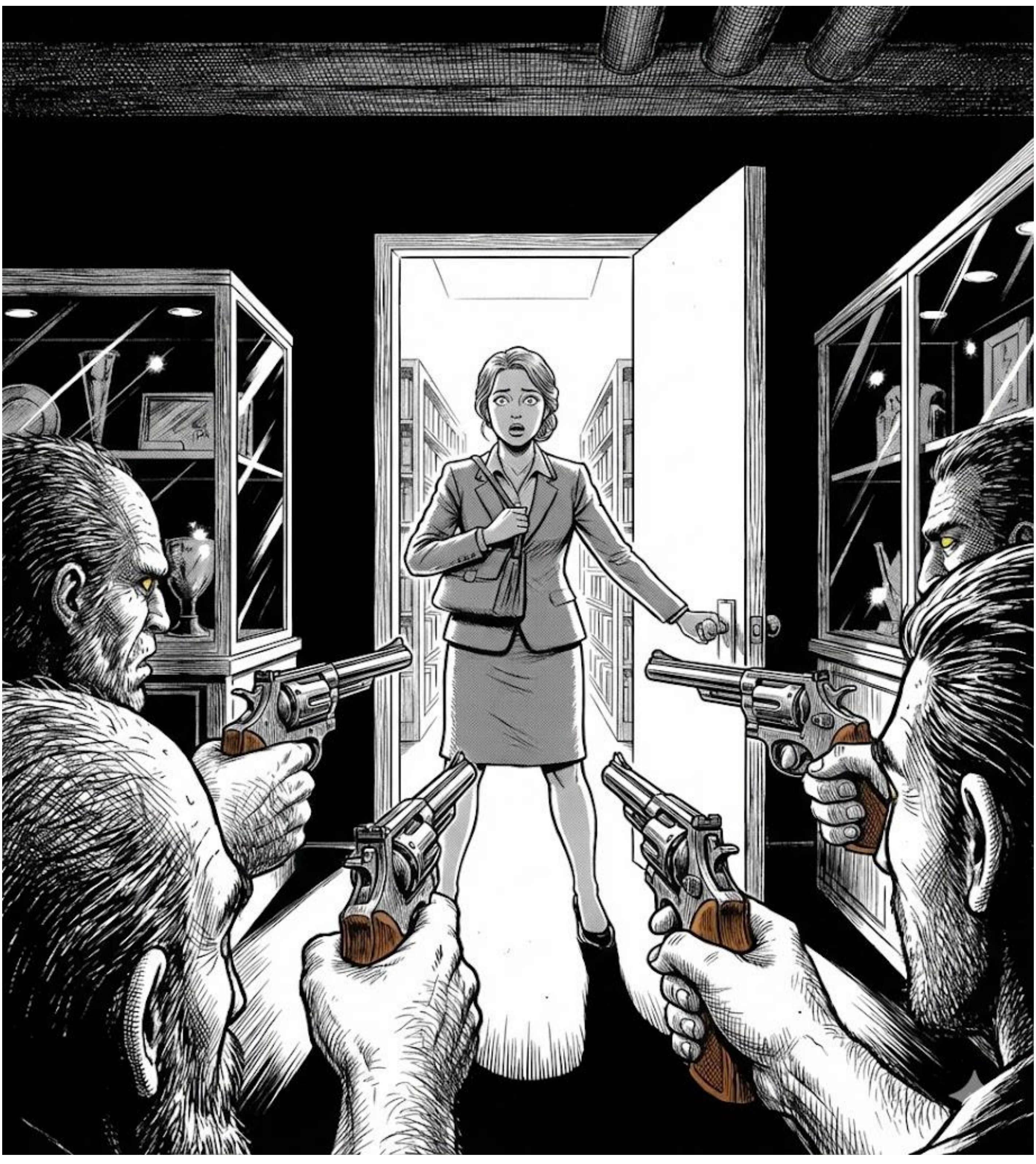
انحنت لتطفئ الحاسوب.

— "في تلك الحالة، أفترض... أنني لم أتلقَّ أي أوامر. يا للأسف."

كانت الأحذية ذات الكعب العالي ملابس عمل مناسبة. لكن كان من الأسهل الركض بجواربها فقط، حاملة الحذاء عبر ممر مظلل تلو ممر مظلل مصطف بالكتب.

لم يعترض أحد طريقها بحلول الوقت الذي وصلت فيه لـ «المعبر». استعدت، نافضة الغبار عن قدميها ومرتدية حذاءها مرة أخرى، ثم ثبتت حقيبة يدها تحت ذراع واحدة. للحظة ترددت، وكأن كوبيليا ستخرج من الظلال وتعرض المساعدة. لكن إيرين تجاوزت الحاجة لذلك. خطت عائدة عبر الباب وإلى مسكنها الحالي.

كانت الغرفة على الجانب الآخر مليئة برجال ضخام كثيفي الشعر. كان لديهم مسدسات. وكانوا يصوبونها نحوها.



الفصل التاسع

تجمدت إيرين في مكانها كأول رد فعل غريزي؛ فهي لا تملك تلك الاستجابات السريعة التي يتمتع بها أبطال أفلام الحركة، أو على الأقل ليس دون تحضير مسبق. ناهيك عن أن أبطال الحركة عادة ما يكونون أطول قامة، وأكثر لياقة، وبنية جسدية تتفوق على خصومهم. أما هي، فلا يتعدى طولها خمسة أقدام وتسع بوصات وهي ترتدي جواربها، ولم تكن مفتولة العضلات، على عكس خصومها الخمسة ذوي البنيات الضخمة الذين باغتوها.

ورغم أنهم كانوا جميعًا يصوبون مسدساتهم نحوها، متكدسين في الغرفة ومتراجعين بظهورهم نحو خزائن العرض الزجاجية، إلا أن ملامحهم لم توحِ بأنهم توقعوا حقًا خروجها من الخزانة. ربما يمكنها استغلال عنصر المفاجأة هذا لصالحها.

أصدر أحد الرجال نخيرًا ساخرًا وهو يكتم ضحكة بيده، وقال بصوت أجش:

— "إذن، ها هي ذي أخيرًا. لا عجب أن أحدهم كان يخبئ هذا الأرنب الصغير في خزانته."

اهتز المسدس في يده وهو يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها، مستوعبًا ملابسها الغريبة التي لا تنتمي لهذا الزمن بتنورتها القصيرة، وتابع:

— "ليس من الصعب تخمين ما يحب الأساتذة في هذه الأنحاء الاحتفاظ به تحت مكاتبهم، أليس كذلك؟"

تركت إيرين جسدها يسترخي بوهن مستندة إلى الجدار، وخفضت عينيها بارتجاف مصطنع محاولة فهم ما يجري. من الواضح أنهم كانوا بانتظارها، وهناك شخصان فقط في هذا العالم الموازي يعرفان بشأن مدخل المكتبة: فيل، وسيلفر. أو لنقل سيلفر وأي شخص من الفاي قد أخبره بالأمر. وهي تفترض أن فيل لن يرسل خلفها بلطجية رخيصين كهؤلاء...

قال رجل آخر، وقد بدا مثل رفاقه بحواجب كثيفة، وكفوف مُشعرة، وعيون صفراء تثير القشعريرة:

– "اسمعي يا حلوة، لا تسببي لنا أي متاعب ولن تتأذي."

رائع. المزيد من المستذئبين.

تابع الرجل:

– "سنصطحبكِ فقط في نزهة قصيرة. هناك سيد نبيل يرغب في ابتعادكِ عن شؤونه لبِضعة أيام. كوني مؤدبة، وحافظي على هدوئك، ولن يصيبكِ أي مكروه."

انكمشت إيرين داخليًا من ركاكة الحوار الذي بدا وكأنه مقتبس حرفيًا من "قصص البطلات الغبيات اللواتي لا يستحققن الحياة ما لم ينقذهن البطل".

لابد أن ملامحها عكست عدم اقتناعها، إذ ضيق الرجل عينيه مزمجرًا:

– "لا تجبرينا على فعل هذا بالطريقة الصعبة يا حلوة."

قالت بصوت حاولت أن تجعله يبدو وديعًا وعاجزًا:

– "لا... سأكون مطيعة... أرجوكم لا تؤذوني."

تداخل رجل آخر محذرًا:

– "ولا تحاولي إلقاء أي من تلك التعاويذ. لقد أُخبرنا بأنكِ تجيدين السحر."

آه، إذن تم تحذيرهم بوضوح بشأن "اللغة"، ولكن بطريقة يستوعبونها. ومع ذلك، يبدو أنهم لم يكمموا فمها، مما يعني أن لديها فرصة للحديث. تركت إيرين شفتها السفلى ترتجف بأسى، ورمشت بطريقة توحي بدموع وشيكة، باذلة قصارى جهدها لتبدو بائسة. استرخت أجساد الرجال قليلاً، لكن لسوء الحظ، لم يخفضوا مسدساتهم. يا للأسف. كان بإمكانها التفكير في نصف دزينة من الطرق لاستخدام "اللغة"، لكنها لم ترغب في الدخول في سباق مع رصاصة منطلقة.

كانت لا تزال تتشبث بحقيبة اليد التي تحوي الجهاز اللوحي الإلكتروني. تظاهرت بالخوف الشديد وضمت الحقيبة إلى صدرها بحركة بدت عفوية، بينما انزلقت أصابعها خلسة لفتح مشبك الحقيبة والدخول إلى جوفها. تحسست حافة الجهاز اللوحي وزر التشغيل.

أمرها الزعيم بصرامة:

– "ألقِ الحقيبة. لا تحاولي إشهار مسدس في وجوهنا يا عزيزتي."

قالت بصوت مرتجف:

– "لن أجرؤ على ذلك."

ضغطت على زر تشغيل الجهاز، وتركت الحقيبة تنزلق من بين أصابعها لترتطم بالأرض بصوت مكتوم. تابعتها عيون الرجال للحظة قبل أن يعاودوا النظر إليها.

ثلاثة، اثنان، واحد...

صدح رنين التشغيل نقيًا وواضحًا عبر قماش الحقيبة الرقيق.

كان الجهاز اللوحي قطعة تكنولوجية رائعة، مبرمجًا للبحث فورًا عن الاتصالات اللاسلكية المحلية وتفقد الرسائل. ولكن في عالم يخلو من

الاتصالات اللاسلكية، وحيث تجتذب إشارات الراديو تداخلات شيطانية، لم يكن للجهاز أي فرصة للعمل بسلام. انبعث من الحقيبة صرير مشوش، سرعان ما تصاعد ليتحول إلى هدير من أصوات غير بشرية تصرخ بلغة حمدت إيرين الرب أنها لم تميزها.

كانت ردة فعل الرجال كما أملت تمامًا؛ تحولت فوهات المسدسات عنها لتصوب نحو الحقيبة عند قدميها، وانهمر وابل من الرصاص يمزقها. دوي انفجار مكتوم من الداخل، وبدأ الدخان يتصاعد بكثافة.

مثالي.

تحركت إيرين بالفعل، مندفعة خلف أقرب خزانة عرض، وصاحت مستخدمة "اللغة":

— "يا دخان، تكاثف واملأ الغرفة، وانشر رائحتك العفنة!"

استجاب الدخان بسرعة فاقت توقعاتها. تضخم عمود الأبخرة الصغير ليتحول إلى سحابة بيضاء كثيفة، امتدت في جميع الاتجاهات حتى لامست الجدران والسقف، حاملة معها رائحة بلاستيك محترق جعلت الدموع تفر من عيني إيرين، وهي التي ليست مستذئبة حتى. رسمت جوقة الشتائم المفاجئة ابتسامة شرسة على شفتيها. كان بعض الرجال يصرخون مطالبين إياها بالعودة—إلى أي مدى يعتقدون أنها غبية؟—لكن البقية، بحواس شمهم القوية، كانوا يعانون بشدة من الرائحة النتنة.

تسللت إيرين بسرعة عبر الظلام الدامس نحو المخرج، مستفيدة من حفظها الدقيق لتخطيط المكان الذي مكّنها من التحرك وكأنها معصوبة العينين، وهو ما كان عليه حالها فعليًا الآن.

لسوء الحظ، الدخان الذي حجبها عن الأنظار حجب البلطجية عنها أيضًا. فعلى بعد خمس خطوات من الباب، اصطدمت بأحدهم، مما

فاجأها وفاجأ المستذئب. تعافى هو من المفاجأة أسرع منها قليلًا، وشعرت بيده تتحسس كتفها.

لم يكن لديها وقت لهذا. اقتربت إيرين أكثر وسددت ضربة بكف مفتوحة ومستقيمة نحو موضع حنجرته. شعرت بشيء يتهشم تحت يدها بينما أنَّ الرجل من الألم، فأتبعت ذلك بركبة قوية سددتها نحو فخذه. تراخت قبضته، فانتزعت نفسها منه وهرعت لقطع الخطوات القليلة المتبقية نحو الباب.

خلفها، وجد المستذئب المصاب صوته ليصرخ:

— "العاهرة هنا!"

لحسن الحظ، لم يكن البلطجية قد أغلقوا الباب بالمفتاح. سحبته بقوة وتعثرت خارجة إلى هواء الممر النقي، بينما كانت وقع أقدام غير مرئية تزمجر نحوها. وبحلق محترق من الدخان، أمرت بصوت حاد:

— "**يا بـــاب، أغـــلق نفسك وأوصــــد الأقفال!**"

انغلقت جميع الأبواب المفتوحة في نطاق السمع بضربات مدوية تردد صداها في المكان. طقطقت الأقفال وهي تغلق وتدور تروسها لتثبت في مكانها. ومن خلف الباب الخشبي الثقيل خلفها، تناهى إلى سمعها صرخات وعواء، وأصوات ارتطام رجال ضخام يلقون بأنفسهم ضده.

كانت أبواب المكتبة البريطانية صلبة، لكنها لم تخطط للانتظار لترَ مدى صمودها أمام مجموعة من المستذئبين الهائجين. استجوابهم كان ليكون مفيدًا، لكن تبادل المعلومات مع فيل يأتي أولًا. نفضت الغبار عن ملابسها، وانطلقت عبر الممر نحو المخرج.

صعد رجل الدرج راكضًا، لكنه توقف فجأة حين رآها، وهتف:

— "يا إلهي يا وينترز! ما الذي حدث لكِ؟"

رمشت إيرين. الصوت صوت فيل. لكن الوجه لم يكن وجهه؛ كان مختلفًا وتملؤه التجاعيد، ومرتديًا ملابس أكثر رثاثة من المعتاد. لكن الصوت كان صوته بلا شك.

– "فيل؟ هل هذا أنت؟"

لطالما اعتقدت أن الأشخاص الذين يطرحون أسئلة كهذه حمقى، لكنها أدركت الآن أنه رد فعل منطقي تمامًا حين يخاطبك شخص غريب تمامًا باسمك.

أجاب فيل بجفاء:

– "هذا واضح. عليكِ أن تعذري مظهري؛ فهناك عدد من الأشخاص يبحثون عني."

أمال رأسه، ملتقطًا الجلبة الصادرة من الغرفة التي غادرتها إيرين للتو، وملاحظًا الدخان المتسرب من تحت الباب، وأضاف:

– "هل لي أن أفترض أنكِ أيضا واجهتِ بعض... الإزعاج؟"

هزت إيرين كتفيها قائلة:

– "تم التعامل مع الأمر. مستذئبون—حوالي ستة—أُرسلوا لخطفي. هل تعتقد أننا سنستفيد شيئًا من استجوابهم؟"

– "لا وقت لذلك، وعلى أية حال أشك أننا سنكتشف شيئًا لم أعرفه مسبقًا."

جال بصره في إيرين مرة أخرى، بملامح صدمة تشبه صدمة عالم أنثروبولوجيا في العصر الفيكتوري يكتشف أن الأزياء الأجنبية قد تكشف ما هو أكثر بكثير من مجرد الكاحل.

– "يجب أن نكمل حديثنا في مكان آخر. سأبلغ الشرطة في طريقي للخروج."

أومأت إيرين موافقة:

— "فكرة جيدة على الأرجح. اكتشافاتي عاجلة."

أومأ فيل:

— "خشيتُ أن تكون كذلك. سأستعير معطفًا لأخفي..." — لم يقل "فاضح"، لكن الفكرة كانت واضحة في نبرته — "...هندامكِ هذا، وسننطلق في طريقنا."

بعد عشرين دقيقة، كانا يجلسان معًا في مقهى صغير. كانت إيرين متدثرة بأمان داخل معطف ضخم استعاره من قسم المفقودات في المتحف البريطاني، والذي أخفى معظم ملابسها التي لا تنتمي لهذا العصر. حل المساء، وشعرت أن الوقت يداهمهما. لكن فيل أصر على استقلال سيارة أجرة لمسافة قصيرة لتضليل أي مطاردة، ورفض مناقشة أي شيء حتى وصلا إلى المقهى. استغل الفرصة ليزيل بعض مساحيق التنكر في السيارة، ليعود شبيهًا بالرجل الذي تعرفه. طلبا الشاي، وراحت إيرين تدفئ يديها على الكوب.

قالت إيرين:

— "لقد تواصلتُ مع عم كاي."

مال فيل بجسده للأمام بنفاد صبر:

— "وماذا بعد؟ ماذا قال السيد؟"

— "إنه مستاء للغاية."

امتدت أصابعها لتلمس القلادة المخفية تحت ملابسها عند عظمة القص، وتابعت:

— "استطاع أن يشعر بأن كاي في محنة، وأنه في عالم أكثر فوضوية بكثير من هذا العالم. أعتقد أنه سيجري تحقيقاته الخاصة، لكنه لا يستطيع

الوصول إلى عالم كهذا؛ فطبيعته تتعارض مع ذلك المكان، ودخول ملك تنين إلى هناك سيُعتبر بمثابة إعلان حرب."

قال فيل بحدة:

— "وينترز، تكرمي بإعطائي مزيدًا من التفاصيل. لا يمكنني العمل دون معلومات كافية، وأنتِ لم تعطني سوى رؤوس أقلام."

سردت إيرين وصفًا دقيقًا للقاء بينما كان فيل ينصت باهتمام. كان تركيزه، بطريقة ما، مثيرًا للتوتر تمامًا مثل نظرات ملك التنانين الثاقبة. سأل بلهجة آمرة:

— "هل يمكنكِ أن تريني الصور التي رأيتها لهذين الشخصين؟"

هزت إيرين رأسها نافية:

— "لا وسيلة لدي لفعل ذلك. ولا، أنا لا أجيد الرسم، لذا أرجوك لا تطلب مني المحاولة."

أصدر فيل صوتًا ساخرًا، وأشار لها لتكمل. عندما انتهت، استند بظهره إلى المقعد وتنهد:

— "أخشى أن هذا يتوافق مع استنتاجاتي الخاصة. مهما كان ما يجري، فالأشخاص المتورطون ينشطون هنا والآن،في... عالمي."

وافقت إيرين قائلة:

— "كان هناك مستذئبون بانتظاري. لا يمكن أن تكون مجرد صدفة."

— "بل أكثر من ذلك."

بدا عليه انزعاج غريب، وهو أمر غير معتاد لرجل يبقى هادئًا عادة في خضم الفوضى، وأكمل:

— "لقد تعرضتُ لمضايقات شخصية. الشرطة تبحث عني فعليًا. قُدمت شكاوى ضدي عبر القنوات القانونية ولدى الشرطة. سينغ أيضًا

واجه مشاكل بنفسه—هناك اتهامات موجهة إليه باستغلال منصبه—لذا من الجيد أنكِ لم تحاولي الذهاب لرؤيته. ربما يكون ذلك بسبب ارتباطه بي. أحدهم يحاول عرقلة تحقيقاتنا من خلال تعطيل القنوات الرسمية. لقد جئت إلى المكتبة البريطانية على أمل اعتراض طريقكِ."

رفعت إيرين حاجبها بدهشة. كان المفتش سينغ يبدو شديد التدقيق والنزاهة في لقاءاتهما السابقة.

تابع فيل:

— "لقد نُبشت تهم معينة تتعلق بالشؤون الداخلية ضده نتيجة لتلك الاتهامات، لذا لا يمكنني الاعتماد على مساعدته في هذه القضية. اتصلتُ برئيسته، لكنها أبلغتني أنه من الأفضل لي تجنب أي تعامل علني معه في الوقت الراهن. ذلك سيزيد الطين بلة. الشرطة لن تكون ذات نفع في هذا الأمر."

نقر فيل بإصبعه النحيل على سطح الطاولة، وقطب جبينه ناظرًا إليها، ثم راح يكشط بدقة طبقات الأوساخ المتراكمة التي منحت الطاولة مظهرًا أثريًا فريدًا.

— "والسبب الآخر الذي دفعني للبحث عنكِ هو أنني وجدتُ مسكنكِ تحت المراقبة، كما توقعت."

انقبض شيء ما في حلق إيرين. لقد كان يومًا حافلًا، ولم تعتد أن تكون مستهدفة شخصيًا بهذا الشكل.

— "آه. شكرًا لك."

— "على الرحب والسعة يا وينترز. لا أعتقد أنهم قصدوا قتلكِ فعليًا، ولكن..."

هز كتفيه، ولم تكن حركة مطمئنة بالمرة، ثم أضاف:

— "رأيتُ أنه من الأفضل عدم المخاطرة."

ارتشفت إيرين قليلًا من الشاي. كان طعمه سيئًا تمامًا كما توقعت.

— "الشخصان اللذان رصدهما عم كاي يمثلان خيطًا واضحًا للتحقيق. وإذا كان كل هذا مترابطًا—هل هناك أي احتمال أن يكونا هما آل جوانتيس؟"

أومأ فيل برأسه وقد بدت عليه علامات نفاد الصبر:

— "نعم، هذا هو الاستنتاج المنطقي، ووصفكِ يبدو مطابقًا لهما. إذن، لدينا احتمال وجود اللوردِ جوانتيس أثناء اختطاف سترونغروك، بصحبة امرأة مجهولة. لقد تأكدت أيضًا من أن الليدي جوانتيس كانت غائبة عن السفارة الليلة الماضية، ومن المعروف أنها ترتدي دبوس وشاح من النوع الذي ذكره مهاجمكِ. من المؤسف أننا لم نتمكن من استجواب أولئك المستذئبين الذين هاجموكِ للتو، لكن البقاء هناك كان مخاطرة كبيرة."

استند إلى كرسيه، وعيناه نصف مغمضتين، وأصابعه متشابكة على شكل هرم؛ كانت تلك وضعيته المعتادة التي تشير إلى استغراق عميق في التفكير.

أخذت رشفة أخرى من الشاي. نعم، مقزز للغاية. كانت أضواء الأثير تومض في محاريبها، ومن الخارج تناهى صرير وعقعقة عجلات العربات. كانت المحادثات على الطاولات الأخرى خافتة ومتحفظة، والجو العام يشي بنوع من الارتياب الهادئ وغير القانوني. قررت أن فيل ربما يكون زبونًا دائمًا هنا.

نفض فيل عنه الخمول ومال للأمام مرة أخرى:

— "دعيني ألخص تحقيقاتي يا وينترز. لكي أقدم لكِ شرحًا وافيًا—إذ لا يمكنني أن أقدم أقل مما قدمتِ—فإن وصفكِ لهاتين الشخصيتين

يكاد يطابق شخصين وصلا حديثًا إلى سفارة ليختنشتاين. اثنان من الفاي."

نطق الكلمة باشمئزازه الجاف المعتاد، وأضاف:

— "وإن كانا بطبيعة الحال يرتديان ملابس مناسبة لهذا الزمان والمكان."

جعلت إمالة رأس فيل إيرين تتذكر أنها ترتدي ملابس غير مناسبة تمامًا تحت معطفها. بالتأكيد شخص مثله سيكون أرفع من أن يحكم بالمظاهر، إن كان لأي أحد أن يفعل. إذا كان بإمكانه تجاهل حقيقة أنها من عالم آخر، فمن المستغرب ألا يستطيع تجاهل قصر تنورتها.

سألته بسرعة:

— "وماذا اكتشفتَ عنهما؟"

— "الرجل يُعرف باللورد جوانتيس. والسيدة هي زوجته، أو هكذا تدعي. يزعمون أنه ماركيز، لكن الأدلة غائبة. هما——أو هو على الأقل—— وصلا حديثًا من ليختنشتاين عبر منطاد من برشلونة."

سألت إيرين:

— "هل هما إسبانيان؟" — فالاسم المستعار "جوانتيس" يأتي من تلك اللغة.

قال فيل:

— "لا، لكنه بالتأكيد يستمتع بلعب دور النبيل الإسباني. هل لي أن أكمل؟"

أطبقت إيرين فمها وأومأت برأسها.

تابع فيل:

— "اللورد جوانتيس متواجد في لندن منذ أسبوعين ربما. لدي... مصدر مطلع يتابع مثل هذه الأمور. الليدي جوانتيس ربما وصلت في الوقت نفسه، لكنها تفتقر إلى البهرجة المعتادة لدى بني جنسها. من الواضح للجميع أن جوانتيس وسيلفر يخوضان نوعًا من صراع القوى، وهو ما يؤكد تحقيقاتكِ. يقيمان حفلاتهما بشكل منفصل ويتجاهلان بعضهما في العلن. والربّ وحده يعلم ما قد يفعلانه في الخفاء."

سألته:

— "وماذا تفعل الليدي جوانتيس؟"

حدق فيل في شرابه:

— "القليل جدًا مما تمكنتُ من اكتشافه. وهذا يزعجني. والآن اختفى اللورد جوانتيس، ويبدو أن الليدي جوانتيس تستعد للمغادرة هي الأخرى."

فكرت إيرين مليًا:

— "هناك رابط إذن. واللورد سيلفر حذرني أنا وكاي من أننا تحت التهديد. وبيانات المكتبة تشير إلى تاريخ سابق بينهما. إذا كانا عدوين..."

قاطعها فيل مكملًا فكرتها:

— "بالنظر إلى ديناميكيات الفاي، فإذا علم سيلفر بشيء ما، فمن الطبيعي أن يرغب في إحباط خططهم. ولكن في هذه الحالة، لماذا يستهدفون سترونغروك؟ أعتقد أنه يمكننا الافتراض بشكل معقول أنهم بالفعل المسؤولون عن اختفائه."

قالت إيرين، وحلقها جاف عند التفكير في وقوع كاي تحت رحمة مخلوقات تمقته بقدر ما يمقتها:

— "بسبب طبيعة عائلته."

تجرعت رشفة أخرى من الشاي بصعوبة بالغة.

سأل فيل وعيناه الداكنتان تلمعان بحدة:

– "هل الأمر بتلك الأهمية بالنسبة لـ الفاي؟ يبدو كل هذا تسلسلًا مبالغًا فيه للأحداث."

بسطت إيرين يديها قائلة:

– "التنانين والفاي أعداء قدامى. عداوتهم تمتد لأجيال—أجيالهم هم، وليس أجيال البشر فقط. إنهم ينحدرون من طرفي نقيض في الواقع. هم لا يفكرون كالبشر يا فيل. أنت تعرف سيلفر وكاي—حسنًا، إنهما ضعيفان نسبيًا. التنانين أو الفاي الأقوياء أبعد عنهما بمراحل، تمامًا كما يختلف كاي وسيلفر عنا."

لاحظ فيل:

– "عنا.. تتحدثين عن نفسكِ وكأنكِ بشرية مثلي تمامًا."

لسعت ملاحظته إيرين:

– "ألا تراني كذلك؟ أؤكد لك، لقد ولدتُ بشرية. أنا بشرية."

قال فيل بصبر:

– "وينترز، أنتِ تبلين حسنًا معظم الوقت، لكن بين الحين والآخر، حين تناقشين أعمال مكتبتكِ، تشيرين إلى (البشر العاديين). أجرؤ على القول إنكِ لا تلاحظين ذلك حتى."

حسنًا.

شعرت إيرين ببعض الخجل. لم تكن فكرة جيدة لأمينة مكتبة أن تبدأ في اعتبار نفسها مميزة، مهما كانت أهمية وظيفتها، ومهما كانت غرابة العوالم التي تسافر إليها. فهذا يؤدي إلى أوهام الألوهية وأشياء خطيرة أخرى. مثل ألبيريتش.

كررت قائلة:

– "حسنًا، مهما كان رأيك بي، فأنا بالنسبة لهم مجرد بشرية. لو ارتكبتُ خطأً، لكان الأمر مجرد سحق لي كحشرة. لكن إذا اختُطف كاي من قبل الفاي، فبالنسبة للتنانين يُعتبر هذا عمليًا إعلان حرب."

علقت الكلمة في الهواء بينهما. قال فيل أخيرًا:

– "هل تعتقدين أن الأمر بتلك الأهمية؟"

– "نعم."

تذكرت قوة كاي نفسه—وهو لا يزال تنينًا شابًا—وهيبة وجلال عمه.

– "لا أعرف ما قد تكون العواقب. علينا إيقاف هذا بسرعة. من أجل كاي، ولكن أيضًا لأن هذا قد يزعزع استقرار عوالم بأكملها. بما في ذلك عالمك. عندما أخبرتك بما قاله عمه، عندما حذرني من أنه سيجعل من هذا العالم عبرة، لم أكن أستخدم تعبيرًا مجازيًا. يمكنهم تدمير هذا العالم الموازي إذا لم يُعاد كاي. أو إذا اختار الفاي خوض القتال."

كان عليها أن تجعل فيل يدرك مدى واقعية التهديد الذي يواجه عالمه. تذكرت، بشيء من الذنب، أنها تجاوزت تفاصيل وضعها الدقيق والمتاعب التي قد تكون هي فيها. حسنًا، لم يكن ذلك مهمًا في الوقت الحالي.

قال فيل ببرود:

– "تبدين قلقة للغاية بشأن سلامة (عالمي الموازي). أفترض، بما أنكِ تشغلين نفسكِ هنا، أنه يبدو أكثر أهمية بالنسبة لكِ."

شعرت إيرين بوهج من الغضب إزاء استخفافه في ظل ما يواجهانه الآن.

– "لا أرى سببًا لعدم تجنب حرب محتملة قبل أن تتحول حتى إلى مناوشات. هل تظن بي السوء لدرجة الاعتقاد بأنني سأقف مكتوفة الأيدي؟"

– "أعتقد أنكِ تبالغين في تقدير هؤلاء... الناس. لقد واجهتُ ما يكفي من الفاي في زماني، وبينما هم بالتأكيد خطرون، إلا أنكِ تبدين وكأنكِ ترينهم خطرًا يهدد العوالم. سترونغروك نفسه قد يملك بعض القوى غير العادية، لكن في النهاية لديه حدود، كما لدينا جميعًا. أما بالنسبة لـ سيلفر..."

هز كتفيه.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت بأقصى ما استطاعت من هدوء، فالحقائق ستكون أكثر نفعًا من فقدان أعصابها:

– "خطرون بما يكفي لزحزحة العوالم. هذه طريقة جيدة للغاية لوصف الأمر. رغم أنني لم أواجه أيًا من الأقوياء حقًا بنفسي. وذلك لأنهم عادة ما يقطنون أطراف الواقع، حيث الفوضى في أعمق درجاتها. هناك، يستولي الفاي على عوالم بأكملها ويربطون قوتهم بنسيج تلك العوالم ذاته. في عالمك هذا، نحن في الطرف الضحل يا فيل، في مكان ما بين الأعماق من جهة والمرتفعات من جهة أخرى. لم يسبق لي أن واجهت أيًا من قوى الفوضى العظمى، وآمل ألا أفعل أبدًا. أمناء المكتبات يتعلمون في وقت مبكر جدًا أن المرء لا يذهب للسباحة في المياه العميقة مع أسماك القرش، لأننا سنؤكل أحياء!"

أومأ فيل ببطء:

– "حسنًا جدًا. أقبل حكمكِ على المخاطر يا وينترز. وأرجوكِ اخفضي صوتكِ. قد يسمعكِ أحدهم."

لم تكن إيرين متأكدة تمامًا من أنه يصدقها. لكن إذا تعرض لذلك المستوى من القوة شخصيًا، فسيكونون في ورطة كبيرة على أي حال لدرجة أن الاعتذارات لن تجدي نفعًا.

— "لقد أكد آو شون أن كاي موجود في مكان ما في عوالم الفوضى، وشهادة شهودك من حادثة الاختطاف تشير إلى أن اللورد جوانتيس هو من أخذه. لكن لا يمكنني تعقبه ما لم نكن موجودين في العالم نفسه. ما لم يكن لديك أي من الفاي الآخرين المدينين لك بخدمة، فأعتقد أن مصدر توجيهنا الوحيد هو..."

— "بالتأكيد. اللورد سيلفر."

زم فيل شفتيه الرفيعتين في تعبير عن كراهية عميقة، وأضاف:

— "مثلكِ تمامًا، لا أرى بديلًا آخر."

تابعت إيرين:

— "قال اللورد سيلفر إنه بإمكاني زيارته في أي وقت حين التقينا آخر مرة. لكن بطاقة الزيارة التي أعطاني إياها موجودة في مسكني، وقد أكدتَ أنه مراقب. وعلى أي حال، إذا كانت الليدي جوانتيس موجودة أيضًا في السفارة، فلا يمكننا ببساطة الدخول من الباب الأمامي."

وافقها فيل:

— "بالتأكيد ليس بمظهرنا هذا. علاوة على ذلك، هناك حاليًا مظاهرة أمام السفارة، لذا سيتعين علينا استخدام مدخل الخدم. وإذا كنتُ محقًا، فسيكون مستعدًا لرؤيتنا ببطاقة أو بدونها. هل كان خادمه معكِ حين تحدثتِ إليه؟"

استرجعت إيرين الذاكرة وأومأت:

— "جونسون. رجل نحيل يرتدي الرمادي."

قال فيل بارتياح:

– "إذن هو مفتاحنا. دعينا نستعد."

وهكذا، في وقت لاحق من ذلك المساء، كانت إيرين وفيل يقفان في طابور خلف سفارة ليختنشتاين. كانا ملتفعين بعباءات ثقيلة ذات أغطية للرأس، وهو ما كان سيبدو مثيرًا للريبة لولا أن الستة الذين يسبقونهما كانوا يرتدون عباءات وأغطية رأس ثقيلة أيضًا. كان هناك رجلان يقودان مجموعات من الكلاب—زوج من البودل، وزوج من البورزوي، وزوج من التيرير، وزوج من كلاب الصيد الأفغانية—وكانت جميعها تلهو بمرح حول سيقانهم وتدفعهم لإطلاق الشتائم بشكل متكرر بلكنة روسية ثقيلة. كانت كلاب الصيد الأفغانية قد صُبغت باللون الأبيض، لكن وسخ لندن المحيط كان قد استقر بالفعل على فرائها مشكلًا بقعًا داكنة كثيفة. وكان رجل آخر يدرس بانهماك نوتة موسيقية، متوقفًا من حين لآخر لينفخ بضع نوتات في مزماره الذي طاله الصدأ منذ زمن. وامرأتان—على الأقل اعتقدت إيرين أنهما امرأتان—شمرتا عن عباءتيهما للتدرب على رقصة، كاشفتين عن ربلتي ساقيهما المغطاتين بالجوارب وأحذية ذات كعب عالٍ. خلف إيرين وفيل، امتد الطابور لمسافة أبعد بمحاذاة جدار السفارة. وقد نصب بائع جائل ذكي كشكه وكان يبيع البرتقال.

سألت إيرين بهمس:

– "هل فعلتَ هذا من قبل؟"

كانت الكلاب وعازف المزمار وراقصو النقر يحدثون ضجيجًا كافيًا للتغطية على أي شيء أقل من صراخ صادر منها.

أجاب فيل باقتضاب:

– "في عدة مناسبات. لكن رجاءً تذكري دوركِ يا وينترز. أنتِ..."

قالت إيرين بطاعة:

– "وسيطتك الروحانية المنومة مغناطيسيًا، التي يمكنك من خلالها استحضار أرواح الفراعنة الراحلين القديمة."

– "أنتِ بارعة في الكلام عن هذا الأمر. هل قمتِ بأي شيء من هذا القبيل بنفسكِ؟"

تساءلت إيرين عما إذا كان قد نسي أنها أمينة مكتبة بحكم المهنة وعادة ما تتقمص هوية مزيفة، لكن كان لديه وجهة نظر. هذا الأمر كان أكثر غرابة من المعتاد.

اعترفت قائلة:

– "ليس منذ كنتُ في المدرسة."

تساءل فيل:

– "المدرسة؟"

– "آه. كانت هناك حادثة صغيرة. أعضاء من عصابة إجرامية دولية كانوا يختبئون في الشاليهات القريبة، ثم حدث ذلك الفيضان..."

قاطعها فيل موجهًا:

– "لاحقًا."

بدأ الطابور في التحرك للأمام. ومع ذلك، كان عليهما تحمل حلقة قصيرة عندما رفضت الكلاب فجأة دخول السفارة. كان لا بد من استدراجها إلى الداخل من قبل مدربيها الذين لوحوا بقطع من اللحم المقدد، مما دفع العديد من الكلاب الضالة للقيام بمحاولة حثيثة للحصول عليها. انتهى الأمر بموظفي السفارة وهم يلقون دلاء من الماء فوق الجميع. كان المدربان يصرخان بالروسية، وعازف المزمار يصيح بأن

نوتته الموسيقية قد تبللت. لكن فيل وإيرين تمكنا أخيرًا من عبور الباب والدخول إلى السفارة، وهما ينفضّان شعر الكلاب المبلل عن عباءتيهما.

كانت غرفة الاستقبال الصغيرة التي أُدخلوا إليها مخيبة للآمال. كانت إيرين تتوقع شيئًا أكثر درامية من الأجنحة الداخلية لـ الفاي، لكن الغرفة بدت كأي صالة انتظار رثة في طوابق الخدم بلندن.

مال فيل ليتحدث إلى الخادمة التي بدت ضجرة وهي تدخلهم، وسُمع رنين عملات معدنية تنتقل من يد لأخرى.

همس لها:

— "نحتاج للتحدث إلى السيد جونسون."

أومأت الخادمة برأسها وغادرت الغرفة وسط حفيف تنانيرها الواسعة.

بعد خمس دقائق بدت طويلة، دلف جونسون إلى الغرفة. سأل بحدة وقد غاب عنه تهذيبه المعتاد:

— "لديكما رسالة خاصة لي؟"

أومأ فيل لإيرين. أخذت نفسًا عميقًا وأزاحت غطاء رأسها لتكشف عن وجهها.

— "نحتاج للتحدث إلى اللورد سيلفر بشكل عاجل."

سحب جونسون نفسًا عميقًا ومفكرًا من بين أسنانه:

— "آه.. نعم. أرجوكِ أعيدي غطاء الرأس. لا أحد في السفارة يجب أن يعلم بوجودكِ هنا. إذا تفضلتِ أنتِ وصديقكِ باتباعي يا آنسة وينترز، سنستخدم السلالم الخلفية. اللورد سيلفر سيقابلكما في الحال."

الفصل العاشر

فاجأت حجرة الدراسة الخاصة بسيلفر الخاصة إيرين؛ إذ بدت كمكان قد يعيش ويعمل فيه إنسان طبيعي، لا كخشبة مسرح مبالغ في تصميمها. ورغم أن الديوان كان منجدًا بمخمل أحمر، إلا أنه أظهر علامات الاحتكاك والاستخدام المنتظم، كما شوهت آثار أسنان شيء صغير وقارض إحدى أرجله. وكان المكتب الضخم المصنوع من خشب الماهوجني مكدسًا بأكوام الورق، بدلًا من كونه عاريًا بشكل درامي، وإن كانت الأصفاد عند زواياه تبعث على القلق قليلًا. خُففت إضاءة مصابيح الأثير في الزوايا، لتغمر الغرفة ذات الستائر المخملية بوهج كهرماني غني. وفي الزاوية البعيدة، كانت هناك خزانة كتب جعلت أصابع إيرين تأكلها رغبة في التجول وفحص أرففها المكتظة، لكنها كبحت اندفاعها، ونظرت بدلًا من ذلك إلى مالكها.

كان سيلفر نفسه متمددًا بلا معطف في كرسي عريض خلف المكتب، وربطة عنقه متدلية بحرية عند حلقه. بدا النموذج الأمثل للفسوق الأنيق، وهو يدير كأسًا من البراندي في يده. رفع بصره بفتور بينما قاد جونسون كلًا من إيرين وفيل إلى الغرفة، وعلق قائلًا:

— "يجب أن أقول إنكما وصلتما في اللحظة الأخيرة تمامًا. كنت أتوقعك أنت والآنسة وينترز في وقت أبكر يا سيد فيل."

أزاح فيل غطاء رأسه ليكشف عن وجهه، وحذت إيرين حذوه. كانت قد اتفقت مع فيل على أن يتولى هو قيادة الاستجواب؛ فهو يعرف سيلفر لفترة أطول وقد يتمكن من استفزازه لكشف شيء مفيد.

– "كنت لأتردد قبل القدوم لأي موعد معك يا سيدي. لا ينبغي أن تتفاجأ لأنني تأخرت – بل ينبغي أن تتفاجأ لأنني وصلت أصلًا."

ارتشف سيلفر من البراندي الخاص به.

– "لكنك تلقيت الملاحظة إذن."

وافق فيل:

– "تلقيتها."

– "وتعتقد أنني أرسلتها."

– "أعرف أنك أرسلتها."

– "وشكوكك فيما يتعلق بدوافعي؟"

– "ليست شكوك. بل يقين."

– "أمتعني بشرحها إذن. أنا لا أتفاجأ إلا بأشياء قليلة هذه الأيام."

– "حسنًا جدًا."

تمشى فيل بضع خطوات أعمق داخل الغرفة.

– "خلافك مع الـ جوانتيس معروف جيدًا. لا أتصور أنك ستجادل في تلك النقطة."

– "عزيزي فيل، أنا أبذل جهدًا لتنميته. يمكنك المتابعة."

لاحظت إيرين التشنج الذي مر عبر وجه فيل عند مخاطبته كصديق حميم. أحكمت عباءتها حولها، كي لا تكشف كاحليها، وتراجعت للخلف، متلاشية في الظلال بينما راقبت الرجلين. قد يكون سيلفر سيدًا في سحر «غلامور»، لكن طالما كان تركيزه منصبًا على فيل، فهو لا يراقبها. والمراقبة من الظلال كانت مجال خبرتها.

قال فيل:

— "كنت تدرك أن السيد سترونغروك قد يُختطف. وحاولت إعطاءه شيئًا يمكن وصفه بتساهل كتحذير عندما قابلته والآنسة وينترز سابقًا. ربما أعاقك مراقبون عن إخبارهم بالمزيد."

هز سيلفر كتفيه.

— "كنت أوصل تحذيرات — سأعترف بذلك — ولا توجد قوانين ضد ذلك. نصيحتي لك ستكون التوقف عن التدخل في شؤوني، وإلا ستندم."

— "كما ستندم أنت، إذا واصلت التدخل في شؤوني."

كانت هناك نبرة جليدية جديدة تمامًا في صوت فيل.

— "أو إذا واصلت ببساطة لعب ألاعيبك بحياة الآخرين."

نقر سيلفر بأحد أظافره على كأسه، ورن الكريستال بنغمة جميلة.

— "لكن لماذا قد ألعب لعبة كهذه، برأيك؟ بالتأكيد يجب أن يكون هذا سؤالك، في ظل الظروف."

توقف فيل عن المشي للحظة ليلتفت وينظر لـ سيلفر.

— "الورق المستخدم للملاحظة — التي يُزعم أنها من عائلة السيد سترونغروك — كان ملوثًا بسحر «فاي»."

لوح سيلفر بيده بملل.

— "أي شخص كان بإمكانه فعل ذلك. جونسون؟ ألم يكن بإمكانك فعل ذلك؟"

تمتم الرجل:

— "لا يا سيدي، لكن يمكنني الشهادة بأن العديد من الأشخاص في السفارة ربما فعلوا ذلك."

مشى فيل ليضع يديه على مكتب سيلفر، مائلًا للأمام بحدة، مثل كلب صيد يوشك على الانقضاض.

– "أقترح أنك تعمدت إشراكي في هذا الأمر. الملاحظة كانت لتنبيهي بأن شيئًا ما مريب بخصوص غياب سترونغروك. لقد خططت عمدًا لإحضاري أنا ووينترز هنا – إليك تحديدًا – كخطوة تالية في تحقيقنا. السؤال هو لماذا. هل هذه لعبة منحرفة ما بينك وبين الـ جوانتيس؟"

اعترف سيلفر:

– "جزئيًا."

وضع كأسه على المكتب بنقرة – وظنت إيرين أنها رأت تشنجًا يمر عبر وجه جونسون حين لمس الزجاج خشب الماهوجني العاري – ومال للأمام، وعيناه متيقظتان فجأة.

– "يسعدني أن أراك تبرر سمعتك أيها المحقق."

تساءل فيل:

– "وهل أطلقت أتباعك على وينترز هنا أيضًا، لتوريطنا أكثر؟"

قال سيلفر:

– "سيكون ذلك مبالغة في الأمور. الليدي جوانتيس هي من أطلقت الأتباع على الآنسة وينترز هنا. اللورد جوانتيس... غادر هذا العالم بالفعل."

تأكيد أخيرًا.

– "وأخذ كاي معه،" تمتمت إيرين من الظلال.

قال سيلفر، ولا يزال يحدق في فيل:

– "الآنسة وينترز محقة. اللورد جوانتيس أخذ التنين معه. وهما الآن خارج نطاق وصولك."

قال فيل:

– "أنت تقلل من شأن نفوذي."

– "نفوذك قد يسري في «إيست إند» بـ لندن أيها المحقق، لكن ليس خارج هذا العالم."

قالت إيرين، متلمسة طريقها في الحوار:

– "نفوذه قد لا يصل، لكن هل اللورد جوانتيس مستعد للإجابة أمام والد كاي؟"

وافق سيلفر بود:

– "سؤال مثير للاهتمام. أفعال اللورد جوانتيس تخصه وحده في النهاية. أنا متأكد أنه إذا أمكن إثبات جنحته، فسيضطر هو وزوجته الحبيبة للاعتراف بالمسؤولية."

كانت هناك نبرة خافتة من المتعة في كلماته، متعة تكاد تكون شامتة لمشاهدة خصم – أو بيدق، فكرت إيرين – ينتقل لموقف ضعيف.

صرح فيل:

– "أنت السفير. لديك سلطة عليه."

– "سلطة ينازعني فيها. وعلى أية حال، هو ليس هنا."

سألت إيرين:

– "إذن أين هو؟ في أي عالم؟"

قال سيلفر:

– "في مكان آخر. البندقية (Venice). حسنًا، بندقية بديلة، في عالم من الأقنعة والأوهام. اسم العالم لن يعني لكما شيئًا. إنه بعيد جدًا عن نطاقكما."

قالت إيرين، وقد بدأت الصورة تتضح:

– "وبلا شك سيكون هذا باتجاه... حسنًا، الطرف الأكثر فوضوية من الكون؟"

– "بالفعل. وبالنسبة لأحد التنانين العظام، المغامرة هناك ستكون عملًا حربيًا."

سحب فيل نفسه بحدة.

– "بالتأكيد تبالغ. إذا أُخذ السيد سترونغروك هناك رغمًا عنه——"

– "غير ذي صلة."

نهض سيلفر واقفًا، بطول فيل. بدا الضوء وكأنه يتمركز حولهما، خاطفًا للعين.

– "لكن حتى لو كان ذلك صحيحًا، فالأمر لا يهم. وعائلته ستعرف ذلك."

ألقى فيل نظرة اعتذار لـ إيرين، فردت بإيماءة مقتضبة. نعم، حاولت إخبارك. وها هو دليلك – إذا كنت لا تستطيع أخذ كلمتي.

تجاهلت إيرين خدعة الضوء؛ كانت مجرد استعراض آخر لسحر سيلفر.

– "للعمل يا لورد سيلفر. لقد قلت إن التنانين العظام لا يمكنهم التدخل هناك. ولمحت إلى أنك لن تتدخل بنفسك. ومع ذلك، لفتّ انتباهنا عمدًا لوضع كاي وجعلتنا واعيين تمامًا لما يحدث."

كان بإمكانها سماع رنين اليقين في صوتها.

– "أنت تريدنا أن نذهب، أليس كذلك؟"

التوت زوايا فم سيلفر لأعلى، في ابتسامة حلوة كنبيذ مثلج وحادة كالفودكا.

– "لمَ نعم، يا آنسة وينترز، يا أمينة مكتبتي الصغيرة العزيزة. هذا بالضبط ما أريدكِ أن تفعليه."

تساءل فيل:

– "هي؟"

كان قد التقط التشديد في صوت سيلفر، تمامًا كما فعلت إيرين.

قال سيلفر بزدراء:

– "لا يمكنك الذهاب أيها المحقق. فوضى ذلك العالم ستكون قوية جدًا عليك. لن تستطيع تحمل قوتها. لكن السيدة مختومة بختم مكتبتها. طبيعتها لن تتأثر."

قال فيل:

– "أتركها تذهب وحدها؟"

في نفس اللحظة التي قالت فيها إيرين:

– "يمكنك أخذي هناك؟"

وافق سيلفر:

– "بالضبط."

ابتسم، متراجعًا عن المكتب ليتمدد. استطاعت إيرين رؤية خطوط جسده عبر قميصه واضطرت لقمع دفء خائن مفاجئ في عروقها. المشاعر التي أثارها كانت أكاذيب. وكذلك كانت سهولة ويقين ابتسامته. كان هناك شيء متعجل خلفها، شيء غير مؤكد ومذعور.

قالت إيرين بنعومة:

– "كنت سأميل لعدم الوثوق بك لو لم تكن مدفوعًا باليأس بشكل واضح جدًا."

تجمد سيلفر، مسقطًا ذراعيه لجانبيه. وقال ببرود:

– "أنتِ مخطئة."

– "بالكاد. التنانين العظام لا يمكنهم الوصول للعالم حيث لجأ اللورد جوانتيس. ومع ذلك، يمكنهم المجيء هنا وسيغضبون بشدة لفقدان أحد أطفالهم."

نطقت إيرين الكلمات كدقات ساعة في الغرفة الصامتة.

– "ربما لن تتسبب عائلته بحرب بتدمير تلك البندقية الأخرى، لكن ماذا سيفعلون بهذا العالم، مقر سلطتك؟"

هرب اللون من وجنتي سيلفر.

– "أنتِ تخمنين فحسب،" قال دون قناعة.

قالت إيرين بهدوء:

– "لست بحاجة للتخمين. لقد تحدثت مع عائلته. أنا أعرف."

زمجر سيلفر:

– "هذا العالم لا يعني شيئًا لي!"

لكن إيرين لم تقتنع.

– "وماذا عن اللورد جوانتيس؟ هل يهم... اللورد أرجنت؟"

جلس سيلفر بقوة في كرسيه وخفض رأسه بين يديه. قال وصوته مكتوم:

– "سيدمرني. لقد تقاطعت سيوفنا من قبل، مرات عديدة. وقد منعنا أسيادنا من الحرب ضد بعضنا مرة أخرى. الضرر الذي لحق بالآخرين من نوعنا كان كبيرًا جدًا. لكن إذا نمت قوته لتفوق قوتي بكثير، فلن يعترضوا على تدميره لي. أستطيع تخيل الحظوة التي سيكتسبها عبر احتجاز تنين، والقوة – وحتى لو هربت من هذا العالم، سيطاردني. هو لا يريدني حتى كمنافس. هو يريد إنهائي."

تساءلت إيرين:

– "لكن لماذا؟ لماذا تتقاتلان هكذا؟"

قال سيلفر بغموض:

– "أوه، كان هناك سبب ما. لقد أهان أخته، أو هاجم هو أمي، أو شيء من هذا القبيل. لا أستطيع القول إنني أتذكر – كان كل ذلك منذ زمن بعيد. لكن يجب أن تفهما أن الانتقام كان ضروريًا. إنه متآمر، متلاعب ماكر، وزوجته أسوأ. كلاهما بلا حس فني، بلا اهتمام بالحياة. يهتمان بالقوة، لا شيء سوى القوة، لكن استخدامهما لها يفتقر للأناقة. نحن ببساطة لا نستطيع فهم بعضنا البعض – وأنا، عن نفسي، لا رغبة لي في ذلك،" أضاف بنزق.

نخر فيل.

– "وهكذا رغبتك في إرسال الآنسة وينترز في مهمة انتحارية محتملة، لتقوم هي بحل هذه الفوضى، بعد أن لم تفعل شيئًا لمنعها. سلوك مثير للشفقة، حتى بالنسبة لواحد من نوعك."

خفض سيلفر يديه ونظر لـ فيل.

– "فكر كما تشاء،" قال ببطء. "أهني كما تريد. لكن ما لم تفعل الآنسة وينترز ما أقترحه، ستواجه أنت، وأنا، وصديقك التنين دمارًا لا رجعة فيه. أعطيكما كلمتي وميثاقي بأنني لا أفعل هذا بنية الإيقاع بالآنسة وينترز أو تدميرها. مصالحي الخاصة هي الأهم، وأحتاجها حية وقادرة لتساعدني في تنفيذها."

بدأ صبر إيرين ينفد مع دراما سيلفر. كاي في خطر حقيقي وجاد. سيسرها الوقوف وتبادل الإهانات مع سيلفر لاحقًا، لكن ليس الآن. على الأقل إذا كان مستعدًا لإعطاء كلمته وميثاقه، فهو صادق. «الفاي» قد يتلاعبون بأيمانهم الرسمية، لكنهم لا يكسرونها.

— "اشرح خطتك يا لورد سيلفر. كيف لنا أن نحكم عليها خلاف ذلك؟"

تنهد سيلفر.

— "إليك الأمر إذن. يمتلك اللورد جوانتيس القدرة على العبور بين العوالم آخذاً معه شخصًا بطبيعة صديقك. قوتي أقل من قوته — يمكنني فقط حمل البشر في أفضل الأحوال، أو آخرين من نوعي — والليدي جوانتيس أضعف حتى. لقد عقد اللورد جوانتيس صفقات لضمان أن أي شخص يرغب في مشاهدة انتصاره يمكنه السفر لتلك البندقية البديلة. لقد استدعى «الحصان» و«الراكب»، وهما من العظماء بين نوعي، ليتمكنا من حمل أي عدد من الركاب يرغبان فيه. سيظهران كقطار في هذا العالم. نعم، ذلك الشكل يجب أن يثير أقل قدر من التعليقات."

توقف ليفكر.

— "سأسافر على متن ذلك القطار مع عدة خدم وسآخذ السيدة معي متخفية. ستتظاهر حينها بأنها صعدت من نقطة عبور مختلفة، متقمصة دور فرد آخر من نوعي. عندما نصل البندقية، يمكنها إنقاذ التنين والهروب بأي طريقة تروق لها."

تساءل فيل:

— "أنت تعتبر هذه خطة؟"

قال سيلفر بتعالٍ:

— "لست على دراية بقدرات أمينة المكتبة الكاملة. بلا شك لديها العديد من القوى الغريبة المجهولة لي."

قالت إيرين، متحققة للتأكد من فهمها للأمر بدقة مطلقة:

– "إذن علي الذهاب وحدي، لعالم في طرف واقعكم، محاطة بنوعك، وسأضطر لإنقاذ كاي بلا مساعدة – أفهم أنك لن تكون قادرًا على مساعدتي؟"

هز سيلفر كتفيه.

– "فقط إذا استطعت فعل ذلك دون أن أُرصد، يا فأرتي الصغيرة. وبالطبع، جونسون سيكون قادرًا على تزويدك بالخدمات المعتادة – القهوة، الشاي، تلميع حذائك، صقل قناعك، تلقيم مسدسك، وما إلى ذلك."

أومأت إيرين. كان هناك نوع من الارتياح في معرفة الأسوأ. كادت تشعر بالدوار من ذلك. في النهاية، كانت الخطة سخيفة تمامًا. وإذا كانت هذه فكرة سيلفر عن تطوير حبكة قصصية، فهي لا تحب ذوقه في أدب المغامرات. لكنها كانت لا تزال فرصة لاستعادة كاي.

ابتسمت.

– "ثم أخيرًا، سيتعين علي إعادة كاي لعائلته. أو على الأقل لمكان آمن."

قال فيل:

– "كنت سأقول إن هذا العالم آمن بما يكفي. لكن الأحداث تشير لغير ذلك."

نظر حوله، ووجهه مرهق. بدا وكأنه قد استسلم بالفعل.

أخذت إيرين نفسًا عميقًا.

– "حسنًا. إذن، متى يغادر هذا القطار؟"

بدأ فيل:

– "وينترز، لا يمكن أن تكوني جادة بشأن الذهاب وحدك—"

قاطعته إيرين:

– "فيل."

لم يصدقها حين حاولت شرح الخطر المحدق بعالمه. تطلب الأمر سيلفر لإقناعه. لكن عليها أن تكون هي من يقنع فيل الآن، لتمنعه من التسبب في مقتل نفسه. هو لا يعرف، ولا يستطيع تقبل، مدى خطورة عالم عالي الفوضى حقًا. الأشخاص الذين بلا حماية سينجرفون في أي سردية جارية يديرها «فاي»، وستُعاد كتابة شخصياتهم لتناسب احتياجات «الـفاي». ولم يكن هناك وقت للمناظرات.

– "يمكنك أن ترى بنفسك أن اللورد سيلفر يائس."

سحب ذلك تشنج غضب من سيلفر.

– "لكن رغم ذلك، قال إنه سيكون خطيرًا جدًا عليك. لديه كل دافع لإرسالك معي، لو كانت هناك أدنى فرصة للحفاظ على وجوده."

قال سيلفر، وكأن الأمر أوضح من أن يُشار إليه:

– "حسنًا، نعم، بوضوح. لكن أرجوك لا تظن أنني أحاول إنقاذك بدافع أي مفاهيم خيرية مضللة. أنت ببساطة خصم أمتع من أن يُهدر."

قالت إيرين بجفاف:

– "ها قد سمعتها. مباشرة من فم الحصان – اعذرني، مباشرة من فم «الـفاي»."

عقدت ذراعيها، شاعرة بغضبها يتصاعد.

– "انظر لما يفعله بي. لماذا يكذب عليك؟ كنت..."

علقت كلماتها التالية بشكل غير متوقع في حلقها.

– "كنت سأقدر مساعدتك. لكنني لا أريدك أن تدمر نفسك، وكاي لن يشكرني على ذلك."

نظر إليها فيل للحظة وكأنه يود قول شيء ما، ثم التفت بحدة بعيداً عنها.

— "أرجوكِ وفري علي أعذارك يا سيدتي. قرارك واضح تمامًا. ليس لدي رغبة في إعاقة خبرتك أو عرقلة طريقك. سأتأكد فقط من التفاصيل من اللورد سيلفر هنا قبل أن أتركك لألاعيبك الصغيرة. لا يسعني إلا أن آمل أن ينجو بريء مثل سترونغروك من هذا."

شعرت إيرين باللون يشتعل في وجنتيها. شيء ما في قلبها ارتعش من كلماته. هذا مؤلم. مؤلم حقًا وبصدق. كانت تأمل أن يتقبل قرارها، لكن أن يُلقى في وجهها هكذا...

التفتت عائدة لـ سيلفر، مختارة تحويل غضبها إلى تركيز.

— "يبدو أن السيد فيل واضح بشأن الموضوع. متى موعد هذا القطار؟ وأي نوع من التنكر سأحتاج؟"

لمس سيلفر شفتيه بأصابعه، فاشلاً في إخفاء ابتسامة على استسلام إيرين.

— "سنغادر خلال الساعة، والليدي جوانتيس ستنتظر أيضًا في المحطة. سأحرص على وجود حاشية أخرى بعباءات أيضًا، لنتمكن من تهريبك على متن القطار بينهم. أما الزي — فعليك أن ترتدي ملابس مسافرة من عالم آخر. سأنظر في خزائني."

لم تكلف إيرين نفسها عناء الرد. اكتفت بفتح عباءتها لتكشف عن بدلة عملها غير المتناسبة زمنيًا.

قال سيلفر، وعيناه تمسحان من كاحليها لركبتيها:

— "نعم. هذا سيفي بالغرض تمامًا. سأعطيك رمزًا صغيرًا لقوتي — ليس بما يكفي لإيذائك يا أميتني الصغيرة، بل ببساطة ليسمح لك بالمرور كواحدة من «الـفاي». لا يمكننا أن نعرف من نظرة عابرة أنك تابعة لـ

«المكتبة»، ورمزي سيضمن ألا يظن أحد أنك دمية يمكن العبث بها. جونسون يرتدي واحداً. أرِ الآنسة وينترز يا جونسون."

التفتت إيرين ورأت جونسون يخرج ساعة نحاسية كبيرة من جيبه. كان تصميمها معقداً بشكل مدهش، منقوشاً بنمط يراوغ العين. أومأ لـ إيرين.

تابع سيلفر:

— "وربما بعض التعديلات الطفيفة على الشعر، العينين... من المؤسف أننا نأخذك بدلًا من فيل العزيز، يا أمينتي. كان ليكون أفضل بكثير في تغيير مظهره."

نهض وسار بخطوات واسعة نحو إحدى الخزائن العالية في الزاوية، فاتحًا إياها ليكشف عن مجموعة من الفساتين منخفضة القص والعباءات ذات القلنسوات. بدا وكأنه انقلب من اليأس إلى حماس مهووس.

— "سأدع إحدى الخادمات تتولى الأمر. أزرق؟ ربما لو وجدت شعرًا مستعارًا أشقر؟ لا، ربما لو ألبسناكِ كخادمة بادئ ذي بدء..."

بدأت إيرين تشك في سبب نجاح خطط الـ جوانتيس وفشل خطط سيلفر وهو ينشغل بالملابس.

— "من أين يغادر القطار؟" سألت.

— "من «بادينغتون»."

— "لماذا «بادينغتون»؟"

— "يجب أن نسافر باتجاه الماء، وبالتالي غربًا. وهذا يعني خط السكك الحديدية الغربي العظيم، الذي يغادر من هناك."

ألقى سيلفر الإجابة وكأنها منطقية. ربما كانت كذلك، من وجهة نظر «الـفاي».

أخذ فيل نفسًا عميقًا، ثم شد كتفيه.

— "سأراك لاحقًا يا وينترز — مفترضًا خروجك من هذه المغامرة قطعة واحدة. تعرفين أفكاري حول الأمر. لن أزعج نفسي بتكرارها. لا يسعني إلا أن آمل أن يكون اهتمامك بـ سترونغروك أكبر قليلًا من انبهارك بهذه السياسات."

التقت إيرين بنظرته الداكنة، وشعرت بالغضب. لم تكن تتوقع حقًا هذه السخرية اللاذعة من فيل. كان يتصرف بتفاهة كما كان سيلفر ليفعل.

— "أنت تعرف تمامًا لماذا أفعل هذا. لا علاقة لهذا بالسياسة أو التهديد بالحرب. أحيانًا أفعل الأشياء ببساطة لأنني لا أريد رؤية شخص يموت. أو ما هو أسوأ——"

قاطعها بإشارة من يده.

— "وفرّي علي تمثيلياتك يا سيدتي. أقترح أن تدخريها للعب أدوارك. ليلة سعيدة لكما."

استدار، رافعًا غطاء عباءته مرة أخرى، وخرج مسرعًا قبل أن تتمكن إيرين من قول أي شيء.

قال سيلفر بنعومة:

— "جونسون، رافق السيد فيل للخارج. تأكد من عدم تعرضه لأي أذى."

تسلل جونسون متجاوزًا إياها، هادئًا كالظل. انفتح الباب وأغلق مرة أخرى في نسمة هواء.

الآن أصبح أمام إيرين سيلفر مستمتع، وكاي لتقلق بشأنه. ولم يعجبها كونها وحيدة مع سيلفر غير الجدير بالثقة تمامًا. فكرة مشاركة هذه المهمة برمتها معه كانت أقل من ساحرة. أو بالأحرى، السحر قد يكون المشكلة إذا قرر استخدام حيل «الفاي» عليها مرة أخرى.

كان سيلفر لا يزال يفكر في طلقة فيل الوداعية.

– "رغم أن تعرضه لحادث ما سيكون ساحرًا، أخشى أنه سيغادر دون مساس. هل تودين لو حدث له شيء؟"

نظر إليها من تحت رموشه.

– "لقد كان فظًا للغاية معك، يا فأرتي الصغيرة، وأنتِ تحت حمايتي في الوقت الراهن."

قالت إيرين بحدة:

– "أنا قلقة بشأن مأزق كاي أكثر من أي إساءة قد يكون فيل وجهها أو تلقاها."

تنهد سيلفر.

– "ليت لدي وقتًا أطول للاستمتاع بصحبتك، لكن يجب أن نستعد للرحلة. هذا هو نوع الأشياء التي يمتلك اللورد جوانتيس سيدته لأجلها، بالإضافة لكونها تستطيع إبقاءه على خطة واحدة في كل مرة. لا أستطيع فهم كيف تستمتع بالتفاصيل بهذا القدر."

تثاءب بإفراط.

– "جونسون سيعود في لحظة، وسيتركك للخادمات بينما يلبسني. يمكنك حمل إحدى الحقائب. أثق أنك تستطيعين حمل حقيبة يا فأرتي؟"

قالت إيرين:

– "بمنتهى اللياقة."

كان جزء من عقلها يفكر في الملاحظة حول الليدي جوانتيس. الإشارة إلى «إبقائه على خطة واحدة في كل مرة» كانت مثيرة للاهتمام. هل يمكن أن يكون اللورد جوانتيس مشتت الانتباه مثل سيلفر؟ وهل يمكنها

استغلال ذلك؟ بقية عقلها ركز على الجز على أسنانها وكبح غضبها. في الوقت الحالي، كان عليها مجاراته.

— "لكن بما أنك نلت مرادك وأنا أرافقك لـ لبندقية، لدي سؤال. لماذا أخذوا كاي إلى البندقية هذه، من بين كل الأماكن؟"

— "حسنًا."

فكر سيلفر للحظة.

— "هناك أماكن قليلة جدًا حيث يمكنهم التأكد من تقييده مع إبقائه حيًا في نفس الوقت. تطلب الأمر أيضًا عالمًا يمكن لعدد من «الـفاي» الوصول إليه بسهولة نسبية. وكان بحاجة لامتلاك المرافق لاستضافة العرض الكبير الذي يُعد لنا. ومن هنا جاء توفير القطار لنتمكن من الوصول هناك، يا فأرتي، يا أمينتي، يا سيدتي. ومن هنا جاءت هذه النزهة الصغيرة."

فجأة عاد كل ذلك التوتر والغضب بكامل قوته، يلتوي في أحشاء إيرين. تطلب الأمر جهدًا لإبقاء صوتها هادئًا.

— "لا أفهم. ماذا تعني؟"

ألقى سيلفر بآخر ما في كأسه من براندي ووضعه بنقرة.

— "لأن كاي سيُعرض في المزاد يا عزيزتي. لمن يدفع أعلى سعر. ويجب أن نسرع إن كنا سنصل هناك في الوقت المناسب."

الفصل الحادي عشر

كانت محطة بادينغتون تضجّ ليلاً بالشرر والأضواء الساطعة، وبجعجعة وصكيك القطارات القادمة والمغادرة. كان الانحناء العظيم للسقف الفولاذي والزجاجي فوق الرؤوس مُبطّناً بمصابيح بيضاء قاسية، ألقت بظلال الناس كبركٍ سوداء على الأرضية، وبين الحين والآخر، كانت ريشات حمام محترقة تنجرف ببطء نحو الأسفل. انزوت إيرين وسط خدم سيلفر الستة الآخرين، تشعر بضيق مئزر الخادمة الأبيض الطويل والفستان الأسود الذي ترتديه فوق بذلتها الرسمية، مما جعل حركتها ثقيلة ومربكة، وحاولت جاهدة ألا تئنّ من ثقل الحقائب التي كانت تجرّها خلفها. ونظراً لضيق الوقت الشديد، تخلى سيلفر عن أي محاولات لتغيير تسريحة شعرها أو لونه بشكل طبيعي، واكتفى بدلاً من ذلك بأن ناولها بازدراء — بأطراف أصابعه — شعراً مستعاراً أشقر. كان الأمل معقوداً على أن يكون ذلك كافياً، مع طرحة قصيرة، لإخفائها عن عيني الليدي جوانتيس في محطة القطار. وسيتوجب على إيرين ابتكار طريقة أفضل للتخفي لاحقاً.

كان الشعر المستعار يثير الحكة في رأسها، والأساور التي منحها إياها سيلفر تحتك بجلدها بفظاظة، بينما كان وشم "المكتبة" المحفورة بين كتفيها يلسعها بألم. ولا شك أن قلادة التنين ستبدأ بإثارة الحكة هي الأخرى قريباً، بمجرد أن تحدد اللحظة الأسوأ للقيام بذلك.

تمنت لو تعرف بالضبط ما الذي يحمله سيلفر في حقائبه. سبائك ذهبية صلبة، حكماً على وزنها. أو ربما أغلال فولاذية ثقيلة تُستخدم لتقييد التنانين، وأمناء المكتبات، وغيرهم من مصادر الإزعاج.

كلا، لم تكن راضية عن هذا الأمر إطلاقاً.

كان الوصف الأمثل لحشود المساء هو أنهم غوغاء يصرخون. يبدو أن قطار "الفاي" القادم قد رُتب موعده مع موظفي المحطة في وقت قصير للغاية — حيث تعني كلمة "رُتب" هنا: "إبلاغهم بقدومه، وترك مهمة منع وقوع كارثة كبرى على عاتقهم". نصف القطارات المعتادة خرجت عن جداولها الزمنية، والنصف الآخر كان يصل إلى أرصفة مختلفة عن المعتاد. كان الركاب يركضون في كل الاتجاهات، يمسكون بالحراس ويطالبون بالتوجيهات، أو ينهارون في نوبات هيستيرية علنية. حتى أن شاباً يائسًا استسلم تماماً، وكوّم حقائبه وسط الأرضية واستلقى عليها بينما يأكل شطيرة لحم.

انشق الحشد ليفسح الطريق عندما تقدم سيلفر بخطوات واسعة، ومعطفه يرفرف بأسلوب درامي، ممسكاً بسوط ركوب الخيل بإهمال في يده اليسرى. وسارت مجموعة الخدم والخادمات، ومن بينهم إيرين، تتعثر في أثره.

لحسن الحظ، كان من المقرر أن يصل قطار "الفاي" إلى أحد الأرصفة القريبة، وقد أُخليت مساحة هناك بفضل الجهود المضنية التي بذلها عدة رجال مفتولي العضلات يبدون كقطاع طرق. كان جميعهم يحملون السمات المميزة للمستذئبين: راحة اليد المشعرة والحواجب الكثيفة؛ وهو أمر بدأت إيرين تعتاد عليه أكثر مما ينبغي. تمنت ألا يكون أحدهم قد التقط رائحتها من قبل. وفي وسط تلك الدائرة المحمية وقفت امرأة عرفتها إيرين من صورة لي مينغ. لا بد أنها الليدي جوانتيس.

رغم أنها كانت ترتدي ملابس تتماشى مع طراز هذا العالم البديل، إلا أنه لا يمكن أن تخطئها العين. قد لا تمتلك تلك الجاذبية التي تخطف القلوب كما يفعل أحد "الفاي" مثل سيلفر، لكنها كانت تتمتع بوقار يترجم نفسه إلى نوع خاص من الجاذبية. كانت عيناها وادعتين، وشعرها مثبتاً

بأناقة تحت قبعتها، وفستانها غاية في الأناقة. قد يكون حتى من تصميم أرقى دور الأزياء، ومع ذلك لم يكن مبالغاً فيه. وفوق كل ذلك، كانت تبدو بشكل قاطع... لطيفة. عقلانية. ومتفهمة.

فكرت إيرين بسخرية: لا شك أن هذا كله مجرد سحر من سحر "الفاي".

انتظر آخرون حول حافة الدائرة المحمية. ربما كانوا من "الفاي" المحليين. لكن في تلك الحالة، إن كانوا هنا للحاق بهذا القطار، فما مدى سرعة انتشار الخبر؟ وإلى أي مدى زمني مُسبق تم التخطيط لاختطاف كاي؟

تقدم سيلفر نحو الليدي جوانتيس، التي تحولت عن تأمل قضبان السكك الحديدية ومدت يدها مبتسمة. أمسك سيلفر يدها وضغط شفتيه عليها بطريقة أثارت شهقات مسموعة من عدد من المتفرجين. وتوقفت الحشود القريبة عن الركض المحموم في كل الاتجاهات لمشاهدة هذا العرض.

قال سيلفر بصوت غني كثافة الكريمة الممزوجة بالبراندي:

— "يا سيدتي، كنت آمل أن أصل في الوقت المناسب للقائك."

سحبت يدها وعدلت طرحتها، ثم قالت:

— "يا سيدي، أظن أنه من الأرجح أنك حسبت الوقت للحاق بالقطار."

قال سيلفر وصوته يفيض بالمعاني المبطنة:

— "من المؤسف حقاً أن زوجك ليس معك. لابد أنه إزعاج كبير لكِ أن تسافري بهذه الطريقة، مفتقدةً لقدراته."

هزت الليدي جوانتيس كتفيها ببساطة وقالت:

– "أنا واثقة من أنه سيلحق بي قريباً جداً."

تساءلت إيرين فجأة: هل كان سيلفر يمارس دراميته المعتادة، أم أنه كان يحاول استدراج الليدي جوانتيس في الحديث لتتمكن إيرين من تكوين فكرة عنها؟ فرغم أنه كان يساعدها نظرياً للوصول إلى هذه النسخة من "البندقية"، إلا أن إيرين لم تتوقع منه أي مساعدة حقيقية تتجاوز مجرد الصعود إلى القطار. لكنها اعتادت العمل بمفردها – وبعد نوبة غضب فيل الصغيرة، شطبته من حساباتها فيما يتعلق بتقديم المساعدة.

تمشى أحد البلطجية بتراخٍ نحو دائرة الخدم المحيطة بكومة أمتعة سيلفر. وتوسعت فتحات أنفه بشكل غير طبيعي.

تمتم قائلاً:

– "أرانب.. أشم رائحة الكثير من الأرانب."

رفع سيلفر حاجباً وقال:

– "سيدتي. سيطري على خدمك."

راقبت الليدي جوانتيس بضعة بلطجية آخرين بدؤوا ينجرفون نحو رجال سيلفر، مقتفين أثر الأول، وسألت:

– "لماذا؟ هل لدى رجالك ما يخافون منه؟"

كانت فكرة إيرين الأولى أن رائحتها قد كُشفت شخصياً، وأن المستذئب سيخترق تشابك الخدم والحقائب متجهاً إليها مباشرة. لكنه لم يبد مهتماً بها على وجه التحديد؛ بل توقف عند إحدى الخادمات الأخريات، منتصباً فوقها بتهديد، ونظر إلى قبعتها الأنيقة.

أعلمها قائلاً:

– "تعجبني الفتيات الجميلات ذوات الشعر الأصفر. إنهن يصرخن بشكل أفضل."

أثار ذلك ضحكة ساخرة من رفاقه، الذين أصبحوا أقرب الآن.

لا أستطيع لفت الأنظار إليّ، ولا يمكنني استخدام "اللغة". سيجذب ذلك انتباه الليدي جوانتيس فوراً، وحينها ستخمن من أكون و... دارت أفكار إيرين في رأسها كعجلة هامستر لا تتوقف. لكن لا يمكنني الوقوف مكتوفة الأيدي وأدعه يعتدي على الفتاة المسكينة. حسناً، لم يحدث شيء فعلي بعد.

لكن لماذا لم يتدخل سيلفر؟ لاح لها الجواب: سياسات القوة. إنها مواجهة بين خدمه وخدم الليدي جوانتيس، وأول "فاي" رفيع المستوى يتدخل أو يسحب أتباعه سيخسر هيبته.

أطلقت نظرة سريعة يمنة ويسرة، مقيمة الخدم وكأنهم تهديدات محتملة هذه المرة، وشعرت بالحماقة لتجاهلها إياهم سابقاً. الآن رأت التحولات غير الملحوظة في التوازن، وإنزال الحقائب، وإخراج السكاكين أو القبضات الحديدية من الأكمام، وانزلاق الأيدي إلى الجيوب.

دمدم البلطجي وهو يمد يده ليمسك بذراع الخادمة:

— "تعاليّ هنا."

أطلقت صرخة خافتة وانكمشت متراجعة. إذن، هي ليست واحدة من المدربين على القتال. لكن الرجل الواقف بجوارها تحرك للأمام، وسدد لكمة مباشرة إلى أنف البلطجي. ترنح الأخير إلى الوراء والدم يتناثر، بينما استطالت أسنانه وهو يزمجر.

كان شخص ما في الحشد يصرخ طالباً الشرطة، لكن كلا الفريقين من الخدم تجاهلوا ذلك. انضمت إيرين إلى نصف دزينة من خدم سيلفر الذين كانوا يتقدمون نحو المستذئبين، محاولةً الاندماج معهم. حررت مظلة من حيث كانت مربوطة بحقيبة قريبة وزنتها في يدها بتفكير متأمل.

حجم جيد، وزن جيد، مقبض ثقيل بشكل غير معتاد، وبنية صلبة، وتضع ثلاثة أقدام من الفولاذ بيني وبين أقرب مستذئب.

لم تكن المرأة الوحيدة في المجموعة. كانت المرأة الأخرى ترفع تنانيرها حتى الركبة، كاشفة عن حذاء برقبة وكعب خنجري بارتفاع ثلاث بوصات مزود بمهاميز شريرة عند الكاحل. كان اثنان من الرجال يرتديان القبضات الحديدية، وثالث يحمل شفرة حلاقة، والاثنان الباقيان كانا مفتولي العضلات تماماً كالمستذئبين أنفسهم.

تحول الأمر إلى عراك فوضوي في غضون ثوانٍ عندما هاجمهم البلطجية، وأدركت إيرين أن رجال سيلفر لا يملكون مهارات قتالية فحسب، بل مدربون أيضاً على العمل كمجموعة. أمسك الرجلان الضخمان بمستذئب واحد بينهما، وانهال عليه أحد أصحاب القبضات الحديدية بضربات وحشية على الرأس والمعدة، تاركاً إياه يئن على الأرض.

بالطبع، ترك ذلك إيرين والآخرين في مواجهة خمسة مستذئبين.
اندفعت الخادمة إلى الأمام في دوامة من الأقدام، راكلة وجه أحد المستذئبين بركلة عالية. رفع ذراعه لصد الضربة، فترك مهمازها أثراً دامياً على ذراعه. تراجع للخلف بزمجرة مخنوقة، بدت غير متناسبة تماماً مع حجم الإصابة. لابد أن مهمازها كان مطلياً بالفضة.

هجم أحد البلطجية على إيرين، ويداه معقودتان في تحول جزئي، والفراء يبرز من أكمامه. اتخذت وضعية المبارزة، واختبرت دفاعاته بوخزات نحو وجهه بطرف المظلة، فتراجع ببطء إلى اليسار. كان الآخرون يُبقون خصومهم مشغولين، وبينما كانوا يتبادلون الضربات المتفرقة، كان مبدأ فريقها القائم على "التكتل عليهم واحداً تلو الآخر وإخراجهم من القتال" يعمل بشكل أفضل من ميل البلطجية للمشاجرات الفردية.



فكرت إيرين وهي توجه المظلة في طعنة أخرى نحو خصمها وترقص مبتعدة عن ضربته المرتدة: ليس هذا سلوك القطيع المتوقع من المستذئبين حقاً. ربما لأنه لا يوجد أحد يقودهم فعلياً في هذا القتال.

كان الأدرينالين يضج في عروقها، وكان من المريح أن تجد عدواً لتقاتله، حتى لو لم يساهم ذلك بشكل مباشر في مساعدة كاي. غزت طرف المظلة في معدة المستذئب، ثم قذفت المظلة في الهواء بينما انحنى هو من الألم، وأمسكتها من الطرف المدبب، وهوت بالمقبض الثقيل بقوة على جمجمته. سقط أرضاً بصوت مكتوم.

عندما نظرت حولها، كان أربعة من المستذئبين الآخرين قد سقطوا، لكن سقط أيضاً أحد الرجال الضخام وأحد مستخدمي القبضات الحديدية من جانبها. كان حامل الشفرة والخادمة ذات المهاميز يشتبكان مع المستذئب المتبقي، بينما وقف الخدم الآخرون حراسة فوق خصومهم المطروحين أرضاً. كانت الخادمة تضم ذراعاً واحدة قريبة من صدرها، لكن كلا مهمازيها كانا يقطران دماً وهي تدور وتركل.

لكنها كانت بطيئة هذه المرة. أمسك المستذئب بقدمها وهي تتجه نحوه، ولواها. طارت عن الأرض، تتقلب في الهواء وسط تموجات انسيابية من التنانير، وهبطت بتدحرج. أصدرت مهاميزها صريراً حاداً وهي تحتك ببلاط الأرضية. وبنخرة قوية، اندفع المستذئب نحو حامل الشفرة.

لا أعتقد ذلك. ألقت إيرين بنفسها إلى الأمام، والمظلة لا تزال جاهزة في يدها، وهوت بها في أرجوحة علوية. اصطدم المقبض بمعصم البلطجي بقرقعة مسموعة. للحظة، لم تكن إيرين متأكدة ما إذا كانت قد حطمت عظماً أم المظلة، لكن صرخة الرجل المكتومة روت القصة بوضوح. تراجع للخلف، ضاغطاً ذراعه المصابة نحو بطنه، وارتفعت يده الأخرى للدفاع.

فرقعت الليدي جوانتيس بأصابعها، وكان الصوت عالياً بشكل غير طبيعي. تراجع المستذئب خطوة، ثم أخرى، حانياً رأسه. وعاد هو والآخرون يعرجون نحو الليدي جوانتيس، يسندون أولئك الذين يواجهون صعوبة في المشي.

تحرك خدم سيلفر بنفس السرعة، دون أي إشارة واضحة منه. خطت إيرين لتعرض ذراعها للخادمة الأخرى، التي قبلتها بإيماءة شكر، وأنفاسها تخرج في شهقات صغيرة توحي بضلع مكسور.

همست الخادمة بينما كانت إيرين تساعدها للعودة إلى تشكيل الخدم:

— "تساءلتُ لماذا وظفك سيدي. لنتحدث لاحقاً، اتفقنا؟"

أومأت إيرين، بينما قررت في سرها تجنب هذا الحديث إن أمكن، وأعادت المظلة إلى غلافها. لم تكن ملطخة بالدماء تقريباً. وتباً لـ سيلفر لعدم تحذيري من احتمال حدوث هذا.

فجأة، هز دوي بعيد المحطة. صرت الألواح الزجاجية في السقف العالي وارتجفت في إطاراتها، واهتزت مصابيح الأثير، وتمركز وهجها ثم خبا مرة أخرى. تموجت الصرخات عبر الردهة وتراجع الناس مبتعدين عن قضبان السكك الحديدية.

ملأ طنين منخفض المحطة. ثم جاء دوي آخر، أقرب هذه المرة.

استدار سيلفر والليدي جوانتيس ليواجها الخارج في اللحظة ذاتها، دون تردد لثانية واحدة. وفعل العديد من الآخرين المنتظرين بالقرب الشيء نفسه بعد جزء من الثانية. ودون الحاجة لتلقي أوامر، انحنى الخدم الأقل إصابة لحمل حقائبهم، وقلدتهم إيرين.

دوي ثالث، ثم فجأة سطع ضوء باهر في الظلام مع اندفاع قطار مسرعاً إلى داخل المحطة. طغى الشعاع الغاضب لكشافه الضوئي على

البياض الكيميائي لمصابيح السقف، حارقاً العيون بوهجه. وغطى الهدير الشرس لعجلاته على صرخات الحشد وهم يتدافعون للخلف.

تباطأ قطار "الفاي" بسرعة — بسرعة أكبر مما ينبغي أن يكون ممكناً فيزيائياً — وتوقف برفق بجانب الرصيف. كان مصقولاً وأسود اللون، مع سلسلة من العربات ذات النوافذ المظلمة تمتد متجاوزة الرصيف وتتوغل في الليل. ورغم أن مقدمة القطار كانت بوضوح عربة محرك، لم يكن هناك مصدر طاقة واضح. ساد توقف قصير، طال بما يكفي لإثارة الأعصاب، ثم فُتح باب في عربة المحرك وخطى منه شخص.

ضيقت إيرين عينيها حتى تجمعت الدموع في زواياهما. كان الشخص رجلاً. غالباً. كانت صورته — أو صورتها — تتبدل مثل شريط فيلم يقفز بين الصور بسرعة لا تستطيع العين تتبعها، تاركة إياها مع مجموعة من الانطباعات، لكن دون استنتاج ثابت ومحدد. كانت معظم الصور لذكور: فارس بقبعة مثلثة ومعطف طويل وجزمة عالية. وقاطع تذاكر قطار بزي داكن وقبعة. وطيار طائرة ثنائية الجناح يرتدي خوذة طيران وسترة من جلد الغنم. وسائق دراجة نارية بملابس جلدية سوداء وخوذة.

استقرت الصورة أخيراً على هيئة قاطع التذاكر، بزي يتلألأ ببريق داكن بفضل الضفائر والأزرار الأبنوسية. تقدم الرجل خطوة للأمام، وتحرك كل من سيلفر والليدي جوانتيس لاستقباله.

انحنى سيلفر، بينما أدت الليدي جوانتيس انحناءة احترام، فقام الرجل بإيماءة صغيرة بيده. ذكرت تلك الحركة إيرين بطريقة ما بتقبل آو شون اللامبالي لرسمياتها قبل ساعات. ثم استدار ليعود إلى القطار.
انفتحت أبواب العربات الأبعد عن المحرك، وبدأ القطار يصدر طنيناً ناعماً مرة أخرى، وكأنه يجمع ضغط بخار جحيميّ ما استعداداً للانطلاق.

هسهس جونسون بصوت حاد:

— "تحركوا، جميعكم، الآن!"

تدافع الخدم بسرعة للأمام بينما اختار سيلفر والليدي جوانتيس عربتيهما. صعدت الليدي جوانتيس إلى أقرب عربة، وتمشى سيلفر عبر الرصيف إلى العربة التالية بلامبالاة وكأنه كان يضع عينه عليها منذ البداية. وتدفق الحشد الصغير من "الفاي" الأقل شأناً والمرافقين إلى العربات خلفهم، تاركين إيرين وبقية الخدم ليحشروا أنفسهم وحقائبهم على عجل، بينما كان نبض المحرك المتصاعد يعزف لحناً مرعباً في الخلفية.

كان الجزء الداخلي للقطار تجسيداً للفخامة الخالصة. حظيت إيرين بلحظة لاستيعاب المشهد، قبل أن تضطر لجرّ حقيبة أخرى إلى داخل العربة، وعبر الممر الضيق، وصولاً إلى المقصورة المغلقة في نهايته. كان المكان مكسواً بالمخمل الأسود الوثير، والجلد، والفضة. وفي أقصى المقصورة، تجويف بحجم سرير تغطيه ستائر من الديباج الثقيل أُغلقَت بلباقة. ألقى سيلفر بنفسه على أحد المقاعد الطويلة، بينما فتح جونسون حقيبة ليخرج زجاجة براندي وكأساً.

بجهد جهيد، سُحبت الحقيبة الأخيرة إلى الداخل. كان طنين المحرك أعلى الآن، ثقيلاً لدرجة جعلت أسنان إيرين وعظامها تهتز بانزعاج. وضع جونسون الكأس الممتلئة في يد سيلفر، ثم خطا بسرعة ليغلق باب العربة بقوة في اللحظة التي بدأ فيها القطار بالتحرك. لم يندفع في حركته بارتجاف كوسائل النقل الأقل شأناً، بل انزلق للأمام في انسياب عضوي بارد.

لاحظت إيرين: إنه معتاد على السفر بهذه الطريقة. لكن أعصابها كانت مشدودة، وتركيزها منصب بالكامل على الاندماج مع الخادمات الأخريات. كانت تأمل فقط أن يكونوا مشغولين للغاية بحيث لا يتوقفون عند حقيقة أنها غريبة تماماً عنهم.

قال سيلفر ملوحاً بيده بإهمال:

– "هذا يكفي. إلى الممر، جميعكم. لابد أن هناك مقصورة أخرى حيث يمكنكم الانتظار. سيستدعيكم جونسون إذا احتجت إليكم."

راقبت إيرين لترى ما إذا كان لديه إشارة خاصة لها، لكن لم تبدر منه أي إيماءة توحي بأن عليها البقاء. خرجت مع بقية الخدم، متكدسين معاً في الممر وهم يبحثون عن المقصورة المخصصة لهم.

تسللت إيرين بهدوء في الاتجاه المعاكس بينما كانوا منشغلين بالحديث وتفقد الإصابات. حان الوقت لتغيير ملابسها وتلفيق حجة وجودها في مكان آخر من القطار – بصفتها "فاي" وصلت حديثاً من عالم آخر. كانت بحاجة فقط لتجنب عربة الليدي جوانتيس تماماً.

توقفت للحظة لتنظر من النافذة، وهي تشنج جسدها استعداداً لمشهد قد يذهب بالعقل لعوالم بديلة. لكن لم يكن هناك شيء لرؤيته – سوى حقول مظللة وأضواء بعيدة وسكون ليل لم يقطعه شيء.

تساءلت، واللامعقولية تتكشف أمامها: ألا يوجد شيء لرؤيته على الإطلاق؟ لا مسافرين على الطرق القريبة؟ لا قطارات أخرى؟ لا أحد يسهر في وقت متأخر من الليل؟ لا شيء من المحطات الأخرى القريبة من لندن؟ لقد مر بضع دقائق فقط على السكة الآن، ولا يوجد أحد بالخارج إطلاقاً؟ انجرفت عبارة "ليل خارج الخرائط" عبر ذهنها، وكتمت رعشة سرت في جسدها وهي تستعد لفتح الباب المؤدي للعربة التالية. هيأت نفسها للمواجهة، لكن لم تكن هناك حاجة لذلك. كانت العربة التالية تحتوي فقط على ممر فارغ، يمتد بمحاذاة مقصورة فارغة.

فكرت إيرين وهاجس الارتياب ينخزها: هل هذا مريح أكثر من اللازم؟ كان من السهل لمخيلة جامحة أن تستحضر وجود "فاي" غير مرئيين – إن كان بإمكانهم التحول للاختفاء؟ لم تكن تعرف. لم تسمع قط عن أي منهم يستطيع ذلك. لكن في كل الأحوال، كان عليها تغيير مظهرها

بسرعة. إذا أبقت على زي الخادمة، فستواجه صعوبة في انتحال صفة "فاي" من عالم بديل مستقبلي. لم يكن أمامها سوى الاعتماد على الحظ.

كرهت إيرين الاعتماد على الحظ؛ فهو ليس بديلاً عن التخطيط الجيد والإعداد الدقيق.

دلفت إلى المقصورة، وأغلقت الباب خلفها ساحبة ستارة الخصوصية فوق نافذة الباب. وبسرعة خلعت الزي التنكري ودفعته تحت أحد المقاعد. كانت بذلتها الرسمية لا تزال تبدو أنيقة بدرجة معقولة، وبريق ذهبي يلمع عند معصميها. كانت هذه أساور سيلفر، التي وعد بأنها ستظهر آثار سحره إذا فحصها أحد. لذا، هي الآن ترتدي أساور "الفاي" حول معصميها ورمز تنين حول عنقها. كانت رمزية الانتماء إلى أي من النظام أو الفوضى غير جذابة، وفوجئت بأن وشم "المكتبة" لم يكن يثير الحكة...

آه. مدت يدها فوق كتفها لتفركه. كان يلسعها بألم، وكان كذلك لبعض الوقت – لكن كانت لديها أمور أخرى لتقلق بشأنها. علامة سيئة.

بدا فجأة أن الحكة في ظهرها ترمز لكل الأشياء التي كانت تحاول عدم التفكير فيها. وعلى رأس القائمة كان الخطر الحقيقي والداهم الذي يحيق بـ كاي. لامست أصابعها القلادة عند عنقها. ليت استطاعت قراءة حالته الصحية منها، بالطريقة التي فعلها آو شون. وضعها المشكوك فيه كان التالي في القائمة: التخلي عن دورها الموكل إليها والذهاب إلى عوالم الفوضى العالية دون إذن، تصرف كفيل بجلب توبيخ لها على أقل تقدير، وربما يؤدي إلى ما هو أسوأ.

همست ذاتها الداخلية: إقصاؤك من منصبك كأمين مكتبة مقيم. إعادتك لرتبة مبتدئ مرة أخرى. حبسك في المكتبة لخمسين سنة قادمة. أو حتى تجريدك من رتبة أمين مكتبة تماماً...

لكن القلق لن يحل شيئاً. لذا داست بضراوة على مخاوفها، دافعة إياها إلى مؤخرة عقلها. لن يُنقذ كاي بالجلوس والهلع عليه كرومانسية عاطفية، أو بالذعر كبطلة رواية قوطية في ثوب نوم طويل. سينقذ، بحق الإله، بخروجها إلى هناك وإنقاذه فعلياً — وليذهب منصبها إلى الجحيم!

حان وقت التحرك. بدأت تشق طريقها عبر القطار.

كانت العربة التالية مزينة بذهب نحاسي وبني عميق. كان الممر فارغاً، لكن ستائر الخصوصية كانت مسدلة على جميع المقصورات الخاصة. كان بإمكانها سماع صوت مزامير وغناء بعيد عبر الجدار. من الأفضل ترك الأمور على حالها.

العربة التالية — لابد أنها الثالثة التي وصلتها، تاركة الليدي جوانتيس خلفها بمسافة أبعد — كانت مزينة باللونين الكريمي والعاجي. كانت ستائر الخصوصية مسدلة جزئياً، وعبر شق صغير من النافذة تمكنت من رؤية أجساد شاحبة متشابكة داخل المقصورة الخاصة. واصلت المشي.

فجأة ارتجف القطار، وبدأ في التباطؤ. نظرت إيرين عبر النافذة الخارجية ورأت أن المشهد قد تغير. بدلاً من ريف ليلي، كانت ترى الآن... أعماقاً مائية. كان الظلام لا يزال سائداً، حيث بدا أنهم بعيدون جداً تحت السطح، لكن أضواء مدينة غارقة كانت تتوهج في الأفق المقترب. انجرف شيء ضخم ذو زعانف في العتمة على الجانب الآخر من النافذة. لم تستطع إيرين رؤية الكثير منه، باستثناء ومضة خاطفة لأسنان.

كان القطار قد وصل تقريباً إلى المدينة الغارقة الآن، وطرأت لها فكرة: ماذا لو فتح شخص ما الباب الخارجي وغمر الممر بالمياه؟ ما الذي قد يحدث؟

مدفوعة بالذعر، ركضت نحو العربة التالية. التفتت إلى نافذة المقصورة، وبدت غير مشغولة. لذا، وبينما كان القطار يتباطأ للدخول إلى المحطة، خطت للداخل وأغلقت الباب خلفها.

سُمعت سعلة.

استدارت إيرين وهي تلهث. أحياناً، حتى أمناء المكتبات يمكن أن يؤخذوا على حين غرة.

كانت هناك امرأة تجلس في الطرف الأقصى للمقصورة. كانت طويلة القامة، تجلس باستقامة حادة كحد الشفرة مقابل المقعد الجلدي الأسود المبطن، وملفوفة بعباءات حريرية ثقيلة بلون أزرق عميق. كان شال ملفوفاً حول رأسها وعنقها، يغطي شعرها، لكنه يكشف وجهها بأسلوب رأته إيرين يُشار إليه باسم "الخمار" في بعض العوالم البديلة. كانت خطوط وجهها الصارم لا تقبل المساومة تماماً كجلستها، ولم تكن هناك أدنى ذرة من اللين في عينيها الداكنتين المكحلتين. كانت شفتاها خطين رفيعين، مضمومتين باستنكار، ورغم أن وجهها بمجمله كان جميلاً، إلا أنه كان جمالاً صارماً وحازماً، ذلك النوع الذي يُصوّر في رسومات ملائكة العلم ومشاهد يوم الحساب.

قالت المرأة والقطار يتوقف ويعم الصمت:

— "لقد تأخرتِ."

الفصل الثاني عشر

قررت إيرين مسايرة الموقف، فقالت:

— "أنا آسفة للغاية."

أدركت أن المرأة قد تحدثت بالعربية، فردت هي باللغة ذاتها. كان من المؤسف أن لهجتها ركيكة للغاية، لكن لم يكن لديها أي سبب لممارستها منذ سنوات.

قالت المرأة:

— "لا عليكِ. تعالي واجلسي. سأكون متساهلة معكِ، بما أنكِ وصلتِ قبل الآخرين على الأقل، لكن الوقت المتبقي قبل وصولنا إلى وجهتنا قصير جداً. اسمكِ، من فضلك."

بحثت إيرين في ذهنها عن اسم لا يحمل أي معنى خفي قد يفضحها، والتقطت أول ما خطر ببالها.

أجابت:

— "كلاريس، يا سيدتي. أعتذر عن رداءة لهجتي."

ما الذي تعنيه بـ "الآخرين"؟

أشارت المرأة بنفاد صبر إلى المقعد المقابل، ويداها لا تزالان مخفيتين في طيات أكمامها الواسعة. لم تكن هناك أسلحة ظاهرة، ولا تهديدات فورية أو استنكار، فسمحت إيرين لنفسها بالاسترخاء قليلاً. غطاؤها لا يزال متماسكاً.

— "مقبول. لهجتك مصرية على ما أظن. هل تعلمتِ اللغة هناك؟"

أومأت إيرين برأسها، وجلست عاقدة يديها في حجرها.

— "نعم يا سيدتي."

حسنًا، نسخة ما من مصر.

من المفترض أن هذه المرأة—وهي من الفاي—تنظر للعوالم بالطريقة ذاتها. "مصر ما"، أو "بندقية ما". لا يوجد مثال أفلاطوني حقيقي، بل مجرد ألف تنويع مختلف.

أعلنت المرأة:

— "يمكنكِ مناداتي بالعمة إسراء. والآن، بما أنكِ هنا، سنبدأ..."

فُتح الباب بعنف ليرتطم بالجدار، واندفع ستة شبان وشابات محاولين الدخول دفعة واحدة وهم يتمتمون باعتذارات متداخلة.

— "سيدتي..."

— "نعتذر بشدة..."

— "لم تكن لدينا أدنى فكرة..."

— "كنت سأصل باكرًا، لكن طفلًا سقط تحت عجلات القطار..."

رمقتهم العمة إسراء بنظرة حادة أخرستهم جميعًا. كان الستة—ثلاثة رجال وثلاث نساء—خليطًا عجيبًا من الثقافات والأزياء؛ إحداهن ترتدي ملابس جلدية سوداء فاضحة مع سوط يتدلى من حزامها، والثانية بزي رعاة البقر. ورجلان عاريا الصدر يرتديان وزرة عمل، مستعرضين عضلات مفتولة توحي بقوة العمال الكادحين—أحدهما شاحب البشرة والآخر أسمر، لكنهما يشتركان في الملامح البطولية والرأس الحليق. أما المرأة الأخيرة فكانت أنيقة ببدلة عمل سوداء مثالية وحذاء أسود لامع، بينما ارتدى الرجل الأخير حريرًا قرمزيًا وعودًا يتدلى على ظهره. بدا عليهم جميعًا الحرج.

صاحت العمة إسراء بحدة:

– "حق لكم أن تخجلوا."

ثم، حين لاحظت بعض علامات الحيرة، انتقلت للحديث بالإنجليزية:

– "أثق أنكم جميعًا تفهمون هذه اللغة؟ عندما وافقت على اصطحاب طلاب في هذه الرحلة، توقعت أفرادًا أذكياء، قادرين على اتباع التعليمات وربما حتى فهمها. قد يكون أسيادكم أقوياء، لكنكم صغار، تافهون، مجرد مراقبين، لا تكادون ترتقون عن البشر إلا بخطوة واحدة! لم أتوقع أن أضيع وقتي مع من لن ينتفع به. حتى تلك التي جاءت في الموعد تقريبًا..." – أشارت إلى إيرين – "...كانت متأخرة. أنا أمقت التأخير. التلكؤ جريمة كبرى في حق اللياقة."

بينما كانت لا تزال غارقة في حيرتها، شعرت إيرين وكأنها بدأت تلمس أرضًا صلبة وسط هذا التخبط. هذا نوع من الفصول الدراسية المرتبة مسبقًا. إنها معلومات. إنه غطاء. في الواقع، إنه غطاء مثالي تمامًا.

ربما مثالي أكثر من اللازم؟

ستفكر في ذلك لاحقًا. ستكون هذه لحظة سيئة لمحاولة المغادرة. لم تبدُ العمة إسراء وكأنها ستقدر انسحاب طلابها.

قالت إيرين وهي تحني رأسها:

– "نحن آسفون جدًا يا العمة إسراء. نعتذر عن تأخرنا."

انضم إليها الآخرون بتمتمات سريعة من الاعتذار والتبرير. رمقها اثنان منهم بنظرات منزعجة من نوع لماذا كان عليكِ الوصول أولًا وإحراجنا جميعًا؟ لكن إيرين لم تبالِ. هذا يعني أنهم يعتقدون أنها مجرد واحدة منهم، وليست دخيلة. سرت رعشة خوف في أوصالها عند التفكير

في احتمالية اكتشافهم للحقيقة. لن تكون تلك نهاية سعيدة لها على الإطلاق.

أمرت العمة إسراء بصرامة:

– "اجلسوا جميعًا."

تحرك القطار مغادرًا المحطة.

جلسوا محشورين في المقعد المقابل للعمة إسراء. تفادى أحد الشبان المفتولين الصراع على المقاعد بالجلوس برشاقة على الأرض وثني ساقيه تحته. حُشرت إيرين بين المرأة ذات الملابس الجلدية وتلك التي ترتدي بدلة العمل. أخرجت الأخيرة دفتر ملاحظات وقلمًا فضيًا من جيب داخلي—كيف تمكنت من حشره هناك أصلًا؟ تمنت إيرين لو كان معها دفتر ملاحظات.

بدأت العمة إسراء:

– "إكرامًا لأسيادكم، وافقت على عقد حلقة دراسية صغيرة حول السلوك القويم في نطاقات (الفضيلة العليا)، مثل النطاق الذي نحن بصدد زيارته. ربما سمع بعضكم عني. أنا حكواتية بحكم المهنة والطبيعة، ولا أبتغي شيئًا أفضل من حكاية وجمهور. غالبًا ما تتم دعوتي لهذه الأحداث العظيمة كي تُحفظ ذكراها كما ينبغي بعد وقوعها. ربما، في المستقبل، سأتذكركم."

جال بصرها في المجموعة. قلقت إيرين من أن نظرتها طالت قليلًا عندها.

الارتياب يجعلكِ تبدين مثيرة للشبهة فقط.

كانت ترغب بشدة في الحصول على دفتر ملاحظات. يجب أن يذهب هذا الكلام إلى ملفات المكتبة فور أن تسنح لها الفرصة. إنها معلومات خلفية حيوية للغاية لأي تعامل وثيق مع الفاي أو زيارة لعوالم

الفوضى العالية. بالطبع، يجب أن يتورط المرء في هذا النوع من التفاعلات المتهورة مع الفاي في المقام الأول للحصول على هذا النوع من المعلومات—وهو ما يفسر عدم وجودها في المكتبة بالفعل.

وتوفير معلومات كهذه قد يخفف من حدة التوبيخ الذي قد تتلقاه. لا، التوبيخ قادم لا محالة. هذا بافتراض أنها ستنجو لتقديم المعلومات.

تابعت العمة إسراء:

– "أفهم أنكم جميعًا كنتم محصورين حتى الآن في نطاق واحد، أو ربما زرتم بعض النطاقات المحلية. هل هذا صحيح؟"

كانت هناك إيماءات عامة وتمتمات بـ "نعم يا سيدتي".

قالت مجددًا:

– "يمكنكم مناداتي بالعمة إسراء. والآن، أعتقد أنه من المرجح أنكم لم تختلطوا إلا نادرًا بالعظماء منا."

رفع الرجل ذو الحرير القرمزي يده. كانت ملابسه مصممة لتبرز مفاتن جسده (وقد نجحت في ذلك بامتياز)، وشعره الأشقر يتموج فوق كتفيه، ينسدل بأناقة ليخفي إحدى عينيه.

– "سيدتي... العمة إسراء... لقد حالفني الحظ بالحضور في بلاط سيدي لسنوات عديدة الآن، في النطاقات المتوسطة، وهو لورد عظيم وجبار..."

قاطعت العمة إسراء بحدة:

– "وبقولك هذا، فإنك تفضح ضآلة ذلك النطاق وضعف سيدك! عيناها لمعتا كالماس الأسود. يا لك من صبي أحمق، ألم تشعر باهتزاز تلك العوالم حين مر بها الراكب وجواده؟ هكذا ترتعد كل العوالم ذات الفضيلة الأقل حين يتحرك العظماء خلالها. تلك النطاقات لن—ولا يمكنها أن—تتحمل قوة العظماء. النطاق الذي نسافر إليه هو ذو فضيلة

أعلى وسيكون قادرًا على تحمل وجودهم. أقول مجددًا إنكم نادرًا ما واجهتم العظماء منا، لأن النطاق الذي نشأتم فيه لم يكن ليحتويهم طويلًا. أيها الفتى، ما اسمك؟"

همس الرجل:

— "أثنايس القرمزي." ثم وقف وانحنى بحركة مسرحية.

أمرته العمة إسراء:

— "استدر واعتذر لإخوتك وأخواتك عن إضاعة وقتهم. واعتبر نفسك محظوظًا لأنني لم أضرب يديك بالسوط لمساعدتك على تذكر الدرس."

استدار أثنايس، وهو لا يزال واقفًا، نحو إيرين والآخرين.

— "أعتذر عن إضاعة وقتكم بحماقتي. أرجوكم سامحوني."

وسط التمتمات المحرجة بقبول الاعتذار، صفعت إيرين نفسها ذهنيًا. لقد كانت مشغولة جدًا بشخصية سيلفر الماجنة والمبالغ فيها لدرجة أنها لم تكلف نفسها عناء التفكير في الفاي الذين يفضلون أنواعًا أخرى من الأدوار عند بناء قصصهم. قد يظلون محور سرديتهم الخاصة، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن يكونوا "البطل" أو "الشرير" في الحكاية الشاملة. هناك أدوار أخرى يمكنهم لعبها، أدوار ربما لا تكون مدمرة بشكل مباشر لمن حولهم. (رغم أنها تكره ارتكاب خطأ في أي فصل تديره العمة إسراء؛ يبدو أن العواقب ستكون مؤلمة). لكنها كانت تفترض بلا وعي أنهم جميعًا سيلعبون ألاعيبهم بنفس الطريقة التي يفعلها سيلفر، جاعلين من أنفسهم دائمًا البطل الرئيسي.

العمة إسراء من الفاي، لكنها أيضًا معلمة وحكواتية بطبيعتها. لا بد من وجود طريقة تمكّن إيرين من استغلال ذلك.

أومأت العمة إسراء:

— "اجلس مجددًا. حسنًا، كما كنت أقول، لم يكن لكم تعامل يذكر مع العظماء منا، ولم تمضوا وقتًا في نطاق ذي فضيلة عليا—أو هكذا قيل لي؟"

جال بصرها في المجموعة، وحين أومأ الجميع، بما فيهم إيرين، ابتسمت ابتسامة باهتة.

— "آه، ستكون هذه عتبة جديدة لكم جميعًا!"

رفعت المرأة ذات البدلة الرسمية يدها.

— "عمة إسراء، هل يمكننا طرح أسئلة؟"

أجابت العمة إسراء برد لم يكن مفيدًا جدًا:

— "طالما كانت أسئلة ذكية."

أومأت المرأة.

— "لقد عشنا جميعًا في ظل أسيادنا، يا عمة إسراء، واتبعنا مساراتهم. لذلك لدينا بعض الفهم لما يعنيه أن تكون عالقًا في (قصة) شخص آخر من نوعنا—أو على الأقل، كانت هذه الصياغة التي استخدمها رئيسي. ما مدى... أممم، ضخامة التأثير عند مواجهة أحد العظماء..."

كان من الواضح أنها تبحث عن طريقة دبلوماسية لقول "ما مدى سوء الأمر"، وكانت إيرين نفسها تود بشدة معرفة الإجابة.

زمّت العمة إسراء شفتيها بازدراء. الضوء القاسي القادم الآن عبر النوافذ رسم ملامحها في خطوط صارمة من التباين والظلال.

— "بالتأكيد يمكنكِ الفرار أيتها الشابة، والتراجع إلى أي نطاق جئتِ منه. بلا شك سيكون هناك بشر سيغذونكِ بما يكفي من العشق لتبقي على قيد الحياة. لكنه لن يكون أكثر من مجرد بقاء. بمجرد أن تتذوقي نبيذ السير في خطى العظماء، لن يرضيكِ ما دونه. ذات يوم كنتُ أنا—أنا

نفسي!—مجرد جارية متواضعة تحمل سيفها في خدمة الخليفة العظيم هارون الرشيد. بدت لي كل الأمور ممكنة حينها. سأعترف أنه كان لي عشاق—لا، بل حتى أصدقاء—بين البشر. استطعت العيش داخل ذلك النطاق التافه لأنني لم أدرك كم كان متاحًا لي خارجه."

خلف النافذة امتدت صحراء قاحلة، يتناثر فيها الصبار والشجيرات المتدحرجة، ودروب صخرية ضيقة. كانت الشمس تسطع بوهج حارق من سماء صافية. تحول صوت العمة إسراء إلى نغمة الحكاية المتصاعدة والهابطة.

— "ولكن بعد ذلك رويتُ حكاية حررت ماردًا، وسافرت ثلاث مرات عبر الرمال المتحركة مع رفاق للإجابة عن أسئلته. مشيت في الدروب التي تقود من الجنة إلى الجحيم، واتخذت خمسة خيارات عند أبوابها. منحتُ بطلًا زمام حصان يعدو أسرع من الريح. ركعت عند قدمي إمبراطور حكم خمسة عوالم، ورويت له قصة جلبت الهلاك على أحدها لكنها أنقذت آخر. رقدت في أحضان المحيط وأنجبت لها طفلًا. وبعد أن فعلت كل هذه الأشياء، يا أطفالي، رأيت كم كان ذلك تافهًا أن أكون... أن أكون مجرد شخص يحمل الاسم الذي كان لي يومًا. ما هم البشر مقارنة بنبيذ الحياة الذي نجده في العيش كما نعيش؟ أنا ما أنا عليه، والآن لا رغبة لي في أن أكون أقل من ذلك."

هل كلمة "أقل" هي الكلمة المناسبة حقًا؟ تساءلت إيرين، ثم فكرت: بالنسبة لها، نعم.

تابعت العمة إسراء:

— "انبذوا شكوككم. كونوا ما أنتم عليه. هذا هو الطريق للأمام يا أطفالي، طريق القوة، طريق الحياة. وكلما زادت فضيلة المكان الذي تمشون فيه، صار الأمر أسهل. أرى من ملابسكم وعاداتكم أنكم جميعًا

راسخون في نطاقاتكم الخاصة، وهذا جيد. لكن العظماء منا يمكنهم السير في أي نطاق وسيظهرون بالملبس والأسلوب المناسب لطبيعتهم. يمكنهم التحدث وسيُفهمون بأي لغة. إنهم ثابتون لا يتغيرون، لأنهم أصبحوا أنفسهم تمامًا ولن يكونوا أبدًا غير ذلك."

رفعت إيرين يدها بتردد.

قالت العمة إسراء، وقد بدت أقل حدة الآن، أقرب إلى حكواتية شاعرية منها إلى معلمة صارمة:

– "نعم؟ ماذا لديكِ لتقوليه يا كلاريس؟"

قالت إيرين بحذر، ومعدتها تتقلص خوفًا من جذب المزيد من الانتباه إليها:

– "عمة إسراء، عندما دخلت القطار، لاحظت السائق. لكن كان من الصعب رؤيته بوضوح. رأيت العديد من الوجوه والأنماط المختلفة من الملابس، لكن كل واحد منها كان مناسبًا بطريقته الخاصة. إنه أحد العظماء، أليس كذلك؟"

وخز التوتر ظهرها وكأنه صدى لوشم المكتبة، حين التفت الآخرون في المقصورة نحوها.

توقف القطار بسلاسة. كانت هناك عربات جياد تنتظر في الخارج. من طرف عينها، استطاعت إيرين رؤية رجال ببدلات بيضاء وقبعات طويلة، ونساء بمظلات شمسية وفساتين مزخرفة، يتم مساعدتهم للنزول من عربات الجياد. كانوا يقتربون من عربات أبعد في القطار.

أومأت العمة إسراء:

– "إنه الراكب. هو وجواده يتشاركان حكاية. هل يعرفها الجميع هنا؟"

قبل أن تضطر إيرين للاعتراف بجهلها أو التظاهر بالمعرفة، رفع الشاب ذو السترة والملابس العمالية الجالس على الأرض يده.

– "بالطبع يا العمة إسراء. أنا مندهش أن كلاريس هنا ليست على دراية كاملة بها."

متغطرس، متغطرس، فكرت إيرين. فقط لأنني وصلت في الموعد. لكنها شعرت أيضًا بوخزة قلق خشية أن تكون قد كشفت جهلها.

قالت العمة إسراء مانحة إياه المهمة بتفضل وكأنها جائزة:

– "إذن يمكنك سرد الحكاية أيها الشاب."

بدأ الشاب حديثه بملامح يكسوها الرضا عن الذات:

– "ذات مرة، في دولة بعيدة الزمن، كان هناك حصان يعدو عبر البر والبحر..."

كانت حكاية خرافية نموذجية، حتى وإن كان البطل الذي روض الحصان في النهاية خادمًا بطوليًا للشعب بدلًا من الأمير أو الصياد المعتاد. حرصت إيرين على حفظ التفاصيل: طوق فضي مصنوع من القمر والنجوم، سوط منسوج من الرياح، الراكب المتشبث ببدة الحصان بينما يعدو فوق سبع وعشرين دولة بروليتارية. كل الأشياء المعتادة. وكانت تومئ برأسها في اللحظات المناسبة وهي تكرر القصة داخل رأسها.

ختم الشاب قصته قائلًا:

– "ثم أحنى الجواد رأسه وخضع، ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا، امتلك البطل قوته وصار يعدو طوع إرادته، أسرع من ألف قوس قزح. من أرض إلى أرض يمتطي جواده، من بوابات الحكاية إلى شواطئ الحلم، حتى يتغير العالم."

جلست العمة إسراء صامتة للحظات، غارقة في التفكير، وساد الصمت العربة إلا من هدير القطار. كانت ناطحات السحاب تلوح خلف

النوافذ الآن، وقممها تضيع في الضباب الدخاني. أدركت إيرين بشكل غامض أن هناك أشخاصًا آخرين في العربة، يتكدسون لملئها—طلاب آخرون ربما؟—لكنها لم تجرؤ على صرف نظرها عن العمة إسراء.

قالت العمة إسراء:

— "سرد مقبول إلى حد ما. نسخة مقبولة من القصة. أنا موافقة. يمكنك مراجعتي لاحقًا، إذا رغبت، لمزيد من التعليم."

انحنى الشاب بخصره قائلًا:

— "شكرًا لك يا العمة إسراء."

سألت العمة إسراء فجأة، وهي تجول ببصرها على المجموعة:

— "والآن، ما الاستنتاج الذي يمكننا جميعًا استخلاصه من هذا؟"

سارعت إيرين ذهنيًا لتخمين الإجابة الصحيحة. شيء ما حول كون الوجود في قصص نموذجية يجعلك من الفاي الأقوياء، أو العكس؟ شيء حول استمرار القصص نفسها عبر عوالم مختلفة؟ أو حول أهمية كل من الحصان والراكب كعناصر مشاركة في القصة؟

قالت المرأة ذات بدلة العمل بصوت مقتضب:

— "من الواضح أن كلًا من الراكب والحصان ضروريان لبعضهما البعض. يمكن تفسير ذلك كتشجيع على الانخراط مع بعضنا البعض، لمنفعتنا المتبادلة."

حتى لو كنت أفضل أن أكون الراكب لا الحصان، فكرت إيرين.

علقت العمة إسراء:

— "أنتِ محقة أيتها الشابة، وإن كنتِ قد صغتِ الأمر بشكل باهت للغاية. لا أتوقع منكِ فهم المجد المحض الذي يأتي من مشاركة مسار شخص آخر، إلا بالتجربة."

كان صوتها يقطر تعالياً، وتابعت:

— "بالتأكيد يمكن للمرء رفض هذه الأشياء. يمكن للمرء أن يحد من ذاته. لكن أولئك الذين يختارون ذلك——حسنًا، إذا كانوا هنا، فهم في المكان الخطأ. نحن الآن في حضرة الرفقة العظيمة التي سافرت على متن الجواد. لذا أصبحت قصتنا أكثر ثراءً، ونحن أعظم بسببها. أيضًا، يمكننا أن نرى أن الأشياء الأقل شأنًا داخل القصة لها قوتها الخاصة. الحصان مجرد خادم للراكب، لكنه ضروري للحكاية. لا توجد قصة تدور حول البطل وحده! أشياء أخرى تُذكر وتُخلد——الخصوم، الأصدقاء، الخدم، والعقبات."

كان هناك شيء يلح على ذهن إيرين، وحاولت صياغته كسؤال. بدأت قائلة:

— "عمة إسراء..."

— "نعم يا كلاريس؟"

تابعت إيرين بحذر، آملة أن تكون قد استخدمت المصطلحات الصحيحة. كان وشم المكتبة يثير حكة في جلدها مرة أخرى كلما توغلوا أعمق في الفوضى مع كل توقف للقطار:

— "قلتِ إن الجواد كان أحد العظماء، وكذلك الراكب. نحن حاليًا داخل الجواد، إذا جاز التعبير. هل يعني هذا أننا حاليًا في نطاق (فضيلة عليا)، حيث يمكن لنماذج القصص العظيمة أن تزدهر؟"

قالت العمة إسراء:

— "بالطبع."

لم تكن نبرتها تعني تمامًا وحده الأحمق من يسأل سؤالًا كهذا، لكنها كانت قريبة من ذلك، وأضافت:

— "لهذا السبب وجدتم جميعًا سهولة كبيرة في الوصول إلى هذه الحلقة الدراسية. مساراتكم هي التي جلبتكم إلى هنا."

أومأت إيرين:

— "شكرًا لك يا العمة إسراء."

خفضت عينيها وهي تفكر. إذن، داخل هذا القطار هو بطبيعته مكان عالي الفوضى، ووجودها في بيئة عالية الفوضى أخذها إلى حيث "تحتاج" أن تكون من أجل "القصة" التي هي فيها. لا داعي لأن تكون مرتابة بشأن كون كل هذا فخًا عملاقًا——على الأقل، ليس بعد. لكنها بحاجة لأن تكون حذرة بشأن احتمالية أن يأخذها "مسارها" لمقابلة اللورد أو الليدي جوانتيس. هذا سيؤدي إلى دراما تروق للقصة، لكنها قد تضطر للعب دور الضحية، لا البطلة. فخ آخر يجب تجنبه——إن استطاعت أصلًا.

جاء صوت نسائي بلكنة أمريكية من مكان ما خلفها:

— "من الصعب علينا صنع دور لأنفسنا عندما يسيطر العظماء بالفعل على أبرز المسارات."

ردت العمة إسراء بهدوء:

— "حتى العظماء يمكن أن يموتوا. المسار أبدي، لكن نحن السائرون عليه نادرًا ما نكون كذلك. لا تتعجلي في تقييد نفسك يا ابنتي. انطلقي وتصرفي وفقًا لطبيعتك. الضعفاء فقط هم من يقيدون أنفسهم بالتفكير بمصطلحات بشرية. اشفقي عليهم، استخدميهم، لكن لا تصبحيهم. نحن ما نصنع بأنفسنا."

كانت هناك خضرة خارج النافذة الآن. بدا القطار وكأنه يتحرك أسرع فأسرع طوال الوقت، متوقفًا لفترات أقصر في كل محطة. هل كان ذلك مجرد تصور إيرين، أم أنهم كانوا ينطلقون بسلاسة وسرعة أكبر كلما توغلوا أعمق فأعمق في الفوضى؟

استمرت العمة إسراء في الحديث، وحافظت إيرين على تعابير وجهها لتوحي باهتمام عميق، لكنها في الداخل كانت تقلب الحقائق الجديدة في رأسها كأوراق التارو. كلما بدا أحد الفاي يلعب دورًا بوضوح أكبر، كان أكثر قوة. اللورد جوانتيس وسيلفر لابد أنهما في المستوى ذاته تقريبًا، وإلا لكان من المفترض أن يدمر اللورد جوانتيس خصمه سيلفر بالفعل، نظرًا لعداوتهما. إلا إذا كانت القصة تتطلب استمرار صراعهما لفترة أطول. إذن هل يمتلك اللورد جوانتيس نموذجه المنافس الخاص، أو مساره، أو دوره، أو أيًا كان ما يريد المرء تسميته؟ وهل الليدي جوانتيس أقل قوة؟ قال سيلفر إنها لا تملك القدرة على السفر عبر العوالم بالقدر الذي يفعله اللورد جوانتيس، وبدا بشكل عام مستخفًا بها. ولكن، إلى أي مدى يمكن الوثوق بحكم سيلفر؟

تشكلت فكرة باردة في ذهنها. ربما تكون الليدي جوانتيس أقل قوة بصفتها من الفاي، لكنها ماكرة بما يكفي لوضع عراقيل أمام إيرين وفيل، وابتكار طرق مبتكرة لفعل ذلك. لقد أضرت حتى بروابط فيل مع الشرطة الرسمية. العقبات التي وضعتها في طريق مطاردتهم كانت عملية ومنطقية، وليست درامية أو غريبة أو من النوع الذي قد يحاول سيلفر فعله. (حسنًا، كمائن المستذئبين لم تكن عملية ومنطقية تمامًا، لكنها كادت تنجح).

ربما كانت قوة الليدي جوانتيس هي بالضبط ما كانت العمة إسراء مشغولة بانتقاده في هذه اللحظة بالذات. ماذا لو كانت تفكر كبشرية وليس كواحدة من الفاي، وبالتالي لم تكن مقيدة بأنماط التفكير النموذجية؟ كانت مجرد فرضية، لكنها بدت منطقية لدرجة غير مريحة.

توقف آخر. أبراج بلورية متوهجة خارج النوافذ. رجال ونساء بملابس حريرية فضفاضة وأوشحة مخملية.

ربما لن تتمكن من تجنب الزوجين جوانتيس. لكن يمكنها اتخاذ كل الاحتياطات لمنعهما من التعرف عليها. وأولويتها هي العثور على كاي،

وإنقاذه، والهرب. ستترك الانتقام لعائلة كاي. عليها فقط الوصول إلى هناك، وإذا كان هناك مزاد، فإن وقت كاي ينفد بسرعة.

تململت بقلق بينما أنهت العمة إسراء خطبة عصماء أخرى حول أمجاد التحول إلى فاي أكثر قوة—عن طريق التضحية بكل صداقة مع "البشر العاديين"—ثم رفعت إيرين يدها.

– "نعم يا كلاريس؟ أفكارك حول الموضوع؟"

احمر وجه إيرين خجلًا، بأقصى ما استطاعت من رقة وتواضع مصطنعين.

– "في الواقع يا العمة إسراء، كنت أتساءل إن كان بإمكاني السؤال عن الوضع الحالي في وجهتنا، وتداعياته المحتملة. كما قلتِ، نحن جميعًا من خلفيات محدودة، وسأكون ممتنة جدًا للحصول على وجهة نظر أوسع قبل وصولنا."

صدرت همهمة استحسان من خلف إيرين، مما فاجأها بحجم الصوت. بدا وكأنه سؤال يحظى بشعبية. لا بد أن العربة قد تضخمت كثيرًا لتتسع لكل هؤلاء الناس.

أومأت العمة إسراء بتفكير. أضاءت أنوار العربة المقصورة بحدة، بينما عاد الظلام خارج النافذة—محيط هائج من المياه السوداء تعصف به الرياح.

– "صحيح أن معظمكم لن يكون لديه إدراك كافٍ للتداعيات الأوسع. هل تعلمون أن نخبًا شائعًا في بعض الجيوش كان يومًا (في صحة طاعون مفاجئ وحرب دموية)؟"

هز الجميع رؤوسهم بالموافقة، بمن فيهم إيرين.

– "اللورد جوانتيس، من نطاق الشبكة السابعة، قد أسر تنينًا وعرضه للمزاد. بالطبع، العظماء منا فقط هم من سيشاركون في المزايدة، وأنتم أيها

الأطفال مجرد مراقبين. ما قد لا تدركونه، يا صغار، هو أن هناك فرصة كبيرة لأن يؤدي هذا إلى صراع مفتوح بين جنسنا وبين التنانين. كل شيء قد يتغير. بالتأكيد سيجد اللورد جوانتيس نفسه إما مرفوعًا عاليًا أو مسحوقًا. لذا ترين يا ابنتي..." — ابتسمت للمرأة ذات بدلة العمل الجالسة بجوار إيرين، ولم يكن في وجهها سوى سرور بسيط — "...لا داعي للقلق كثيرًا. مسارات جديدة تُفتح لنا جميعًا. في منتصف ليل الغد، في دار أوبرا (لا فينيس)، سيُباع التنين لمن يدفع أعلى سعر. وأيًا كان الاتجاه الذي سيقود إليه المسار، فمن المؤكد أنها ستكون حكاية عظيمة ورائعة لترويها هذه الحكواتية."

سُمع حفيف بينما تفقد الناس ساعاتهم. نظرت إيرين إلى معصمها تلقائيًا، كي لا تبدو شاذة عن البقية، لكن قلبها تجمد في صدرها. لديها يوم واحد للعثور على كاي. وإذا فشلت في إنقاذه، ستكون النتيجة حربًا. كادت تختنق. لم تكن تفتقر للمهارات، لكن كيف... كيف ستدبر هذا الأمر في مدينة غريبة، بمفردها، بحلول منتصف ليل الغد...

ارتجف القطار، ونظرت العمة إسراء من النافذة. خلف الزجاج تراءت أضواء في البعيد، متلألئة عبر المباني والقباب والقصور. البندقية.

— "من الأفضل لكم الاستعداد لمراقبة الأحداث على الرصيف يا أطفال، أو العثور على أسيادكم. لا تتركوهم ينتظرون."

فاصل سردي (2)

كاي - في البرج

استيقظ كاي على طعم البراندي، وابتلع تلقائيًا قبل أن تخطر فكرة السم بباله.

كان ذلك الضغط الرهيب والمستمر وحرقة الفوضى قد اختفيا. وللحظة، سيطرت تلك الفكرة على كل ما سواها. الحجر البارد والمعدن البارد ضد بشرته كانا مداعبات لطيفة بالمقارنة، والشد على ذراعيه كان غير مهم. أصبح قادرًا على التفكير بوضوح مرة أخرى، على الإدراك، على التعقل.

كان شخص ما يسنده ويرفع رأسه، مميلًا قارورة البراندي على شفتيه. سمح كاي لعينيه بأن ترفا مفتوحتين لجزء من الثانية، فقط بما يكفي ليرى من هو وأين هما.

كان خاطفه، الرجل الذي دعوه باللورد جوانتيس.

اندلع غضب عارم في كاي، فشد على ما يمسك معصميه، مناضلًا لتحريرهما كي يتمكن من إطباق يديه حول عنق «الـفاي».

تراجع جوانتيس للخلف ناهضًا على قدميه.

— "أفهم من ذلك أنك لا تريد المزيد من البراندي،" قال وهو يمسح فوهة القارورة بكمه. كان يرتدي الآن حريرًا ومخملًا رماديًا، مع عباءة منسدلة فوق سترة وسروال.

— "كيف تشعر؟"

– "كيف تجرؤ على سؤالي ذلك، بعد أن وضعت يديك علي بهذه الطريقة!"

في مكان وزمان آخرين، كانت كلمات كاي لتوقظ العواصف، وتجعل الأنهار والبحار ترتفع بأمره. لكن هنا والآن كانت مجرد كلمات، وتردد صداها بفتور داخل الغرفة الحجرية الرمادية الصغيرة.

– "أوه، أرجوك."

دس جوانتيس القارورة في عباءته.

– "كنت هدفًا سهلًا بشكل مثير للشفقة. كنت لأظن أن والدك أو أعمامك قد علّموك المزيد من الحذر. عار عليك أنهم لم يفعلوا."

الإهانة لوالده وأعمامه جعلت كاي يعض شفته، والغضب يعمي بصره. شد على الأصفاد التي تثبته في الجدار حتى سال الدم على معصميه.

– "ستموت بسبب هذا،" زمجر.

– "كلمات، كلمات، كلمات. لو علمت أنكم معشر التنانين ضعفاء هكذا، لتصرفت في وقت أبكر. إذن، أخبرني، هل تود التفاوض على فدية؟ أتصور أنه يمكننا إرسال رسالة لعمك. في الواقع، هممم."

بدأ جوانتيس يتمشى بتفكير، مشتتًا بقطار أفكاره.

– "قد يكون من المثير للاهتمام زرع الشك بين خدم عمك. سيتعين علينا ترك أثر يوحي بأن أحدهم ورطك، بالطبع، وحينها يمكنني حتى تجريم أحد إخوتك الأكبر، أو ربما الإيحاء بأن «المكتبة» كانت وراء كل شيء، بينما في نفس الوقت أبيع المعلومات لـ..."

سعل رجل كان يقف بجوار الباب بأدب. كان يرتدي نفس نوع ملابس جوانتيس، لكن أرخص، وباللون الأسود الباهت غير اللافت للنظر.

– "سيدي، الاختبار؟"

— "أوه نعم، نسيت تمامًا. يمكنك إبلاغ أسيادك أن التنين لا يظهر أي علامة على التحرر من قيوده تحت الاستفزاز الشديد."

التفت عائدًا لـ كاي.

— "يجب أن تعذرني. أنا أتشتت بسهولة جدًا. أخبرني، من تعتقد أنه سيكون المشتبه به الأكثر إقناعًا؟"

تساءل كاي بحيرة:

— "بماذا؟"

تراجع مستندًا للجدار. لم تكن هناك فائدة من محاولة الوصول لـ جوانتيس. كان بإمكانه فقط أن يأمل في اقتراب «الـفاي» مرة أخرى.

— "باختطافك، بالطبع. أوه، أعرف أنك تعرف أنني فعلتها، لكن من غيري سيفعل؟ هناك مجال واسع هنا، ولا أريد تقييد نفسي دون داعٍ. ربما الخيار الأفضل هو الانتظار حتى ينتشر خبر أسرك ثم الإيحاء بأن شخصًا ما كان ينتحل شخصيتي. أو ربما أنني كنت عميلًا لوالدتك، وأن الأمر برمته كان الضربة الأولى في حرب أهلية ضد والدك. بالطبع، لا توجد حرب أهلية فعلية بعد، لكن يمكننا العمل على ذلك."

هز رأسه.

— "لا، يجب أن أسيطر على نفسي. الالتزام بالخطة الحالية حتى تنفذ بالكامل، كما تواصل زوجتي العزيزة القول."

حاول كاي الضحك، وحلقه لا يزال يحترق من البراندي. جمع كبرياءه، فاردًا كتفيه وناهضًا على قدميه.

— "إذا تماديت لدرجة إهانة والدتي، فإن المصير الذي في ذهني لك الآن سيبدو باهتًا بالمقارنة. أنت أحمق، وتتدخل في أمور تتجاوز فهمك."

قال جوانتيس:

— "خطاب جميل جداً. كنت سأفتخر به نفسي. لكن اسمح لي أن أشير إلى أنك حاليًا في الأصفاد، في سجن، وبعيد جداً عن أي شخص يمكنه مساعدتك. أيضًا، لا أحد يعرف أين أنت."

رد كاي وهو يحاول تجاهل عدم اليقين الأجوف في بطنه:

— "وضع مؤقت. أصدقائي سيأتون لأجلي. عمي سيجدني."

قال جوانتيس بيقين ينقل الحقيقة المطلقة:

— "ليس هنا. هذا العالم عميق في مناطق الفوضى. حتى لو استطاع عمك العثور عليك، فهو لا يستطيع ولا يريد المجيء هنا، حتى لإنقاذ حياتك. سيكون ذلك عملًا من أعمال الحرب المفتوحة. في الواقع، حقيقة أنك هنا بنفسك يمكن تفسيرها كاستفزاز. الابن الأصغر لملك المحيط الشرقي، في عمق قلب أراضينا."

تصارع الغضب والخوف مع رغبة كاي في دحرجت عينيه.

— "أنت اختطفتني."

— "نعم، هذا صحيح. سيتعين علي فقط التأكد من أنك غير قادر على تجريمي..."

هز رأسه مرة أخرى.

— "أفترض أنه يمكنني دائمًا الاحتفاظ بذلك كملاذ أخير، إذا لم يمضِ المزاد وفق الجدول الزمني."

سأل كاي:

— "مزاد؟"

جزء منه لم يتقبل بعد أن هذا يحدث.

— "نعم، في منتصف ليل الغد."



نظر جوانتيس لأعلى نحو فتحات النوافذ في الجدار عاليًا بالأعلى. ضوء شاحب ورقيق سطع من خلالها، وكان من المستحيل تحديد الوقت من اليوم.

– "ستُباع لمن يدفع أعلى سعر. أنيق جدًا، ألا تعتقد ذلك؟"

أقسم كاي مرة أخرى:

– "سأقتلك. وإذا لم أفعل، فأصدقائي سيفعلون."

كان الغضب والكبرياء هما الشيئان الوحيدان المتبقيان له ليمنحاه القوة.

قال جوانتيس باعتدال:

– "لكنني أخبرتك بالفعل. التنانين لا يستطيعون الوصول إليك هنا. حتى «المكتبة» لن تساعدك."

– "أنت تعرف عن «المكتبة»؟"

– "أعرف كل اللاعبين في اللعبة."

التفت جوانتيس وتمشى ببطء نحو الباب.

– "وأنت، أيها الأمير الشاب، في وضع «كش ملك». نم جيدًا."

أغلق الباب خلفه بدوي أجوف، قاطعًا آخر صرخة تحدٍ لـ كاي وتاركًا إياه وحيدًا في الزنزانة.

هل كان «كش ملك»؟ ربما لا. كان عليه أن يؤمن بأن هناك فرصة ما زالت قائمة، وإلا فسييأس. وإذا ظن جوانتيس أن «المكتبة» لن تساعد، فهو لا يعرف إيرين. ستكون لا تزال في اللعبة. لابد أن تكون كذلك.

الفصل الثالث عشر

تمامًا كما توقعت إيرين، كان المشهد عند الوصول فوضى عارمة، وتكاد تكون فوضى دموية. تعثرت خارجة من القطار إلى رصيف طويل متأرجح، يمتد بعيدًا في البحيرة المظلمة. استقر القطار على قضبان فولاذية، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى ما يدعم تلك القضبان، أو إذا كان هناك أي شيء يدعمها على الإطلاق.

أحاط الحشد من ندوة «العمة إسراء» بـ إيرين بشكل ملائم، وحرصت على البقاء في وسطه. كانت بعض العناصر تنفصل في محاولة للعثور على رعاتهم أو حماتهم، لكن آخرين حافظوا على مواقعهم الحالية حتى يخف الحشد. ومع الخدم، والخادمات، وأكوام الأمتعة، والكلاب السلوقية الأليفة، ومجموعة من الفحول البيضاء من نوع «ليبيزان»، كانت الفرصة ضئيلة جدًا لرؤية ما يجري أو التمييز بين مجموعة من «الـفاي» الزائرين وأخرى. كان الرصيف شغبًا من الأزياء المختلفة، كلها تقريبًا درامية للغاية، وفي ضوء مصابيح الشوارع العالية، بدا الأمر كحلم محموم: كل الألوان، والسطوع، ولا منطق أو عقلانية على الإطلاق. كان وشم «المكتبة» على ظهرها نبضًا منخفضًا دائمًا من الدفء المؤلم، مثل حروق الشمس، يذكرها باستمرار بوجوده. لكن، من الخارج، كانت مجرد شخص مجهول آخر في الحشد. ولحسن الحظ، لم ينظر إليها أحد مرتين.

نظريًا، بما أن هذا بديل عالي الفوضى، كان يمكنها التجول في الحشد ومقابلة الشخص الذي تحتاجه بالضبط لإنقاذ كاي وإنقاذ الموقف. القصص تتشكل بسهولة هنا، وستكون مجرد بطل آخر لديه قصة ليرويها.

من ناحية أخرى، قد تتجول في الحشد ويقابلها شخص، مثل الليدي جوانتيس، يحتاج لمقابلتها لمواصلة قصته الخاصة. وذلك قد يكون كارثيًا لـ إيرين.

— "هاي."

نكزت المرأة التي ترتدي جلود رعاة البقر ذراع إيرين، مباغتة إياها، وكبتت إيرين تشنج صدمة وهي تستدير بحذر نحوها. لقد أمسكوا بي! لا، انتظري، هي فقط تريد سؤالي عن شيء ما.

— "كلاريس، أليس كذلك؟ اسمي مارثا. انظري، بعضنا سيستقل... ماذا سموها يا أثانياس؟... تاكسي مائي من هنا، ونجد المسؤولين الكبار لاحقًا. لا يجب علي أن أكون مع سيدتي حتى منتصف الليل، وأعرف أين تقيم. هل يمكنك التواصل مع مسؤوليك الكبار لاحقًا؟ أين سيكونون؟"

فكرت إيرين في التعليقات القليلة التي أدلى بها اللورد سيلفر.

— "قال قصر غريتي،" قالت بصدق. لكن قد يكون مفيدًا امتلاك عذر للتجول... "لكنه قد يغير رأيه. ما الذي يمكنك فعله؟" هزت كتفيها.

أومأت مارثا. تجعدات بنية فاتحة بنفس درجة لون جلدها أحاطت بوجهها وانسدلت على كتفيها، وكانت بشرتها مسمرة بدرجة أفتح قليلًا بدقة.

— "لدي القليل من هؤلاء، نعم. لكن شيء آخر — كنتِ تتحدثين مع العمة إسراء بالعربية سابقًا، أليس كذلك؟ هل أنتِ جيدة في اللغات — مثل الإيطالية؟"

كان سؤالها يائسًا أكثر من قليل.

للحظة أرادت إيرين الضحك بهستيريا. بالطبع، كونك «فاي» لا يجعلك بطريقة ما متحدثًا بكل اللغات، رغم أن العمة إسراء اقترحت أن

الأقوياء جدًا يمكنهم تجاوز ذلك. «الـفاي» الصغار هنا، البيادق منخفضو الرتبة من مستواها المفترض، لن يكونوا بالضرورة لغويين.

— "أنا كذلك،" قالت. "بشكل جيد بما يكفي لتدبر الأمور، على الأقل..."

— "هذا سيفي بالغرض. هاي، أثاناياس! احجز ذلك القارب!"

أمسكت المرأة بذراع إيرين وبدأت بجرها عبر الحشد نحو الجانب البعيد من الرصيف، حيث تلاطمت المياه ضده. ميزت إيرين بعض الطلاب الآخرين من الندوة هناك.

— "كلاريس هنا تتحدث الإيطالية!"

قال أثاناياس:

— "أوه، شكرًا لله على ذلك."

كبتت إيرين تنهيدة ارتياح. لم يفكروا مرتين بشأنها، لم يفكروا حتى في وجود أعداء بينهم. لمعت انفجارات مفاجئة لألعاب نارية بعيدة على شعره الشاحب.

— "لا أحد منا هنا يتحدث الإيطالية على الإطلاق. انظري، تحدثي لهذا المراكبي — ما نريده هو حانة جيدة——"

تدخلت المرأة في بدلة العمل:

— "بار."

قالت امرأة في بيكيني أسود، تجلس عند حافة الرصيف وساقاها تتدليان لعمق الركبة في الماء:

— "يا عزيزي، يجب أن نجد متجر ملابس أولًا. أنا أدعى زايانا، يا حبيبتي،" عرضت معرفة نفسها لـ إيرين. "أقسم، لو سُمح لي بإحضار ملابس بقدر ما أحضر أشخاص معينون آخرون..."

كانت عدة قوارب صغيرة تطفو على الجانب البعيد من الرصيف. بعضها كان «جندول»، كبيرًا بما يكفي ليحمل نصف دزينة، لكن أخرى كانت مراكب أكبر قليلًا بعدة مجدفين. المراكبية — الجندوليون؟ — ارتدوا جميعًا عباءات سوداء، وأقنعة دومينو، وسترات مخططة، وقبعات ثلاثية الزوايا، وكأنها نوع من الزي الرسمي.

قالت إيرين:

— "عذرًا." ثم تحولت للإيطالية: "عذرًا! دعوني أمر من فضلكم."

انحشرت بجانب أثاناياس وتمكنت بسرعة من التفاوض على سعر للستة منهم. سترينغتون، التي في بدلة العمل، كانت سعيدة بما يكفي للدفع، طالما أمكنها الحصول على إيصال بذلك.

بدت فكرة اللجوء لحانة أفضل وأفضل مع كل ثانية. كانت بحاجة لمشروب قوي، وتحديد موقعها والتقاط النميمة المحلية قبل العودة لمطاردة كاي. طالما أن مجموعة «الـفاي» الودودين ظاهريًا لم ينقلبوا عليها. أنهت الموافقة على الصفقة مع الجندولي وعادت للإنجليزية.

— "الجميع على متن القارب، سيداتي سادتي. نحن نغادر من هنا قبل أن يستولي شخص رفيع الرتبة على قاربنا من أجل فيله الأليف ونضطر جميعًا للسباحة إلى البار."

كانت هناك ضحكات خافتة، وصعد الآخرون على متن القارب الضيق. الطالب المتبقي قُدم كـ أتروكس فيروكس — «فاي» آسيوي ذو جلد أسود وصفائح لاتكس. كان لديه مسدس أنيق في غمد بجانبه، ووجهه منحوت وخالٍ من التعبير. انزلقت زايانا ببساطة في الماء وسبحت بجانب القارب، ممررة ذراعًا فوق الحافة للتمسك. ساعدت سترينغتون إيرين على الصعود قبل أن تتبعها، وانضم إليهم أثاناياس.

وقف المراكبي في الخلف، والمجداف متأهب بشكل درامي، ثم انزلق القارب في حركة، دافعًا بعيدًا عن الرصيف ومتجهًا عبر بحيرة نحو المدينة.

كانت كل ما يجب أن تكون عليه «بندقية» القصص الخيالية، قررت إيرين بسخرية. كانت المباني من الطوب والرخام، قديمة وجميلة. انتصبت منتصرة وخالدة من ضباب الليل، متوهجة بمصابيح الزيت والأضواء الملونة. أبعد من ذلك، استطاعت رؤية قوارب أخرى — جناديل أصغر — تندفع في الأنحاء بمصابيح معلقة في مقدمتها، وكانت هناك أصوات بعيدة للموسيقى والضحك. أبعد من ذلك، صرخ شخص ما لفترة وجيزة ثم صمت.

تمتمت سترينغتون مشيرة للخلف نحو الرصيف الذي غادروه للتو:

— "انظروا."

كانت عربة من الأبنوس قد توقفت عند رأس الرصيف، تجرها أربعة خيول سوداء. كان خادم يساعد امرأة على الصعود إليها بينما حمّل خدم آخرون أمتعتها. حتى من هذه المسافة، استطاعت إيرين تمييز الليدي جوانتيس.

اقترح أثانياس:

— "هل تظنون أنه كان علينا البقاء ومحاولة تقديم أنفسنا؟ لابد أنه كانت هناك عشرات الطرق لتقديم خدمة صغيرة لها——"

انفعل أتروكس فيروكس:

— "تطفُّل."

كان أول شيء سمعته إيرين يقوله. كان صوته كوجهه، حادًا وباردًا.

— "المرء لا يفرض اهتماماته على تابع لراعي."

رفعت المرأة في الماء نفسها لتستند على جانب القارب، متكئة على مرفق واحد.

— "سيكون ذلك «يفرض صحبته» بدلًا من «يفرض اهتماماته»."

قال أتروكس فيروكس بمرارة:

— "تصحيحك مُقدر، يا زايانا. المرء لا يفرض صحبته على تابع لراعي دون إذن ذلك الراعي. تَتَبع لقاء عابر سيكون أكثر ملاءمة عندما يكون قابلًا للترتيب."

وبينما كانت تحاول فك شفرة كلامه الذي لا معنى له، وجدت إيرين نفسها تتساءل عما إذا كان لدى التنانين مشاكل لغوية أيضًا. هل كانت هناك لغة تنينية يتحدثونها جميعًا؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل يمكنها تعلمها؟

قالت مارثا:

— "بنس مقابل أفكارك، يا كلاريس."

بحثت إيرين عن شيء بريء لقوله.

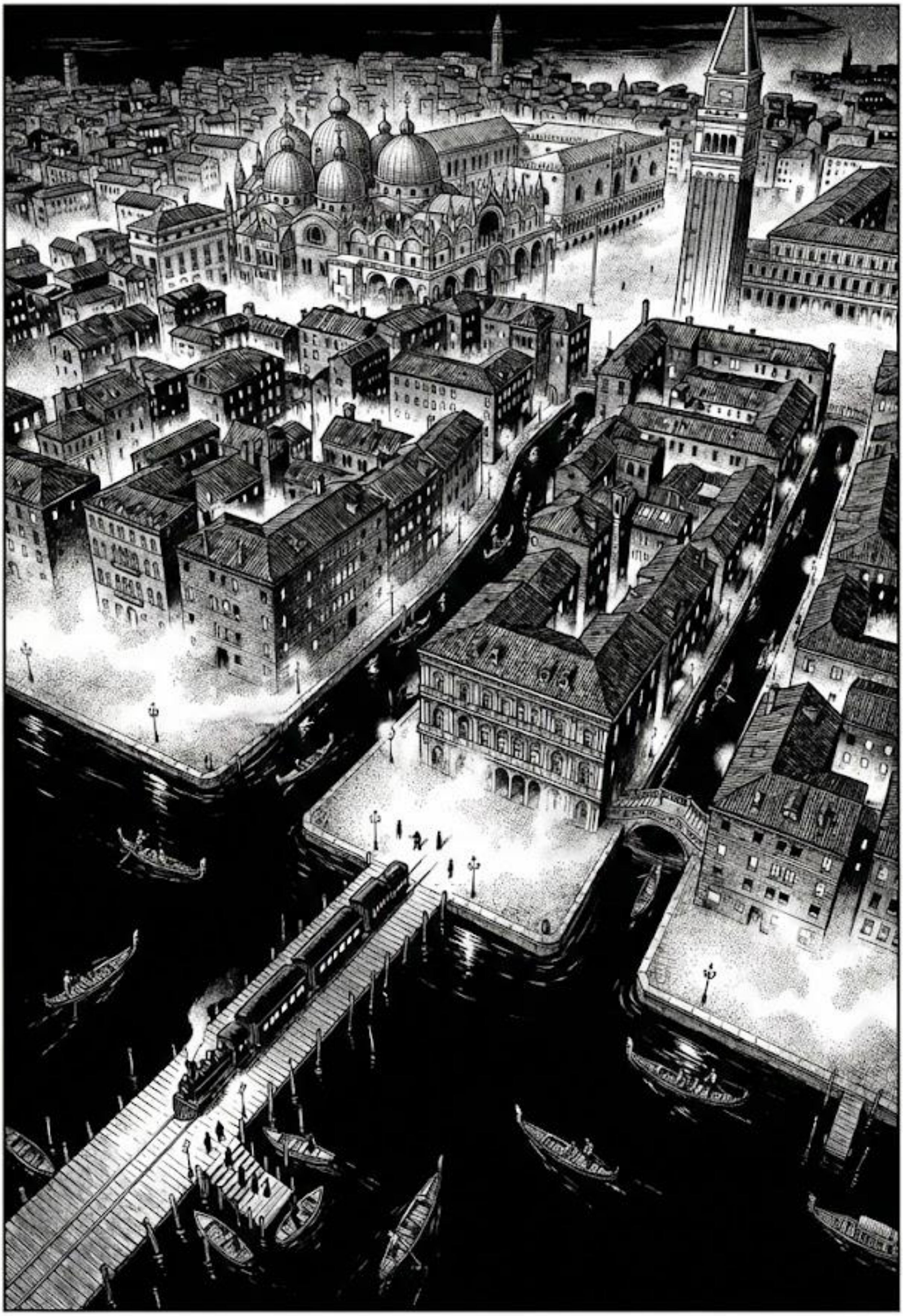
— "كنت متفاجئة أن الكثير منا ليس لديهم مهام فورية. هل يمكن أن رعاتنا كانوا مهتمين بحجم حاشيتهم أكثر من اهتمامهم بكوننا مفيدين حقًا؟"

ضحك أثانياس، ومارثا، وزايانا. اختلجت زوايا فم سترينغتون. وحملق أتروكس فيروكس، صامتًا، في الظلام.

هزت إيرين كتفيها.

— "أفترض أن بعض الأشياء هي نفسها في كل مكان."

كانت واعية جدًا بأن كل محاولة للتفاعل هي مخاطرة. لكن إذا كانت ستحصل على معلومات منهم، فلابد أن يقوم شخص ما ببدء المحادثة.



سحبت زايانا نفسها لأعلى على جانب القارب مرة أخرى وأشارت نحو الشاطئ الذي كانوا يقتربون منه.

— "أوه، انظروا!"

قالت سترينغتون بهدوء:

— "نعم، المباني مثيرة للإعجاب للغاية."

— "ليس ذلك. انظروا للناس!"

سادت لحظة صمت. الآن وقد أصبحوا أقرب، كان من الممكن الحصول على نظرة جيدة للناس المتسكعين على الأرصفة، حتى عبر الضباب المغلف. كان بعضهم مرئيًا عبر النوافذ، أو في جناديل أخرى، وكان القاسم المشترك الأكثر وضوحًا، كما أدركت إيرين، أنهم جميعًا يرتدون أقنعة.

سألت إيرين وصوتها بالكاد همس:

— "هل هو كرنفال؟"

هزت مارثا كتفيها.

— "إنها البندقية. لذا بالطبع هو كرنفال. لمَ لم أفكر في ذلك!"

ضربت يدها على فخذها.

— "أحتاج لقناع[10]!"

قال أثانياس:

— "كلنا نحتاج، وإلا سنكون واضحين وفي غير محلنا. كلاريس، عليكِ أن تطلبي من قائد المركب أن يأخذنا لمتجر أقنعة أولًا. أرجوكِ؟"

---

[10] تُعرف البندقية بلقب مدينة الأقنعة نسبةً إلى مهرجانها السنوي الشهير للأقنعة (*Carnival of Venice*) الذي يرمز إلى الغموض والفخامة والفن الباروكي.

صنع عينين كبيرتين معبرتين لها. مرة أخرى، شعرت بالارتياح لأن غطاءها كواحدة منهم بدا متماسكًا. في الوقت الحالي، على الأقل.

إنها البندقية، لذا بالطبع هو كرنفال. ترددت كلمات مارثا في رأسها. البندقية كحلم، ليس كواقع. لا عجب أن رائحة الماء كانت مالحة ولطيفة، بدلًا من رائحة مياه الصرف الصحي أو أسوأ. لا عجب أنهم تمكنوا من التقاط قارب بسهولة، بدلًا من الاضطرار للانتظار لدهور ثم مساومة الرجل لخفض السعر.

أحلامنا الأفضل — لكن كوابيسنا أيضًا؟ لا، من الأفضل عدم التفكير في ذلك، تحسبًا فقط. لأنه ماذا لو جعل التفكير الأمر حقيقيًا؟

أبلغت إيرين المراكبي بتغيير الخطط، ثم ابتسمت للآخرين.

— "من الجيد معرفة أنكم جميعًا تثقون بي للقيام بالكلام."

أملت ألا تكون قد بالغت في اللامبالاة العابرة.

قال أثانياس بكسل:

— "إذا لم تستطع الوثوق بشخص غريب تمامًا تقابله في القطار، فبمن يمكنك الوثوق؟ الأمر ليس وكأننا كنا نخطط لقتل أعداء بعضنا البعض، في النهاية."

أيا كان أصله، يبدو أنه كان من معجبي «هيتشكوك[11]».

قالت مارثا بسرعة:

— "بالطبع لا."

وافقت سترينغتون:

— "بالتأكيد لا."

[11] ألفريد هيتشكوك (1899–1980)، مخرج سينمائي بريطاني شهير، يُعرف بـ«سيد التشويق»، تميّز بأسلوبه في صناعة الإثارة النفسية والرعب النفسي، وأفلامه مثل *Psycho* و*Rear Window* أصبحت أيقونات في تاريخ السينما.

تمتمت زايانا:

— "قطعًا لا."

قال أتروكس فيروكس بحزم:

— "مثل هذه المخالفات القانونية لن يُفكر فيها."

انتظر المراكبي بأدب حتى ينتهوا جميعًا من تبادل الدعابات قبل أن يهمس بموافقته لـ إيرين. بزيادة طفيفة جداً في السعر، بالطبع.

تساءلت مارثا:

— "كلاريس؟ ماذا قال؟"

قالت إيرين:

— "ما تتوقعينه. سنكون هناك في خمس دقائق — عشرة على الأكثر."

تبادل الآخرون النظرات. قال أثانياس ولغته تصبح رسمية:

— "نحن ندرك المعروف الذي تسدين لنا بالترجمة. وبينما نكون عادة سعداء بأن ندين لكِ بمعروف، لا يمكننا التأكد من متى سنراكِ مرة أخرى — هل تعتبرين تغطيتنا لسعر القناع وربما مشروب أو اثنين دفعة كافية؟"

بالأمس فقط كانت إيرين تقلق بشأن قبول قهوة من «فاي». الآن يبدو أن «الـفاي» لديهم نفس القدر من المتاعب مع الخدمات والهدايا فيما بينهم.

— "سأعتبر ذلك تبادلًا عادلًا، على الأقل حتى نصل لحانة جيدة،" أجابت. "علاوة على ذلك، قد نصادف بعضنا البعض في المستقبل." إذا كنت سيئة الحظ بما يكفي. "قد نبدأ علاقاتنا بشروط جيدة."

أومأت زايانا.

— "إنه لأمر مضحك كيف نستمر في مصادفة أشخاص نعرفهم يا عزيزتي، رغم أنني أفترض أن العمة إسراء ستقول إن ذلك مناسب فقط. أنا

وأثاناياس من نفس العالم، الثاني ـ عند ـ الشبكية، الثالث ـ بالاستجابة، وقابلت أتروكس فيروكس عندما كان يزورنا لملاحقة خارق للقانون بأمر من قائده. وأثاناياس قابل مارثا——"

أضافت سترينغتون:

— "أعتقد أن العمة إسراء ربما كانت متسرعة قليلًا في الحكم علينا عندما اعتبرتنا جميعًا مبتدئين تمامًا."

كانت نبرتها ذات غطرسة خالصة، لكن إيرين تساءلت عما إذا كانت تقصد النبرة الضمنية للعنف المكبوت.

انزلق القارب في قناة صغيرة نسبيًا بين صفين من المباني، ربما بعرض خمس ياردات، مع سلاسل من فوانيس الزجاج المنفوخ بظلال مختلفة من الأزرق والأخضر تلمع بالأعلى. هنا، بعيدًا عن البحيرة المفتوحة وبين القصور، علق الضباب في أستار. كان كافيًا لإثارة الفضول، لكن ليس كافيًا للإخفاء تمامًا. حاولت إيرين تتبع محيطها، متسائلة كم سيستغرق العودة للخليج إذا اضطرت للهروب السريع. ربما يمكنها استئجار قارب والفرار ببساطة من هذه المدينة المحددة مع كاي، بمجرد إنقاذه من مكان احتجازه. ثم يمكنهما الهروب من بلدة أخرى أبعد على الساحل؟ إذا كانت هناك أي بلدات أخرى على الساحل، أو أي شيء آخر في هذا العالم عدا البندقية... تمنت لو كانت تعرف أين تقع أقرب مكتبة.

بعد بضعة شوارع — أو قنوات — وصلوا لمتجر الأقنعة. كان مذهلًا كم الوقت الذي يمكن لستة أشخاص استغراقه لاختيار قناع، لكنهم تمكنوا جميعًا من العثور على شيء في النهاية، بينما انتظر الجندولي، بلا شك رافعًا السعر النهائي مع كل دقيقة تمر.

تضمن زي إيرين الجديد نصف قناع «كولومبينا» شاحب مرصع بزجاج الزبرجد، مربوطًا بشرائط زرقاء. القطعة التي قدرتها حقًا كانت العباءة السوداء الكبيرة، بقلنسوتها الواسعة الساترة.

مع وجود شيء يخفيها عن أي من آل جوانتيس المتجولين، وجدت إيرين أنها تستطيع الاسترخاء قليلًا وإيلاء المزيد من الانتباه لـ البندقية حولها. كان المكان أكثر حيوية بكثير مما بدا من رصيف القطار، خارجًا في الخليج. اشتعلت مصابيح صغيرة في مزارات صغيرة على طول ضفاف القناة، وجاءت أصوات من المنازل والمتاجر الطويلة التي مروا بها — موسيقى، غناء، حديث، صرخات جدال، نباح كلاب. والروائح! طعام، نبيذ، شموع شمع، مصابيح زيت، رائحة البحر المفتوح...

كانت زايانا قد تسلقت إلى القارب وكانت أكثر من راغبة في تولي حصة إيرين من المحادثة، تاركة إيرين لتستمع للآخرين وتقلق بصمت خلف قناعها وقلنسوتها. كل هذا كان غطاءً مفيدًا، لكن كاي لا يزال سجينًا — والوقت ينفد.

في الحانة، تأخرت إيرين عند المدخل بسبب سترينغتون، التي كانت لا تزال سعيدة بدفع فاتورة المراكبي، لكن أرادت إيصالًا مفصلًا وموقعًا بالكامل. بحلول الوقت الذي تفاوضت فيه على هذا مع المراكبي غير المتحمس، كان الآخرون قد تمكنوا جميعًا من طلب المشروبات، رغم افتقارهم للإيطالية.

افتقار محتمل للإيطالية. لم تكن إيرين مقتنعة تمامًا بأنهم جميعًا جاهلون كما ادعوا. سيكون من الغباء أخذ كلمتهم كأمر مسلم به.

قالت زايانا، مقدمة لـ إيرين كأسًا ممتلئة وجارة إياها نحو طاولة استولت عليها مجموعتهم:

— "إنه «البروسيكو» المحلي. في صحتك!"

قالت إيرين:

— "أنتِ تستمتعين بوقتك حقًا."

كانوا جميعًا قد ملأوا كؤوسهم من نفس الزجاجة، لذا كان الأمر آمنًا على الأرجح. ارتشفت. لا علامات فورية للتسمم. ارتشفت مرة أخرى.

قالت زايانا بمرارة غير متوقعة:

— "إنه تغيير لطيف للابتعاد عن كل مسؤولياتي البائسة. كل تلك المزارات لإدارتها، كل تلك الثعابين للعناية بها، ومتى أحصل أبدًا على فرصة لبضعة أيام إجازة لنفسي؟ أنا دائمًا من يتعين عليها حلب الثعابين بينما سيدي يغوي الأبطال. هذا ليس عدلًا ببساطة يا عزيزتي."

أخذت جرعة من النبيذ. من الواضح أنها لم تكن كأسها الأولى.

قالت إيرين بتفكير:

— "أتساءل عما إذا كانوا سيقبلون طلبات للنقل هنا. مما قالته العمة إسراء، عالم عالي الفضيلة كهذا يمكن أن يكون... محفزًا للغاية."

ربت أثانياس على يدها.

— "لا تصدقي كلمة من ذلك يا كلاريس. هذا ما يخبرونك به، لتشجيعك على منح ولائك، لكنه لا ينجح أبدًا. انظري إلي." تنهد. "ثلاث مرات الآن وُعدت بمكان أعلى في منزل شخص ما، وهل سارت الأمور بتلك الطريقة فعلًا؟"

قالت سترينغتون وهي تدس رزمة إيصالاتها داخل سترتها:

— "ما نحتاجه هو مخبر محلي. إذا كنا سنستغل هذا الوضع لمصلحتنا الخاصة، أو مصلحتنا المشتركة" — نظرت لـ أتروكس فيروكس — "أو مصلحة رؤسائنا، فنحن بحاجة لمعلومات أفضل حول كيفية سير الأمور."

أرادت إيرين الوقوف والتصفيق، لكنها تمالكت نفسها.

– "لكن هل سيعرف الكثير من السكان المحليين عن – أممم، سبب قدومنا هنا؟"

لم تكن إيرين متأكدة ما إذا كان قول التنين المسجون بصوت عالٍ سيكون الشيء المناسب لفعله.

– "وأين سنجد النوع المناسب من الناس لاستجوابهم؟"

نظرت حول الحانة، محاولة الإجابة على سؤالها الخاص. بقدر ما استطاعت الحكم، أحضرهم المراكبي لمكان جيد – يحتوي على محليين فعليين – بدلًا من مجرد فخ سياحي. الأشخاص الآخرون الذين يشربون هنا، رغم كونهم مقنعين ومرتدين عباءات أيضًا، كانوا يرتدون ملابس تظهر علامات البلى، بدلًا من تلك التي جاءت مباشرة من المتجر، مثل ملابس إيرين نفسها.

قالت سترينغتون:

– "ينبغي للمرء توخي الحذر. في النهاية، في وضع كهذا، سيكونون قد أغرقوا المنطقة بالمخبرين، الذين سيبلغون عن أي سلوك مشبوه."

استفسرت مارثا:

– "من هم؟"

قالت سترينغتون بهدوء:

– "أيا كان من في السلطة. إنه الشيء المنطقي لفعله."

قالت زايانا:

– "هذا يفترض أن لديهم الكثير من المخبرين لإغراق المنطقة بهم. الجواسيس الجيدون يأخذون قدرًا كبيرًا من الميزانية."

مدت كأسها لإعادة ملئه مرة أخرى.

— "أوه يا آلهة، من الجيد جداً الحصول على شيء للشرب غير نبيذ الفطر! أقسم أنه عندما أخبرنا سيدنا عن هذه الرحلة، كنا نغتال بعضنا البعض حرفيًا من أجل فرصة الذهاب فيها. لا أهتم بالجواسيس، أو التنانين، أو أيا كان. أريد فقط الفرصة لأكون مهملة لمرة واحدة."

بدأ أثانياس، مادا يده لإبعاد الزجاجة عنها:

— "زايانا. ربما لو أخذتِ أقل قليلًا في الوقت الحالي..."

قالت مارثا:

— "أوه، دعها تشرب. لدينا بضعة أيام فقط هنا، مما سمعته. قد نستمتع بها قدر استطاعتنا."

سألت إيرين، محاولة أن تبدو جاهلة بشكل مقنع:

— "هل هي بضعة أيام فقط؟ حتى لو كان المزاد غدًا، سيظل هناك اختلاط اجتماعي بعده. هذا ما قيل لي، على الأقل."

قالت سترينغتون:

— "بعض الناس قد يبقون لوقت لاحق. لست مطلعة بالكامل. لكن القطار نفسه سيغادر خلال ثلاثة أيام. يمكنه البقاء لتلك المدة فقط في أي مكان معين. هل سيسافر راعيك عائدًا بطريق آخر؟"

وافقت إيرين، ومعدتها تهبط مرة أخرى:

— "قد يفعل."

تبًا لأي أفكار عن إخفاء كاي بعد المزاد، ثم التسلل للقطار بمجرد هدوء الوضع مجازيًا. صحيح أن المزاد كان الموعد النهائي الأكثر إلحاحًا، لكن هذه العقبة الإضافية لم تساعد.

— "هو لا يخبرني بكل شيء. مما يجعل تنظيم الأمور صعبًا." هزت كتفيها.

قالتسترينغتون:

– "أنا متفاجئة أنك لست معه، إذا كنتِ مترجمته الشخصية."

ألقت العبارة بشكل عابر تمامًا، لكن إيرين شعرت بشعيرات مؤخرة عنقها تنتصب تحذيرًا.

هزت كتفيها مرة أخرى، بلامبالاة قدر الإمكان.

– "أوه، هو لا يحتاجني عندما يكون لديه شخص آخر لمقابلته."

شددت على الكلمة لتضيف إيحاءً بعلاقة غير لائقة وشؤون ساخنة.

– "لم أرد أن يتم جلدي بسبب الوقاحة، لذا ذهبت لمكان آخر. طالما عدت بحلول الفجر، سأكون آمنة."

قالت مارثا، وبدا صوتها فجأة متزمتًا ومستنكرًا للغاية:

– "أوه، أنتِ ذلك النوع من السكرتيرات الخاصات. لم... أدرك."

دحرج أثاناياس عينيه. كان ذلك ملموسًا حتى خلف قناعه الجلدي القرمزي. لقد التزم بطابع قرمزي، لدرجة أن إيرين أغريت بسؤاله عما إذا كان ينتحل شخصية «الموت الأحمر» عمدًا، أم أنه ببساطة مصاب بعمى الألوان.

– "مارثا، عزيزتي، بعض رعاتنا يستخدمون سوطًا للتأديب، وبعضهم يستخدم وشمًا، وبعضهم يستخدم حسابات نفقات، لكن دعونا لا نتظاهر بأن أيًا منا لديه ذلك القدر من الخيار في الأمر. لو أردنا الخيار، لما كنا أقسمنا الولاء لراعي. لنكن ممتنين فقط لأن لدينا الأمسية لأنفسنا. كلاريس، هل يقدمون طعامًا هنا؟"

قالت إيرين، محاولة تجاهل ترهل زايانا تجاه الطاولة، وتمتمتها بأن لا أحد يهتم على أية حال وأن كل ذلك خطأ راعيها وأنها ستقطع قلبه على مذبح الأضاحي يومًا ما، فقط انتظروا وسترون:

– "أستطيع شم رائحة مأكولات بحرية. دعوني أذهب وأسأل."

بعد عشر دقائق، تم التفاوض على جمبري مع عصيدة دقيق الذرة (polenta)، وكانت المضيفة المرحة، ماريا (التي لحسن الحظ تتحدث الإنجليزية)، قد أحضرت جولة أخرى من الزجاجات لطاولتهم.

– "من الجيد دائمًا وجود زبائن جدد خلال الكرنفال،" قالت، مع إيماءة استحسان لأقنعتهم. "قد نستمتع بأنفسنا قبل الصوم الكبير، هاه؟ ولتعلموا أن مكاني الصغير جيد بما يكفي لاستضافة «مجلس العشرة» أنفسهم——"

كانت مارثا تفتح فمها لتقول شيئًا، وخافت إيرين ألا يكون: نعم، من فضلك استمري في إخبارنا بكل شيء عن زبائنك، عندما انفتح باب الحانة بقوة. دخل رجل بزي خدم عادي، منحنيًا وهو يفعل ذلك وممسكًا الباب مفتوحًا على مصراعيه لشخصين آخرين، رجل وامرأة في أقمشة مخملية سوداء ثقيلة وأقنعة مطابقة من الفضة والأسود. دخلا معًا في دفق من الضباب ووقفا في المدخل، يمسحان الحانة بنظراتهما.

رأت إيرين الشعار على عباءتيهما وتملكها شك كريه. زوج من القفازات الفضية، متقاطعة على خلفية سوداء. انقبضت يداها على حافة الطاولة. هل انقلبت القصة ضدها؟ هل كان هذا هو الجزء من السردية حيث تواجه البطلة المتخفية ألد أعدائها – أو ربما حيث يجد الأبطال الجاسوس الشرير ويتخلصون منه، كل ذلك يعتمد على وجهة نظر القارئ؟ وقوة القصة كانت مفيدة جدًا حتى الآن...

قالت المضيفة:

– "والآن، انظروا إلى ذلك."

سارت للأمام، مقدمة انحناءة تلامس الأرض.

– "سيدي وسيدتي جوانتيس. مرحبًا بكما في حانتي!"

الفصل الرابع عشر

قال اللورد جوانتيس وهو يقود الليدي جوانتيس إلى داخل القاعة، ويجلسها إلى إحدى الطاولات الكبيرة، قبل أن يلتفت إلى صاحبة الحانة:

— "يا عزيزتي، لطالما استمتعنا بمؤسستك يا دوناتا. مشروبنا المعتاد من فضلك."

مسح بنظره المقنّع أرجاء الغرفة، لتقع عيناه على طاولة إيرين. كان صوته عميقاً جهورياً، وإن لم يبلغ حد القرار الأوبرالي العميق، وتشوب إنجليزيته لكنة خفيفة لم تستطع إيرين تحديد مصدرها.

هبّ الجميع على طاولة إيرين واقفين في عجلة وانحناءة جماعية تجاه القادمين الجدد. وقفت إيرين معهم، وهي تشعر بقلبها يهوي مرتطماً بالأرض.

هذه هي النهاية. لقد هلكت لا محالة. حتى لو لم يستدعونا إليهم، فمن المؤكد أن الآخرين سيقترحون أن نذهب لتقديم أنفسنا. والليدي جوانتيس على الأقل تعرف شكلي جيداً. بل قد تتعرف عليّ حتى من خلال القناع...

كان عقلها يدور بسرعة جنونية كعجلة هامستر تعمل بطاقة نووية، يقترح الخطط ويرفضها بسرعة كانت ستجعل مشرفي إيرين فخورين بها. هذا إن قُدّر لها أن تراهم مرة أخرى.

إذا كانت هذه حقاً قصة عائلة جوانتيس، وأنا مجرد شخصية عدو ثانوية فيها، فهذا ما قد يحدث: أُكشف وأُسحب مكبلة بالأغلال، وينتهي الفصل. وينتهي الأمر برمته بمزاد منتصر يعرض تنيناً، ثم تندلع الحرب.

كان عليها المغادرة. ولتحقيق ذلك، كانت بحاجة إلى إلهاء.

كان انتباه الجميع لا يزال منصباً على آل جوانتيس. التقطت إيرين كأسها الممتلئة تقريباً، وتمتمت بداخلها:

– "نبيذ، تضاعفت قوتك عشر مرات."

ثم مالت بجسدها لتبدلها بكأس زايانا شبه الفارغة.

كانت ستيرينغتون تلتفت لتنظر إليها. هل رأتني؟

سارعت إيرين بالتقاط كأسها الخاصة. واقترحت:

– "نخب؟"

وافقت اثانياس:

– "نخب اللورد والليدي جوانتيس!"

رفع الجميع كؤوسهم وشربوا. راقبت إيرين بطرف عينها زايانا وهي تتجرع الشراب بنهم وبلا حساب.

قالت الليدي جوانتيس بصوت بدت فيه الدماثة واضحة:

– "يا له من أدب جم. يا دوناتا، هلا أرسلت زجاجة أخرى من أفضل نبيذ لديك إلى تلك الطاولة هناك."

ألم تقل صاحبة الحانة سابقاً إن اسمها ماريا؟ لكنها كانت تومئ بالموافقة دون أدنى اعتراض. ربما، في هذا المكان، إذا كنت بشرياً، فأنت مجرد قطعة من ديكور المسرح، واسمك هو ببساطة ما يختار "الفاي" مناداتك به.

عادت المجموعة للجلوس. وقالت اثانياس بحماس متوقع:

– "هل ينبغي أن نذهب ونقدم أنفسنا؟ سيكون من اللباقة شكرهم على النبيذ."

قررت إيرين في سرها: وأنتِ تبحثين عن راعٍ آخر، مهما حاولتِ صرف انتباه بقيتنا عن ذلك.

قال أتروكس فيروكس بفظاظة:

– "اللباقة الصحيحة تقتضي شرب النبيذ ثم تقديم الشكر. أن تشكر دون تقدير لهو عدم احترام للهدية."

فكرت إيرين بصمت وهي تومئ موافقة: شكراً لك، شكراً لك، شكراً لك. كانت تراقب زايانا خلسة، لكن المرأة الأخرى كانت لا تزال منتصبة الظهر بثبات حتى الآن.

قالت ستيرينغتون وهي تجيل بصرها في الغرفة مرة أخرى:

– "أنا مندهشة من قدومهم إلى هنا. المكان جيد، لكنني لم أكن أتوقع أن يكون من بين أفضل المطاعم في المدينة."

قُطع حديثها بتنهيدة قرقرة طويلة مفعمة بالرضا من زايانا. وضعت المرأة الأخرى كأسها الفارغة بحذر، ثم تهالكت بجسدها للأمام فوق الطاولة. تباً. لقد بالغت في الجرعة.

قالت مارثا، وهي تبتعد بجسدها بشكل ملحوظ عن الموقف:

– "لم أظن أنها شربت كل هذا القدر."

وضعت اثانياس يداً طويلة الأصابع على كتفها وهزتها برفق:

– "زايانا؟ زايانا، يا حبيبتي، يا زهرة العسل الصغيرة، استيقظي؟"

اختلست إيرين نظرة قلقة نحو آل جوانتيس. لم يبدُ أنهم منتبهون.

اقترحت اثانياس بلباقة:

– "ربما بعض الماء البارد. كلاريس، هل يمكنك أن تطلبي من صاحبة الحانة..."

تمتمت زايانا بلسان ثقيل:

– "توقفي عن هزي.. سأتقيأ.."

مطارق. مالت إيرين لتلف ذراعها حول زايانا. وأعلنت لبقية الطاولة بينما كانت اثانياس تنكمش مبتعدة:

– "سنخرج للحظة فقط."

يبدو أن شهامة "الفاي" لا تمتد لتشمل المواقف التي قد تتسخ فيها عباءته المخملية الحمراء الجديدة الجميلة.

قالت مارثا:

– "فكرة جيدة."

وأزاحت كرسيها أبعد قليلاً، بينما كانت إيرين ترفع زايانا وتترنح تحت ثقلها. على طاولتهم، كان آل جوانتيس غير منتبهين بشكل قاطع، وصاحبة الحانة تصب لهم النبيذ. تمنت إيرين فقط أن يعني ذلك أن القصة تقف في صفها الليلة.

هذا صحيح، استمري هكذا.. فقط لا تكلفوا أنفسكم عناء النظر إلى هنا. لا تفكروا في هذا كشيء غير عادي...

رفع أحد السكارى الآخرين يده ليلفت انتباهها، ثم أشار إلى باب على الجدار الأيمن للحانة:

– "يا سيدتي. ذلك الطريق يؤدي إلى الزقاق بالخارج."

تمتمت إيرين:

– "شكراً لك."

سندت زايانا المترنحة نحو الباب، محاولة تجاهل أنين المرأة المقلق. قد تكون هذه عدالة شعرية، لكنها لم تكن ترغب في القيء على عباءتها الجديدة الجميلة أيضاً.

في الخارج، كان الهواء البارد مشبعاً بالضباب. كان أكثر كثافة الآن مما كان عليه أثناء رحلتهم بالقارب إلى الحانة. بدت البرودة تنعش زايانا قليلاً، فاستندت إلى الجدار تترنح، بينما كانت إيرين تتلفت حولها بقلق. يمكن لأي شخص أن يختبئ هنا – على أسطح المنازل، أو خلف الزاوية – ولن تروه قادماً أبداً.

تمتمت زايانا:

– "أريد الذهاب للبيت."

قالت إيرين:

– "أخشى أن ذلك بعيد قليلاً. خذي بضعة أنفاس عميقة واجلسي. دعيني أساعدك."

كان الزقاق خالياً من القمامة في معظمه، وكان من السهل العثور على رقعة نظيفة نسبياً من الرصيف.

– "الآن اجلسي هنا فقط. سأحضر لك بعض الماء."

قالت زايانا، وتموجات شعرها الداكن تنهال حول وجهها بعد أن سقط غطاء رأسها للخلف:

– "لا أريد ماءً. أريد الذهاب للبيت. أريد أن أكون مع كل أخواتي، نستعد لتضحية الفجر. أريد إغواء بطل. هل أنتِ بطلة يا كلاريس، يا عزيزتي؟"

قالت إيرين بسرعة بينما حاولت زايانا التكور ضدها:

– "بالطبع لا. أنا مثلك تماماً. مجرد امرأة لديها وظيفة."

لم تستطع سماع صوت أي شخص يتبعهم من الحانة؛ لابد أن الآخرين يثقون في قدرتها على التعامل مع الأمر.

لم تكن زايانا تقول شيئاً.

— "زايانا؟"

أطلقت "الفاي" الثملة تنهيدة ناعمة. قد يصفها النقاد الأكثر قسوة بأنها شخير.

حسناً. كانت هذه اللحظة المثالية لـ إيرين لتنسحب من المشهد وتبتعد جيداً قبل أن يهتم آل جوانتيس، أو أي شخص آخر في الواقع، بالأمر. حقاً، كان عليها أن تهنئ نفسها. خطة مثالية كما في الكتاب. كل ما كان عليها فعله هو المشي بعيداً الآن... ولكن، كما أشار ضميرها، أن تترك امرأة فاقدة للوعي وحيدة في الشارع — ليلاً في مدينة خطرة. امرأة قامت إيرين نفسها بتخديرها. تواردت إلى ذهنها كلمات متنوعة لوصف هذا النوع من السلوك. ولم تكن كلمات لطيفة.

لكن إيرين كانت في مهمة، وحياة كاي كانت على المحك. أين حس أولوياتها؟

عضت شفتها. وهمست لنفسها، وكأن سماع الكلمات سيجعلها حقيقة:

— "ثنائية زائفة. لا يوجد سبب يمنعني من مساعدة كليهما."

هزت كتف زايانا.

— "استيقظي يا زايانا. أين تقيمين؟ أين يقيم راعيك؟"

رفرفت جفون زايانا مفتوحة للحظة خلف القناع.

— "قصر غريتي. مثلك." ثم تهالكت مرة أخرى.

حسناً، قد ينجح هذا، فـ إيرين كانت تخطط للتحدث إلى سيلفر على أية حال. جرّ زايانا معها ورميها على موظفي الفندق سيعني جهداً إضافياً قليلاً، لكنه أيضاً، كما أكدت لنفسها، سيكون غطاءً جيداً.

أشار حس المصلحة لديها: إنها مجرد "فاي"، وربما ستضطرين للهرب أو لقتلها إذا اكتشفت حقيقتك.

شقت الأفكار طريقها كالدود إلى عقلها. لكنها انحنت بتنهيدة، ورفعت ذراع زايانا فوق كتفها قبل أن تسحب المرأة الأخرى لتقف على قدميها. هذا ما كان سيفعله كاي. ربما. حتى لو كانت من "الفاي".

كانت أقرب قناة مائية تقع أسفل اليسار على طول الشارع. نأمل أن تكون زوارق الجندول متوفرة بكثرة. تمتمت لناقدها الداخلي: "اخرس"، وترنحت ماشيةً، تجر زايانا معها.

انتظرتا لعشر دقائق باردة ورطبة بدت كأنها عشرون، وزايانا تشخر برفق على كتف إيرين، قبل أن يظهر جندول. لكن المراكبي بدا متقبلاً لفكرة أجرة توصيل إلى فندق قصر غريتي.

اقترح سائق الجندول بينما كانت إيرين تهم بالركوب:

— "ربما تود الزائرة الجميلة الدفع أولاً؟"

وذكر سعراً ضعف ما تقاضاه السائق السابق لنقل الستة جميعاً من الرصيف إلى الحانة.

قالت إيرين بحزم:

— "كنت أفكر في أقل من ذلك بكثير. حوالي النصف، لنكون دقيقين."

فرد المراكبي يديه وقال:

— "آه، ولكن ألا تشفقين على رجل فقير يا سيدتي؟"

قالت إيرين:

— "بلى، أنا متأكدة من ذلك. ومع ذلك، هذا ما أعرضه."

قال المراكبي:

— "أنا واثق أن السيدة الجميلة يمكنها أن تدفع أكثر قليلاً. وإلا سأضطر لتركها وحيدة هنا في الضباب، تنتظر مراكبياً آخر."

وأشار إلى الضباب بشكل ذي مغزى. اختلط صوت الأمواج الخافت الذي يلطم المنازل بأصداء الغناء والحديث القادمة من الحانة. لم يكن هناك أي جندول آخر يمكن رؤيته أو سماعه.

لحسن الحظ، كان رقم يعادل ثلثي سعره الأصلي كافياً أخيراً. وكانت قد رأت كيساً تحت عباءة زايانا. نأمل أن يكون فيه ما يكفي.

سندت إيرين زايانا إلى القارب، وبتنهيدة ارتياح أسقطتها في الطرف البعيد. هل تسمى هذه حافة القارب؟ كان عليها حقاً أن تأخذ دورة علاجية في أجزاء القوارب يوماً ما. كان ليكون مفيداً جداً لو فعلت ذلك قبل المجيء إلى هنا. ببعض التخبط، فصلت الكيس من داخل عباءة زايانا وفتحته. التقطت العملات الذهبية الضوء من مصابيح الزيت المصطفة على طول القناة. عدت القليل منها في يد المراكبي، ثم توقفت عندما رأت عينيه تتسعان برضا.

قال المراكبي بنبرته الأكثر ذوبانًا:

— "سيدتي، أيتها السيدة الجميلة، لا شك أنك جديدة في المدينة ولا تعرفين أسعار الصرف بعد، لكنك لم تدفعي لي أجرتي كاملة."

قالت إيرين وهي تغلق الكيس وتجلس بجوار زايانا:

— "ستحصل على البقية عند الوصول."

لابد أن المراكبي قرر أنه لا يستطيع سحب أموال هذه السائحة أكثر من ذلك في الوقت الحالي. وبتنهيدة، دفع القارب بعيداً عن الزقاق، مرسلاً الجندول إلى وسط القناة الضيقة. كانت المنازل على كلا الجانبين تلوح فوقهم، مخيفة تقريباً في ارتفاعها وضخامتها، لكنها أيضاً مطمئنة بغرابة في طبيعتها المتهالكة قليلاً. هذا الجزء من المدينة كان حقيقياً. البشر يعيشون هنا.

في غضون دقيقتين، انحرف الجندول يساراً وخرج إلى وسط قناة أكبر، منزلقاً بسرعة أكبر الآن. كان الضباب يلف المباني على الجانبين؛ كتل داكنة، ضخمة وشبه مرئية، مع سطوع ضبابي للمصابيح أو النوافذ المضاءة تلمع كجواهر عابرة. استكانت زايانا في ذراع إيرين بتمتمة ناعمة، مريحة رأسها على كتف إيرين.

حاولت إيرين تهدئة نفسها بصياغة تقريرها النهائي ذهنياً، لكن الأمر لم يفلح. وصلت إلى حد: كنت أخطط للبحث عن جهة اتصالي من "الفاي" وانتزاع بعض المعلومات الإضافية منه، لكن التفكير في كاي أصبح ملحاً بشكل متزايد. لم يكن لديها سوى حتى منتصف ليل الغد. والإرهاق بدأ يضربها.

مروا تحت جسر حجري عريض، وللحظة اختفت الأضواء، بقلتها، تماماً. اشتدت قبضة إيرين على جانب القارب، وأجبرت نفسها على الاسترخاء.

لم يكن الظلام هو ما يزعجها — بل ما قد يكون مختبئاً داخله.

دمدم المراكبي بشيء بدا شبيهاً بالأوبرا بشكل غامض، وخرج الجندول من الجانب الآخر. كان الضباب كثيفاً كما كان دائماً، لكن على الأقل الآن استطاعت إيرين رؤية الأضواء في المسافة.

بدأت تصيغ سؤالاً للمراكبي:

– "أخبرني، هل الجو دائماً ضبابي هكذ..."

هبطت الظلال من الأعلى، تهوي في دوامات من العباءات الداكنة، لتهبط على الجندول وتجعله يتأرجح بعنف. شتم المراكبي، ثم رسم علامة الصليب، واعتدلت إيرين في جلستها فجأة، تاركة زايانا تتدلى إلى جانب واحد. كان هناك ثلاثة منهم: اثنان أمامها، يتوازنان على جانبي الجندول، وواحد خلفها. استطاعت رؤية أحذيتهم وعباءاتهم بطرف عينها.

صرخت مطالبة:

– "ما هذا؟"

رسم المراكبي علامة الصليب مرة أخرى، ثم عاد بشكل محموم إلى مجدافه، مبتعداً بذعر عن القادمين الجدد. ربما كانوا ذكوراً أو إناثاً. كان من المستحيل التحديد. ارتدوا السواد: سترات وسراويل سوداء ثقيلة، أوشحة سوداء حول أعناقهم، قبعات ثلاثية الزوايا سوداء، وأقنعة سوداء سادة بلا أي زخرفة على الإطلاق.

تعلقت زايانا بنعاس بجانب إيرين، مسقطة رأسها في حجر إيرين.

همس الواقف خلفها بالإيطالية، بصوت كان يمكن أن ينتمي لأي من الجنسين. صوت حملته القناة بطول الجندول، قبل أن يخمد الضباب صداه:

– "نحن المحققون السود."

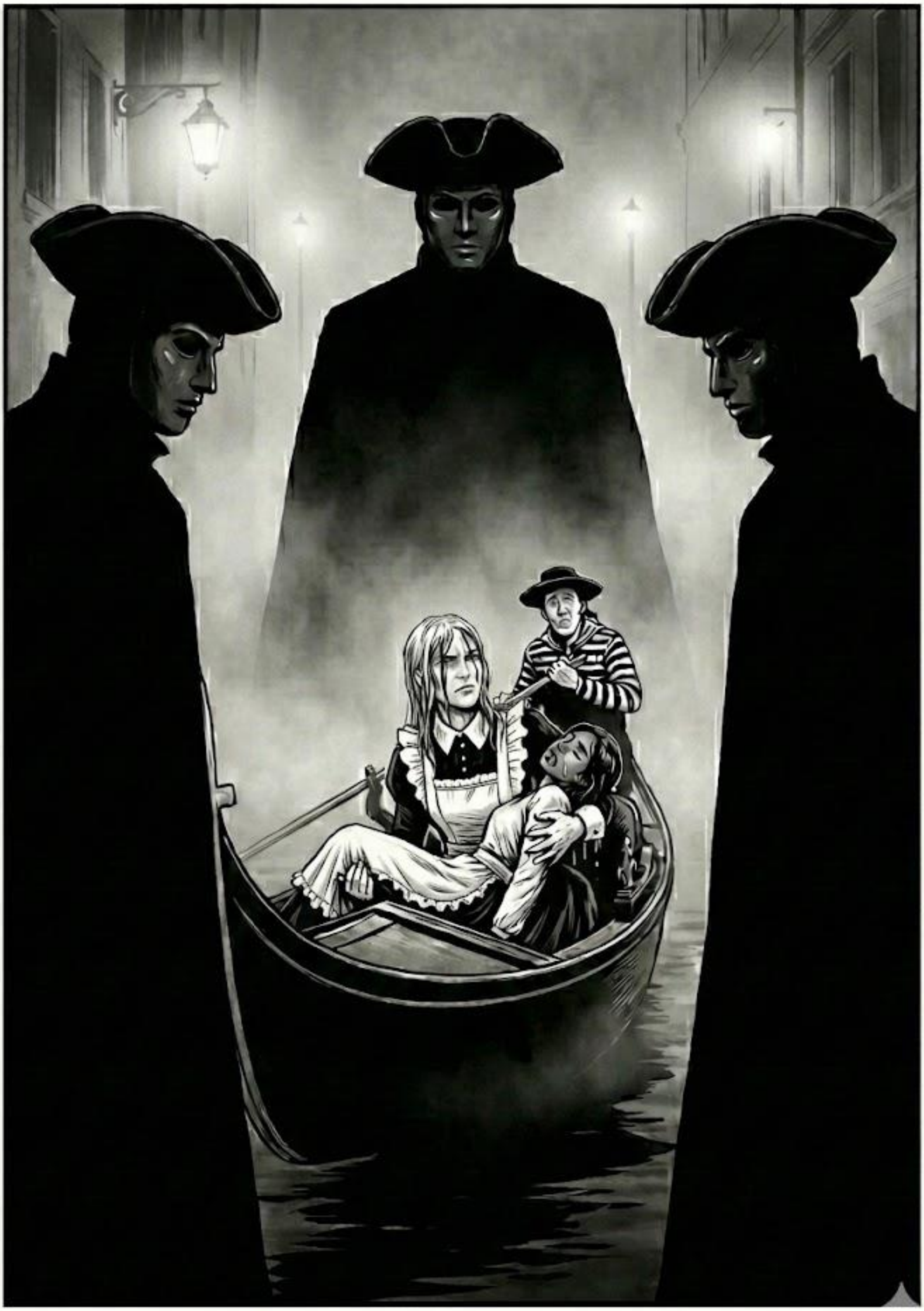
همس الذي على يمينها:

– "أسياد الليل."

تمتم الذي على يسارها:

– "خدم مجلس العشرة."

قال الواقف خلفها، بنبرة مرعبة خالية من أي انفعال:



– "جئنا عبر الظلام لنعرضك على السؤال."

صرّ القارب بينما نقل هو – أو هي – وزنه، منحنياً نحو إيرين في حفيف من العباءة الثقيلة.

– "ولن يسأل أحد أين ذهبتِ، لأنهم يعرفون أن من الأفضل ألا يسألوا."

ابتلعت إيرين ذعرها. كانت فكرتها الأولى: إنهم يحاولون إخافتي فقط. ما هي أفضل طريقة للخروج من هذا؟ وكانت فكرتها الثانية: قد لا يكون هناك مخرج.

قالت بسرعة، وبشكل غير محدد، وغير صادق:

– "أنا لم أفعل أي شيء."

عقد الشخصان الداكنان أمامها ذراعيهما، كتمثالين مظلمين على جانبي القارب.

صدر صوت صغير ممن يقف خلفها. ربما كان صوت معدن يحتك بجلد، بالكاد مسموعاً فوق تلاطم مياه القناة. وتكفلت المخيلة برسم صورة سكين يُسحب.

– "ومع ذلك، ستخبريننا بكل ما تعرفينه – هنا أو عندما نصل إلى وجهتنا."

هل يعرفون من أنا؟ أم أنني مجرد السائحة العاشرة سيئة الحظ التي يتم تهديدها من قبل شرطة سرية مقنعة؟

همست إيرين، سامحة لرجفة فنية أن تتسرب إلى صوتها:

– "أرجوكم أخبروني ماذا تريدون أن تعرفوا. أنا لا أعرف هذه المدينة – لقد وصلت اليوم فقط..."

– "دخل اللورد والليدي جوانتيس مؤسسة ما."

سمعت صريراً والشخص خلفها ينقل وزنه مرة أخرى. بدا الصوت، الذي ظنت أنه صوت ذكر، أقرب الآن.

— "بعد بضع دقائق، غادرتما أنتما الاثنتان من الباب الخلفي. لماذا؟ نريد إجابات. وستعطيننا إياها."

إذن هؤلاء إما خدم لآل جوانتيس أو متصلون بطريقة ما بسلطات المدينة. لكن رد فعل المراكبي رجح الاحتمال الأخير.

بدت القناة بلا نهاية. شكّل الضباب ستائر على جانبي الجندول، مخفياً السكاكين المسلولة وكاتماً الصرخات المحتملة. كانوا في فقاعة صغيرة من الصمت، في وسط القناة، حيث لن يرى أو يسمع أحد ما يحدث لهم. لم تظن إيرين أنه من الممكن أن تكون وحيدة بهذا القدر في مكان عام.

قالت إيرين:

— "صديقتي كانت ثملة."

شعرت بعضلات زايانا تتوتر ضد ساقها. إنها مستيقظة. أو بدأت تستيقظ.

— "كان عليّ إخراجها من هناك."

هز الاثنان أمامها رأسيهما المقنعين في انسجام تام.

دندن الشخص خلفها:

— "ليس عذراً كافياً. سيدة ونبيل بمثل هذا المقام الرفيع لن يتفاجآ بقليل من السكر. فلنسمع شيئاً أفضل، وإلا فمصيرك السجون."

توقف عند الكلمة، يداعبها بصوته بتهديد.

كان بإمكانها محاولة دفعه للخلف، لكنها ستكون حينها مكشوفة للاثنين في الأمام، والعكس صحيح إذا هاجمتهما. كانوا يملكون الميزة المكانية العلوية، وهي لم يكن لديها سوى قاع القارب لتعمل منه.

— "راعيّ وآل جوانتيس بينهم عداء!"

لم يتطلب الأمر أي جهد لتبدو يائسة، وكانت تلك الحقيقة تقريباً.

— "نعم، أعترف، اتخذت ذريعة للخروج من هناك قبل أن يروني — لكنهم كانوا سيجعلون مني عبرة، لإرسال رسالة. كان عليّ الهرب!"

قال الذي على يمينها:

— "معقول، لكنه غير مثبت."

قال الذي على يسارها:

— "لاحظ أنها لا تذكر أي أسماء. أعتقد أن عليها أن تخبرنا ببعض الأسماء، ألا تظن ذلك؟"

جاء الصوت مرة أخرى، معدن على جلد، من خلفها:

— "ما رأيك؟ أخبرينا ببعض الأسماء يا امرأة. أخبرينا ببعض الأسرار."

وازنت إيرين الخيارات. إذا أعطتهم اسم سيلفر، فسيستجوبونه، وربما يبيعها لينقذ نفسه. لكن إذا اختلقت شيئاً عشوائياً، فمن المرجح أن يكتشفوا التناقضات، وستقع في ورطة أعمق.

ولم تكن مقتنعة بأنهم سيتركونها تذهب على أي حال. مهما أخبرتهم. ومهما اعترفت.

قالت بصوت مرتعش:

— "لا أستطيع القول. سأعاقب."

كانت زايانا متوترة ضد فخذها، عضلاتها مشدودة تحت عباءتها.

— "هراء!"

ركل الشخص خلفها إيرين مباشرة في ظهرها، مرسلاً إياها ممددة في بطن الجندول، حاصراً زايانا التي بدأت تتلوى فجأة تحتها.

– "أحضروا السيور والأكياس..."

متشابكة في عباءتها، وقناعها ينزلق مرتخياً، حاولت إيرين وضع يديها تحتها، لكن زايانا تلوت إلى جانب واحد وأفقدتها توازنها مرة أخرى. ارتطم رأسها بألواح الجندول وشعرت بالرجل خلفها يغرس قدمه في ظهرها، مثبتاً إياها لأسفل.

ما كانت تحتاجه هو خروج سريع. والطريق الوحيد للخروج... كان للأسفل.

المقاومة، وتخبطات زايانا، ستغطي على الصوت.

أمرت إيرين بهمس منخفض، وشفتاها تلامسان الألواح الخشبية:

– "**أيتها الألـــواح الخشبـــية، تفـــرقي وتفككـــي الآن!**"

استنزف الأمر منها أكثر مما توقعت؛ تدفقت الطاقة خارجة منها مثل الماء المتدفق عبر صدع مفاجئ في سد. بالكاد تبقى لديها القوة لتأخذ نفساً عميقاً، لكن النتائج كانت درامية. تفكك القارب، من الأمام إلى الخلف، مع تناثر مفاجئ للأخشاب في كل الاتجاهات، مما جعلها تفكر للحظة وجيزة في الرسوم البيانية المفككة وصور "قص واصنع جندولك الخاص".

للحظة وجيزة.

ثم صارت في الماء.

كانت إيرين تتوقع ذلك، وهو ما فاق توقع أي شخص آخر. كانت أيضاً متجهة بوجهها لأسفل ومستعدة للغوص، بينما كان الآخرون واقفين أو يتقاتلون. ذهبت يداها إلى عنقها لفك مشبك عباءتها، وركلت الماء بقوة، غائصة أعمق في محاولة للابتعاد عن الاضطراب على السطح.

كان الماء بارداً — برودة البحر المفتوح، طازجاً من المحيط الذي يغذي قنوات المدينة المدية، وكان مظلماً ومليئاً بالطمي. لم تكن لديها أدنى فكرة عن الاتجاه الذي تسبح فيه، بعد بضع ضربات، ولم تستطع التركيز إلا على محاولة الابتعاد.

ثم التف شيء ما حول كاحلها.

كبتت إيرين صرخة، حابسة أنفاسها، وركلت الخلف نحو أياً كان — أو من كان — فجأة امتلأت بطاقة الذعر. كان هواؤها ينفد، ورغم أنها كانت واثقة إلى حد ما من أنها تبتعد عن القارب، إلا أن يقينها انتهى عند ذلك الحد.

الشيء — أو الشخص — أمسك بكاحلها مرة أخرى. وفي اللحظة ذاتها اصطدمت ذراعها اليسرى بشيء صلب. فقدت تركيزها، مندفعة إلى السطح في تدافع مفاجئ لتظهر بجانب أساسات أحد المباني. تجرعت نفساً من الهواء، ترمش لتزيح الماء عن عينيها.

كان المشهد أمامها مسموعاً أكثر منه مرئياً. أخفى الضباب أي مطاردين عن الأنظار، لكن رغم تأثيره المخمد للصوت، استطاعت سماع الجلبة. كان المراكبي يصرخ بالتهديدات والصلوات، تتراوح بين استنجاده بالعذراء إلى قسمه بانتقام دموي من العاهرات اللواتي دمرن جندوله، لكنه كان يركز بشكل عام على فقدان جندوله. شعرت إيرين بوخزة ذنب.

بزغت زايانا بجانبها، رأسها وكتفاها يبرزان من الماء مثل تمثال كلاسيكي. التصق شعرها ببلل على وجنتيها وكتفيها العاريين، والتقطت عيناها الضوء وتلألأتا في الظلام، وبؤبؤاها مشقوقين ولا بشريين.

همست وصوتها بالكاد مسموع:

— "والآن، كيف فعلتِ ذلك يا عزيزتي؟"

هسهست إيرين رداً عليها:

– "هل هذا وقته حقاً؟ هل يمكننا فقط الخروج من هنا ومناقشة الأمور لاحقاً؟"

نأمل أن يكون ذلك لاحقاً جداً– ربما في اللانهاية.

أشارت زايانا:

– "أنتِ من كانوا يستجوبونها. أنا لم أكن متورطة..."

– "أوه نعم، وسوف يصدقون ذلك حقاً، وهم يبحثون عن إجابات. السبب الوحيد لعدم استجوابهم لكِ بعد هو أنهم ظنوا أنك نائمة..."

سُمع صوت ارتطام عالٍ وصوت خطوات تركض بالقرب من مكان الحدث. قطعت إيرين حديثها وقامت بإشارة سباحة غامضة بيدها.

أومأت زايانا، تاركة نفسها تنزلق عائدة لأسفل. ومعاً سبحتا بهدوء عبر القناة، مبقيتين جسديهما منخفضين في الماء، ورأساهما بالكاد فوق السطح.

بعد بضع مئات من الياردات، كانتا قد عبرتا قناتين إضافيتين وكاد قارب شحن عابر أن يدهسهما، وكانت إيرين تشعر بإرهاق يفوق المعتاد بعد سباحة سريعة.

نظمت أنفاسها بصعوبة محاولة صياغة سؤال لكنها فشلت:

– "توقفي للحظة."

كانت قد فقدت حذاءها في مكان ما بعيداً في الماء، وتمنت لو كانت ترتدي "بيكيني" مثل زايانا. كان سيجعل السباحة أسهل بكثير.

نادت زايانا من الخلف:

– "فقط أبعد قليلاً جداً ويمكننا الصعود إلى جانب الشارع هنا."

تأرجحت بسهولة لتصعد على الحجارة المرصوفة، جالسة على جانب القناة وساقاها تتدليان في الماء، بشرتها كالذهب السائل في ضوء المصباح. كانت عيناها طبيعيتين مرة أخرى.

– "لستِ سباحة ماهرة، أليس كذلك؟"

لهثت إيرين:

– "إنه شيء للطوارئ أكثر. على الأقل أنا لا أغرق."

ركلت زايانا الماء، طرطشته في الضباب كقطرات متلألئة.

– "هل هذا هو معيارك الوحيد؟"

أسندت إيرين مرفقيها على أحجار الرصف، غير مستعدة تماماً لسحب نفسها للخارج بعد. كانت منهكة حتى العظم. لم تكن متأكدة ما إذا كان عليها لوم الجهد البدني، أو استخدام "اللغة"، أو الظروف الموترة. ربما كل ما سبق. كانت بحاجة للنوم. فقط لفترة قصيرة. لا يمكنها إنقاذ كاي إذا انهارت في منتصف عملية الإنقاذ بسبب قلة النوم. حتى الماء البارد لم يكن يساعد كثيراً.

– "ستدهشين من عدد الفتيات في مدرستي القديمة اللواتي كدن يغرقن في كل فصل صيف. كانت هناك واحدة كل فصل صيف تظن أنها تستطيع السباحة ثم تكتشف أنها لا تستطيع. ناهيك عن اللواتي سقطن خلال الجليد. السباحة بشكل جيد بما يكفي لعدم الغرق كانت مهارة مفيدة."

أمالت زايانا رأسها.

– "يبدو هذا درامياً جداً جداً يا عزيزتي. هل كانوا يدربون أبطالاً هناك؟"

– "بطلات في الغالب."

كان تدريس اللغات من الطراز العالمي أيضاً. حرفياً.

— "أنا لم أكن واحدة منهن."

رفعت زايانا يديها خلف رأسها لتعصر بعض الماء من شعرها.

— "إذن ما الذي يحدث بالفعل؟ وكيف حطمتِ القارب؟"

على الأرجح لن ينتهي هذا بشكل جيد. قالت إيرين بحذر:

— "ربما سمعتِ ما قاله أولئك الرجال المتشحون بالسواد. صحيح أنني كنت أحاول الهرب قبل أن يلاحظني اللورد والليدي جوانتيس. عندما فقدتِ وعيك، اتخذت ذلك ذريعة للمغادرة. أنا أعترف بذلك."

فكرت زايانا، ثم هزت كتفيها.

— "حسناً، كنتِ ستأخذينني إلى فندقي. أنا أتذكر ذلك القدر. كان ذلك لطفاً منك. كان ليكونَ ألطف لو أنك عدتِ لأجلي بعد إسقاطنا كلتينا في القناة — بالمناسبة، كيف فعلتِ ذلك مرة أَخرى؟"

قالت إيرين بحزم:

— "سر مهنة. آسفة."

ضحكت زايانا.

— "لم أتوقع بجدية أن تخبريني! لا تكوني سخيفة هكذا. يا كلاريس، كانت هذه أمسية رائعة، وطالما أنني لن أقع في أي ورطة حقيقية بسببها مع آل جوانتيس أو أي شخص آخر، أعتقد أنها ستكون بداية صداقة جميلة."

كانت حرارة التمرين تتلاشى، وبدأت إيرين تشعر ببرودة مياه القناة تتسلل إلى عظامها. جعل ذلك كل شيء يبدو بارداً وبعيداً، من جسدها إلى ابتسامة زايانا. صدمة ما بعد الحدث، هكذا شخصت حالتها. لا تدعي الأمر ينال منك.

قالت وهي تستجمع قواها:

– "لن أمانع ذلك."

وربما يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، بعد أن يتم تسوية هذا الأمر برمته ويصبح كاي في أمان ويُحل كل شيء. ربما يمكنهما إيجاد طريقة لتكونا صديقتين، رغم كل شيء.

هسهس منطقها السليم بينما كانت تحاول تمالك نفسها: لكنها من "الفاي".

– "لكن هنا والآن، نحتاج فقط للوصول إلى فندق قصر غريتي."

رفعت نفسها بصعوبة إلى جانب القناة. كانت أقل رشاقة بكثير مما كانت عليه زايانا، وكانت تعلم أنها تبدو أقل جاذبية بكثير أيضاً. بذلتها الرسمية لم تُصنع أبداً لمثل هذا.

عصرت زايانا كتفها مواسية:

– "انظري للجانب المشرق يا عزيزتي! لقد هربنا! الآن كل ما علينا فعله هو اقتحام أحد هذه المنازل وإقناع السكان بأن عليهم مرافقتنا إلى قصر غريتي. ربما يعيروننا بعض الملابس بينما هم في ذلك."

فكرت إيرين: حسناً، لقد قابلت رسمياً شخصاً يضع خططاً أكثر تهوراً مني.

وافقت قائلة، ولم تستطع منع نفسها من الابتسام:

– "قد تكون هذه حقاً بداية صداقة جميلة."

الفصل الخامس عشر

في نهاية المطاف، وأمام سطوة الإنهاك الشديد، لم تجد إيرين مفرًا من قضاء ما تبقى من الليل داخل إحدى خزائن الكتان في فندق "قصر غريتي". اضطرت للتكور فوق كومة من البطانيات، مرتدية ثوبًا مسروقًا تفوح منه رائحة مياه القنوات. لم تكن تلك الليلة الأكثر بؤسًا في حياتها، لكنها بالتأكيد كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون عطلة مثالية في البندقية.

انتشلها رنين الأجراس من نومها. اخترق الضجيج جدران الفندق، متسللًا حتى إلى داخل الخزانة الضيقة، فاستيقظت مفزوعة، ليرتطم رأسها بالرف السفلي وهي ترمش وسط الظلام. استغرق الأمر لحظات لتستعيد إدراكها للمكان. كانت الأجراس لا تزال تقرع، مستقرة في أنماطها الخاصة من حيث السرعة والنغم، وبدا رنينها متناغمًا بطريقة ما رغم افتقاره للوحدة. حاولت عد دقات الأجراس، آملة في تخمين الوقت، لكن لم تكن هناك وسيلة لمعرفة كم تبقى لها حتى منتصف الليل وموعد المزاد.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه هي وزايانا إلى "قصر غريتي"، بعد حادثتين بسيطتين تضمنتا سرقة ثوبين، كانت إيرين منهكة لدرجة جعلت من الصعب عليها عدم الانهيار في مكانها. كانت الساعة تشير إلى الثانية أو الثالثة فجرًا، لكن الفندق كان لا يزال يعج بالأضواء وأناس يركضون جيئة وذهابًا في الممرات. لم يتطلب الأمر سوى بضع صرخات من قبيل: "يا إلهي، زوجي!" و"بسرعة، اختبئ خلف الستائر!" لتدرك إيرين أن كل عناصر المسرحيات الهزلية التي تدور في غرف النوم كانت حاضرة. وربما كانت

هناك عدة مسرحيات هزلية تجري في آن واحد. لم تكن ترغب في الاقتراب من غرفة نوم سيلفر في ظل ظروف كهذه.

افترقت هي وزايانا، ظاهريًا للبحث عن سيد كل منهما. لكن إيرين شكت في أن زايانا كانت مهتمة أكثر بالعثور على المزيد من الكحول. لم تلمها على ذلك؛ فهي نفسها كانت لتمتن للحصول على كأس أو اثنين من البراندي.

على أي حال، يبدو أن الصباح قد حل. حان الوقت للتسلل خارج عشها الصغير والعثور على سيلفر، على أمل استخلاص المزيد من المعلومات منه.

بمجرد خروجها من خزانة الكتان، اتضح جليًا أن هؤلاء الفاي، مثلهم مثل معظم الأرستقراطيين الفاسقين، لا يستيقظون باكرًا. وإذا كان هناك أي عرف أدبي يتطلب بداية مبكرة لليوم ليتسع ليوم كامل من المجون، فإن إيرين لم تصادفه بعد. الأشخاص الوحيدون المستيقظون حتى الآن كانوا الخادمات، والخدم، والمرافقين من الرتب الدنيا، الذين كانوا يهرولون حاملين صواني الطعام وأكوام الملابس. سهل هذا الأمر على إيرين مهمة حمل كومة من الملاءات، لتبدو بمظهر المستعجل والمكدود بما يكفي. اندمجت تمامًا في المشهد؛ فهي تشعر بالكد فعليًا. كان ثوبها داكنًا ومتهالكًا، وكأنه ثوب "أفضل الأسوأ" لشخص ما، ولا يرقى حتى لمستوى زي خادمات الفندق، لكن صدرية الثوب كانت مربوطة بإتقان، وشعرها مصفف بأصابعها في جديلة محكمة. لم تبدُ بمظهر لا ينتمي لهذا الزمن أو لهذا العالم، وكان هذا هو الأهم.

كانت السلالم الخلفية تشبه مثيلاتها في أي فندق آخر؛ ضيقة، خانقة، ومكتظة بأشخاص مثقلين بالأحمال يركضون بأقصى سرعة ممكنة. لا أحد هنا يكلف نفسه عناء ارتداء الأقنعة.

أمسكت امرأة بذراع إيرين وهي تترنح بجانبها، وقد تدلت خصلات شعرها الأشقر المتلبدة كذيول الفئران على ظهرها، وصاحت:

– "هل رأيتِ النقانق؟"

أجابت إيرين:

– "لا."

صرخت المرأة وهي تركض نازلة السلالم مرة أخرى:

– "أيتها العذراء الرحيمة، هذا الطاهي سيتسبب في مقتل شخص ما!"

قررت إيرين وهي تسرع الخطى أن هذا مشهد ثري للتجربة الإنسانية، ودراما الفندق الكبير، وما إلى ذلك.

كانت قد لاحظت الخدم الذين أحضرهم سيلفر معه في الليلة السابقة. وبفضل التسكع قليلًا عند السلالم الخلفية، تمكنت من رصد أحدهم وتتبعه إلى جناح سيلفر في الطابق الثالث. انتظرت إيرين حتى خلا المكان من المارة، ثم ألقت بحملها من الملاءات على مقعد نافذة قريب، وطرقت الباب.

فتح جونسون الباب، واتسعت عيناه دهشة. أمسك بكتف إيرين وسحبها إلى داخل الردهة المزخرفة بترف، صافقًا الباب خلفها.

همس بفحيح غاضب:

– "ستتسببين في متاعب لسيدي بقدومكِ إلى هنا علنًا هكذا! أي لعبة تلعبينها؟"

تناهى صوت سيلفر بكسل من غرفة النوم:

– "جونسون؟ من الطارق؟"

أخذ جونسون نفسًا ورسم قناعًا من الهدوء على وجهه. بات يشع الآن كراهية طفيفة فقط، بدلًا من النفور الشديد.

– "إنها هي يا سيدي."

– "أوه! حسنًا، أدخل الفأرة إلى هنا. لدي بضع ملاحظات على أدائها."

دون أن يفلت كتفها، وكأنه يخشى هروبها، سار جونسون بـ إيرين نحو غرفة النوم. كانت غرفة رائعة، تفوق الردهة فخامة. الجدران مصقولة كالجص الأبيض تلمع كالرخام، والأرضية فسيفساء من بلاط خشبي باهت دقيق الصنع. الجدار البعيد كان عبارة عن نافذة ضخمة تفتح على شرفة تطل على القناة والمبنى المقابل. كانت ستائر الدانتيل الرقيقة مربوطة إلى الجوانب، والشمس تغمر المكان. انقشع الضباب، وبدت السماء زرقاء صافية وجميلة.

كان السرير المزدوج يهيمن على الغرفة، بارزًا من الجدار نحو المركز وكأنه يفرض حضوره. تمدد سيلفر وسطه بين تشابك من الأغطية الزرقاء الباهتة وملاءات الحرير الأبيض، ملتفًا بروب نوم حريري بلون زرقة منتصف الليل، بالكاد يستر جسده. وبالنظر لطريقة استلقائه والروب مفتوح حتى خصره، مالت إيرين لتصنيف مظهره بأنه "غير محتشم على الإطلاق".

هز رأسه بأسى مصطنع:

– "عزيزتي الآنسة وينترز، ظننت أنني فقدتكِ."

قالت بحدة:

– "هراء يا سيدي. أنا واثقة من أنك كنت سعيدًا للغاية بالتخلص مني."

– "الأمران لا يتعارضان."

عبث بطبق يحوي لفائف عجين مقرمشة مغطاة بالسكر. القرفة كانت حاضرة. استطاعت إيرين شم رائحتها عبر الغرفة، وحاولت منع معدتها من القرقرة.

— "إذن... أفترض أنه لم تحدث أي عمليات إنقاذ جريئة بعد؟"

ترددت إيرين.

— "تلك كانت مزحة، آمل ذلك؟"

— "للأسف، نعم."

رفع إحدى قطع الحلوى إلى شفتيه وقضمها.

— "ممم، لذيذة جدًا... أنا حقًا أستمتع بالمجيء إلى هنا. مكان آمن وموثوق."

لم تكن تلك الكلمات التي قد تستخدمها إيرين لوصف هذا العالم الموازي على الإطلاق. رفعت حاجبها وعقدت ذراعيها أسفل صدرها.

قال وصوته يقطر عسلًا، غنيًا كصوت مغني أوبرا يوشك على الهبوط أوكتافًا كاملًا في موجة صوتية واحدة:

— "أوه لا، هذا لن يجدي نفعًا أبدًا. سيدتي، سامحيني على نعتك بالفأرة. لقد تجاوزنا هذه الأمور. أشعر أننا نفشل في تأسيس أي نوع من التواصل السليم هنا. لا أشعر أن هناك حاجة حقيقية لي، ناهيك عن أن أكون مرغوبًا منك. هذا لن يجدي."

ثبتت إيرين في مكانها. حاولت ألا تصك على أسنانها، لأنه لو استشعر نفاد صبرها، قد لا تحصل على إجابات أبدًا.

— "لورد سيلفر. إذا أنقذتُ كاي، سيكون ذلك خدمة لكلينا، بالنظر لعدائك مع آل جوانتيس. أعتذر إن لم يرق لك أسلوبي، لكن لدي بعض الأسئلة العاجلة."

لعق بقايا السكر عن أصابعه.

— "أعلم أن لديكِ أسئلة، يا فأرتي الصغيرة. وأعلم أنها عاجلة جداً. أعتقد أنني أريد أن أرى مدى عجلتها بالضبط. على ركبتيكِ، أيتها الفأرة. هنا، من فضلك."

أشار إلى جانب السرير.

للحظة، لم تستطع إيرين قول شيء سوى:

— "ماذا؟"

لقد غازلها من قبل، واستعرض سحره أمامها كطاووس يتباهى بذيله. لكنه تصرف كما كان ليتصرف تجاه أي كائن بشري، لا لأنه كان مهتمًا بها فعليًا. لذا كان الأمر يبدو آمنًا نسبيًا.

أشار سيلفر بيده باسترخاء نحو الأرض.

— "الآن. أوه، لا تقلقي. لن أفعل لكِ شيئًا أيتها الفأرة. أنتِ جائعة، أليس كذلك؟ تختبئين طوال الليل، وتهرولين في الممرات..."

نجح في جعل الكلمات تبدو جميلة وفاسقة في آن واحد، موحيًا بأشياء لا توصف عن الليل والممرات.

— "دعيني أطعمك. دعيني أجب عن أسئلتك."

لمعت عيناه ببريق شرس، نهم، وجائع.

— "دعيني أرَ مدى إلحاح أسئلتكِ، يا فأرتي الصغيرة. اركعي. أو اخرجي من هنا."

لقد نفدت خياراتها، ونفد حلفاؤها، وسيلفر يشخصن الأمر—— بوضوح وعمد. ربما كانت حداثة إذلال "أمينة مكتبة" تغذي شعور القوة لدى شخص مثله.

صكت على أسنانها وفعلت ما أمرت به. حفيف حاشية ثوبها ملأ المكان وهي تفرده حولها كغيمة داكنة، جاثية على عقبيها بجانب السرير. تحرك جونسون ليقف عند الباب. هل يقف للحراسة؟ أم فقط لعدم الرغبة في المشاهدة؟ كان تحليل دوافعه أسهل من التفكير في مشاعرها الخاصة.

— "هكذا. أفضل بكثير."

تدحرج سيلفر على جنبه، ساحبًا طبق الحلوى معه، واستند على مرفقه ناظرًا إليها من علٍ.

— "من الجيد معرفة أنكِ صادقة، يا فأرتي."

نظرت إيرين إلى يديها المعقودتين بأناقة في حجرها. كان مدعاة للفخر أن أصابعها لم تكن متشابكة بشدة حتى ابيضت مفاصلها، بل كانت ساكنة وهادئة تمامًا، وكأنها كتلة من السكينة وضبط النفس. كان ضوء الصباح عبر النوافذ حادًا وواضحًا بما يكفي لترى الندوب الصغيرة، تلك الخطوط البيضاء الدقيقة التي تلتف من باطن كفيها إلى معصميها. كانت ذكريات لمواجهة أخرى مع وحش أسوأ بكثير مما يمكن أن يكونه سيلفر أبدًا.

نعم. هذا مجرد تصرف تافه. إجبارها على الركوع، ولعب ألاعيبه الصغيرة. ولماذا يضيع سيلفر وقته بالضبط في محاولة فرض سيطرة تافهة عليها؟ الأشخاص المسيطرون حقًا لا يحتاجون لفعل ذلك.

— "والآن، أين كنا؟ أوه نعم. كان لديكِ بعض الأسئلة. لمَ لا تطرحين واحدًا منها."

سألت إيرين:

— "أين يُحتجز كاي؟"

أجاب سيلفر فورًا:

– "في السجون. أو بالأحرى، (الكارشيري[12]) كما تُسمى هنا. إنها واحدة من المعالم الرئيسية لهذا النطاق الصغير الجميل، بعد كل شيء. كان عليّ أن أدرك أن هذا هو سبب إقامة المزاد هنا، فضلًا عن الموقع فقط. ربما كان من الأفضل طرح سؤال أكثر عمومية، همم؟"

نظرت إيرين إليه، وعرفت أن كرهها له يظهر في عينيها.

– "يمكنك توقع عدد من الأشياء مني، لكن آمل ألا تتوقع مني الاستمتاع بهذا. ولا أرى سببًا لعدم إخبارك لي بذلك من قبل."

قال سيلفر:

– "لم أخبركِ سابقًا لأنني لم أكن أعلم. كان رسل (العشرة) بانتظارنا في نزلنا لإعطائنا الأخبار، لإضفاء المزيد من الدراما. أفترض أنه كان بإمكاني التفكير في الأمر بنفسي، لكنه بدا متطرفًا بعض الشيء. (الكارشيري) بُنيت لاحتجاز بني جنسنا. كنت لأظن أن زنزانة عادية ستكون كافية جدًا لمجرد أمير تنين. أما عن استمتاعك بهذا، أو عدم استمتاعك، فهذا هو المغزى."

التقط قطعة صغيرة من المعجنات المغطاة بالسكر من طبقه.

– "ترين يا فأرتي الصغيرة، أنا بحاجة لشيء منكِ. أنا من الفاي، بعد كل شيء، ولا أستطيع الاقتيات على الشرف والمساعدة فقط. إنه أمر خارج عن طبيعتي تمامًا. بقدر ما تودين مني مجرد الإجابة عن أسئلتكِ المهمة، فإذا لم أستطع إثارة رغبة مطلقة وكاملة، فإن بعض الخزي والكراهية العميقة سيفي بالغرض تقريبًا. وسأشعر إن لم أحصل عليه. والآن افتحي فمكِ ودعيني أطعمكِ إفطاركِ..."

---

[12] الكارشيري: تعريب لكلمة *Carceri*، وهي سلسلة النقوش الشهيرة «السجون المتخيلة» التي أبدعها بيرانيزي، وتُستعمل للإيحاء بعوالم معمارية قاتمة ومتاهية، تتكدّس فيها السلالم والجسور بلا مخرج واضح، رمزًا للاختناق، والضياع، وهيمنة البنية على الإنسان.

لابد أنه لاحظ تراجعها المفاجئ للخلف؛ فهي لم تحاول إخفاء ذلك.

– "أو يمكنكِ ببساطة الخروج من هنا ومحاولة تدبير أمركِ وحدكِ. الأمر عائد إليكِ تمامًا."

اضطرت إيرين لأخذ بضعة أنفاس عميقة لتبقي نفسها جاثية بجانب سرير سيلفر. تعقدت يداها في تنورتها الكتانية وهي تركز على عدم صفع وجهه.

سألت:

– "هل يمكننا عقد صفقة؟"

أمسك سيلفر بقطعة الحلوى فوق مستوى وجهها مباشرة، ناظرًا إليها بنظرة تقدير لدرجة أنه كان ينبغي عليه لعق شفتيه.

– "أنا مستعد للاستماع."

نهضت إيرين واقفة.

– "إذن أعتقد أنني سأكتفي بالخزي والإذلال."

سرى الغضب في عروقها، أكثر حرارة من الدم، ونظرت إليه باشمئزاز.

– "لك أنت."

– "ماذا؟"

اضطر للتدحرج للخلف على مرفقه لينظر إليها، وانفتح روب نومه ليكشف عن مثلث من صدره. ومضت فيها رغبة مجزأة استجابة للقوة التي يشع بها، لكن سرعان ما دحرها انزعاجها.

– "كيف تجرؤ!"

أدارت إيرين ظهرها له لتعبر الغرفة وتجلس على أحد الكراسي، مستغرقة وقتها في ترتيب تنورتها بعناية قبل أن تجيب.

— "لورد سيلفر. لقد خاطبتني بلقب (سيدتي) سابقًا. أُفضّل أن تستمر في ذلك، بدلًا من معاملتي كتابعة—وتابعة وضيعة أيضًا."

التقطت عينا سيلفر الضوء كالجواهر المصقولة، بينما ارتسمت على وجهه تكشيرة غطرسة وكبرياء مجروح.

قال بحدة:

— "أنتِ من جئتِ إلى هنا لطرح الأسئلة. لا يعجبني هذا السلوك يا آنسة وينترز. لا يعجبني إطلاقًا."

كانت هناك تلك المسحة من الشغف في كلماته مجددًا، وهي أقوى هذه المرة، بينما كان يركز بصره عليها.

لكن حقيقة أنه يحاول المساومة من الأساس أعطت إيرين البرهان الذي تحتاجه. لم يكن مسيطرًا على الوضع مطلقًا—لا بشكل عام، ولا هنا في البندقية، وبالتأكيد ليس هنا في هذه الغرفة معها. في هذه اللحظة بالذات، هو يحتاج مساعدتها أكثر بكثير مما تحتاج هي مساعدته. وكل ألاعيبه الصغيرة تلك لم تكن سوى محاولة لزعزعة توازنها، لمنعها من إدراك تلك الحقيقة.

سمحت لنفسها بالابتسام قائلة:

— "لورد سيلفر، لا يهمني ما يعجبك وما لا يعجبك. هنا والآن، إذا لم أنقذ كاي، سينتصر اللورد جوانتيس، وستكون نهايتك محتومة. يمكنك إعطائي المعلومات التي أريدها، وذلك قد ينقذك. أو يمكنك الاسترخاء في السرير وتناول المعجنات حتى ينهار السقف فوق رأسك. الأمر عائد لك تمامًا. لأنني، وكي أكون صادقة، سواء لاقيت مصيرًا مروعًا على يد اللورد جوانتيس أم لا، فهذا لا يهمني حقًا. كاي هو المهم. أنت لست كذلك."

حدق بها. ثم ابتسم. لم تكن ابتسامة لطيفة تمامًا؛ بل انحناءة موحية للشفاه، وتلميحًا لأنياب مجازية—تعبير خلا تمامًا من أي دعابة في عينيه. لكنها كانت ابتسامة على أية حال.

— "سيدتي وينترز، أنتِ تتفتحين في أجواء هذا المكان، مثل زهرة في الربيع. أخبريني ماذا تودين معرفته أيضًا."

قالت إيرين بجفاف:

— "كل شيء. لكن سنبدأ بهذه (الكارشيري). أفترض أن الاسم يعني أكثر من مجرد كلمة (سجون) بالإيطالية؟"

تأرجح سيلفر ليعتدل في جلسته، مدليًا ساقيه من حافة السرير.

— "لا أعرف كم تعرفون أنتم، أمناء المكتبات الصغار، عن بني جنسي. سأفترض أن لديكم كل المقتطفات الفضائحية، والقليل جدًا من أي شيء مفيد. لذا، لنبدأ بشرح هذا المكان: هل تعلمين أنه كلما زادت قوة بني جنسي، أصبحنا أكثر وفاءً لأنفسنا؟"

بمعنى أن نتحول إلى صور نمطية متحركة. أومأت إيرين بالموافقة، مفضلة إبقاء عينيها على وجهه بدلًا من النظر إلى أي مكان آخر.

اختار قطعة أخرى من المعجنات وتابع:

— "حسنًا. البعض منا يصبح عظيمًا لدرجة لا يمكن حصرها في نطاق أو عالم واحد. تعرفين (الراكب) الذي أحضرنا إلى هنا؟"

أومأت إيرين مجددًا، وأضافت لتظهر أنها منتبهة:

— "وجواده."

هز سيلفر كتفيه.

— "ذاك أيضًا. لكن كلما صرنا أقوى، استطعنا السير بين العوالم. إنها ترتعد عند مرورنا."

ابتسم عند هذه الفكرة، وجعل ضوء الصباح وجهه يبدو جميلًا رغم كلماته، وأكمل:

– "عند ذلك المستوى لا يمكننا لمس أو دخول النطاقات الضحلة وإلا حطمنها—ناهيك عن احتمال العوالم الصغيرة التي يأتي منها صديقك كاي."

ارتعدت إيرين، ممتنة لأن بعض العوالم على الأقل قد تكون خالية من هؤلاء الفاي الأكثر قوة.

– "أخبرك بهذا، يا سيدتي وينترز، لأشرح قوة أخرى يظهرها عظماؤنا. في طرفنا من الكون، إن جاز التعبير، حيث تسود قوى الفوضى، البعض منا قوي لدرجة أن قوتهم تتغلغل في الأرض ذاتها التي يمشون عليها. وبهذه الطريقة، يمكنهم إحداث الزلازل، والتأثير على حركة المد والجزر، وما شابه. التنانين يظنون أنهم يسيطرون على العناصر، لكننا نملك أساليبنا الخاصة للتأثير في عوالمنا."

قطبت إيرين جبينها محاولة الفهم. وتمنت لو كان معها دفتر ملاحظات لحفظ كل هذا للمكتبة، بافتراض أنها ستخرج حية.

– "إذن هذا العالم—أو على الأقل، هذه البندقية—تستضيف أفرادًا من الفاي يملكون هذا النوع من القوى؟"

ابتسم بإنذار قائلًا:

– "نعم، ترين أنكِ تفهمين الأمر. شعرتُ أنه يجب عليّ تحذيركِ، كما يقتضي اللعب النظيف. هنا، في الأماكن الأكثر ترحيبًا ببني جنسي، تكون قوانين العالم المادي سائبة، ويمكن للعظماء استغلال ذلك لإخضاعها لإرادتهم. حتى بينما يلعب الفاي هنا ألاعيب السياسة الفانية، لا تنسي أن قوتهم تسري عبر هذا العالم كما يسري الدم في عروقهم."

حسنًا، هذا يفسر المزيد حول سبب كون عوالم الفوضى العالية خطرة جدًا... هل أنا ملوثة؟ تمكنت من استخدام (اللغة) الليلة الماضية——لكن هل كنت سأعرف لو كنت ملوثة؟

خطرت لها فكرة أخرى، فسألته:

— "وهل هذا هو السبب في أن جو هذا المكان ضار جدًا بشخص مثل كاي؟ تمامًا كما ستتعرقل أنت——ككائن من الفوضى——إذا كنت في عالم يعتمد على النظام."

ولماذا لم يلاحظ هؤلاء الحكام إيرين نفسها؟ هل كانت أصغر من أن تجذب انتباههم؟

مال سيلفر للأمام، متفرسًا فيها:

— "وهنا نأتي للأمر الثاني. هذا النطاق تحديدًا يمتلك نقطتين تجعلانه مفضلًا لدى الكثير من بني جنسي، بمن فيهم اللورد والليدي جوانتيس في هذه الحالة. أولًا، هو أرض محايدة لـ الفاي إلى حد ما، حيث يترفع حكام البندقية هؤلاء عن الدخول في نزاعات مع غيرهم من أبناء جنسهم."

ودت إيرين لو سألت المزيد عن ذلك، لكنه استطرد:

— "لهذا السبب تمكن آل جوانتيس من دعوة الكثير من أقاربي الأقوياء لحضور مزادهم. والخلافات بين المدعوين يجب أن تُعلق على هذه الأراضي. (مجلس العشرة)——العظماء الذين يحكمون هنا——ليسوا تحت إمرة جوانتيس. هم فقط يساعدونهم، ويتواطؤون معهم، بينما يلعبون دور المضيف لبقيتنا."

رفع إصبعه ليوقف كلمات لم تنطق بها إيرين بعد:

— "لكن لا تفترضي أن هذا يعني أن (العشرة) سيرحبون بكِ أيضًا، يا عزيزتي. بل العكس تمامًا. كوني حذرة بشأن من تجذبين انتباهه."

كبتت إيرين تنهيدة. تفصيل آخر أغفله.

قالت:

— "كان هذا ليكون مفيدًا لو ذكرته سابقًا." — مثلًا عندما كنا نخطط لهذا. — "لكن ظننت أنه تاريخيًا، (مجلس العشرة) كانوا مجرد مستشارين للدوق، وأنه هو الحاكم الفعلي عندما كانت البندقية تسيطر على المنطقة..."

قاطعها سيلفر:

— "أوه، التاريخ. ستتحدثين عن الواقع تاليًا، وكأنه شيء مميز أيضًا. في هذه البندقية، (مجلس العشرة) يحكم المدينة من الظلال، والجميع يخشاهم. يتلاعبون بعملاء بعضهم البعض، لمجرد التسلية، لكنهم يتكاتفون دائمًا ضد الغرباء."

سألت إيرين:

— "ولماذا يساعد (العشرة) آل جوانتيس؟"

هز سيلفر كتفيه:

— "بينما لا يدعم (العشرة) آل جوانتيس بالضرورة، إلا أنهم بالتأكيد لن يرفضوا ميزة محتملة. إذا قامت حرب، سيكونون بعيدين عنها تمامًا——التنانين لا يمكنهم الوصول إليهم هنا. لا، (العشرة) سيتركون الأمور تأخذ مجراها، وسيستفيدون من استضافة المزاد. إنه خيار عقلاني."

ردت إيرين:

— "فهمتك على كل حال."

لم يكن الأمر يستحق الجدال.

— "لكن هل يقودنا هذا الشرح إلى شيء ما؟"

قال سيلفر وهو ينهض واقفًا ويسير باتجاهها:

– "إنه يقود مباشرة إلى نقطتي التالية. السجن. أم يجب أن أقول (السجون)؟ (الكارشيري). لقد صممها بيرانيزي[13]..."

لمح التعبير على وجه إيرين.

– "أنتِ تقطبين جبينك. ربما في مكان وزمان آخر، قضى هذا المدعو بيرانيزي حياته يصنع نقوشًا لآثار رومانية وأبقى سجونه خيالية. أما هنا، فهي حقيقية. إنها الجانب المظلم من خيال هذا النطاق، الأساس الذي بُنيت عليه هذه المدينة."

اقترب منها أكثر:

– "لخلق مدينة في حالة ارتياب دائم، يا عزيزتي، حيث يراقب الجواسيس بعضهم البعض ويركضون كالجرذان، وحيث يخشى الجميع ما يكمن خلف أقنعة جيرانهم، وحيث يمكنكِ وضع وشاية مجهولة كل صباح أمام قصر الدوق نفسه... لأجل ذلك، يا فأرتي الصغيرة، لابد من وجود سجون. سجون مظلمة، خانقة، مخبأة في السندرات أو في الأقبية. لكن الأسوأ من ذلك، والأكثر إثارة للرعب، هي السجون التي تقع في مكان آخر، في أبعاد لا يمكن الوصول إليها إلا عبر ممرات تقود إلى الأسفل نحو الظلام، إلى غرف عظيمة يتردد فيها الصدى وصفوف طويلة من الزنازين."

أمسكت عيناه عينيها، وكان صوته كالحرير على بشرتها، شيئًا جديرًا بالثقة لكنه مغوٍ، يدفعها لتجرع كلماته بدلًا من التحليل والتفكير.

– "في السجون الأبعد، في (الكارشيري)، لن يجدك أحد أبدًا—لأن أحدًا لن يعرف أين أنتِ. لا ضوء شمس ولا رياح، فقط حركة الهواء من عجلات ضخمة تدور، تتسرب عبر الممرات الطويلة وآبار السلالم. لا مياه عذبة ولا مد وجزر، فقط برك عميقة من مياه أثرية لن تتحرك أبدًا.

---

[13] بيرانيزي: إشارة إلى جوفاني باتيستا بيرانيزي، الفنان الإيطالي الشهير بنقوشه المعمارية المتاهية والسجون الخيالية.

ستجدين حجارة قديمة، أخشابًا قديمة، سلاسل وميادب تعذيب، وكلها أضخم مما تتخيلين—أقدم من الزمن، وأكثر صبرًا من الخلود."

أحاطت يده بوجهها، وانحنى ليمسح بخده على خدها، ويهمس في أذنها:

— "وإذا تم الإمساك بكِ، يا عزيزتي، فهناك سيأخذونكِ، مهما صرختِ وقاومتِ، ومهما توسلتِ بجمال، ومهما قاتلتِ باستماتة."

داعب صوته الكلمات:

— "وسيبقونكِ هناك حتى يقرروا الطريقة المثلى لـ... التخلص منكِ."

كانت تغرق في قربه، وحضوره، وشعره الحريري على خدها، وصوته في أذنها، ويديه على وجهها وعنقها. أصابع طويلة باردة تتبعت مسارات عبر بشرتها وتركتها ترتجف وتشعر بالدوار. كل مسؤولياتها كانت تشدها وتحاول سحبها بعيدًا—السبب الذي جاءت لأجله، وشم المكتبة على ظهرها. لكن كل ما أرادته هو أن تريد ما يريده، أن تتخلى عن مضايقات الواقع التافهة وتسقط في عينيه، لترى إلى أين سيأخذها ذلك الصوت وتلك اليدان.

وهو ما لن يحدث.

حصنت نفسها بالتمسك بكل ما هي عليه—أنا أمينة مكتبة؛ أنا إيرين؛ لست ضحية لأحد—وثبتت قدميها المجازيتين في الأرض. ربما كانت هذه قصة سيلفر، لكنها ليست قصتها. لن تلعب لعبته.

قالت إيرين، وصوتها بدا خشنًا في أذنيها مقارنة بمخملية نبرته:

— "لورد سيلفر، لم تنتهِ من إخباري بكل ما أحتاج معرفته."

تراجع قليلًا، بما يكفي لينظر في عينيها.

— "لكن هل تهتمين حقًا؟ ألا تفضلين..."

ترك الجملة معلقة، لكن المعنى كان واضحًا.

إنه يفضل قضاء وقته في إغوائي على أن يسمح لي بإنقاذه من دمار محقق. وهذا حقًا يوضح كل ما يحتاج المرء معرفته عن الفاي الذين توغلوا بعيدًا في نمطهم الأصلي.

وضعت إيرين يديها على كتفيه، مبعدة إياه عنها.

— "نعم، أنا أهتم. ولا، أنا لا أفضل ذلك."

تراجع سيلفر عنها بحركة مرنة سلسة لم تستطع إلا أن تفسرها على أنها مغوية وأنيقة عضليًا، حتى وإن صنفها الجزء العقلاني من دماغها كحركة تدلل.

قال:

— "بإمكاني تسليمكِ. (العشرة) سيقدرون الحصول على جاسوسة من المكتبة لاستجوابها."

كان المقصود أن يبدو تهديدًا عابرًا، صادرًا من موقع قوة، لكنها رأت الخوف في عينيه، فخرج كشكوى طفولية.

قالت إيرين، محافظة على نبرتها متوازنة وغير مبالية:

— "وأفترض أنك ستقول إنك استدرجتني إلى هنا لتسليمي."

الشخص الذي ينهار أولًا هو الخاسر في لعبة الفاي هذه. والمراهنات كانت أعلى من أن تكون هي ذلك الشخص.

هز سيلفر كتفيه:

— "حسنًا، بالطبع. وأي شيء تقولينه عن تحريضي لكِ لإنقاذ السجين سيُرفض باعتباره أكاذيب."

سمحت إيرين لنفسها بالابتسام:

— "إذن لن يهمك أنني سأقوم باتهامك بالتواطؤ مع التنانين لإنقاذ كاي."

حدق سيلفر بها:

— "لن يصدقك أحد."

هزت إيرين كتفيها، تمامًا كما فعل هو:

— "آه، لكننا في البندقية. لقد قلتها بنفسك. هذه مدينة جواسيس وسجون. سننتهي في زنزانتين متجاورتين. إذا سقطتُ أنا يا لورد سيلفر، ستسقط أنت معي. لديك كل شيء لتخسره."

ملأ صمت مهدد الهواء بينهما، أعلى صوتًا من أي جدال. في الخارج، بدا صوت تلاطم مياه القنوات ورنين الأجراس البعيد وكأنه على بعد ألف ميل بينما حدق الاثنان في بعضهما.

كان هو أول من أشاح بنظره.

قالت إيرين، مفضلة الحصول على المعلومات والخروج من هناك قبل أن يحاول تحديها مرة أخرى:

— "أنت تعتقد أن كاي هناك. في تلك السجون، تلك (الكارشيري). هل هي جزء مما تقدمه هذه البندقية للزوار؟ السجون المثالية لاحتجاز أعداء المرء؟"

هز سيلفر كتفيه:

— "هذا ما أعتقده. لم أدخلها بنفسي، ولا داعي لقول ذلك. يقولون إن (الكارشيري) يمكنها احتجاز من هم أقوى مني بمراحل. أنا واثق أن تنينكِ سيكون مجرد ذبابة بداخلها."

— "إذن أين تقع في البندقية؟"

– "لو كنت أعلم يا سيدتي وينترز، لأخبرتكِ، لكنني للأسف لا أعلم. (العشرة) يعتبرون مشاركة هذا النوع من المعلومات أمرًا... دعنا نقل غير لائق، ويجب أن أقول إنني أتفهم وجهة نظرهم. لكن كل مصادري تتفق على أنه لا يمكن الوصول إلى (الكارشيري) إلا من مكان ما هنا في البندقية."

إذن لا جدوى من إضاعة الوقت في استجوابه أكثر.

– "إذن، لورد سيلفر، لتلخيص الأمر: كاي في مكان ما هنا، في سجن لا يمكن الوصول إليه إلا من هذه المدينة، لكنك لا تعرف أين يقع المدخل، أو كيفية الدخول، أو ماهية الظروف بالداخل——إلا بمصطلحات قد يعتبرها مؤلف روايات ميلودرامية قوطية زائفة مبالغًا فيها. وأنت، كما أفترض، غير راغب في تقديم أي مساعدة أخرى، خشية أن يتم تتبعها إليك. رغم أننا كلانا نعلم أن اللورد والليدي جوانتيس سيفترضان أنك الملوم في كل الأحوال إذا تم الإمساك بي."

وافق سيلفر:

– "دقيق في المجمل. باستثناء ذلك التعليق على أسلوبي النثري."

– "حسنًا، في هذه الحالة يا لورد سيلفر..."

فكرت إيرين في احتياجاتها الفورية:

– "أحتاج زوجًا من الأحذية، عباءة أو شالًا، بعض المال، سكينًا، وتوجيهات لأقرب مجموعة كتب كبيرة. وبحصولي على كل ذلك، سأبذل قصارى جهدي لتجنب الاتصال بك مرة أخرى."

قطب سيلفر جبينه:

– "هل هذه رشوة يا سيدتي؟"

نهضت إيرين واقفة:

— "مجرد توضيح لمنفعتنا المتبادلة يا لورد سيلفر. ستكون بلا شك تحت المراقبة إذا اشتبه بك آل جوانتيس. بقائي بعيداً عنك هو الأكثر أمانًا لكلينا."

فكر سيلفر في الأمر وهو يعبث بياقة روب نومه. أخيرًا قال:

— "قد تكونين محقة يا سيدتي. جونسون! اهتم بكل ذلك، من فضلك. وشيء آخر."

خطا خطوة أقرب:

— "لم أكن أمزح حين قلت إن أجواء هذا المكان ستكون متنافرة مع تنينك. كأمينة مكتبة، أنتِ محايدة تجاهه، وترتدين الرموز التي أعطيتكِ إياها، مما يحميكِ قليلًا. التنين معادٍ تمامًا لهذا العالم. بمجرد تحريره، من الأفضل أن تضعي خططًا لإخراجه من هذا النطاق بأسرع ما يمكن. وأنتِ أيضًا."

قالت إيرين بجمود:

— "لا أنوي البقاء. قد يكون هذا المكان هو الوجهة المثالية لعطلتك يا سيدي، لكنه ليس وجهتي."

هز سيلفر رأسه بأسى:

— "يومًا ما يا سيدتي، يومًا ما."

أشار نحو جونسون، الذي ملأ ذراعي إيرين فورًا بكومة من الأقمشة.

— "جونسون، هل هذه...؟"

قال جونسون بنبرة خالية من المشاعر:

— "العناصر المطلوبة، سيدي. والمكتبة الأنسب لرغبات هذا الشخص ستكون على الأرجح (بيبليوتيكا مارسيانا)—أي مكتبة القديس مرقس."

سرد قائمة من الاتجاهات السريعة، وعقدت إيرين حاجبيها وهي تحفظها في ذاكرتها. كانت قريبة—حسنًا، قريبة نوعًا ما—من ساحة سان ماركو، وإذا تذكرت بشكل صحيح، كانت تلك هي الساحة الرئيسية للمدينة. قد يكون هذا جيدًا، أو سيئًا. على الأقل يعني وجود حشود كبيرة.

قال سيلفر بينما صمت جونسون:

— "هذا سيفي بالغرض. سيدتي، اعذريني بلطف. أمامي صباح حافل، وبما أنكِ أيقظتني باكرًا، فقد أستغل ذلك."

لم تحتوِ ابتسامته على شيء محدد يمكنها الاستياء منه، لكنها نجحت في التلميح لعشرات الأشياء، جميعها حسية.

قالت بينما عم الصمت الغرفة:

— "سأنطلق في طريقي إذن."

قال سيلفر:

— "إذا احتجتِ إليّ حقًا، سأكون في الأوبرا في وقت لاحق اليوم، في العرض الذي يسبق المزاد. ابحثي عني هناك."

قالت إيرين بصراحة:

— "لنأمل ألا أضطر لذلك."

استدارت مبتعدة عنه، متجهة صوب الباب.

أمسك جونسون الباب مفتوحًا لها. مال بجسده نحوها، وفجأة تحولت نبرته لتصبح حادة، وبشرية للغاية، وهو يهمس بفحيح:

— "أوقعي سيدي في المشاكل... وسأقتلكِ."

ثم صفق الباب خلفها بقوة.

الفصل السادس عشر

أول ما فعلته إيرين هو الحصول على بعض الطعام وفنجان من القهوة. حسنًا، كان ذلك هدفها المبدئي. أولًا توجب عليها حشو حذائها الجديد حتى يناسب مقاسها، ولف شالها الجديد حول رأسها وكتفيها، وإخفاء سكينها الجديد (صغير لكنه حاد) ومحفظتها، ثم شق طريقها إلى ساحة «سان ماركو». ستجد هناك حشدًا من المقاهي، وعليها استطلاع المنطقة القريبة من مكتبة «مارسيانا».

لامست أصابعها قلادة اليشم مرة أخرى. ليس لديها سوى حتى منتصف الليل. ذلك الشعور الملح الذي كان ينخسها جعل أي وقت ضائع يبدو كجريمة، حتى التوقف للطعام. لكن، وعلى عكس «الـفاي»، كانت لا تزال بشرية، ولها احتياجات بشرية.

كانت ساحة «سان ماركو» تبعد بضع مئات من الياردات فقط عن قصر «غريتي». أكدت إيرين وضعها كوافد جديد بالوقوف ساكنة لحظة دخولها، وكاد يدهسها الأشخاص خلفها. كانت... كانت ممتلئة بالضوء. الساحة العامة الضخمة احتوت ما لابد أن يكون الكاتدرائية في أحد أطرافها، تعلوها قباب بصلية الشكل ومغطاة بالرخام والفسيفساء. كانت مهيبة ومجيدة، ونعم، جميلة تمامًا. تدفق الضوء حولها وكأنها نهضت من الأمواج، واشتعلت بالذهب واللون.

إلى يمين الكاتدرائية ومتصل بها كان هناك مبنى ضخم آخر. كان مستطيلًا، وأكثر اعتيادية، رغم ألوانه الباستيلية. بُني من الرخام بظلال من الوردي والأبيض، والتي كانت ستبدو مبتذلة أو باهتة تحت ضوء الشمس

الإنجليزي، لكن في ضوء الصباح البندقي، توهجت بانتصار وقوة. اصطفت مبانٍ أخرى على جوانب الساحة، وبرج جرس عالٍ وقف في المنتصف، مبني من الطوب الأحمر المخدد، ويعلوه الرخام والبرونز. وكان ارتفاعه مائة ياردة على الأقل. حسنًا، ربما أقصر قليلًا، لكنه بدا بارتفاع مائة ياردة على الأقل. الليلة الماضية شعرت وكأنها تغرق في المياه والضباب المنتشر في كل مكان. واليوم، في ضوء الشمس، شعرت وكأنها تطفو عليها — وكأن البندقية كلها تطفو.

كانت الساحة مكتظة بالناس. ومع هذا العدد الكبير، ما هي احتمالات أن يكتشف أحدهم أنها محتالة؟ مرتفعة للغاية بشكل غير مريح، فكرت.

كانت وجهتها قبالة الساحة الرئيسية مباشرة، مع قصر «الدوج» على جانب والمبنى الذي يفترض أن يكون مكتبة «مارسيانا» على الجانب الآخر. كان هناك الكثير من المقاهي الصغيرة أيضًا، مما منحها عذرًا للجلوس مع فنجان قهوة ولفافة خبز، والتفكير.

استطاعت إيرين رؤية البحيرة من طاولتها. المساحة الواسعة من المياه المفتوحة كانت تحدها البندقية نفسها من جانب وجزر «ليدو» من الجانب الآخر. كان القطار خطًا داكنًا ثابتًا في المسافة، ممتدًا عبر الماء على سكته المستحيلة، يلمع كأم أربعة وأربعين بلون سواد منتصف الليل تحت أشعة الشمس الساطعة.

راقبت الحشد والأشخاص الذين يستخدمون مكتبة «مارسيانا». استمعت للمحادثات حولها بينما كانت تخطط وتستطلع طرق الهروب. لم تستطع توقع المزيد من سيلفر. لكن، مع أي حظ، لن تحتاج أي شيء آخر منه. يجب أن تمنحها مكتبة «مارسيانا» الوصول لـ «المكتبة». ثم تحتاج للعثور على سجن «كارشيري» حيث يُحتجز كاي، ثم بطريقة ما تخرجه وتهرب.

حدقت في فنجانها شبه الفارغ، سامحة لسمعها بالاستقرار في مد وجزر اللغة الإيطالية حولها. لم تكن واحدة من أفضل لغاتها، لكن الانغماس الكامل كان يساعد. استطاعت بالفعل تمييز مناقشة حول الأحداث الفاضحة في دير محلي، حتى لو كان المعنى الدقيق لبعض الأسماء غامضًا قليلًا.

رافعة نظرها، مسحت مكتبة «مارسيانا». لم تكن بطول بعض المباني الأخرى، واستطاعت عد طابق أرضي، وطابق أول، وسقف مائل بلطف قد يحوي طابقًا ثانيًا، أو علية على الأقل — وكلها من الرخام الأملس الوردي والأبيض المزين بالتذهيب. رواق ذو أعمدة أحاط بالمبنى، واستطاعت رؤية شرفة تضم المزيد من الأعمدة في الطابق الأول، متصلة بأقواس. نقشت أشرطة زخرفية في الرخام اللامع، تظهر وحوشًا شعارية أو رؤوسًا مع أكاليل من أوراق الشجر تحتها. أي محاولة للدخول عبر النوافذ أو فوق السقف ستكون واضحة بشكل كبير، مما يعني استخدام الباب الرئيسي. لكن، بالنظر للحشود التي تفعل الشيء نفسه، لا ينبغي أن تلفت الأنظار.

وبينما كانت تمشي نحو المدخل، لم تستطع طرد صورة نفسها كخنفساء صغيرة تمشي عبر جلد إنسان مكشوف. معرفة مدى امتداد نفوذ «العشرة» في جميع أنحاء المدينة منحها حسًا إضافيًا من الارتياب. وبالفعل، بصفتهم «فاي» عظامًا، قد يدركون وجودها عبر أرصفة المدينة ذاتها. ما مدى حساسية «العشرة» على أية حال، وهل يمكنهم استشعاري؟ هل سيهتمون بي، أم أنا بغيضة لهم فورًا؟ هل أسبب حكة، وهل سيحكونها؟

صعدت إيرين درجًا ضخمًا من التذهيب والجص، خلف مجموعة من العلماء الشباب يناقشون «بترارك» بصوت عالٍ. مشت متجاوزة أعمدة رخامية ونوافذ تطل على الساحة بالأسفل.

هنا وهناك جلس أشخاص على مكاتب، يقلبون صفحات مخطوطات بعناية، أو يفردون لفائف ويدونون ملاحظات. أشعرها ذلك بالراحة. هذا مكان بُني لتخزين الكتب، من قبل أشخاص أرادوا الحفاظ على الكتب، ويستخدمه أشخاص يريدون قراءة تلك الكتب. لست وحدي.

خرجت أخيرًا إلى غرفة قراءة كبيرة. الإحساس المفاجئ بالمساحة والفراغ جعلها تتوقف، ونظرت للأعلى لترى السقف على ارتفاع أكثر من طابقين. في الطابقين العلويين، أحاطت صالات عرض مفتوحة بالمساحة، وواجهتها درابزينات. لكن خلفها، استطاعت رؤية أرفف كتب وأبواب تؤدي لأعماق المبنى. هذا ما أريده.

بعد خمس عشرة دقيقة، تمكنت أخيرًا من شق طريقها لقسم هادئ بين تلك الرفوف المكتظة. وإلى غرفة تخزين. ستفي بالغرض تمامًا. هذه مكتبة؛ وذلك باب — كل ما تحتاجه لفتح مدخل لـ «المكتبة» الحقيقية.

أخذت نفسًا مرتاحًا، وأجبرت نفسها على الاسترخاء والتركيز، وقالت بـ «اللغة»:

— "**افتـــح علـــى «المكتـــبة»**."

ولم يحدث شيء.

كان رد فعلها الأول هو الانزعاج الأساسي الذي يصاحب شيئًا بسيطًا كعدم خروج الصلصة من الزجاجة، أو موقع ويب لا يحمل من المحاولة الأولى.

— "**افتـــح علـــى «المكتـــبة»**." قالتها مرة أخرى، مركزة على كل كلمة بمفردها.

سقط صوتها في العدم. لا شعور بالتغيير، أو الاتصال.

هذه المرة تجمد الذعر في معدتها. لم تكن أبدًا في عالم بديل حيث لا تستطيع الوصول لـ «المكتبة». لم تظن أنه من الممكن أن تكون في بديل حيث لا تستطيع الوصول لـ «المكتبة».

إلا أنها لم تغامر أبدًا بهذا العمق في الفوضى من قبل. وفي «المكتبة» نفسها، تذكرت متأخرة، المداخل للعوالم البديلة عالية الفوضى كانت مفصولة ومقيدة بالسلاسل. الوصول كان ممنوعًا لأنها ببساطة خطرة للغاية. وإذا كانت مسدودة من جانب «المكتبة»، فهل يعني ذلك أنها غير قابلة للوصول من هذا الجانب أيضًا؟

– "**افتـــح علــى «المكتــبة»!**" صرخت إيرين، وصوتها حاد بالرعب.

لا إجابة.

تشبثت بأحد الأرفف عن يمينها، وغاصت أصابعها في الخشب بقوة كافية للتسبب بالألم. أنا محاصرة هنا، فكرت. لم يكن هذا خوفًا فكرت فيه من قبل حتى. كان جديدًا ومرعبًا، هوة انفتحت فجأة أمام قدميها مباشرة.

سعل شخص من خلفها.

– "هذا مكان مذهل،" قال صوت امرأة. "لكنني أعتقد حقًا أنكِ تهملين الأجزاء الأكثر إثارة للاهتمام."

انغرزت أصابع إيرين بقوة أكبر في الرف وهي تستدير لترى من المتحدث.

كانت الليدي جوانتيس تقف هناك، هادئة في ثوب أخضر داكن، ويداها في قفازين أبيضين. كانت تصوب مسدسًا نحو إيرين. ومثل معظم المسدسات التي صُوبت نحوها، بدا هذا كبيرًا جدًا. يبدو أنه سيكون يومًا

من تلك الأيام في النهاية. كانت الليدي جوانتيس تمسك المسدس بوضعية تبدو احترافية بشكل غير مبشر، بكلتا يديها على المقبض.

هل يجب أن أتظاهر بأنني محلية بريئة؟ قد يستحق الأمر المحاولة.

قالت الليدي جوانتيس:

— "يجب أن أشير إلى أنني قلت ذلك بالإنجليزية. أي محاولة لإقناعي بأنكِ محلية بريئة يجب أن تأخذ ذلك في الحسبان يا آنسة وينترز."

لطالما شعرت إيرين أن إحدى أهم الفضائل الاستراتيجية هي معرفة متى تعترف بالخسارة.

— "لا أستطيع البقاء بعيداً عن مكتبة جيدة،" قالت، ملتزمة بالإنجليزية. "إنه إدمان لدي. هل تعانين من نفس المشكلة؟"

— "أرجوكِ لا تحاولي أن تكوني مضحكة. كان من المنطقي فقط أن تأتي لأكبر مكتبة محلية للبحث عن مساعدة."

لم يهتز المسدس.

— "وإذا حاولتِ قول أي شيء يبدو غريبًا، كوني واثقة أنني سأطلق النار."

ما يعني أن استخدام كلمة مسدس في أي سياق سيؤدي على الأرجح لإصابة فورية. مؤسف. قول شيء على غرار «**لينفجر مسدسك في يدك**» كان ليحل الكثير من مشاكل الحياة الصغيرة.

ساد صمت.

أشارت إيرين:

— "من الصعب علي التحدث بحرية بينما قد تطلقين النار علي في أي لحظة. لكنني أفترض أنكِ لا تريدين قتلي، وإلا لفعلتِ ذلك بالفعل."

— "أنتِ مستهترة جداً بسلامتك،" قالت الليدي جوانتيس.



كانت لا تزال تملك ذلك الطابع الراقي من سهولة التواصل والحس السليم الذي تذكرته إيرين من محطة القطار، لكن كان هناك شيء جديد. توتر؟ هل يمكن أن تكون متوترة؟ مني؟

قالت إيرين:

— "هناك درجات للخطر."

إذا استمرت في الحديث، ربما تجد مخرجًا. وصف سيلفر الليدي جوانتيس بأنها أضعف من اللورد جوانتيس. كيف يقارن ذلك بأمينة مكتبة؟

— "هناك خطر الموت الفوري، وهو شيء، ثم هناك خطر مصير أسوأ من الموت، وهو شيء آخر تمامًا. ثم هناك الخوف الأقل إلحاحًا من الموت المحتمل. وكل السيناريوهات يجب التعامل معها على أساس كل حالة على حدة. أفضل الحديث على فعل شيء لا رجعة فيه. هل تشعرين بالمثل؟"

— "أنتِ أمينة مكتبة."

وضعت الليدي جوانتيس نفس الاشمئزاز الرقيق في الكلمة الذي قد يستخدمه شخص آخر لـ «مرتزقة»، أو «تنظير القولون»، أو «كلاب مسعورة وإنجليز».

— "السماح لكِ بفعل أي شيء حتى الكلام هو أمر خطير."

اقترحت إيرين:

— "قد تشرحين على الأقل ما تريدينه إذن."

إذا كانت المرأة الأخرى تتحدث، فهي لا تطلق النار.

— "عفوًا؟"

— "حسنًا، أنا واثقة أن لديكِ دافعًا للتواجد هنا."

هل كانت الليدي جوانتيس تبقي إيرين تحت السيطرة حتى يصل الدعم لأخذها للحجز؟ أم أنها كانت ببساطة انتهازية، بمسدس في يد وعدو أمامها، ولا فكرة عما يجب فعله تاليًا؟

– "في مكاني، ألن تكوني فضولية؟"

رفعت الليدي جوانتيس حاجبًا.

– "هل تقترحين أنكِ منفتحة على تحالف؟"

هزت إيرين كتفيها.

– "أريد معرفة ما هي الرهانات، وما الذي يجري. لقد سمعتِ عنا. تعلمين أننا عادة محايدون ومهتمون فقط بالكتب. لماذا أطلقتِ بلطَجيتك علي؟"

– "في أي مناسبة؟"

رمشت إيرين.

– "كانت هناك أكثر من واحدة؟"

– "اثنتان، في الواقع. المرة الأولى كانت بعد مزاد الكتب الذي حضرتِه. أردت أن أرى كيف ستتعاملين أنتِ والتنين مع هجوم. أقنعني ذلك بأنني بحاجة لفصلكما قبل اختطافه. المرة الثانية كانت مرتجلة أكثر قليلًا، أعترف."

على الأقل يفسر ذلك سبب عدم كفاءة أولئك البلطجية المأجورين.

– "أكثر عفوية؟ بدا الأمر جادًا تمامًا في وقته."

تنهدت الليدي جوانتيس.

– "كان ذلك خطأكِ. أنتِ والمحقق تحركتما بسرعة كبيرة. لو سارت الأمور كما خططت، لكنتِ والسيد فيل لا تزالان تحاولان معرفة مكان التنين بحلول وقت حدوث المزاد هنا. كانت عائلته ستصل للتحقيق في

العالم الذي اختطف منه، وكنتِ، بصفتك رئيسته، ستنتهين بتحمل اللوم الفوري لاختفائه. كان ذلك ليحرج «المكتبة»، ويبقيهم غير متزنين وفي موقف دفاعي حين تبدأ الحرب. بالطبع، التنانين كانوا سيعرفون أننا المسؤولون في النهاية، لكنني وزوجي كنا سنكون بعيدين عن متناولهم بحلول ذلك الوقت — وكانوا سيرحبون بكبش فداء أو اثنين. كما حدث، اضطررت لتوظيف بعض العضلات في عُجالة. ليست الطريقة التي أحب العمل بها. لو علمت أنني سأضطر لقتلكِ في النهاية، لكنت استأجرت قناصًا مسبقًا. كان ليكون الأمر أكثر ترتيبًا بكثير."

أشارت إيرين:

— "لو جاءت عائلة التنين للتحقيق، وذلك العالم هو آخر موقع معروف له، لكانت لذلك عواقب وخيمة جدًا على ذلك العالم — ليس فقط لـ فيل ولي."

— "لم أكن أخطط لزيارته مرة أخرى."

تسلل خيط صغير من الخوف البارد أسفل عمود إيرين الفقري. لكنه اختلط بغضب متنامٍ من دلالات كلمات المرأة. أوضح «آو شون» أنهم سيدمرون عالم فيل إذا حملوه مسؤولية اختفاء كاي. والليدي جوانتيس كانت تعرف ذلك بوضوح. كادت إيرين تعجب بدقة المرأة في تغطية أثرها، لكن في الوقت نفسه كانت مشمئزة من برود دمها المطلق. والآن لديها تأكيد مطلق من فم المرأة نفسها بأنها متورطة في اختطاف كاي.

لست هنا للانتقام، فكرت إيرين. لكنني بالتأكيد لن أمانع التأكد من أنها لن تحاول فعل شيء كهذا مرة أخرى.

قالت وهي تبقي صوتها متزنًا وتكبح غضبها:

— "إذن أنتِ لا تريدين قتلي الآن."

قالت الليدي جوانتيس:

– "حسنًا، بوضوح لا، الآن وقد أصبحتِ معي هنا. أنتِ أقيم بكثير حية."

قالت إيرين بأمل:

– "كحليفة؟"

– "ليس هذا مستبعدًا."

– "أو...؟" تركت الجملة تتلاشى، لترى إن كانت ستحصل على رد.

– "كأمينة مكتبة، سيجدكِ أشخاص معينون مثيرة للاهتمام. وكشخصكِ، يا آنسة وينترز، أشخاص معينون آخرون سيجدونكِ أكثر إثارة للاهتمام."

ابتسمت بطريقة توحي بأن السؤال برمته بغيض جدًا لدرجة لا تسمح لأشخاص لطفاء مثلهما بمناقشته.

رمشت إيرين.

– "أنا مندهشة. لم يكن لدي أي فكرة أن لدي سمعة كهذه. في الواقع، لم يكن لدي أي فكرة أن لدي أي سمعة على الإطلاق."

كانت هناك بضع مواجهات مع «الـفاي»، وكان هناك بالطبع الأمر برمته مع نفي ألبريتش – الذي كان بالفعل خائنًا خطيرًا وبارزًا. لكنها لم تظن أن ذلك موضوع لثرثرة عابرة. جعلها ذلك تشعر بأنها مكشوفة نوعًا ما.

بدت الليدي جوانتيس محرجة قليلًا.

– "حسنًا، «سيئة السمعة» قد يكون أدق. لكن أرجوكِ لا تأخذي الأمر بشكل خاطئ. إنه إطراء."

– "أنا ممتنة."

– "وهو يجعلني أتساءل حقًا لماذا تفعلين هذا."

وجهت تلك النظرة الهادئة المتفهمة لـ إيرين مرة أخرى.

— "الدفاع عن النفس شيء، لكن هذه الحملة العفوية في عمق أراضينا ليست ما سأسميه تصرفًا حكيمًا. وأنتِ تبدين امرأة حكيمة يا آنسة وينترز."

نقلت إيرين وزنها قليلًا. لم يثير ذلك أي رد فعل من المسدس المصوب. جيد، لن تطلق النار علي لأنني تحركت.

— "إذن، بما أن كلينا يقدر الحس السليم — ما هو دافعكِ في هذا؟"

لم تتردد الليدي جوانتيس.

— "عالم أفضل للجميع."

— "حقًا؟ عندما تكونين على وشك إشعال حرب؟"

قالت الليدي جوانتيس بحزم:

— "النقطة كلها هي بدء حرب."

لم تحاول حتى تجميل منطقها بالسحر أو محاولة نسج إغراء، كما قد يتوقع المرء من «فاي»، بل قدمت قضيتها ببساطة كالحل الواضح الوحيد.

— "جانبنا قد لا يفوز فورًا. لكن بحلول الوقت الذي نصل فيه لهدنة، ستكون عوالم أكثر بكثير تحت نفوذنا. هذا سيكون جيداً للبشر. وسيكون جيداً لنا. نحن لن نتدخل في شؤونكم — أنتم مرحب بكم للاستمرار في سرقة الكتب على الهامش. وهل تهتمين حقًا بالتنانين؟ أكثر من اهتمامك بهذا التنين الواحد، أعني؟"

قالت إيرين:

— "ظننت أننا سنكون عقلانيتين. لا يمكنك القول إنكِ ستبدئين حربًا ثم تقترحين أنني هنا فقط لأنني أهتم بتنين واحد. إلى أي مدى تظنين أنني غير ناضجة؟"

هزت الليدي جوانتيس كتفيها.

— "صحيح، هذا النوع من الدوافع الضيقة هو حقًا ما أتوقعه من الأكثر تركيزًا من بني جنسي. لننظر لوجهة نظر أوسع."

لم يهتز المسدس.

— "أنتم أمناء المكتبات مهتمون بسرقة الكتب لأغراضكم الخاصة. شيء يتعلق باستقرار العوالم، كما سمعت. لستم مهتمين بالتحالف معنا ولا مع التنانين، لأن كل ما تريدون فعله هو جمع القصص. ابقوا بعيدًا عن طريقنا ولن تتأذوا. ليس لديكِ ما تكسبينه بالتدخل في هذا يا آنسة وينترز."

هل تحاول إقناعي بصدق؟ وإذا كانت تماطل لكسب الوقت، فماذا تنتظر؟

— "لم أرَ بعد كيف سيستفيد البشر من العيش في عالم مثل البندقية هذه،" ردت إيرين.

قالت الليدي جوانتيس:

— "اسألي الناس في الخارج. إنهم سعداء."

— "إنهم..."

للحظة، تساءلت إيرين عما إذا كان ينبغي عليها حقًا التحدث عن «البشر» وكأنها مختلفة عنهم بطريقة ما.

— "لكنهم أصبحوا مجرد جزء من قصة هذا المكان. في اللحظة التي يتفاعل فيها أحد من نوعكم معهم، يفقد البشر إرادتهم، حريتهم. حياتهم. في عالمكم، البشر مجرد شخصيات خلفية."

اعترضت الليدي جوانتيس:

— "لكنهم شخصيات خلفية سعيدة جدًا. أوه، أعترف أن ليس كل القصص لها نهايات سعيدة، لكن الناس يفضلون ما اعتادوا عليه. لو

سألتِهم فعليًا، تسعة من كل عشرة سيفضل الشخص وجودًا يشبه القصص على أن يكون ميكانيكي مثلاً حيث النهايات السعيدة لا تحدث أبدًا."

— "حقًا؟"

— "أتصدقين أنني نظمت استطلاعًا فعليًا؟"

بدت الليدي جوانتيس فخورة بنفسها.

— "ليس في هذا العالم، لكن أعتقد أن وجهة نظري صامدة. الناس يريدون قصصًا. يجب أن تعرفي ذلك أكثر من أي شخص. يريدون لحياتهم أن يكون لها معنى. يريدون أن يكونوا جزءًا من شيء أعظم من أنفسهم. حتى أنتِ يا آنسة وينترز، تريدين أن تكوني أمينة مكتبة بطولية — أليس كذلك؟ وإذا كنتِ ستقولين إن الناس بحاجة لامتلاك الحرية ليكونوا تعساء، شيء يُفرض عليهم سواء أحبوه أم لا، فسأشكك في دافعكِ."

توقفت لثانية واحدة قاتلة.

— "معظم الناس لا يريدون «عالمًا جديدًا شجاعًا». يريدون القصة التي يعرفونها."

قالت إيرين بأدب:

— "شكرًا لشرح ذلك. يساعد حقًا في فهم وجهة نظرك للموقف."

— "من دواعي سروري."

تحركت الليدي جوانتيس ونظرت خلفها، لكن بسرعة كبيرة منعت إيرين من استغلال اللحظة.

تابعت إيرين بسرعة:

— "بشكل أساسي، أنتِ مقتنعة تمامًا بصوابك."

إذا كانت الليدي جوانتيس تنتظر تعزيزات، فوقت إيرين ينفد.

– "أنتِ متعصبة مغرورة مستعدة لتدمير عوالم كاملة لتحصلي على ما تريدين. وتريدين السيطرة على البشرية، وأقنعتِ نفسكِ بأنهم سيكونون أسعد بتلك الطريقة. وما الذي أقنعكِ باتباع خطتك المتهورة – هل كان اللورد جوانتيس؟"

خطت خطوة للأمام.

– "ابقي مكانك!"

أمرت الليدي جوانتيس، وصوتها حاد فجأة لأول مرة. كانت يداها متصلبتين بالتوتر عبر قفازيها.

– "لماذا أنتِ متوترة جدًا يا سيدتي؟"

منحتها إيرين أفضل ابتساماتها التي تشي بتفوق طفيف، تلك التي تنقل – رغم كل الأدلة العكسية – أنها مسيطرة تمامًا.

– "هل تخبرينني أنكِ واللورد جوانتيس لستما شريكين متساويين؟ أين هو؟"

انفعلت الليدي جوانتيس:

– "يتفاوض مع «مجلس العشرة». لا تقتربي أكثر!"

– "ولم تتم دعوتكِ أيضًا؟" سألت إيرين بحدة.

وميض الغضب في وجه الليدي جوانتيس قال كل شيء. ظهرت العاطفة للحظة فقط، لكنها كانت هناك، آكلة كالحمض.

– "حضوري لم يكن مطلوبًا."

قالت إيرين:

– "ربما يجب أن أكون أنا من يعرض عليكِ وظيفة."

غيرت إيرين موقعها مرة أخرى، أقرب قليلًا. كانت تقريبًا في النطاق الآن.

— "في النهاية، لقد قال سيلفر..." تركت الجملة معلقة بدعوة.

تساءلت الليدي جوانتيس:

— "ماذا قال؟"

— "ناقشناكِ أنتِ واللورد جوانتيس. عدم توازن القوة بينكما، ذلك النوع من الأشياء."

بسطت إيرين يديها ببراءة.

— "كان هو من أخبرني أنكِ لستِ سوى أداة لزوجك——"

قاطعتها الليدي جوانتيس:

— "ذلك الحشرة لا يفهم، ولن يفهم أبدًا! يرى كل شيء من منظوره الخاص. لا يفهم أنه بدوني، لم يكن زوجي ليتمكن أبدًا من تحقيق هذا. زوجي يفهم ذلك وهو يقدّرني——"

تورد وجهها بحمرة غضب عالية بينما ضربت إيرين على وتر حساس أخيرًا.

في حركة واحدة سريعة، ضربت إيرين ماسورة المسدس جانبًا.

انطلقت رصاصة. واستقرت بصوت مكتوم في صف من الكتب في مكان ما خلف إيرين وإلى يمينها.

كانت الثواني القليلة التالية عراكًا غير لائق. قد تكون الليدي جوانتيس مقاتلة "قتال شريف" ممتازة، لكن إيرين كانت لديها خبرة في القتال غير الشريف القذر. انتهى الأمر بـ إيرين ممسكة بالمسدس، والليدي جوانتيس تمسد إصبعًا ملتويًا وقدمًا ديست بقوة.

لهثت بعبوس:

— "يمكنني الصراخ."

قالت إيرين:

– "يمكنكِ، لكن ذلك لا يزال يترك..."

نظرت أسفل الممر. لا أثر لأحد بعد.

– "ذلك يتركني محتفظة بكِ كرهينة. ما مدى أهميتك لـ «العشرة» يا ليدي جوانتيس؟"

صمتت الليدي جوانتيس. ليس بتلك الأهمية، على ما يبدو. قالت أخيرًا:

– "أنتِ ترتكبين خطأ يا آنسة وينترز."

كان الأدرينالين النقي يتدفق في عروق إيرين.

– "أنا أفكر في الأمر كإدارة للكوارث."

يمكنني سؤالها أين يقع سجن «كارشيري». لكن هل ستخبرني، حتى لو عرفت؟ حتى لو هددت بإطلاق النار عليها؟ لا يستحق الأمر كشف ما أعرفه.

– "لا تحاولي تتبعي لبضع دقائق. من أجلنا كلتانا، من فضلك."

تراجعت الليدي جوانتيس، معلنة الاستسلام. كان فمها مضمومًا بطريقة بغيضة للغاية، وتطورت حكة جديدة تمامًا بين لوحي كتفي إيرين وهي تمشي مبتعدة عن «الـفاي». هل لديها سكين، وهل توشك على استخدامه؟ لكن لم تكن هناك سكاكين، ولا صرخات تحذير، ولا طلقات من مسدسات ثانية مخفية. ومع ذلك، كل خطوة خارج المكتبة خصمت دقائق من عمر إيرين، وهي تمسح المكان ذهابًا وإيابًا بحثًا عن ملاحقة أو تعزيزات لـ «الـفاي».

أخيرًا وجدت طريقها للخارج إلى الساحة الصغيرة. غمرها ضوء الشمس الساطع وغمر الحشد بينما اختلطت به، وفي تلك اللحظة، جاء صوت أقدام تركض من اتجاه قصر «الدوج». كان من السهل الالتفات والنظر، لأن الجميع كانوا يلتفتون للنظر، ورأت فرقة من رجال بزي أسود

يهرولون عبر الحشد، بينما ذاب المارة مبتعدين عن طريقهم. وبجانب رجل بزي مزين بالذهب، يفترض أنه قائدهم، كانت تمشي سترينغتون بخطى سريعة.

تنهدت إيرين وهي تشيح بوجهها. حسنًا، بوضوح لم أكن مقنعة تمامًا الليلة الماضية كما ظننت. لم تستطع حتى لوم سترينغتون؛ ففي النهاية، هي هنا للتجسس أيضًا.

والآن أنا محاصرة، إذا لم يكن الهروب عبر «المكتبة» خيارًا... لا، لن تسمح لنفسها باليأس. لديها عمل لتقوم به، ومجرد استبعاد طريق هروب واحد لا يعني عدم وجود طرق أخرى.

ارتفع الزقاق إلى جسر يعبر قناة صغيرة، ونظرت أسفل القناة نحو المياه المفتوحة للخليج. بدا الامتداد الواسع للمياه المتلألئة وكأنه يمتد للأبد، لكن عبره رقد الخط الأسود للقطار وسكته الحديدية.

أحتاج لطريق هروب. «الراكب» قد لا يساعدني... لكن ماذا عن «الحصان» الذي يمتطيه؟

الفصل السابع عشر

في البداية، توقعت إيرين أن يتحاشى الناس "القطار" ورصيفه كما يتحاشون سفينة موبوءة بالطاعون تعج بالجرذان. لكن كلما اقتربت، رأت تياراً متصلاً من الزوار يشكل حشداً صاخباً حوله.

سألت المرأة في منتصف العمر الواقفة بجوارها في الحشد:

— "هل تعرفين ما هذا؟"

كانت المرأة تضم صينية من مناديل الدانتيل إلى صدرها، وقد ثُبّت شعرها الرمادي بدقة لا ترحم تحت قبعة من الدانتيل ذاته.

هزت المرأة كتفيها وقالت:

— "سمعت أنها سفينة جديدة جاءت من الأسفل، من جهة الصقليتين. غطوا سقفها بالمعدن اتقاءً للبراكين."

أومأت إيرين دون اهتمام حقيقي.

— "ولا بد أن كل هؤلاء الأثرياء على متنها يملكون مالاً لإنفاقه."

سألتها المرأة، وقد تحولت نظراتها الآن لتتفحص إيرين بذكاء غير مريح:

— "من أين أنتِ؟ لا تبدو لهجتك من السكان المحليين."

على الأغلب لا. تعلمت إيرين إيطاليتها المنطوقة من نمساوي تعلم اللغة في روما. أفضل ما يمكنها أن تأمله هو أن تكون لهجتها الإيطالية غير قابلة للتحديد.

اختلقت كذبة قائلة:

— "اعتدت العيش مع أخي روبرتو في روما."

— "روما."

مطت المرأة شفتيها باستعلاء طفيف.

— "حسناً، أفترض أن على الناس العيش في مكان ما."

وسرعان ما تخلصت منها إيرين وسط زحام الحشود، مما أشعرها بالارتياح. تلك هي مشكلة طرح الأسئلة؛ فالناس يطرحونها في المقابل.

كان من السهل الاندماج مع الناس الذين يتقدمون للتحديق في "القطار"، وكان الأمر بسيطاً لتتسلل إلى الرصيف وتنضم للباعة الذين يخدمون حشد السكان الفضوليين هناك. بدا الأمر حقاً وكأنه مزار سياحي. بينما وقف "القطار" نفسه صامتاً ومنذراً بالشر، والشمس تلمع ببريق ساطع على هيكله الفولاذي الداكن وتنعكس عن نوافذه.

شقت إيرين طريقها للأمام، داسة نفسها وسط الغوغاء.

قالت لرجل يحمل صينية مليئة بالمعجنات:

— "عذراً."

ثم قالت:

— "المعذرة."

دارت حول رجل مسن يعرض مجموعة مما يُفترض أنها آثار مقدسة، ووجدت نفسها ملتصقة بأحد أبواب "القطار".

قالت موجهة كلامها للا أحد على وجه التحديد:

— "عذراً."

وجربت المقبض. استدار بسلاسة، فصعدت إلى داخل "القطار" بتنهيدة ارتياح، وأغلقت الباب خلفها بسرعة.

لقد تغير المكان. أصبح الممر الآن مكسواً بألواح خشب الأبنوس الناعمة وأعمال معدنية من البيوتر الداكن، وكانت النوافذ زجاجاً معتماً — داكناً لدرجة تجعل رؤية الخارج شبه مستحيلة. وانقطعت جميع الأصوات القادمة من الخارج. كان طوفان البشر يجيش وينحسر بصمت في الخارج، وجوههم وأيديهم كرغوة شاحبة على سطح بحر مظلم.

أخذت إيرين نفساً عميقاً. حان الوقت للقيام بشيء متهور تماماً.

قالت مستخدمة "اللغة":

— "**اسمــى إيـــريـــن. أنا خادمة للمــكتبـــة. وأرغــب في التحـــدث مع الحصـــــان.**"

تردد صدى كلماتها في ممر العربة كفرقعة السياط، مخلفاً وراءه صمتاً متوتراً.

هيا، هيا.. كن فضولياً على الأقل لتعرف ما يحدث...

بصوت يشبه الزفير، انزلق الباب في أقصى الممر مفتوحاً، متحركاً بسلاسة في مساراته. كان هذا على الأرجح أقرب شيء لدعوة قد تحصل عليها.

بدأت إيرين تمشي عبر العربة تجاهه، لكنها لم تستطع الوصول إليه. كانت العربة أطول مما ينبغي — ليس ظاهرياً فحسب، بل فعلياً، تمتد دون أي علامات واضحة للمسافة أو المكان. بدت دائماً على نفس المسافة من الباب، دون أن تحرز أي تقدم.

حسناً. ربما كان هذا اختباراً. هل هو مثل كل "فاي" آخر تعاملت معه هنا، يريد التفاعل معها بشروطه الخاصة؟ عبر عدسة خيالية؟ كقصة؟ لكن هذه المرة هي من سيروي القصة.

قالت، وهي لا تزال تمشي، منسحبة من "اللغة" لتعود للحديث العادي:

– "أعرف كيف تسير هذه الحكايات. تشتري المرأة تسعة أزواج من الأحذية الحديدية، وتسعة أرغفة حديدية، وتسع عصي حديدية، وتمشي بطول الأرض وعرضها حتى تبلى الأحذية، وتصبح العصي رقيقة كأعواد الثقاب، وتأكل آخر فتات من الأرغفة، وحينها فقط تجد ما تبحث عنه. لكن هذه قصة مختلفة."

أصبح الباب فجأة أقرب بعشر خطوات. لا يزال بعيد المنال. لكنه أقرب.

بدأت إيرين:

– "في ذات مرة، في دولة بعيدة، كان هناك حصان يعدو عبر البر والبحر..."

تذكرت القصة جيداً من تجمع العمة إسراء. كانت أسطورة قياسية، وكان ذلك جزءاً من قوتها. استمرت في المشي وهي تسرد القصة، وظل الباب على نفس المسافة: بعيداً جداً عن متناولها، لكنه قريب بما يكفي لإثارة الرغبة.

أخيراً وصلت إلى النهاية.

– "يركب من عالم إلى عالم، ومن بوابات القصة إلى شواطئ الحلم، حتى يتغير العالم ويتحرر الحصان."

تركت الكلمات معلقة في الهواء للحظة.

– "حتى يتحرر الحصان، كما تقول القصة، مما يعني أنه لابد أن تأتي لحظة يتحرر فيها الحصان. ولابد أن يعني ذلك أن الحصان يمكن تحريره."

قفز الباب للأمام مرة أخرى في غمضة عين. أصبح أمام إيرين مباشرة الآن، قريباً بما يكفي لتعبر من خلاله تقريباً، لكن كل خطوة كانت تبقيه متقدماً عليها بخطوة واحدة.

سال العرق البارد على ظهرها. إنه يستمع إلي. من الأفضل أن أكون قادرة على منحه ما أعِد به، وإلا فإن هذا السرد الخاص سيصبح فوضوياً جداً، وبسرعة كبيرة.

تابعت قائلة:

– "بالطبع، في هذه القصة لا تعرف البطلة بالضرورة كيف تحرر الحصان بالضبط. لكن الحصان يمكنه عادة توجيهها في الاتجاه الصحيح. إزالة طوق، مثلاً، أو فك لجام. وبالطبع عادة ما يكون هناك سبب لرغبة البطلة في تحرير الحصان. البطلة طيبة القلب التي تفك قيد الحصان لمجرد أنه يبدو تعيساً لا توجد إلا في قصص معينة. ولا أعتقد أن هذه واحدة من تلك القصص."

ظل الباب على نفس المسافة منها.

– "إذن، القصة..."

توقفت إيرين عن المشي. وبغياب صوت خطواتها، أصبح الممر أكثر صمتاً وإثارة للرهبة.

– "**كانت الشابة في أرض غريبة، ونظرت حولها طلباً للمساعدة، لأجل...**"

كان ينبغي أن يكون حبها الحقيقي – لكان ذلك أحد الأنماط القياسية لقصة من هذا النوع – لكن ذلك لم يكن حقيقياً بالنسبة لها ولـ كاي. حتى لو كان هناك تفكير رغبي في هذا الموضوع. لكن ذلك لم يهم. لم تستطع المخاطرة بكذبة. ليس وهي تتحدث بـ "اللغة".

– "**خُطف ابن الملك، وقد جاءت عبر البر والبحر لتجده، في حذاء مستعار وفستان مستعار، وبلا صديق حقيقي بجانبها.**"

لسعتها الكلمات في فمها، حقيقية بطريقتها الخاصة، ومع ذلك مجرد قصة. كان الأمر أشبه بأكل حلوى فوارة والشعور بها تفرقع في فمها وتقرقع في جمجمتها وأذنيها. كان رأسها يطن بها.

– "**وقالت: سأنقذه من السجن حيث يحتجزونه، وسنهرب معاً من أعدائه ونوقف حرباً. لكنها كانت خائفة بشدة، لأن المدينة بأكملها ستهب لمطاردتهما بمجرد تحرر ابن الملك من سجنه.**"

أصبح الأمر أصعب الآن. لم تجرب إيرين هذا من قبل قط، ولم تفكر في تجربته. لكن "اللغة" كانت أداة، وإرادتها تدعمها، وهذا المكان كان هشاً، ضعيفاً، وسهل الإخضاع. لم تكن تقول أي أكاذيب. كانت فقط تروي الحقيقة بطريقة مختلفة.

– "**وبينما كانت تمشي نحو البحر، رأت حصاناً مكبلاً وملجماً، وقالت: ليتني كنت سريعة مثلك، لنتمكن من الهرب! وحينها تحدث الحصان إليها قائلاً...**"

بدا الأمر وكأنها كانت تعزف منفردة على الكمان سابقاً، والآن دخلت بقية الأوركسترا على الإيقاع، بثقل مفاجئ من الموسيقى ضغط عليها ورجف عبر جسدها. ألقت ذراعيها إلى الجانبين لتسند نفسها على جدران الممر، تجاهد لالتقاط أنفاسها بينما بدا الضغط الساحق يطبق على صدرها، مجبراً إياها على التنفس بإيقاعه. ارتجف الهواء في الممر مثل سطح طبلة.

– "**حرريني من لجامي وأعنّتي،**" ارتجف الصوت حولها، عالياً جداً لدرجة أنها بالكاد ميزت الكلمات المنفصلة، – "**وسأحملكِ عبر البر والبحر إلى منزلكِ.**"

كانت إيرين تفتح فمها لتقول نعم دون حتى التفكير في الأمر، منساقة مع تيار القصة، لكنها غرست كعبيها العقليين وكافحت لتشكيل كلمات

مختلفة. كان عليها عقد هذه الصفقة للحصول على ما تحتاجه. وبمجرد إبرامها، لن تكون هناك فرصة للعودة وإعادة التفاوض. رغم أن "القطار" كان ساكناً لا يتحرك، إلا أن صوت العجلات الدوارة والمحركات الصاخبة تردد في أذنيها، وكأنه يجهد لسحب وزن بعيد.

أجبرت نفسها أخيراً على القول:

— "**أيها الحصان النبيل، أشكرك على عرضك. أرجو أن تسمح لي بالذهاب والعثور على الأمير، وعندما أعود معه، سأحررك. وستحملنا كلينا عائدين إلى الأرض التي جئنا منها.**"

لقد خافت من تلوث الفوضى من قبل. لقد لمسها في الماضي، وجرى في عروقها، وكاد يشلها قبل أن تجبره على الخروج. ماذا سيفعل بها إذا عقدت صفقة مع هذا المخلوق؟

— "نعم..." تنفس الصوت حولها، في زفير هائل مزق شعرها وملابسها جسدياً، ساحباً إياها للأمام بحيث لم تعد قادرة على الحفاظ على توازنها، بل تعثرت عبر المدخل أمامها وإلى داخل العربة التالية. بدا أن ظهرها، ومعصميها، والقلادة حول عنقها تحترق جميعاً. وشم "المكتبة"، وأساور سيلفر، وقلادة عم كاي — كل غرض قوة بطريقته الخاصة — كانت تتصارع مع الرابط الجديد الذي تعهدت به طواعية. لم تكن في عربة قطار؛ كانت تسقط في الظلام، وكانت تحترق...

يجب أن أضع حداً لهذا. كانت إيرين على ركبتيها، لكنها لم تتذكر تماماً لماذا، وكانت ترتجف بشدة لدرجة الألم الجسدي.

نحبت بصوت غريب حتى على أذنيها:

— "**ثم سنفترق ويذهب كل منا في سبيله، متحررين من كل التزامات، ودون أي روابط أخرى بيننا!**"

خف الضغط قليلاً، وكان أي تحرر بمثابة راحة مباركة: عادت حواس إيرين للعمل مرة أخرى. كانت تتألم تقريباً، لكن ليس تماماً.

سرقت نظرة إلى معصميها، حيث ظهرت السلاسل الذهبية للأساور تحت أكمام فستانها. لا حروق جسدية. الجزء العاقل من عقلها لم يتوقع أياً منها حقاً، لكن كان عليها التأكد.

كان هناك الآن قناع ملقى على أرضية العربة أمامها. كان واحداً من الأقنعة البيضاء الكاملة للوجه، عيناه محددتان بالأسود والذهب، وشفاه مرسومة بالأحمر.

التقطته إيرين. تدلت الشرائط السوداء لربطه بوهن من يدها.

سألت:

— "لماذا هذا؟"

همس الصوت العظيم:

— "حتى لا يراكِ الراكب. اذهبي الآن، وعودي مع ابن الملك، وحرريني..."

بدا أنه يحاول تعديل حجم صوته، ولم يسع إيرين إلا أن تكون ممتنة.

إذا استمر هذا الأمر، سأحمل أشياء كثيرة لدرجة أنني سأبدو كشجرة عيد ميلاد فيكتورية مع خبز زنجبيل إضافي. لكن سيكون من المفيد امتلاك قناع جديد لإخفاء وجهها.

ودون تردد كبير، رفعت إيرين القناع إلى وجهها وعقدت الشرائط خلف رأسها.

لم يحدث شيء غير عادي. لم تشعر بغرابة. حقاً. على الأقل، ليس أكثر مما قد يشعر به المرء مع أي قناع جديد. لا وخزات غريبة أو حرارة

مفرطة أو برودة. لا شيء على الإطلاق. ربما كانت مجرد مصابة بالارتياب.

قالت، متفاجئة بمدى واقعية صوتها بعد كل ذلك الصراخ:

– "أحتاج للبدء في العمل. شكراً لك على تعهدك."

بجانبها، انفتح باب العربة على العالم الخارجي، وتدفق ضجيج الحشود والمدينة إلى داخل العربة ككائن حي، مع صوت أجراس بعيدة تقرع معلنة الساعة مما جعل الجلبة تبدو موسيقية تقريباً.

أدركت إيرين فجأة أن الشمس قد غربت، وأن السماء مظلمة. كان الحشد لا يزال موجوداً، لكنه الآن مضاء بالمشاعل ومصابيح الزيت في الشوارع. شتمت في سرها. إنه المساء. لقد فقدت نصف النهار. ولا يزال عليها العثور على كاي.

كان هناك شيء واحد لم تجربه. انزوت عبر الحشد حتى وجدت ظلاً تتسكع فيه، ثم مدّت يدها إلى صدرية فستانها لتسحب القلادة، مدلية إياها من سلسلتها.

تمتمت:

– "يا قلادة التنانين، أرشديني نحو ابن شقيق سيدك."

بدأت القلادة تدور. كانت كإبرة بوصلة مشوشة أربكها مغناطيس، تدور بلا توقف، وكأن دورة واحدة أخرى ستساعدها في العثور على الاتجاه الصحيح. ومع زيادة سرعة دورانها، بدأت تصدر أنيناً: صوتاً رفيعاً وعالياً مثل البعوضة، لكنه ينخفض ببطء عبر السلم الموسيقي نحو السمع الطبيعي. أصبحت حركتها أكثر اضطراباً، تنتر السلسلة، لكنها لا تزال غير قادرة على الاستقرار على اتجاه، واستطاعت إيرين الشعور بحرارة متزايدة تنبعث منها.

همست بسرعة:

— "توقفي!"

قبل أن تدمر القلادة نفسها بسبب طبيعة المكان الفوضوية، أو تجذب انتباه "العشرة"، أو كليهما. تركتها تتدلى للحظة لتفقد حرارتها قبل أن تعيدها إلى صدريتها.

تباً للجحيم. هذا لن ينجح، والبحث عبر "البندقية" عن سجن "الكارشيري" لم يعد خياراً؛ ببساطة لم يعد هناك وقت. سيتعين عليها اعتراض كاي في دار الأوبرا، والدعاء بأن تتمكن من التعامل مع "الفاي" الذين جاؤوا لمشاهدة العرض.

الفصل الثامن عشر

انسلت إيرين مبتعدة عن الحشد، تحاول التفكير في خيارات أخرى غير تلك الموغلة في التطرف والمحفوفة بالمخاطر القاتلة. طريقتها المفضلة في سرقة الكتب—أو بالأحرى، استعارتها—تتطلب قضاء وقت طويل لاستكشاف المنطقة أولًا. وعادةً ما تتضمن أنشطة "جمع الكتب" (بخلاف مهمات "إنقاذ التنانين") مصادقة أشخاص يمكنها استخلاص المعلومات منهم. كما أسفت لافتقارها للمال اللازم لرشوة الحراس، ولهوية مزيفة جيدة، وطريق للهرب، وكل تلك الأشياء الصغيرة التي تجعل الحياة أسهل بكثير.

لم تكن معتادة ببساطة على العمل بمثل هذه الإمكانات الشحيحة، ودون أي وقت للتخطيط. تلك كانت الطامة الكبرى. سيُعرض كاي في المزاد عند منتصف الليل. وفرص استطلاع سجن سري للغاية في الوقت المناسب بدت ضئيلة في أحسن الأحوال. أوه، ربما تتمكن بطلة ما من فعل ذلك، إذا كانت القصة في صالحها... لكن إيرين لم تستطع الاعتماد على ذلك.

راقبت الحشد وسمحت لنفسها بالتفكير فيما فعلته للتو. لقد عقدت ميثاقًا مع أحد الفاي. ليس مجرد ترتيب تعاوني مناسب من النوع الذي نظمته مع سيلفر، بل صفقة صريحة، موثقة بـ "اللغة". كانت تأمل فقط ألا تكون هناك عواقب من المكتبة. دائمًا ما يُحذر أمناء المكتبات الشباب من التعامل مع الفاي بتاتًا، ناهيك عن عقد صفقات رسمية معهم. ولم تكسر إيرين حرفيًا أي مراسيم—أو هكذا أملت. هي فقط داست على روح تلك

القوانين بقوة، ثم اقتادتها إلى زقاق مظلم وقدمت بعض الاقتراحات الصريحة تحت تهديد السكين. إنقاذ كاي ومنع نشوب حرب قد ينقذها—لكن فقط إذا نجحت.

كانت الأجراس تقرع في كل مكان، يتردد صداها عبر الشوارع وعلى طول القنوات، مالئة الهواء بالضجيج. الناس حولها، سواء المقنعين أو غير المقنعين، كانوا يرسمون علامة الصليب عند نغمات معينة، وحاولت إيرين مجاراة الحركة دون أن يبدو تقليدها واضحًا للغاية. كان الهواء أكثر برودة، وقد لفت النساء المحتشمات شالاتهن حول أكتافهن اتقاء لبرد المساء، بينما تبخترت النساء الأقل احتشامًا بأكتاف عارية وصدور شبه مكشوفة. لونت آخر شظايا الغروب السماء بخطوط من البرتقالي والوردي، كطيات من الحرير تظهر من خلال طبقة خارجية من المخمل الرمادي للغيوم. هذا الصباح، بدت المدينة وكأنها تطفو على الماء، ناهضة منه كتمثال معماري لفينوس [14] من الرخام الوردي والأبيض. أما هنا والآن، ومع حلول الشفق وهمس الناس، بدت على وشك الغرق في الانعكاسات المتموجة بسلاسة.

لكن الأمر تجاوز ذلك. فمع حلول المساء، جاء شعور أكثر وضوحًا بالريبة داخل الساحات المزدحمة. ربما كانت عمياء عنه سابقًا، في ضوء الشمس الساطع، محاطة بأصوات العمل والحماس النهاري. لكن الآن، في الشفق، ومع ترديد الأجراس لهمهمة مستمرة من النغمات الخفيضة، شعرت بأنها... مُراقَبة. مرصودة. يُتجسس عليها.

لمعت العيون خلف الأقنعة، وتمتم الناس لبعضهم البعض في الزوايا. وكلما مرت بشخص ما، تملكها دافع للنظر للخلف ورؤية ما إذا كان يراقبها.

---

[14] فينوس (*VENUS*) : إلهة الجمال في معتقدات الإغريق

توقفت إيرين لتشتري ما قيمته بنس من المكسرات المحلاة من بائع متجول وسألت بلامبالاة مصطنعة:

— "من أي طريق أذهب إلى دار الأوبرا من هنا؟"

سأل البائع وهو يعدل مئزره بتنهيدة متعبة:

— "أيهما؟ هل تقصدين دار (لا فينيس)؟"

نعم، هذا ما قالته العمة إسراء. وهي واحدة من أكبر وأروع دور الأوبرا في أوروبا في عدد كبير من العوالم الموازية. وأين يمكن للمرء أن يعرض تنينًا في مزاد عند منتصف الليل غير هناك؟

أجابت بلهفة:

— "نعم، من فضلك."

قال البائع:

— "آه، إنها ليست بعيدة."

وسرد سلسلة من الاتجاهات السريعة، ثم أضاف:

— "صلي للعذراء لأجلي وأنتِ تمرّين بكنيستها يا آنسة، وآمل أن تحظي بأمسية طيبة."

أملت إيرين ذلك أيضًا، وهي تبتسم خلف القناع وتكمل طريقها، داسة كيس المكسرات في جيب داخلي. كانت لتأكلها بكل سرور، فهي تتضور جوعًا. لكنها لم تستطع أكل أي شيء دون خلع قناعها، ولم تشأ المخاطرة بتحدي القدر إلى هذا الحد.

مع اقترابها، أدركت أنه لا مجال للخطأ في المكان. ما عليها سوى اتباع الضجيج.

سمعت هدير الحشد خارج (لا فينيس) قبل وقت طويل من رؤيتها له. لم تكن هذه إحدى تلك المدن——مثل النسخ العديدة من لندن——

حيث يصطف الناس بتهذيب قبل الأحداث الثقافية الكبرى. كان الحشد كتلة بشرية تموج وتضطرب. جيد. غطاء إضافي لي.

سرعان ما ضاعت وسط حماسهم الجامح، وترقبهم المتحمس، وودهم المسبق——وكل ذلك يحمل تلميحًا بسيطًا بأن الأمور قد تخرج عن السيطرة إذا أصبح الحشد متحمسًا أكثر من اللازم. أحاط رجال بزي رسمي بدار الأوبرا ووقفوا على طول ضفة القناة، وكانت عدة قوارب جندول أجمل من المعتاد تعرض رايات ملونة راسية بمحاذاة المكان.

كانت إيرين ممتنة مرة أخرى لقناعها، ولم تكن الوحيدة المقنعة في الحشد بأي حال. رجال ونساء، بملابس أنيقة أو أكثر تواضعًا، غطوا وجوههم، وحوّل آخر ضوء للشمس فتحات العيون إلى تجاويف مظلمة ومريبة.

انحشرت بخفة في مؤخرة مجموعة متوسطة الحجم من الرجال والنساء غير المقنعين الذين كانوا يتشاركون زجاجات النبيذ ويناقشون بصوت عالٍ المغنين الرئيسيين في عرض الليلة.

سألت أحد الرجال:

— "كم من الوقت حتى يبدأ العرض؟"

حدق فيها بعينين زائغتين قليلًا، ممررًا زجاجته للمرأة بجانبه:

— "في غضون خمس دقائق يا عزيزتي. إنهم يضبطون الآلات بالفعل للافتتاحية. لن تكون لدينا فرصة للدخول حتى الاستراحة. هل كنتِ تنتظرين أحدًا؟"

لا فرصة للدخول من الأمام إذن. سيتعين عليها تجربة مدخل الممثلين في الخلف، أو انتظار الاستراحة. وهذا يعني أن أوبرا حقيقية على وشك العرض——فهي دار أوبرا في النهاية. ربما كان ذلك تمهيدًا للمزاد القادم؟ أوضح لها بعض التنصت العابر أن المجموعة كانت تنتظر

(توسكا[15])، ومنحها بعض المعلومات الإضافية عن المؤدين، وأصواتهم، وعاداتهم الشخصية.

تمتمت وهي تنسل مبتعدة عن المجموعة:

— "أعتقد أنني أراه هناك."

استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة للدوران حول الجزء الخلفي من دار الأوبرا والعثور على مدخل الممثلين. ثم تطلب الأمر عدة عملات من المال الذي أعطاها إياه سيلفر لرشوة طريقها للداخل.

كانت الممرات الخلفية عملية أكثر منها جميلة، ومكتظة بالناس— الجوقة، عمال المسرح، الحراس، العدائين، ورجلان يحملان دمية مسرحية على نقالة مع بقعة دم درامية على الصدر. لم يكن مكانًا للمتفرجين، وشقت إيرين طريقها إلى مقدمة الدار بأسرع ما يمكن. كان كل شيء هنا من الرخام والخشب الفاخر، بعيداً كل البعد عن الكواليس الأكثر عملية. استطاعت رؤية درج واسع وبهو مضاء ببراعة مع لوحات وجداريات، لكنها بقيت في الظلال.

كانت قادرة على سماع الموسيقى جيداً من الكواليس، بما يكفي لتميز أنهم في الفصل الأول، لكن ليس في بدايته تمامًا. احتاجت لتكوين فكرة عن تخطيط المكان. وإذا تصادف وسمعت الحراس يتحدثون عن شحنات تنانين قادمة لمزاد عند منتصف الليل، فذلك أفضل بكثير.

وخزت مؤخرة عنقها؛ شخص ما يراقبها. التفتت قليلًا لتلقي نظرة خلسة عبر كتفها، ورأت رجلًا قادمًا بالفعل عبر الممر نحوها. لحظة، ليس أي رجل. لقد كان أحد الأشخاص عند مدخل الممثلين حين دخلت، يتسكع هناك مع ستة آخرين.

---

[15] توسكا *Tosca*: هي أوبرا حقيقية للمؤلف جياكومو بوتشيني



عملت خبرتها التي تزيد عن عشرين عامًا تلقائيًا وهي تبدأ في المشي بلامبالاة عبر الممر مبتعدة عنه. هذه ليست صدفة. لقد تم رصدها، مما يوحي بأنه كان عند الباب لمراقبتها هي بالذات. هذا بالتأكيد ليس جيدًا. كانت بحاجة للتخلص منه——إما تضليله أو استدراجه إلى زاوية مظلمة، وضربه حتى يفقد وعيه، والانسلال بعيدًا——ثم تغيير مظهرها قدر الإمكان والبقاء بعيدة عن الأنظار.

تفرع الممر أمامها يمينًا ويسارًا. اختارت إيرين اليسار عشوائيًا، وانعطفت، لتكاد تصطدم برجل آخر.

تمتمت بالإيطالية وهي تنحني بسرعة في تحية قصيرة:

— "المعذرة."

قال الرجل من خلفها، وصوته مرتفع بما يكفي ليصل إليهم فقط، وليس للمقصورات أو القاعة:

— "أمسك بها."

كانت نبرته احترافية بشكل مقيت.

تبًا.

حولت إيرين انحناءتها إلى لكمة مستقيمة في معدة الرجل الأقرب، وتخطته، وركلت خلف ركبته بينما انحنى فاقدًا توازنه، وركضت وهو يسقط أرضًا. كان المكان عامًا جدًا للوقوف والقتال.

سمعت صوت أقدام تلاحقها وهي تركض عبر الممر، ترسم ذهنيًا أسرع طريق للعودة لممرات الكواليس. اليسار ثم الأسفل ينبغي أن ينجح. تشبثت بإطار الباب وهي تنعطف بقوة، وحذاؤها ينزلق على الأرضية الرخامية. لم تكن هناك أبواب مناسبة لإغلاقها، ولا منسوجات أو سجاد لرميها في طريق مطاردها.

في يأس، انتزعت كيس المكسرات من جيبها وألقته خلفها صائحة بـ "اللغة":

– "**أيتهـــا المكســـرات، انفجـــري!**"

سمعت ضجيجًا يشبه مفرقعات نارية صغيرة تنطلق بينما تناثرت شظايا المكسرات المحلاة في كل الاتجاهات، وشتيمة بينما تعثرت الخطوات خلفها. حتى لو لم تسبب أي ضرر، فإن انفجار كيس مكسرات عند نقطة الصفر لابد أنه أذهله.

انحنى الممر أكثر لليسار، ورأت درجًا أمامها مباشرة. كدت أصل.

ثم خطت سترينغتون لتقف في مدخل على يمينها. تعرفت إيرين على بدلة عملها والقناع الذي اشترته أمس. كانت تحمل شيئًا في يدها اليمنى، لكنه أصغر من أن يكون مسدسًا وأكثر عتامة من أن يكون سكينًا. قررت إيرين مواصلة الركض، حتى باغتتها صدمة صاعقة في عضلاتها تمامًا. سقطت ككتلة غير متناسقة وبقيت أرضًا، وجسدها كله يتشنج من الصدمة.

أوه. صحيح. صاعق كهربائي. لا بد أن سترينغتون جاءت من عالم يملك تلك التكنولوجيا. صاغ عقل إيرين شتائم، لكن لسانها وفمها كانا مخدرين.

قالت سترينغتون للمطاردين اللذين لحقا بهم:

– "احملاها. بحذر، من فضلكما."

سأل المطارد ذو النبرة الاحترافية:

– "هل نحتاج للتحقق من هويتها؟ المستذئب قال إنه أكد رائحتها، لكن إذا أخذنا الشخص الخطأ لسيده، سيكون منزعجًا."

ردت سترينغتون:

— "لا داعي. يمكنني تأكيد هويتها، حتى مع القناع الجديد. أحضراها من هذا الطريق."

تدلت إيرين كدمية خرقة بين الرجلين وهما يضعان ذراعيها فوق أكتافهما، ساندين إياها بينهما. كانت عاجزة عن رفع رأسها بينما تبعوا سترينغتون عبر الممر، وقدما إيرين تكشطان الأرض.

كانت سترينغتون تتجه نحو مداخل المقصورات، وليس الكواليس. إذن سيتم تسليمي لشخص ما. هبطت معدة إيرين. حاولت تذكر المدة التي يستغرقها التعافي من صدمة الصاعق، وتمنت لو كانت أسرع.

استطاعت سماع الموسيقى مرة أخرى. كان تينور وسوبرانو يغنيان دويتو، التينور رومانسي بشكل جارف، والسوبرانو تسمح لنفسها بالاقتناع. كان الأداء حارقًا في كثافته. تذكرت إيرين بشكل غامض أن (لا فينيس) قد احترقت مرة أو مرتين في بعض العوالم الموازية، وتساءلت عما إذا كانت هذه النسخة قد تحولت أيضًا إلى دخان وأعيد بناؤها.

سيكون ذلك قصة جيدة جدًا، في النهاية...

توقفت سترينغتون خارج باب إحدى المقصورات. مدت يدها لتلمس ذقن إيرين، مميلة وجهها لتتمكن من رؤيتها بوضوح.

قالت بتهذيب:

— "أنتِ تدركين أن هذا كله عمل احترافي؟ لا شيء شخصي يا كلاريس."

حقًا، وبشكل عام، كان ذلك أحد ألطف الأشياء التي قيلت لـ إيرين وهي مخدرة، أو مصعوقة، أو غير قادرة على الرد. لكن عجزها عن الرد منع رد فعل غاضب، بدلًا من الرد المهذب بالطبع، أنا أتفهم تمامًا، الذي بدت سترينغتون تتوقعه.

أومأت سترينغتون:

– "لاحقًا، إذن."

طرقت الباب، نقرة خفيفة بمفاصلها، ثم أدارت المقبض وأمسكته مفتوحًا ليحمل الرجلان إيرين للداخل.

كانت المقصورة مظلمة بالطبع. كل الضوء في المسرح كان مسلطًا على الخشبة، والمقصورات على الجانبين غير مضاءة، كل واحدة منها عالم صغير سري بحد ذاته—مكتظ بالستائر ومشبع بالترف. للحظة، خطف المشهد المهيب أنفاس إيرين. كانت دار الأوبرا رائعة. حتى في الظلام استطاعت الإعجاب بشبكة المقصورات البيضاء على طول جدران المسرح، والسقف الشاحب المرسوم بالجداريات عاليًا في الأعلى، وتوهج الثريا العالية، وكيف كانت المقاعد في الأسفل ممتلئة—لا، مكتظة—بكل مواطني البندقية.

كان هناك كرسيان واسعان بظهر مجنح في المقصورة، متجهان نحو المسرح. لم تستطع رؤية من يجلس في أي منهما، إن وجد أحد.

ثم استدار الكرسي الأقرب للمسرح، وارتطم قلب إيرين بالقاع حين رأت من يجلس هناك. لم تكن غبية؛ كانت تشك في الأمر، لكنها كانت تفضل حقًا أن يكون أي شخص آخر. إنه الفاي الذي رأت صورته على حاسوب لي مينغ، الرجل الذي رأته يقابل الليدي جوانتيس عند القطار ومعها في الحانة. اللورد جوانتيس. وهي محبوسة في مقصورة أوبرا معه.

قال بصوت ناعم وعميق، مع لمحة من الأمر، متحدثًا بالإنجليزية:

– "آنسة وينترز، على ما أعتقد. تفضلي بالجلوس."

حمل الرجلان إيرين إلى الكرسي الآخر ووضعاها فيه، قبل أن ينحنيا للورد جوانتيس ويغادرا. انغلق الباب خلفهما بنقرة بينما دوى صوت مدفع في حفرة الأوركسترا وارتج الضجيج عبر المسرح. تعالت صرخات من الجمهور.

حاولت إيرين تحريك فمها مرة أخرى، وهذه المرة كان لديها سيطرة أكثر قليلًا وهي تفكر في خياراتها. استراتيجية هدم المقصورة بأكملها ومحاولة الهرب وسط الفوضى كانت مغرية، لكن الفكرة كانت تشوبها بعض العيوب الواضحة في التنفيذ.

منحها اللورد جوانتيس خمس دقائق من الهدوء، مراقبًا الحدث على المسرح ومستمعًا للغناء. ثم التفت إليها. تلاشت حرائره ومخامله الرمادية الداكنة في ظلال كرسيه، وأخفت قفازاته يديه، تاركة انطباعًا، للحظة، بوجه عائم. جمجمة عائمة.

— "أرجوكِ استرخي. لدينا عدد من الأمور لمناقشتها. أنتِ لست هالكة بأي حال. لا أريدكِ أن تجزعي يا آنسة وينترز. أم تفضلينَ أن أُناديكِ إيرين؟"

هل أدعي العجز عن الكلام أو الحركة؟ لا جدوى كبيرة—سينتظرني فقط حتى أتعافى.

تمتمت، ولسانها ثقيل في فمها:

— "أفضل آنسة وينترز، في مرحلتنا الحالية من المعرفة."

أومأ اللورد جوانتيس:

— "أنا حذر من قدراتك يا آنسة وينترز. آمل أن تعذري تصرف خدمي، لكن بصراحة، بعد أن تمكنتِ من الوصول لهذا العالم وتجنب رجالي لساعات، فضلت ألا أخاطر."

أومأت إيرين برأسها بحركة متشنجة، وشعرت بوخزة تعاطف عابرة مع سترينغتون لوصفها بمجرد "خادم" وللومها على عدم أسرها في وقت أبكر. استطاعت الشعور بمسدس الليدي جوانتيس يضغط مطمئنًا ضد ساقها عبر تنورتها، رغم علمها أنها لا تملك التحكم الحركي لاستخدامه بعد. إهمال من سترينغتون—كنت سأفتشني لو كنت مكانها.

قال اللورد جوانتيس، وهو ينظر لـ إيرين بدلًا من الحدث على المسرح:

– "زوجتي ترسل تحياتها، بالمناسبة. لقد أُعجبت بإصرارك. كانت تفترض أنكِ الشريك الأصغر في علاقتكِ مع التنين."

مما يعني أنه ربما يعرف أنني أملك مسدسها.

قالت إيرين بتهذيب، وقد أصبح نطقها أقل تعثرًا الآن، مما كان مصدر ارتياح؛ يمكنها استخدام "اللغة" إذا اضطرت لذلك:

– "وأنا أُعجبت بقدرتها على تعقبي. هل هناك سبب معين لعدم وجودها معنا الليلة؟"

– "إنها تبقي اللورد سيلفر تحت الإقامة الجبرية. وتنتظر لترَ إن كنتِ ستأتين للبحث عنه. والآن أرجوكِ يا آنسة وينترز، صفي علاقتكِ بـ سيلفر."

كانت هناك نبرة الأمر تلك في صوته مجددًا، تتردد بشكل غير طبيعي في جسدها—كدبفعة جسدية، تحثها على الكلام.

قالت إيرين بجرأة:

– "كنت أنوي ابتزازه."

كانت خدعة وهي تعلم ذلك، وهو يعلم ذلك، لكن طغيان شخصيته تطلب إجابة ما. إذا كانت قوى سيلفر تكمن في الإغواء والسحر، فإن قوى اللورد جوانتيس تكمن بوضوح في السيطرة والطاعة القسرية.

رمش اللورد جوانتيس:

– "ابتزاز؟ اللورد سيلفر؟ أنتِ تذهلينني."

انقطع الغناء على المسرح بدخول درامي لأحدهم، لكن كل انتباه إيرين كان منصبًا على الجني أمامها.

— "يذهلك أنني قد أكون خبيرة في الابتزاز؟"

— "على الإطلاق. يذهلني أن اللورد سيلفر قد فعل أي شيء يمكن ابتزازه عليه. لا أفترض أنكِ تودين مشاركة الأمر معي؟"

— "بالتأكيد لا. إنه مفيد للغاية."

— "همم."

حول اللورد جوانتيس انتباهه عن إيرين، ناظرًا للمسرح مرة أخرى.

— "كنت سأقول هذا (قصة ملفقة)، لكن من الواضح أنكِ ستتمسكين بها. حسنًا جدًا. هل تودين سؤالي أي أسئلة؟"

اعترفت إيرين:

— "حسنًا، نعم. لكنني متفاجئة من رغبتك في الإجابة عليها."

إذا كان كل ما يريده هو التخلص منها، فلماذا يجلس ويدردش، ولماذا يسمح لها باستعادة صوتها؟ لم تكن طريقة عقلانية تمامًا للتعامل مع عدو خطير.

ابتسم قائلًا:

— "آنسة وينترز، يمكنني القول إنني في موقع تفوق ساحق لدرجة أن إعطائك إجابات لا يعني لي شيئًا. لكني أشعر بالرغبة في بدء علاقتنا بصدق."

لمحها للحظة، وشعرت إيرين بدنيتها تغمرها كموجة بينما استوعب ثوبها الرث، ورموزها المستعارة، وضعفها. كانت تعلم أنها قوته تضغط عليها، وساعدها ذلك على دفعها بعيدًا، لكن رغم ذلك، تركها الأمر تشعر بالصغر والقذارة.

— "أنوي تجنيدك—أمينة مكتبة مروضة ستكون مكسبًا كبيرًا— وستكونين أكثر فائدة بكثير كعميلة مطلعة."

كانت واعية بشكل مؤلم للدقائق التي تنقضي حتى منتصف الليل، لكنها ستغتنم أي فرصة لجمع المعلومات.

— "كما فهمت من الليدي جوانتيس، أنت تنوي بدء حرب."

لوح اللورد جوانتيس بيده بلا مبالاة:

— "إما أن نبدأ حربًا، وفي هذه الحالة نستفيد. أو تضحي عائلة التنين به، وحينها يدين لي من يشتريه بخدمة، وفي هذه الحالة نستفيد أيضًا. ليس لدي ما أخسره."

قالت إيرين:

— "أنا متفاجئة من يقينك التام بالنصر."

— "بالطبع."

نبرة اللورد جوانتيس ربتت عمليًا على رأسها. كلمة "متعالي" ربما اختُرعت لوصف الفروق الدقيقة في نبرته.

— "ومع ذلك، يا آنسة وينترز، لدي وصول لمعلومات أكثر بكثير مما لديكِ."

حاولت إيرين:

— "أكثر من المكتبة؟"

— "أكثر من عضوة صغير جدًا في المكتبة مثلك."

كان عليها الاعتراف بأنه قد يكون محقًا في ذلك.

— "إذن لماذا استهدفت كاي بالذات؟"

— "لأن معلوماتي أظهرت أنه ذو رتبة كافية ليكون سببًا للحرب، وكان في موقع ضعيف. لم أكن لأحاول اختطافه من نطاق والده الخاص. يا إلهي، لا. لو نجا من هذا، وعاد يومًا ما لرعاية والده، لا أعتقد أنه سيسمح له بالتجول بحرية هكذا مرة أخرى."

مد يده لطاولة صغيرة والتقط كأسًا من البراندي، آخذًا رشفة بطريقة أنهت السؤال.

على المسرح، كان (سكاربيا) يواجه (توسكا). لكنه كان الفصل الأول فقط—على المسرح وفي المقصورة. وكان عليها جعل اللورد جوانتيس يظن أنها تضعف.

سألته:

— "لماذا تكره اللورد سيلفر؟"

رفع حاجبًا:

— "لم أظن أنكِ تحبينه."

— "لا أحبه. أنا سعيدة جدًا بابتزازه. لكني كنت أتساءل عن أسبابك."

ضحك، ضحكة عميقة من حلقه. مرة أخرى كانت هناك تلك النبرة المتعالية، وكأنها قالت شيئًا ساحرًا في براءته.

— "عزيزتي الآنسة وينترز، لقد ولدتُ برتبة، أنا نفسي." — مرة أخرى تلك الإيماءة الخفيفة بيده المغطاة بالقفاز — "وبما يليق بمكانتي، لدي هدف يا آنسة وينترز. واجب. التزام..."

اقترحت إيرين قبل أن تستطيع منع نفسها:

— "لبدء حرب؟"

— "تمامًا."

شرفها بابتسامة رفيعة الشفتين.

— "على عكس اللورد سيلفر، الذي هو مجرد هاوٍ بسيط، وُضع في منصب يفوق قدراته ويتجاهله بمجرد وصوله إليه. إنه يسيء لحسي بالاستخدام الصحيح للقوة."

رن صوت (سكاربيا) عبر دار الأوبرا في تصاعد مهيب، ولمعت عينا اللورد جوانتيس كحجر الصوان حين التقطهما الضوء.

قال:

– "والآن يا آنسة وينترز، نأتي لمسألتكِ أنتِ."



الفصل التاسع عشر

قال اللورد جوانتيس وهو ينظر نحو المسرح ويحررها من ثقل نظرته:

— "لكنني أعتقد أن الاستراحة على وشك البدء. هل يمكنني الوثوق بكِ للجلوس بهدوء والامتناع عن إحداث ضجة يا آنسة وينترز؟"

فكرت إيرين في تسلسل الأحداث المحتمل: أصرخ وأدعي الاعتداء. يستدعي الحرس. تُكشف هويتي. أُعتقل وأساق للسجن.

— "نعم، بالطبع،" قالت.

حاولت جعل صوتها يبدو عفويًا، وكأنها مسيطرة على الوضع.

لم ينجح الأمر. استطاعت معرفة ذلك من الطريقة التي استرخى بها اللورد جوانتيس بينما بدأت الجوقة على المسرح في ترتيلة «تي ديوم» (Te Deum) الدرامية. يعلم أنه ليس لديه ما يخشاه مني. وبدا مهتمًا بصدق بتجنيدها. لكن لماذا؟ كاي كان أهم منها بكثير.

نظرت نحو الجمهور بينما أُغلقت الستائر. توهجت الأضواء حول القاعة بشكل أكثر سطوعًا مع فتح الغاز بالكامل، وانفجر الناس في هدير منخفض من الأحاديث. تدفق سيل من أولئك الذين في المقاعد السفلية نحو الخارج، لكن معظم الرجال والنساء الذين يستطيعون تحمل تكلفة المقصورات بقوا حيث هم.

اقترحت بأدب:

— "ربما تود الذهاب وإحضار مشروب؟"

أجاب اللورد جوانتيس:

— "من المستحيل أن أتركَكِ هنا بمفردك يا آنسة وينترز. من يدري أي متاعب قد تقعين فيها؟"

وضعت إيرين يديها في حجرها، شاعرة بالمسدس عبر طيات تنورتها. عاد تحكمها الحركي؛ يمكنها استخدام المسدس إذا اضطرت. لكن مع ضغط قوته عليها، فضلت لعب لعبة الانتظار بينما يحاول تجنيدها، والبحث عن ميزة. أي ميزة على الإطلاق.

ابتسم اللورد جوانتيس قليلًا، وكأنه استشعر نقص المقاومة.

— "تمامًا. علمت أنكِ ستكونين عقلانية. والآن أتخيل أنكِ تتساءلين عن خياراتك."

على الأرجح كان سيستمتع بإلقاء تلك الجملة أكثر لو كنت مقيدة، قررت إيرين. الأمر كله يتعلق بالسلطة.

— "كنت أتساءل،" تمتمت.

— "حسنًا، عليكِ أن تفهمي أنكِ شابة سيئة السمعة قليلًا."

لم تكن إيرين متأكدة ما إذا كان عليها أن تكون سعيدة أم منزعجة من كلمة «قليلًا». استقرت على القول:

— "من الصعب جدًا معرفة متى يتجاوز المرء حدوده. لم أظن أنني تسببت للورد سيلفر في أي إزعاج حقيقي."

— "أوه، لست أتحدث عن سيلفر. بل عن ألبريتش."

الاسم الذي كانت إيرين أقل رغبة في سماعه. لم تطلب أبدًا أن تكون شخصًا ذا أهمية لأحد أسوأ كوابيس «المكتبة». لم ترد الارتباط بشخص يسلخ الناس أحياء. وبالكاد نجت بحياتها خلال لقائهما الأخير.

— "آه،" قالت، مبقية صوتها متزنًا، وممتنة مرة أخرى لقناعها.

ربما إثارة ضجة والتعرض للاعتقال سيكون الخيار الأفضل. يمكنها الهروب في خضم الفوضى.

— "بالفعل."

كان يراقبها، وعيناه متيقظتان لأدنى علامة ضعف.

— "رجل نبيل ملائم للغاية، لأولئك الذين يريدون الاستفادة من قدراته الفريدة. جدًا... ما هي الكلمة؟ مفيد. نعم، مفيد. مدهش ما صنعه من نفسه، ويقولون إنه لا يزال يتطور. قد تكون لديه مخططاته الخاصة، لكنه دائمًا محترف تمامًا عندما يتعلق الأمر بالتعاون مع الآخرين..."

قالت إيرين:

— "وهو من أخبرك أين تجد تنينًا، أليس كذلك؟"

كان الأمر منطقيًا جدًا. ألبريتش كان سيعرف طبيعة كاي بعد لقائهما الأخير، وهو بالتأكيد من النوع الذي يحمل ضغينة.

وافق اللورد جوانتيس:

— "بالضبط. ولهذا السبب أنا مدين له. تسليمكِ سيسوي الأمر بشكل لطيف جدًا."

كادت وخزة الخوف تقلب معدة إيرين. أسوأ كوابيسها يتحقق... انتظري. هذا واضح جدًا. سحبها المنطق السليم البارد من الذعر إلى التحليل النقدي. إنه يلوح بهذا في وجهي عمدًا لإقناعي باختيار أهون الشرين. إذا كان يريدني في خدمته بهذه الشدة، فلماذا؟

— "سيسويه، أليس كذلك،" وافقت، والتقطت وميض انزعاج في عيني اللورد جوانتيس. كان يتوقع أن يكون لكلماته تأثير أكبر.

هيا، تفاخر أمامي. أخبرني بشيء مفيد.

علقت قائلة:

– "لابد أن النبلاء المحليين منزعجون جداً لأن جميع مقصوراتهم محجوزة الليلة. وكل هؤلاء الناس هنا من عوالم مختلفة، لكن لا يبدو أن أحداً يلاحظ."

– "هذه بندقيتنا يا آنسة وينترز."

شبك اللورد جوانتيس أصابعه وهو ينظر فوق الحشد بهواء التملك.

– "العالم هو ما نقوله نحن هنا، ويبدأ وينتهي بـ البندقية. لا توجد أرض بعدها للتدخل. «العشرة» يأمرون، والناس يطيعونهم كأسيادهم. حتى الأرض ذاتها تحت أقدامنا تطيع إرادتهم. كل شيء هو بالضبط كما ينبغي لـ البندقية أن تكون. نابليون لن يأتي أبداً لهذه البندقية؛ لن تُغزى أبداً، ولن تتقلص أبداً، ولن تكون أبداً أي شيء آخر. «العشرة» يرغبون في أن يرى الجميع زوارهم المختارين كمجرد أجانب، ولذا يفعلون."

توقف قليلاً.

– "زوارهم المختارين، أعني. لا أعتقد أنكِ تلقيتِ دعوة يا آنسة وينترز."

ردت إيرين بحدة:

– "أعتبر اختطاف أحد أصدقائي دعوة ضمنية. مما يجعلك مضيفي الرسمي يا لورد جوانتيس."

ضحك بخفوت.

– "ليست سيئة، لكنها تفتقر للدعم القانوني نوعًا ما. لا أعتقد أنكِ تستطيعين المجادلة بذلك أمام «العشرة»."

– "هل هذا ما سنفعله؟"

— "فقط إذا دفعتِني لذلك الحد يا آنسة وينترز، وفقط إذا كان ضروريًا للغاية. تعرفين كيف تسير هذه الأمور. وشاية مجهولة. فَضحُك علنًا. اعتقالك. استجوابك..."

لم يعطِ الكلمة نفس النبرة التي كان سيلفر سيعطيها، ليصنع منها شيئًا غير صحي وشهوانيًا. تركها تتدحرج ببساطة، ثقيلة بوزن الظلام والأقبية واليأس.

— "بحلول الوقت الذي تقفين فيه أمام «العشرة»، أعدك بأنكِ ستكونين قد اعترفتِ بكل شيء بالفعل."

قالت بعفوية قدر استطاعتها:

— "أنا متفاجئة أنك لم تسلمني بالفعل."

كانت واعية بأنها تمشي على حد سيف، تحاول معرفة ما يريده دون دفعه بعيدًا جدًا.

كانت الأضواء في القاعة تخفت مرة أخرى، وانخفض ضجيج الجمهور إلى همس مع إعادة فتح الستائر.

انتظر اللورد جوانتيس حتى بدأ العمل مرة أخرى قبل المتابعة.

— "بالطبع، هناك خيارات أخرى."

قالت إيرين، محاولة كبح اللهفة في صوتها:

— "نعم؟"

— "لكن خياراتكِ الآن محدودة جدًا يا آنسة وينترز. محدودة بمن أقرر أنه سيكون سيدكِ أو سيدتك الجديد، لأنكِ سجينتي الآن."

توقف ليسمح لها بالموافقة على ذلك، لكنها لم تقل شيئًا. تابع بغض النظر.

– "«العشرة» سيسعدون بامتلاكك، أنا متأكد. يمكن مقايضتكِ بميزة لاحقة. ليس لديهم رغبة في بدء عداء نشط مع منظمتك، لذا سيكون الأمر على الأرجح مسألة اعتصاركِ للحصول على المعلومات، ثم إبقاؤك سجينة حتى يكون لهم استخدام لكِ."

مما يخبرني المزيد عن رؤيتك للأمور أكثر من رؤيتهم. قدمت إيرين إيماءة متصلبة برأسها، منتظرة منه المتابعة.

– "من ناحية أخرى، قد أكسب ميزة بتقديمكِ لأحد حلفائي، أو لتأمين حليف محتمل."

توقفه هناك ربما صمم لتدرك تعقيدات السياسة العليا، كما يُعبر عنها بتجارة الأرواح.

– "بعض الأقوياء من نوعي سيسرهم امتلاكك كعدو شخصي في قصتهم، أو كطالبة."

قالت إيرين متفاجئة:

– "طالبة؟"

– "في النهاية. بعد تدريب كافٍ. أو... دمية."

نقلت نبرته الحزن للحاجة لذكر مثل هذه البشاعة فعليًا، لكنها أوحت بأنه يمكنه بسهولة فهرسة كل إهانة محتملة، أو تعذيب، أو ما هو أسوأ – أو حتى تنفيذها، إذا دعت الضرورة.

ابتلعت إيرين ريقها. كان فمها جافًا. من وجهة نظر سريرية، علمت أنه كان فقط – فقط؟ – يحاول إخافتها. لكن التجربة الفعلية كانت مخيفة حقًا، حيث شعرت بالدافع لطاعته، وكان عليها القتال بكل ما تملك كي لا تخضع لتلك القوة.

هل كان اللورد جوانتيس يسيطر عليها بالفعل؟ هل لهذا كانت تجلس بسلبية هكذا، مقنعة نفسها أنها تفعل ذلك لاكتشاف أسراره؟ استعرضت

ذهنيًا بضع خطط. إسقاط المقصورة بأكملها. إطلاق النار عليه. تهديده بالمسدس. تحطيم كرسيه وإشعال النار في البراندي الخاص به. القفز فوق الحافة إلى الجمهور. اعتقدت أنها تستطيع فعل أي منها... إذا قررت ذلك. إذا اختارت بذل الجهد.

— "أو يمكنني عرضك على ألبريتش."

امتدت يد اللورد جوانتيس لتطبق على معصمها، مثبتة إياه بمسند ذراع الكرسي.

انتفضت إيرين ضد قبضته، لكن يده ضغطت لأسفل، بقوة كافية للتسبب بالألم، والتفت في كرسيه لمراقبتها. كانت هناك متعة في عينيه، في الطريقة التي نظر بها إليها، لكنها لم تكن تسلية سادية بألمها. كانت ببساطة استمتاعًا بسلطته عليها. كم يشبه سيلفر جدًا. يجب أن أخبره بذلك، إذا أردت إهانته حقًا يومًا ما.

— "آه لا، يا آنسة وينترز. هذا ليس خيارًا. لن تغادري هذه المقصورة حتى نقرر مصيرك، بطريقة أو بأخرى. أخبريني، هل أنتِ خائفة منه جدًا؟"

— "من؟ ألبريتش؟" لوّن عدم التصديق الخالص صوتها. "ولماذا لا أكون خائفة؟"

— "بحق السماء."

كان يتلاعب بها. كانت الأصوات على المسرح كلها ذكورية، تتشابك في تهديد وتحدٍ، واعدة بالسجن والموت.

— "ما الذي فعله لتكرهيه كثيرًا؟"

انفعلت إيرين:

— "أنا متأكدة أنك تعرف نوع الأشياء التي يفعلها."

— "أود سماعها من فمكِ أنتِ."

أمسكت عيناه بعينيها، وهذه المرة لم تستطع النظر بعيدًا، حتى لو أرادت. أجبرتها. كانت إرادته ضد إرادتها، وحتى وشم «المكتبة» لم يكن كافيًا لإنقاذها الآن.

بالكاد ميزت صوتها وهي تبدأ الكلام:

– "إنه يسلخ الناس——"

كسر صوتها لحظة السيطرة تلك، وجذبت نفسها للخلف ضد الكرسي، وجسدها يرتجف. آلمها ظهرها وكأنها ضُربت. كان هذا أسوأ بكثير من محاولة سيلفر التسلل تحت دفاعاتها. اللورد جوانتيس فعلها.

فقدت الوقت في مكان ما. كانت «توسكا» على المسرح وتغني الآن، صوتها يتقوس عبر دار الأوبرا في دفقات سلسة وسهلة من الصوت، مثل بندول فضي يعد الثواني.

قال اللورد جوانتيس ببطء:

– "هذا ساحر. ساحر تمامًا."

بقيت يده على معصمها، وقفازه أملس وغير مجعد، وكأنه لا يطبق أي ضغط على الإطلاق.

– "بدأت أرى لماذا يحبكِ اللورد سيلفر كثيرًا. أنتِ حقًا محفزة للغاية يا آنسة وينترز. أنتِ بالضبط ما أريده."

همست إيرين:

– "لكن ماذا تريد؟"

ارتجف صوتها، تمامًا كما ينبغي إذا كان قد نجح في ترويعها. حاول أناس كسر إرادتها من قبل، لكن لم ينجح أحد فعليًا، ولم ترد التفكير في العواقب.

– "أريدك أنتِ كخادمتي، علنًا، في هذه الليلة بالذات."

كانت ابتسامته جوهر الغطرسة.

— "سنكون قد أثبتنا بالفعل قدرتنا على الضرب ضد التنانين. امتلاك أمينة مكتبة في خدمتي أيضًا سيثبت أنهم لن يكونوا تهديدًا كبيرًا في هذا الصراع. ألا توافقين؟"

هبط قلب إيرين. كان محقًا. استعراضها كغنيمة قد يدفع بعض أصوات «الـفاي» المترددة نحو الحرب. وكل ذلك خطؤها للمجيء هنا ووضع رأسها في المشنقة...

لا، هذا ما أرادها أن تفكر فيه. فكرت في القلادة حول عنقها. لقد فعلت الشيء الصحيح — الشيء الوحيد الذي كان يمكنها فعله — بالمجيء إلى هنا.

حان الوقت للقيام بحركتها.

— **"أيهـــــا البرانـــدي، اغـــــلِ!"**

تحطم كأس البراندي والزجاجة كلاهما في دفق من البخار. البراندي سائل متطاير، وانفجرت الزجاجة في عرض درامي مُرضٍ. أخذ عنف الأمر اللورد جوانتيس على حين غرة، وتحول انتباهه عن إيرين بينما ومضت عيناه نحو الزجاج المحطم.

سحبت إيرين المسدس من تنورتها بيدها الحرة، رافعة إياه لتصوبه نحوه.

— "دورك،" قالت.

تأرجح انتباهه إليها مرة أخرى، وهذه المرة لم يكن هناك كبح. كانت عيناه كألف طن من الوزن يضغط عليها، باردة وثقيلة كالرصاص، وبدا الجليد يغلق حول أطرافها وقلبها. غاصت يده في معصمها، وشهقت ألمًا. حرقة وشم «المكتبة» على ظهرها ووزن القلادة حول عنقها كانا مرة أخرى أشياء بعيدة، نائية عن القمع الحالي لنظرته.

جاريه؛ تظاهري أنه فاز، اقترح جزء من عقلها. فقط ضعي المسدس...

فكرت في تلك العبارة. الجزء الأهم بدا ضعي المسدس، وذلك كان آخر شيء ستفعله. لا يمكنها التوقف عن القتال الآن. إذا فعلت، ستخسر. لكن الأمر كان يتطلب كل قوتها، وفي اللحظة التي تفقد فيها تركيزها، ستنكسر إرادتها.

استطاعت الشعور بنفسها تخسر، بوصة تلو الأخرى. كان المسدس باردًا وبعيدًا في يدها، وبالكاد استطاعت الشعور بقبضتها عليه.

افعلي شيئًا.

لم تستطع.

قال:

— "أجيبيني."

صارعت مع «اللغة» من أجل «**اكسر، تحطم، اسقط**»، لكنها استطاعت الشعور بفمها يبدأ في التحرك بـ «نعم».

قال فيل من الظلام خلفها:

— "أعتقد أن السيدة ترفض دعوتك."

الفصل العشرون

التفت اللورد جوانتيس لينظر إلى فيل، قاطعاً اتصاله بـ إيرين.

شهقت إيرين، تسحب الهواء في أنفاس عميقة ومتقطعة أشبه بالنحيب. لم يكن هناك سوى مساحة ضئيلة في رأسها للتفكير، وكانت الأفكار تقول: أبقي ذلك المسدس مصوباً نحوه.

قال اللورد جوانتيس:

– "بيريغرين فيل، على ما أعتقد. هذه المقصورة مقفلة. كيف تمكنت من...؟"

قاطعه فيل:

– "لم أفعل. وصلت قبل العرض وانتظرت ببساطة خلف تلك الستائر. ووجدت محادثتكم مثيرة جداً للاهتمام."

– "أفهم."

كانت نبرة اللورد جوانتيس لا تزال متماسكة، لكن إيرين استشعرت غضباً يغلي وارتباكاً. بدا غير متأكد أياً منهما يجب أن يستهدف، من حيث توجيه إرادته وبالتالي قواه. تساءلت فجأة عما إذا كان عاجزاً عن السيطرة على كليهما في آن واحد.

طالب اللورد جوانتيس:

– "وكيف وصلت إلى البندقية؟ هل يجب أن أُقاطَع باستمرار وأنا مشغول؟"

قال فيل:

– "إنه نتاج جانبي مؤسف لطبيعة عملك. وينترز، هل نذهب؟"

قال اللورد جوانتيس وهو يشد قبضته على معصمها بقوة أكبر:

– "لا أعتقد ذلك. السيدة ستبقى هنا."

قالت إيرين، وقد استعادت تحكمها بنفسها الآن:

– "يؤسفني أن أخيب أملك. لكن إذا أمكنك إخبارنا أين نجد الكارشيري، سنكون ممتنين."

نخر اللورد جوانتيس ساخراً:

– "أتظنين حقاً أنني سأخبرك بذلك؟"

قال فيل بصوت بارد قاتل:

– "يجب أن أصر على أن تجيب سؤالها."

هز اللورد جوانتيس كتفيه وقال:

– "وإلا؟"

– "وإلا سأفجر دماغك. أعلم أن نوعك يمتلك قدرات غير عادية يا سيدي، لكنني لا أعتقد أنك تستطيع سحر كلانا، وإلا لفعلت ذلك بالفعل. وأعتقد أن رصاصة في الرأس من مسافة عشرة أقدام ستسبب لك إزعاجاً خطيراً."

توقف اللورد جوانتيس، وتخلل تردده قرع طبول من الأوركسترا، تردد صداه في أنحاء دار الأوبرا.

– "على الأقل أخبرني كيف وصلت إلى هذا المكان. إذا كنت تعمل لصالح سيلفر، ربما يمكننا التوصل إلى اتفاق ما."

لم يعد يركز على إيرين، بل على التهديد الأكثر إلحاحاً المتمثل في فيل. وهل بدأ فيل يعبس بشرود، الآن وقد توجب عليه القتال ضد إرادة اللورد جوانتيس؟

جوانتيس يحاول كسب الوقت. ووقت كاي كان ينفد.

تمتمت إيرين:

– "**يا ذراعـــي الكرسييـــــن، انكســـــرا**."

تهشمت أذرع كلا الكرسيين، مدمرة ما كان على الأرجح زوجاً قيماً من التحف. سقط اللورد جوانتيس للأمام بينما تأرجح معصم إيرين حراً، وسحبته من قبضته. تراجعت نحو فيل، مبقية مسدسها مصوباً نحو اللورد جوانتيس طوال الوقت.

اتسعت عيناه، وتردد للحظة. ثم نهض من كرسيه وتراجع نحو حافة المقصورة، رافعاً كلتا يديه وكأنه يستسلم.

اختلست إيرين نظرة، ورأت أن فيل كان يقف بالقرب من الباب. أخفى أحد الأقنعة السوداء الشائعة النصفية جزءاً من وجهه، وكان يرتدي سترة داكنة وسروالاً بسيطاً. لم تكن لتتعرف عليه، أو لتنظر إليه مرتين، في أي ظروف أخرى. لم يحول انتباهه عن اللورد جوانتيس.

قال بلا مبالاة كعادته:

– "تولي أمر الباب يا وينترز."

أجابت إيرين:

– "إنه مفتوح."

مدت يدها لتجربة المقبض، فتحرك في قبضتها.

– "يجب أن نخرج من هنا."

كانت دار الأوبرا شبه صامتة. كانت توسكا تغني: "عشت للفن، عشت للحب..." ملأ صوتها، والأوركسترا خلفها، الهواء كالضوء عبر الزجاج المعشق.

قال اللورد جوانتيس بنعومة:

— "لا يمكنكم الهرب بأي حال."

بدت القوة تتبلور في الهواء حوله، صلبة ومادية تقريباً، وهو ينتصب بكامل طوله. لم يكن تهديداً. كان تنبؤاً. لن يهربوا. لقد هلكوا. لقد انتصر بالفعل.

كدت أقول له نعم... احترق الوشم عبر ظهر إيرين بغضبها، وكأنه حُفر بحمض حي. كدت أخون المكتبة.

اشتدت إصبعها على الزناد.

لمح اللورد جوانتيس الحركة وتراجع خطوة أخرى للخلف، وأمسك بحافة المقصورة بيد واحدة، وتأرجح فوقها. سقط خارج خط النار وخارج مجال الرؤية، إلى الجمهور في الأسفل.

حطم تصرفه التعويذة التي ألقتها قوته. كان الأمر وكأن مصدراً ضوئياً باهراً قد انطفأ، تاركاً المراقبين مبهورين في ضوء النهار العادي. نظرت إيرين جانباً إلى فيل ورأت أنه لا يزال يصوب مسدسه نحو المكان الذي كان يقف فيه اللورد جوانتيس، وكانت قبضته مشدودة لدرجة أنها استطاعت رؤية عظام يده بارزة تحت الجلد.

قالت بإلحاح وهي تدس مسدسها في طيات تنورتها:

— "هيا. علينا الخروج من هنا."

انقطع توتر داخلي ما. أومأ فيل، وأعاد سلاحه إلى سترته، وكان يسحبها للخارج وعبر الممر تقريباً قبل أن تتلاشى أصداء كلماتها. لحسن الحظ، اتبعت ستيرينغتون الأوامر بترك اللورد جوانتيس وشأنه، وكان الممر خالياً.

ثرثر عقل إيرين بحمى: كان يجب أن أطلق النار عليه. كان يجب أن أطلق النار عليه...

نهرها فيل وهو يجرها معه:

— "تحركي يا وينترز. أنا مندهش أن أحداً لم يبدِ ردة فعل تجاه رجل يسقط من مقصورة الأوبرا الخاصة به."

جادلت إيرين:

— "حسناً، كان ذلك في منتصف أغنية (عشت للفن). لن يتحرك أحد حتى تنتهي تلك الآريا..."

انفجر صراخ وجلبة من القاعة الرئيسية، متردداً عبر جدران الممر بينما كانا يهرعان نزولاً على الدرج.

أقرت قائلة:

— "بالطبع، قد أكون مخطئة."

لكن سؤالاً أهم طرح نفسه.

— "كيف بحق السماء أنت هنا يا فيل؟ الآن؟"

وجهها عبر باب جانبي إلى ممرات الكواليس وقال:

— "سيسعدني إخبارك عندما يتوفر لدينا الوقت. إذا تمكنا من الخروج من هنا والاندماج في الحشد قبل أن يطوقوا دار الأوبرا، قد نكون في أمان."

قررت إيرين أن هذا أفضل تعريف للأمان قد يحصلان عليه في الوقت الحالي، وأومأت. انتزعت شالاً متروكاً لأحدهم بينما كانا يركضان بجواره، ملقية بشالها الخاص. قد يساعد في تمويهها قليلاً. كان فيل مجهول الهوية بما يكفي بالفعل.

وجهها فيل مبطئاً فجأة إلى مشية متمهلة ومفلتاً ذراعها:

— "تصرفي بشكل طبيعي."

جاء طنين الأصوات من الأمام.

قالت إيرين بسخرية:

– "الشيء المحزن هو أن هذا كله طبيعي جداً بالنسبة لي. قضاء بضعة أشهر هادئة في عالمك كان هو التجربة غير العادية."

اتبعت خطاه، ملسدة تنورتها. ثم انعطفا عند زاوية معاً، ليجدا الممر شبه مسدود بمجموعة من عمال المسرح والجوقة.

سأل أحد أفراد الجوقة فيل:

– "هل تعرف ما الذي يحدث؟"

كان شاباً، جاهزاً بزي الفصل التالي، ومكياجه طازجاً وصارخاً في ضوء الشموع.

– "قال أحدهم إن هناك مبارزة."

تدخل رجل آخر، أحد عمال المسرح، وهو يجفف العرق عن جبهته ورقبته بخرقة قذرة:

– "لا، سمعت أنها جريمة قتل. كما سمعتها، خنقها في مقصورتها الخاصة."

قال فيل:

– "لا هذا ولا ذاك."

كانت إيطاليته مقتضبة، وعامية قليلاً، لكن لغة جسده تغيرت لتكتسب نفس التبختر الشارد كالرجال من حولهم.

– "شخص ما كان على وشك الاعتقال من قبل حرس الدوق. قفز من مقصورته محاولاً الهرب."

صمتت المجموعة. ورسم معظم الرجال علامة الصليب.

سأل أحدهم:

– "الحرس لا يزالون هناك في الخلف؟"

هز فيل كتفيه. وهزت إيرين كتفيها أيضاً، وحاولت ألا تنظر خلفها لترى إذا كان أحد يطاردهما.

سأل عامل مسرح آخر:

— "إذن لماذا تحاولان الخروج من الطريق الخلفي؟ لديكما أسباب لتجنب حرس الدوق، ها؟"

قبل أن يتمكن فيل من الإجابة، شدت إيرين كمه بتوسل:

— "حبيبي، يجب أن نسرع! إذا ضبطنا جورجيو معاً، تعرف ما سيفعله. هؤلاء سادة شرفاء — لن يسلمونا إليه..."

تبادلت الرجال النظرات. قال أحدهم ماداً كفاً فارغة:

— "نحن لم نرَ شيئاً."

قال فيل:

— "صحيح تماماً."

مد يده في جيب داخلي، وأخرج كيساً، وأسقط بضع عملات في اليد الممدودة ذات المغزى.

— "لشرب نخب صحة الدوق."

مع بضع إيماءات أخرى، كانا خارجين عبر باب الكواليس، وبعد دقيقتين كان فيل يساعد إيرين للصعود إلى جندول. لم تطاردهما حشود مسعورة من الحرس، وبدأت إيرين تظن أنهم قد ينجون بفعلتهم حقاً.

أعطى فيل تعليماته، رامياً للمراكبي عملة أخرى:

— "در حول قصر الدوق ثم تجول قليلاً، لنتمكن من الاستمتاع بالمناظر. ولنسمع أغنية."

ساعد إيرين لتجلس في المنطقة الرئيسية من القارب (التي لا تزال تجهل اسمها الصحيح — وهو أمر مهم جداً لأمين مكتبة)، واضعاً وسادة

خلفها قبل أن يطوي جسده الطويل بجوارها. قد تبدو الوضعية عادية بما يكفي – رجل وامرأة معاً في جندول، ذراعه حول كتفيها – لكنها استطاعت الشعور بالتوتر في جسده.

كان على إيرين إجبار نفسها على قول الكلمات:

– "شكراً لك."

لاشمئزازها، كانت ترتجف من آثار مواجهتها لقوة اللورد جوانتيس. مواجهة "فاي" بمستواه تفوق قدراتي بكثير، قالت لنفسها وهي تصر على أسنانها. فيل هنا. وهما في أمان – حالياً. ويجب أن يتحدثا.

رفعت نظرها لتلتقي بعيني فيل للحظة، ثم مدت يدها خلف رأسها لتفك أربطة قناعها. لم يكن أحد ينظر، ونأمل ألا يعرف أحد حتى عما يبحث. دلّكت معصمها المتضرر بينما بدأ فيل بالكلام. التزم بالإنجليزية، وصوته هادئ.

– "أعتذر لمفاجأتك هكذا يا وينترز. عندما رفض اللورد سيلفر السماح لي بركوب (القطار)، رأيت أنه من الأفضل إجراء ترتيباتي الخاصة. أتأسف لأن هذا تضمن خداعك أنت أيضاً وخداعه، لكن لم يكن هناك وقت لمناقشة الأمر. بمغادرتي كما فعلت، تمكنت من التنكر والانضمام لـ (القطار) وسط (الفاي) الصغار."

أومأت برأسها بقوة، متذكرة كلماته الجارحة وهو يقتحم خارجاً من مكتب سيلفر بغضب.

– "أنا قلقة بشأن تلوثك بالفوضى لمجرد وجودك هنا. سيلفر لم يكن يكذب. إنه خطر على البشر الذين يزورون هذه العوالم. لقد عرضت نفسك..."

قال فيل بحيوية:

– "لم أشعر بشيء غريب حتى الآن. ربما أنا محصن نوعاً ما بالفعل؟ لقد قلتِ من قبل أن عالمي أعلى في الفوضى منه في النظام. ولم أجد صعوبة في التعامل مع (الفاي) الآخرين على متن (القطار). كثرة الغرباء جعلت من السهل علي تمرير نفسي كواحد منهم. لكنني أفترض أنك كنت تتابعين تحقيقاتك الخاصة يا وينترز؟ ماذا اكتشفتِ؟"

الليلة الماضية كانت إيرين غاضبة منه تماماً. لكنها قبلت مبرراته على مضض. ربما كان افتراضه اللامبالي بأنه بالكاد فعل شيئاً يستوجب الاعتذار هو ما لا يزال يغيظها. راجعت مع فيل تفاصيل موعد منتصف الليل النهائي، وصفقتها للهروب عبر "القطار"، وموقع كاي داخل الكارشيري – أينما كان ذلك.

قال فيل برضا:

– "آه. هذا يتفق مع بعض تحقيقاتي الخاصة."

قالت إيرين بشيء من الانزعاج:

– "آمل أنني لم أضيع وقتي كثيراً."

استرخى فيل أكثر في الوسائد معها، مخفضاً صوته لما قد يُفهم كهمس عاشق:

– "إطلاقاً يا وينترز. كان الأمر بسيطاً بما يكفي. تُعرف البندقية بأنها مرتع لعصابات الجريمة، والجمعيات السرية، والجواسيس. (الفينيزياني)، (مالا ديل برينتا)، (الندرانغيتا)، (الكاربوناري)..."

قالت إيرين بتدقيق مبالغ فيه:

– "أعتقد أن (الكاربوناري) جاؤوا بعد مئات السنين من هذا الزمن."

بالطبع سيعرف فيل عن الجانب الإجرامي للأمور.

– "لابد أنك لاحظت أن الفترة الزمنية مختلفة عن عالمك."

تنهد فيل.

— "تظل النقطة يا وينترز، أن الناس هنا معتادون على مفهوم أفراد مجهولين مقنعين يطرحون الأسئلة ويتوقعون الحصول على إجابات. بمجرد أن أدركت أن هذا المكان تدار شؤونه من قبل مجموعة غامضة تسمى (العشرة)، كل ما احتجت لفعله هو التنكر كأحد عملائهم. كان من السهل تتبع تحركات اللورد جوانتيس، بمجرد وصوله هنا — ومعه رجل فاقد للوعي، لا بد أنه سترونغروك. لقد قضيت معظم اليوم والليلة الماضية أجوب المدينة طولاً وعرضاً، أستجوب الشهود، و..."

هسهست إيرين بصدمة:

— "كنت تتظاهر بأنك أحد العملاء السريين لـ (العشرة)؟"

قال فيل، وتحت قناعه، تقوس فمه برضا ذاتي نوعاً ما في ضوء القمر:

— "هناك مزايا لمدينة الأقنعة[16]."

كان عليها مقاومة الرغبة في النظر خلف كتفها.

— "أعتقد أنك تقلل من شأن كفاءتهم. كانوا يتبعون آل جوانتيس أيضاً الليلة الماضية، يراقبون أي سلوك مشبوه. وكادوا يعتقلونني."

أومأ فيل، بتقبّل لامبالٍ لحقيقة أنها بالطبع تمكنت من تجنب الاعتقال. كان ذلك، بطريقته، إطراءً.

— "على أية حال، أنا أعرف أين شوهد سترونغروك آخر مرة، قبل أن يختفي مباشرة. لابد أنه مدخل الكارشيري هذا الخاص بكم — أو على الأقل قريب جداً منه بشكل لا يصدق. ما لا أستطيع فعله هو التسلل إلى المكان بسهولة. كنت أخطط لاختطاف جوانتيس أو زوجته واستخدامهما كرهائن، لكن من المحتمل أنني بالغت في تقدير قدراتي هناك."

[16] تُعرف البندقية بلقب مدينة الأقنعة نسبةً إلى مهرجانها السنوي الشهير للأقنعة (*Carnival of Venice*) الذي يرمز إلى الغموض والفخامة والفن الباروكي.

اقترحت إيرين:

– "لكن، معاً، ربما نتمكن من تدبير شيء ما..."

كان الأمر كأرجحة بندول، من فشل شبه مؤكد إلى احتمالية نجاح فعلية. لا تزال هناك بضع ساعات حتى منتصف الليل. قد لا يزال هناك وقت لإنقاذ كاي.

غيّر فيل وضعية جلوسه، ناظراً بتأمل إلى القناة أمامهما، إلى الفوانيس والنوافذ المتوهجة التي تصطف على الممر المائي المظلم.

– "إذا لم نكن نعرف إلى أين نذهب، فإن اتباع اللورد جوانتيس سيكون خطوة تالية منطقية."

توقف المراكبي عن أدائه الصوتي (المعادل لـ "قمر، سهر، إلخ"، بتينور لطيف وإن لم يكن بمستوى الأوبرا) ليلقي تحية على جندول عابر. راقبت إيرين القارب بتوتر، لكنه لم يحمل سوى زوجين آخرين مستلقيين، مثلها ومثل فيل تماماً. لا جنود. لا محققين. لا لورد جوانتيس.

حاولت التفكير في تصريح فيل، بدلاً من رفضه رفضاً قاطعاً. كان جوانتيس على قائمة قصيرة جداً من الأشخاص الذين لا ترغب في رؤيتهم مرة أخرى أبداً.

– "تظن أن اللورد جوانتيس سيتفقد كاي، ليتأكد من أنه آمن، الآن وقد هربنا منه؟"

– "هذا مرجح جداً يا وينترز. ومن المرجح أيضاً أن ينصب فخاً. وهدفنا سيكون واضحاً جداً، للأسف – العثور على سترونغروك في أقرب وقت ممكن."

عبست إيرين.

– "لكن ألن يتوقع اللورد جوانتيس أن نتبعه، باعتباره الطريق الوحيد لـ كاي؟ وسيكون مستعداً لنا؟"

بدا فيل مفكراً.

– "إذا كان نصب الفخاخ هو لعبته، فسيحتاج وقتاً لفعل ذلك ووقتاً ليعود ويظهر نفسه بوضوح، ليغرينا باتباعه. كل هذا يقودنا إلى ما كنا نحاول فعله على أي حال – الوصول إلى هذا الكارشيري أولاً، والأمل بأن نكون في الوقت المناسب للعثور عليه، قبل أن يؤخذ سترونغروك للمزاد."

كانت إيرين قد بدأت تومئ بالموافقة عندما انتبهت إلى أن أصوات القناة كانت تتغير. ساد هدوء محيط، صمت كأنه شيء مادي ينجرف نحو جندولهما ويبتلع الضوضاء الأقل في أثره. اعتدلت في جلستها، ساحبة نفسها من ذراع فيل الحامية، لترى نصف دزينة من الجندولات الظليلة تتحرك نحو جندولهما. كان المراكبية المقتربون متدثرين بعباءات سوداء ويتحركون بسلاسة غير بشرية، ومجاديفهم بالكاد تحرك السطح.

الفصل الحادي والعشرون

قال فيل لقائد الجندول:

– "استدر وعُد. ستحصل على مكافأة بالطبع..."

قاطعه قائد الجندول وصوته يرتجف، ملوحًا بالمجداف نحوهما بتهديد:

– "لا توجد مكافأة كبيرة بما يكفي لتستحق تحدي (مجلس العشرة). ابقيا مكانكما تمامًا."

ادعاء البراءة لن يجدي نفعًا. والسؤال الآن: ما حجم الفوضى التي كانت إيرين مستعدة لإحداثها من أجل الهروب بسلام؟

كثيرًا جدًا، قررت.

نهضت بصعوبة وأخذت نفسًا عميقًا، ثم صاحت بأعلى صوتها مستخدمة "اللغة":

– "**يا مـــاء القنـــاة، تجمـــد بعمـــق وسُمـــك!**"

علقت كلماتها في الصمت للحظة. ثم توقف الجندول فجأة، ملقيًا بـ إيرين على ركبتيها. أمسكها فيل وسحبها لتقف مجددًا، مثبتًا إياها. تلاشى الصمت؛ وامتلأ الهواء الآن بصرير القوارب الخشبية المحاصرة، وتصاعدت برودة قارسة من سطح القناة الذي تصلب فجأة. كانت قوارب الجندول المقتربة من بين القوارب العالقة، وبدا الرجال فيها أيضًا متجمدين للحظة من الصدمة.

سأل فيل، وهو يدخل في صلب الموضوع:

– "هل سيحملنا الجليد؟"

أجابت إيرين وهي تقفز فوق جانب القارب:

– "من الأفضل له أن يفعل."

أنّ الجليد تحت وزنها لكنه لم ينكسر. بدأت تهرول بسرعة نحو ضفة القناة—تجمد سطح الماء في قمم وتموجات، مما منح قدميها بعض الثبات. إلى جانب تجارب الغرق الوشيك، تضمنت تجارب مدرستها الداخلية مغامرات خطرة على بحيرات شبه متجمدة، لذا لم تكن هذه المرة الأولى التي تفعل فيها شيئًا كهذا.

سندت فيل عندما كاد ينزلق. أشارت أصوات التحطم من قوارب الجندول البعيدة إلى أن مطارديهم يواجهون صعوبة أكبر.

في الظروف العادية، كانت حشود من المارة الفضوليين لتتجمهر على الضفة، لكن وجود الشرطة السرية التابعة لـ (العشرة) أدى لإخلاء المنطقة بفعالية تامة. تسلق إيرين وفيل خارجين من الجليد دون أن يعترض طريقهما أحد. ربما كسبا دقيقة، لكن ليس أكثر. وكان المقنعون المتشحون بالسواد يهرولون عبر الجليد نحوهما بثقة أكبر الآن.

حان الوقت لإبطائهم أكثر قليلًا.

– "**يـــا جليـــد، تكسّـــر!**"

بشكل مثير للاهتمام، لم ينكسر الجليد كله بالطريقة نفسها. تفتت بعضه إلى شظايا دقيقة، غارقة في الماء كالغبار، بينما بقيت قطع أخرى ككتل كبيرة، جبال جليدية مصغرة تنجرف مع التيار في القناة. سقط الرجال الذين كانوا على الجليد في الماء المتجمد في صمت مخيف، لكنهم ظلوا يصارعون للوصول نحو إيرين وفيل.

أمسك فيل ذراع إيرين وسحبها إلى أقرب زقاق، قاطعًا جسرًا ضيقًا ليصلوا إلي صف من المنازل القديمة.

– "علينا تضليلهم."

تساءلت عما إذا كان اللجوء للبديهيات عادة لديه.

سألته إيرين:

– "إذن أين شوهد كاي آخر مرة؟"

أجاب فيل، وهو يساعدها على تسلق جدار حجري بين منزلين إلى حديقة خاصة، ثم قفز هو الآخر برشاقة:

– "ساحة سان ماركو. برج الجرس (الكامبانيل[17])."

تمتمت إيرين:

– "من الواضح أن (العشرة) يؤمنون بمبدأ الاختباء في العلن."

ركلت دجاجة طليقة من طريقها وسط رفرفة وصياح.

– "المعذرة." – أضافت لصاحب المنزل الغاضب الذي فتح بابه الخلفي ليشتكي.

تشتيت، تشتيت—نحتاج لتشتيت انتباههم.

– "فيل، لو كنا جواسيس أجانب، وهدفنا التخريب، ماذا كنا سنستهدف؟"

اقترح فيل:

– "(العشرة) أنفسهم، أو ربما كنا سنرغب في اغتيال الدوق، أو تفجير (الترسانة). لكن (الترسانة) ستكون الأسهل، حيث تقع هي و(الكامبانيل) شمال شرق هذا المكان. لذا هل يمكنكِ جعل مطاردينا يظنون أن هذا هو هدفنا؟"

– "يمكنني المحاولة."

---

[17] الكامبانيل: برج الأجراس الشهير في البندقية بساحة سان ماركو، رمزٌ معماريٌّ بارز للمدينة وعلَمٌ من معالمها التاريخية.

ولكن كيف؟ تذكرت "ترسانة البندقية" الآن، مجمع من أحواض بناء السفن ومخازن الأسلحة، ضخم وصناعي لدرجة أنه ألهم صورًا لجحيم "دانتي". وكان لديها فهم كافٍ لجغرافيا المدينة لتعلم أنها تقع مباشرة على الماء، مطلة عبر الجزر المتناثرة على البحر المفتوح.

تردد صدى وقع أقدام راكضة في البعيد خلفهما. وحتى لو امتلك فيل قدرة شبه خارقة على شق طريقه عبر الأزقة الخلفية للمدينة بمعرفة يوم واحد فقط، فإن خدام (العشرة) كانوا لا يزالون قريبين ويقتربون أكثر.

تحتاج لصنع أثر واضح تمامًا إذا أرادت لهذه المناورة أن تنجح.

قالت باقتضاب:

— "علينا الوصول إلى شاطئ الماء. سأحتاج لقارب، وسنحتاج لشيء نضعه فيه."

أمال فيل رأسه، ثم أومأ. غير اتجاهه، وقادها عبر شارع إلى اليمين، باتجاه ضوضاء الواجهة البحرية الأعلى صوتًا.

اندفع الاثنان خارجين إلى رصيف صغير، بين صفين من النزل والمتاجر، مع ستة قوارب تجديف مربوطة في الطرف البعيد. مثالي. رغم أنه كان أيضًا طريقًا مسدودًا، ولا مفر سوى الماء. لذا من الأفضل لهذه الفكرة أن تنجح.

— "فك وثاق ذلك القارب." — وجهت إيرين فيل، مشيرة لأقرب قارب. سحبت غطاءً من القماش المشمع من القارب المجاور وحشرته في القارب الأول، وألقت شالها فوقه لزيادة التأكيد.

من مكان وقوفهما، استطاعت رؤية الانحناء العظيم لبحيرة البندقية والبحر المفتوح خلفها. على هذه المسافة، كان "القطار" رابضًا عبر الماء على منصته البارزة كسلسلة، لكن خلفه، استطاعت رؤية المباني على الجانب الآخر من المنحنى، على بعد نصف ميل أو أكثر إلى شرقهما. الآن

وقد عرفت أين تنظر، كانت (الترسانة) واضحة. حتى في هذا الوقت من الليل، كانت تتوهج بنيران الأفران، وظلها غير المنتظم يتخلله مداخن مشتعلة، وجدران عالية، وصواري سفن، ودخان يتصاعد منها إلى ليل خالٍ من الغيوم.

تراجع فيل للخلف بنخير جهد بينما تحرر الحبل.

— "هل يمكنكِ التحكم في القارب عن بعد إذا كنتِ توجهينه لتلك المسافة؟"

قالت إيرين، فارضة الثقة في نبرتها:

— "يمكنني جعله ينطلق وتركهم يطاردونه."

تجميد القناة ثم تحطيمها تركها مع صداع مزعج وشعور بالضعف. تمنت لو سنحت لها الفرصة لتناول العشاء. أو حتى الغداء. أو ربما الإفطار. وضعت يدها على عارضة القارب وهو يتمايل في الماء.

— "**حسنًا، تراجع للخلف... أيها القارب الذي ألمسه، تحرك نحو البحر بسرعة، دُر حول قطار (الفاي)، واتجه نحو حوض السفن العظيم في الشرق، ولا تتوقف حتى تصله.**"

تدفقت الطاقة منها كالدم. لكن فيل أمسكها قبل أن تترنح وتسقط في الماء، بينما اندفع القارب للأمام، شاقًا طريقه عبر الأمواج نحو البحر. وذراعه حول خصرها، سحبها نحو زقاق جانبي بين متجرين لبيع السمك، جارًا إياها إلى الظلال.

وصلوا قبل لحظات من وصول مطارديهم.

ضغطت إيرين جسدها ضد الجدار، ممتنة للظلال غير المنتظمة للمبنى المتهالك. راقبت هي وفيل الرجال المقنعين (معظمهم يقطرون ماءً

من غطستهم في القناة) وهم يشيرون للقارب البعيد الآن، ويقدرون مساره، ويصلون للاستنتاج الواضح بينما ينعطف نحو (الترسانة).

كان انتظارًا موترًا للأعصاب، بمجرد ذهاب خدام (العشرة).
احتاجت للتأكد من أنهم لا ينتظرون فقط حول الزاوية لخروجها وفيل من مخبئهما. تخيلت إيرين ساعتين: واحدة تعد الثواني تنازليًا حتى تتأكد من أمان الخروج، والأخرى أكبر تعد الدقائق المتبقية حتى مزاد كاي. لم تكن صورة مريحة.

بمجرد تحركهما مرة أخرى، كان الوقت باكرًا في المساء والشوارع لا تزال مزدحمة، لكن لم ينظر إليهما أحد مرتين. بدون تربص خدام (العشرة)، كان هناك ما يكفي من الضجيج لطمأنة إيرين بأن لا أحد آخر يتنصت على محادثتهما. والجميع مقنعون الآن. حول ضوء الفوانيس محاجر العيون إلى تجاويف مظلمة وحول الأقنعة غير المزخرفة إلى جماجم. انجرف صوت آلات نفخ من نافذة الطابق العلوي لأحد المنازل، مضفيًا طابعًا شريرًا نوعًا ما على الليل المقترب. اشترى فيل قطعتي معجنات من بائع وأعطى واحدة لـ إيرين وهما يتمشيان.

توقفا عند حافة الساحة، ونظرت إيرين عبرها إلى هدفهما. برج (الكامبانيل) يقف وحيدًا في زاوية الساحة، بارتفاع يناهز ثلاثمئة قدم. استطاعت تمييز حجرة الأجراس الرخامية الشاحبة، والقمة الهرمية في الأعلى، ودوارة الرياح تلمع في ضوء النجوم. صف من النوافذ الرفيعة ذات الإطارات الرخامية يصعد على أحد جوانب الطوب لبرج الجرس كخط منقط. كان بعيدًا بما يكفي عن أي من المباني المحيطة بحيث لا يمكنها وفيل الوصول إليه عبر الأسطح. والأهم من ذلك، وقفت فرقة من ثمانية حراس عند البوابة الوحيدة في الأسفل.

استنتجت:

– "لنأمل ألا يكون لديهم سياسة إطلاق النار بمجرد الرؤية."

تساءل فيل:

– "إذا اقتربنا بما يكفي، هل يمكنكِ استخدام تلك الحيلة الخاصة بكِ؟ تلك التي تقنعينهم فيها بأنهم يرون شيئًا آخر؟ إذا لم يكن كذلك، سنضطر للتظاهر بحمل رسالة."

ثمانية أشخاص عدد أكبر مما حاولت العمل عليه سابقًا، لكن لم يكن لديهم خيار كبير في الأمر.

– "سيتعين عليك إسنادي عندما أفعل ذلك." – أنهت المعجنات ونفضت الفتات عن يديها. – "سيستنزفني الأمر، على الأقل لبضع دقائق. لكنك محق، إنه الخيار الأفضل. أتمنى لو استطعنا رؤية ما بداخل."

قال فيل:

– "استطعت رؤية سلالم فقط عندما نظرت سابقًا. متنكرًا كشحاذ، بالطبع. سمح لي ذلك بالاقتراب بما يكفي للنظر عبر تلك القنطرة. أي عوائق من المرجح أن تكون في الأعلى."

ومن المرجح أن تكون شيئًا سأضطر للتعامل معه. أومأت إيرين، مستجمعة قواها.

– "من الأفضل أن نبدأ بالأمر إذن، قبل أن يلحق بنا اللورد جوانتيس."

خطت بجرأة للخارج، وذراع فيل لا تزال حول خصرها بتودد زائف، وحاولت ألا تنظر خلف كتفها أو تتصنت بحثًا عن مطاردة.

عندما وصلا للحراس، تقدم اثنان منهم، متقاطعين برماحهما أمام فيل وإيرين.

قال أحدهما:

— "ليس الليلة يا صديقي. إذا كنت غريبًا عن المدينة، عد غدًا ويمكنك أن تكون في الساحة لتسمع الجرس يقرع."

نظر فيل لـ إيرين، وعرفت أنه دورها. أخذت نفسًا عميقًا وتقدمت للأمام.

— "**أنتم تدركون أنني والرجل بجانبي أشخاص لديهم الحق في التواجد هنا ودخول (الكامبانيل).**" — قالت ذلك موجهة صوتها ليصل لجميع الحراس.

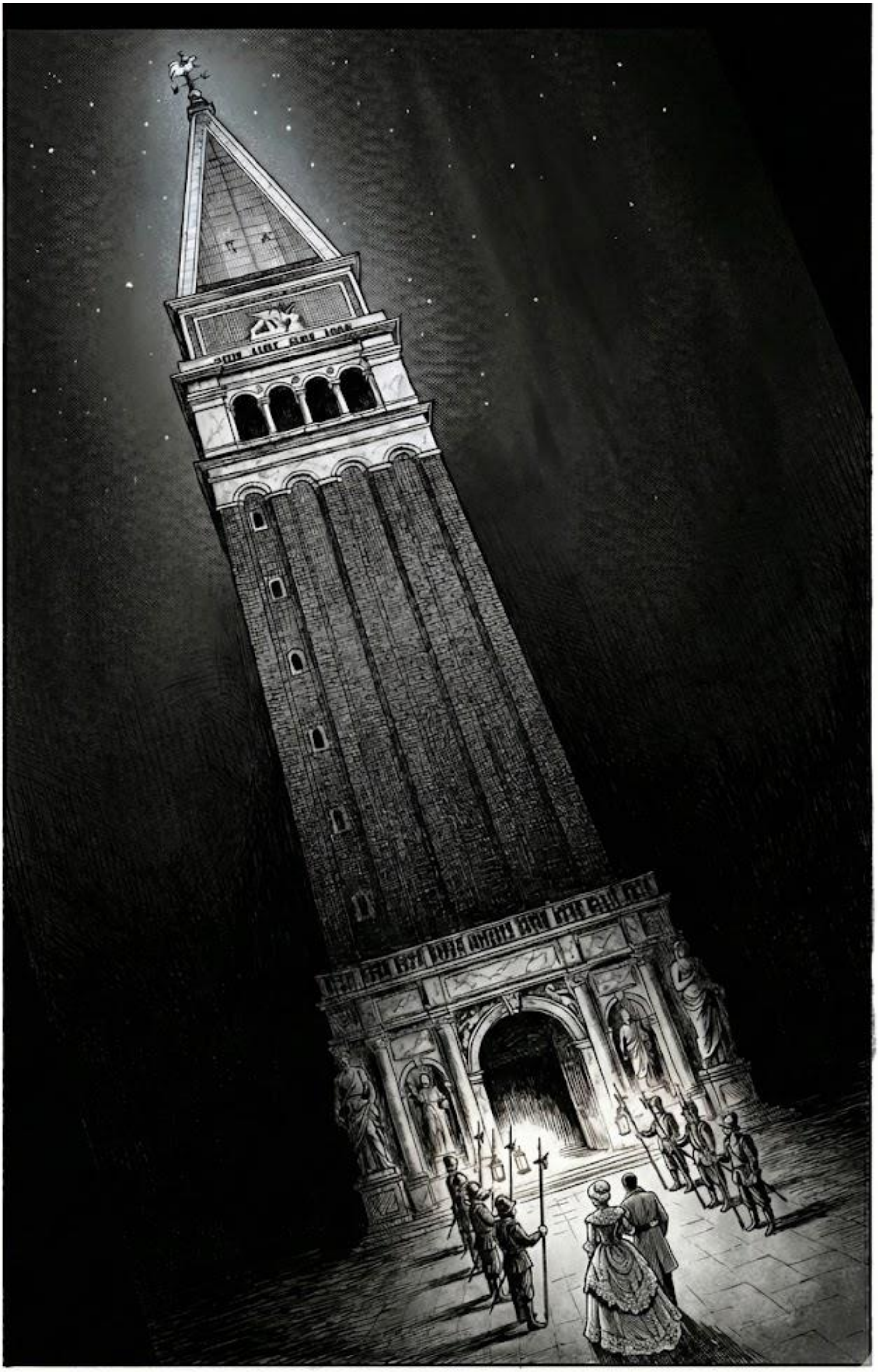
شعرت بالأمر ينفذ، يشد مثل خيط صيد علق في الواقع، وترنحت بينما صدمها التأثير. كان أنفها ينزف مجددًا، الدم يسيل على وجهها تحت قناعها، وللحظة كان رأسها يقرع بصوت عالٍ لدرجة أنها بالكاد استطاعت سماع صوت فيل وهو يأمر الحراس بفتح الباب. يبدو أن الأمر أسوأ حقًا عندما تحاول التأثير على عدة أشخاص في الوقت نفسه. جيد أن أعرف ذلك. رغم أنني آمل ألا أكررها أبدًا. لكن بالطريقة التي تسير بها الأمور، ربما يحدث ذلك صباح الغد، وبدون فائدة القهوة.

أدى الحراس التحية وتراجعوا للخلف، منزلين رماحهم.

قال الحارس الأول، وتعبيره تحول فجأة لكل معاني الإجلال:

— "بالتأكيد يا سيدي. نحن في خدمتكم."

أعطى فيل إيماءة مقتضبة للرجال، وشدت ذراعه حول خصر إيرين، مقومًا إياها بينما تمايلت. ثم قادها للأمام وإلى داخل المدخل الرخامي المقوس. كانت هناك آلهة منحوتة في الحجر، ولعب ضوء الفوانيس حيلًا بعينيها إذ بدت الأشكال تحدق فيهما باتهام. فتح زوج آخر من الحراس البوابات البرونزية الدقيقة، سامحين لهما بدخول المبنى الفعلي.



تساءلت إيرين، عبر الألم الذي يسبح في رأسها، عمن يظن الحراس أنهما هما. آل جوانتيس؟ مجلس العشرة؟ مفتشو (الكامبانيل) العاديون جاءوا للتحقق من وجود خفافيش في برج الجرس؟

كان الظلام حالكًا داخل (الكامبانيل). سمحت النوافذ الضيقة بدخول ما تيسر من ضوء القمر إلى الهيكل المجوف. لكن ضوءه المائل سقط فقط حتى الجدران، تاركًا الدرج الحديدي المركزي في ظلام نسبي وهو يلتف لولبيًا صاعدًا في مركز البرج الفارغ. لم يكن هناك حراس في الداخل.

سأل فيل وهو يتركها:

— "هل تستطيعين الوقوف؟"

ترنحت إيرين لكنها بقيت واقفة.

— "أعتقد ذلك."

سحبت قناعها بعيدًا عن وجهها بما يكفي لمسح الدم السائل من أنفها بكساء كمها. لقد توقف تقريبًا، لكن الصداع بقي.

— "إذن من الأفضل أن نسرع. كان ذلك سهلاً بشكل غير مريح."

لست أنت من اضطر لفعل ذلك، فكرت إيرين، لكن كان عليها الموافقة. لقد كانا محظوظين بشكل لا يصدق للهروب من اللورد جوانتيس والوصول هنا أولًا. هذا النوع من الحظ لا يدوم. اقترح جنون الارتياب فورًا أنه فخ؛ لكنها وفيل توجها صعودًا عبر الدرج المصنوع من الحديد المطاوع، وفيل يتقدم.

صرت كل درجة ورنت تحت أقدامهما، بصوت عالٍ بشكل غير مريح في حيز برج الجرس الضيق. كان الدرج محميًا من الجانب الخارجي بألواح منحنية من الحديد المشغول الرقيق، لكن الدرجات نفسها كانت صلبة بشكل مطمئن تحت قدميها.

على ارتفاع حوالي مائة وخمسين قدمًا عن الأرض، توقف فيل. التقط كلاهما أنفاسه للحظة بينما أشار للأعلى. كان هناك سقف فوقهما مباشرة، والدرج اللولبي يصعد مخترقًا إياه.

أنصتت إيرين، لكن لم يكن هناك صوت من الأعلى، وكان للهواء ذلك السكون الخاص بالمكان الفارغ. بينما كان كلاهما في حالة تأهب وهما يتجهان للأعلى، لم يكن هناك أحد في حجرة الأجراس. لكن الدرج استمر في الصعود لأعلى فوقهما، ملتفًا عبر السقف. هناك، كانت الأجراس تتدلى فوقهما من العوارض الخشبية ككتل معدنية ضخمة ومرعبة. سقط ضوء القمر عبر الأقواس الأربعة العميقة في كل جدار، مبرزًا تفاصيل بلاط أرضية حجرة الأجراس، لذا على الأقل كانا يستطيعان الرؤية بشكل أفضل الآن.

نظر فيل حوله، مقطبًا جبينه.

— "والآن، هل هو هنا في مكان ما، أم في الأعلى؟ وينترز، هل تدركين أي شيء ذي قيمة؟"

— "أنا..." — بحثت إيرين عن كلمات لوصف ما شعرت به. — "هذا المكان كله يبدو وكأنه نقطة التقاء من نوع ما. أستطيع تمييز هذا القدر، لكن ليس أكثر. هل تستشعر أي شيء؟"

قال فيل:

— "أنا مجرد بشر."

التقط النظرة التي رمقته بها، حتى عبر قناعها.

— "بصراحة يا وينترز، بالنظر لمحيطنا، أعتقد أنه يجب عليكِ أن تكوني سعيدة بذلك."

خطا عبر القنطرة إلى الغرفة الصغيرة وبدأ يجوب الأرضية، ملقيًا نظرة فاحصة على البلاط.

— "لسوء الحظ، شوش قارعو الأجراس أي دليل كان قد يكون مفيدًا. كل ما يمكنني التأكد منه هو أن بعض الأشخاص قد صعدوا لأعلى عبر هذه السلالم."

كان شيء ما ينغز عقل إيرين، أبعد من هالة القوة العامة للمكان. كان لديها شعور بأنها تفقد رابطًا ما. نظرت لأسفل حيث كان فيل ينقر البلاط، ثم إلى قدميها على الدرج الحديدي، وفجأة فهمت.

تمتمت:

— "مثير للاهتمام."

قال فيل:

— "عذرًا، ماذا قلتِ؟"

— "الحديد." — نقرت برفق بطرف قدمها على الدرج. — "كل جني قابلته يكره هذه المادة. لماذا يضعون مجموعة سلالم من الحديد المطاوع كمدخل رئيسي لسجن خاص؟"

اقترح فيل، لكن قلبه لم يكن مقتنعًا:

— "ضرورة معمارية؟"

— "لا." — كانت تفكر في الغرض من السجن. — "هذا، كل هذا—— الموقع والحراس، وهذا الدرج الحديدي——ليس مقصودًا به فقط إيقاف المتطفلين. إنه مقصود به إيقاف المتطفلين من الفاي."

عاد فيل للدرج:

— "هذا يدعو للتساؤل عن طبيعة السجناء. لكن لا أعتقد أن هناك المزيد لنتعلمه في هذا المستوى."

قالت إيرين:

— "أوافقك الرأي. علينا الصعود."

مر الدرج بالقرب بشكل غير مريح من الأجراس بينما وصلا لمستواها، قريبًا بما يكفي لتتمكن من مد يدها ولمس البرونز الداكن. كان كلاهما يتسلق بهدوء أكبر الآن، بعد وتيرتهما السريعة والمزعجة سابقًا، محاولين التزام الصمت قدر الإمكان. كان هناك ضوء في المستوى الذي فوقهما، أصفر كلهب الفوانيس. لكن لم يكن هناك صوت حديث أو حركة.

ثم رنت طلقة فجأة عبر الهواء، مرتطمة بمعدن الدرج. جفلت إيرين للخلف، باحثة عن ساتر، باستثناء أنه لم يكن هناك أي ساتر.

جاء صوت من فوقهما بالإيطالية، متوترًا، صوت رجل سيتفاعل بشكل سيئ مع المفاجآت:

— "ستضعان أيديكما فوق رأسيكما. ستتقدمان ببطء ودون القيام بأي حركات قد نسيء تفسيرها. ابقيا على الدرج ولا تحاولا النزول عنه. ونحن نعلم أنكما اثنان، فلا تحاولا التظاهر بغير ذلك."

أومأ فيل، ثم رفع يديه.

نادى صاعدًا الدرج:

— "نحن قادمان. لن نحاول فعل أي شيء."

رد الصوت:

— "احرصا على ذلك."

كانت مساحة السطح الصغيرة في قمة البرج ضيقة. لم يكن هناك متسع كبير للحراس الأربعة المنتظرين فوقهم بمسدسات مشهرة. إيرين، التي كانت خلف فيل بخطوتين وتطل من حول خصره، استطاعت رؤيتهم بوضوح مفرط. كان هناك فانوسان يشتعلان على جانبي الدرج، معلقين من العوارض، وكان لدى الحراس مجال رمي جيد. تمركزوا خلف

المخرج الوحيد من الدرج إلى السطح. ومحاصرين بين قضبان الأمان الحديدية المنسوجة بإحكام، لم يكن هناك مكان للاختباء.

لكن الدرج نفسه استمر في الصعود. لم يتوقف عند السطح، حيث كان يجب أن يتوقف بحكم كل قواعد المنطق والحس السليم، بل واصل صعوده المستحيل. هبت نسيم بارد للأسفل، محملًا برائحة الماء والحجر.

الكارشيري، فكرت إيرين. لابد أننا عند حدوده.

قال الحارس الأول:

— "عرّفا بنفسيكما. إذا كنتما تحملان تصريحًا، أريانا إياه، لكن اجعلا حركاتكما بطيئة."

الرشوة أو الترهيب لن يمكناهما من تجاوز هؤلاء الحراس——كانوا متيقظين ومحترفين. الإغواء كان احتمالًا، لكن هذه المرة كان هناك حل أبسط. أدارت إيرين رأسها حتى لامست شفتاها الجدار الحديدي الواقي للدرج، وتمتمت:

— "**أيتهــا الألــواح الحديدية، انغلقـــي لتطويــق الدرج وسدي كل مداخل الدخـــول من خارجه.**"

بدا المعدن وكأنه يصرخ وهو يتحرك، يصر ويئن ضد إطارات الألواح الخارجية والقضبان التي تثبته في مكانه. التوت جوانب الدرج خارجة عن شكلها، مشكلة حاجزًا بينهما وبين الحراس، منتزعة التصاميم الداخلية للألواح المفرغة من استقامتها ولاوية إياها إلى خردة.

لكنها كانت خردة واقية. انتفض فيل متحركًا، متسلقًا بسرعة لأعلى الدرج——متجاوزًا الحراس في مساحة السطح وإلى الجزء الذي لا ينبغي أن يكون موجودًا أصلًا. كانت إيرين خلفه بخطوة واحدة.

هب أحد الحراس للعمل، مطلقًا مسدسه. ارتدت الرصاصة عن لوح، مرتطمة بالجدار الحجري. كان لدى حارس آخر حس أكثر وركض حول الدرج حتى وجد فجوة بين لوحين ملتوين. دافعًا فوهة مسدسه في الفجوة، صوبه لأعلى نحو فيل وإيرين. كشطت الرصاصة ذراع فيل العلوي ورنت حين ضربت العمود الحديدي في وسط الدرج، ثم سقطت لتتدحرج أسفل الدرجات في سلسلة من الرنات. تناثر الدم وشتم فيل، ممسكًا بذراعه، لكنهما استمرا في الركض.

اتسع الدرج بشكل مستحيل بينما ارتفع وتركا الحراس الغاضبين خلفهما. من الناحية العملية، كان يجب أن يكونا قد تجاوزا سطح المبنى الآن، لكن الدرج استمر في الصعود. كانت الجدران أبعد الآن أيضًا، بالكاد مرئية في الظلام، مع وضوح حدود كتل حجرية كبيرة فقط.

لم تكن إيرين متأكدة حتى من أين يأتي هذا القدر الضئيل من الضوء. قررت عدم التفكير في الأمر، سوى أن تأمل ألا يختفي. تسلق درج حديدي مطاوع هش على ارتفاع غير معروف في شبه ظلام مع وجود حراس في مكان ما أسفلهم كان سيئًا بما يكفي. تسلقه في ظلام دامس سيكون أسوأ.

هبت عصفة ريح قوية عبر الدرج، جاعلة المعدن يصر ويرتجف.

نادى فيل من فوق كتفه:

— "الظلام يشتد."

تمنت إيرين حقًا لو لم يقل ذلك.

أجابت:

— "ربما يحضرون الفوانيس عادة. كيف هي ذراعك؟ هل جرحها سيء؟"

قال فيل باستخفاف:

— "مجرد جرح سطحي. ألا يمكنكِ استخدام لغتك لإغلاقه؟"

شرحت إيرين، بين لهاثها طلبًا للنفس:

— "أنت كائن حي. يمكنني أن آمره بالانغلاق، لكنه لن يبقى مغلقًا بالضرورة. سأحتاج لمعرفة تشريحية دقيقة لإبقائه متماسكًا. الضمادات ستكون أكثر فائدة."

ثم بدأ الضوء يعود. كانت الجدران بعيدة الآن، والدرج لولب معدني وحيد في وسط مساحة كبيرة بشكل مخيف. لم يكن هناك طريقة واضحة لتحديد مصدر الضوء. عندما نظرت من خلال الفراغات في الألواح الحديدية، استطاعت إيرين رؤية جدران بعيدة وسقف أبعد بكثير، لكن لا سماء ولا أضواء اصطناعية. كانت تتنفس بصعوبة الآن، وساقاها تؤلمانها.

جعلت عصفة ريح أقوى الدرج يرتجف مرة أخرى. هذه المرة أبطأت هي وفيل وتيرتهما، ورأت يد فيل تشد على العمود المركزي وهو يثبت نفسه. خطط الدم كمه وتناثر عبر سترته الجلدية.

قالت إيرين بحزم:

— "انتظر هنا. لدينا ضوء كافٍ. أحتاج لتضميد ذراعك قبل أن تفقد المزيد من الدم."

حدق فيل عبر الألواح.

— "أستطيع رؤية شيء ما أبعد قليلًا بالأعلى. ربما يجب أن نصل إليه أولًا؟"

— "إذا كان هناك خطر بالأعلى، أفضل أن نوقف نزيف دمك قبل أن نركض نحوه."

قال بنزق:

— "أوه، حسنًا جدًا."

جلس على الدرج، ساندًا ذراعه على ركبته.

– "لا يبدو الأمر خطيرًا لتلك الدرجة."

لم تكن إيرين متأكدة ما إذا كانت ستعزو ذلك لازدراء عابر للإصابات—كونه يُصاب بالرصاص قد يكون من مخاطر المهنة—أو مجرد عدم رغبة في الاعتراف بالضعف. بدلًا من الدخول في جدال، جلست بجانبه وشمرت كمه. خط رفيع بطيء من الدم سال من حيث مزقت الرصاصة عضلات ذراعه العلوية.

قالت بهدوء:

– "أنت محظوظ. لم تُصب شريانًا."

تمتم فيل:

– "كنت سألاحظ بالتأكيد لو فعلت."

– "هل لديك أي براندي معك؟"

– "لا. لكني أشك أننا سنملك الوقت ليتعفن الجرح على أية حال."

الوقت، نعم. الوقت كان ساعة نهمة تلتهم الدقائق وتدفعهم أقرب فأقرب للكارثة.

قالت وهي تخرج سكينها:

– "المعذرة."

عملت بسكينها بضع ثوانٍ حول كم فيل الملطخ بالدم إلى وسادتين، واحدة لكل جانب من الذراع، وتمت إعادة توظيف حاشية تنورتها كضمادة.

نظر فيل لكتلة القماش غير المتقنة.

– "هل تدربتِ يومًا كممرضة يا وينترز؟" قالها وهو يصك على أسنانه.

ـ "فقط دورة "إسعافات أولية وإنقاذ حياة" أساسي. كما تعلم، التواءات، كسور، جروح رصاص، حمض الكبريتيك، ذلك النوع من الأشياء."

أعادت سكينها لمكانه.

ـ "أتساءل إن كان هناك المزيد من الحراس في القمة."

ـ "لنكتشف ذلك."

بدأ فيل صعود الدرج مرة أخرى، متحركًا بسرعة كافية جعلت إيرين تتساءل إن كان يشعر أن لديه شيئًا ليثبته. لكنه توقف فجأة وأشار.

ـ "انظري، هنا."

تبعت إيرين يده المشيرة، حيث وصل الدرج أخيرًا لنهايته——مثل نهاية أنبوب عمودي، والسقف لا يزال ضائعًا في مكان ما بالأعلى. شعرت بالدوار لمجرد التفكير في المسافة التي تسلقاها. وكان هناك قنطرة أخرى في جانب الدرج أمامهم. من هذه الفجوة، تقوس جسر من نفس حديد الدرج فوق الهوة الدائرية التي تحيط بهم، ممتدًا فوق انخفاض حاد، ليتصل برصيف ما على الجانب الآخر.

كان الدرج نقطة وحيدة في وسط فراغ واسع، وخلف ذلك الفراغ كان هناك مشهد معماري مذهل ومستحيل. جدران حجرية بأقواس مثبتة فيها ارتفعت في المسافة، بمقياس غير بشري، ككاتدرائية بنيت لتغطي دولة بأكملها. جسور مصنوعة من الحجر والحديد ركضت بين هذه الأقواس وعبر هوات صغيرة، رمادية شاحبة ورمادية داكنة في نصف الضوء. سلالم انحنت لأسفل على طول الجدران أو تدلت من كابلات طويلة، والتي بدورها كانت مثبتة بسقف عالٍ بالأعلى. ميزت شبكات صغيرة نوافذ في جوانب الدعامات الطائرة والأبراج، متناهية الصغر من نقطة رؤية إيرين وفيل البعيدة. هبت الرياح عبر الأعمال الحجرية، تهمهم ضد آبار السلالم

العالية وتهمس عبر صفوف الأقواس. كانت متاهة. ربما كان هناك منها أكثر بكثير مما يمكنهم رؤيته من مكانهم، ولا طريقة لمعرفة إلى أي مدى تمتد. لم تكن هناك جدران واضحة ولا ريف خلفها.

ولم يكن هناك أناس في أي مكان. لا أحد.

قال فيل بنبرة عدم رضا:

— "طريقة دخول باروكية ومعقدة للغاية."

كانت إيرين تفكر في الأمر.

قالت ببطء:

— "ربما المدخل أو المخرج الوحيد لهذا المكان، بالنسبة لـ الفاي على الأقل، هو عبر بئر السلم هذا. الدرجات الحديدية ستضعف أي فاي يحاول الدخول—أو الخروج. في النهاية، لن يكون سجنًا ذا شأن إذا كان بإمكانهم السفر بين العوالم والظهور ببساطة داخل هذا الفضاء، كما يفعلون عادة إذا كانوا أقوياء بما يكفي."

أومأ فيل:

— "حسنًا، سيتعين علينا أن نأمل أنه ليس محصنًا ضد التنانين أو أمناء المكتبات. لا بد أنهم يقيدون سترونغروك بطريقة ما. لكن إذا كان بإمكانهم تقييد تنين، فعلينا أن نأمل فقط أن نتمكن من إزالة القيد."

تنهدت إيرين. خلعت قناعها، مستمتعة بشعور الهواء البارد على وجهها بعد التسلق.

— "أخشى أنني سأحتاج لمكتبة لفتح مخرج بنفسي، أو على الأقل مجموعة جيدة من الكتب—وهذا بافتراض أنها ستعمل هنا، بينما لم تعمل في البندقية نفسها."

قال فيل:

— "آه حسنًا."

منحها واحدة من ابتساماته النادرة.

— "لقد أبليتِ حسنًا للغاية مع تلك الصفائح الحديدية، حين كان الحراس يستجوبوننا. تحياتي."

ابتسمت إيرين بالمقابل:

— "نحن نشكل فريقًا جيدًا."

كان من غير المعتاد بما يكفي أن يمتدحها فعليًا، بدلًا من قبول كفاءتها ببساطة. لكنها لم تشأ أن تصبح عاطفية جدًا وتحرجه.

وافق فيل:

— "نحن كذلك."

التفت للجسر الحديدي وبدأ المشي عبره. كان عريضًا بما يكفي لسير اثنين جنبًا لجنب. لحسن الحظ، كانت هناك درابزينات على كلا الجانبين، لكن رغم ذلك، كان بناءً هشًا بشكل مقلق——لا، صححت إيرين لنفسها ذهنيًا، كان صلبًا بما يكفي. لقد بدا واهيًا فقط مقارنة بالحجم الهائل لكل شيء حولها.

توقف فيل مرة أخرى بمجرد نزولهم من الجسر إلى الرصيف الحجري، ناظرًا حوله بتفكير.

— "المنطقة التي يجب تفتيشها كبيرة بشكل غير معقول. ومع ذلك، فإن الحراس الذين يرافقون سترونغروك لابد أنهم مروا من هنا خلال اليومين الماضيين. إذا تمكنا من العثور على آثارهم..."

قالت إيرين:

— "في الواقع، لدي فكرة أخرى. جربتها بالأسفل في البندقية، لكن كانت هناك فوضى محيطة كثيرة تتداخل معها. بما أن هذه المنطقة من

المفترض أن تكون سجنًا لـ الفاي، فقد تعمل بشكل أفضل هنا. أمهلني لحظة من فضلك."

أومأ فيل وتراجع للخلف ليراقب.

استخرجت قلادة عم كاي، ثم لفتها بضع مرات حول معصمها الأيمن للتأكد من عدم إسقاطها—جافلة بينما شدت السلسلة على الكدمات الجديدة التي تركها اللورد جوانتيس. لقد كان شيئًا تنينيًا. وكان هناك—أو على الأقل، يجب أن يكون هناك—تنين واحد فقط في المنطقة.

رفعت إيرين يدها بحيث تدلت القلادة أمام وجهها.

قالت بوضوح في "اللغة":

– "الشبيه ينادي شبيهه. أشيـــري إلى التنيـــن الذي هو ابن أخ التنيـــن الذي يملككِ."

ارتجفت القلادة، ثم تأرجحت بزاوية، مشيرة في اتجاه حوالي خمس وأربعين درجة من حيث كانا يواجهان. استقرت هناك، تشد معصمها.

قالت:

– "هناك."

وحاولت ألا تنهار ركبتاها من الارتياح. أو ربما من الإنهاك. هذه المرة نجح الأمر. تركيز القلادة استنزفها، ولا يزال يستنزفها، كالدم السائل من جرح صغير.

– "أعتقد أننا وجدناه."

هتف فيل:

– "أحسنتِ يا وينترز! هل ستستمر طويلًا؟"

اعترفت إيرين:

— "لست متأكدة. لكن يمكنني فعلها مرة أخرى، إذا احتجنا لتحديد الموقع."

أومأ فيل:

— "في هذه الحالة، لنأمل أنه ليس بعيدًا جدًا."

تردد صدى خطواتهم على الحجر وهما ينطلقان في الفراغ. كان الأمر وكأنهما يمشيان عبر خشبة مسرح شاسعة، مع جمهور غير مرئي يراقب من الكواليس.



الفصل الثاني والعشرون

مضى على سيرهم نصف ساعة على الأقل قبل أن يسمعوا أي صوت آخر غير وقع خطواتهم.

كانت القلادة تعمل بشكل جيد، تشد معصم إيرين كبندول الكشف عن المعادن، وإن كانت تشير بشكل غير ملائم نوعًا ما إلى الاتجاه العام، في خط مستقيم، بدلًا من تغيير اتجاهها عند كل تقاطع أو درج.

اتسم المكان بأسره بخاصية لا يمكن لـ إيرين وصفها إلا بـ «الموات» — ذلك النوع من الموات الذي لم يكن حيًا أبدًا. حتى حيث استُخدم الخشب أو الحبال وسط الجرانيت والرخام البارد، كان له مظهر متحجر وصلب، بدلًا من إظهار أي علامات للحياة العضوية. البحيرات المغلقة التي مروا بها كانت صافية ومظلمة. لا شيء يسبح فيها، لا شيء يتحرك، ولا شيء يعكر صفو الماء. لم يعش شيء في ذلك الماء.

لم تكن لديها خلفية في الآثار أو العمارة لفهم طبيعة البناء الحجري. في بضع مرات أشار فيل لتمثال أسد، أو لمنحنى قوس، وتمتم بشيء عن «تأثير بابلي» أو «عمل سكسوني مميز»، لكنها لم تستطع فعل أكثر من الإيماء. لم تكن حتى متأكدة من أن تصنيف المباني سيشير لأي تاريخ حقيقي لهذا المكان. فذلك يعني ضمنيًا أن أناسًا حقيقيين عاشوا هنا، في وقت ما.

لم تكن هناك آثار أقدام مفيدة على الطريق أيضًا، ولا علامات أوساخ أو غبار — لم يكن هناك حتى غبار. تمتم فيل بشأن ذلك أيضًا، قبل أن يعزو الأمر إلى «الاستحالة العامة للمكان».

الشيء الجيد الوحيد هو أن الألم في وشم «المكتبة» على ظهرها، والذي أثارته بيئة البندقية عالية الفوضى، قد هدأ. وصل الأمر لنقطة توقفت فيها إيرين تقريبًا عن ملاحظة وجوده، لكنها لاحظت غيابه. كان الأمر منطقيًا إلى حد ما. إذا كان هذا المكان سجنًا لـ «الـفاي»، فيجب أن يضعفهم بدلًا من تقويتهم.

كانوا يمرون أسفل حصن عالٍ عندما سمعوا الصوت الأول. كان همسًا عميقًا ومخترقًا من الجانب الآخر لجدار الحصن. تردد صداه بين الحجارة وأطلق تموجًا مجيبًا من القناة الساكنة بجانبهم. كان تقريبًا... تقريبًا مفهومًا، بطريقة جعلت إيرين ترغب في التوقف والاستماع، لمحاولة تمييز ما يُقال.

التفتت ورأت الرغبة نفسها في عيني فيل.

أمسكت بذراعه وسحبته، بعيدًا عن الهمس المتلاشي، حتى لم يكسر الصمت سوى خطواتهم مرة أخرى. ظل الهمس يغريها بالنظر للخلف والتلكؤ، وكأنها نسيت شيئًا مهمًا، شيئًا يجب عليها حقًا العودة والاهتمام به.

لكن القلادة ظلت تقودهم للأمام. صعدوا مجموعة ضخمة من السلالم، وعبروا جسرًا شاهقًا آخر، ثم عبر سلسلة من السلالم ذات الزوايا، والتي اتجهت دائمًا لليسار لكن بطريقة ما لم تؤدِ لعودتهم من حيث أتوا. على حد علمها، على الأقل.

ثم كسرت صرخةٌ الصمت. جاءت من كرة معدنية ضخمة — لا، بل قفص معدني كروي — يتدلى فوق فضاء فارغ. كان معلقًا بمجموعة من الكابلات والسلاسل التي ارتفعت لسقف يكاد يغيب عن الأنظار فوقهم. كان الصوت صادمًا ومفاجئًا، كنعيب بومة في منتصف ليل هادئ. وكان أيضًا غير بشري بنفس القدر، وحيوانيًا بنفس القدر.

أيًا كان ما بداخل ذلك القفص، لم ترد إيرين له أن يخرج.

كانت قد فكرت في السكان الآخرين سابقًا كحلفاء محتملين. تساءلت عما إذا كان بإمكانها هي وفيل تحرير بعضهم والهروب مع كاي وسط الفوضى. لكن كلما اختبرت ضخامة السجن الأساسية وبرودته، قل إعجابها بالفكرة. هذا النوع من السجون يشير لنوع خطير جدًا من السجناء. سجناء غرباء ومجانين لدرجة أنهم يخيفون حتى «الـفاي» الآخرين. لذا فإخراجهم قد يكون ذلك النوع من الأفكار السيئة حقًا التي تنتهي بصرخة وصوت تحطم عظام.

سأل فيل:

— "كم بقي من المسافة برأيك يا وينترز؟"

هزت إيرين كتفيها.

— "لا فكرة لدي. يمكنني القول إن كاي لن يكون بعيدًا جدًا عن المدخل، ببساطة لأسباب تتعلق بالسهولة. لكن قد يكون لديهم شكل من أشكال النقل أسرع من المشي."

أومأ فيل.

— "كنت آمل على الأقل العثور على آثار،" قال مرة أخرى، مشيرًا للرصف الحجري البكر أمامهم.

قالت إيرين متأملة:

— "أعتقد أن الوضع قد لا يكون سيئًا تمامًا كما ظننا."

— "بأي طريقة؟"

— "بعض «الـفاي» قد يريدون حربًا."

فكرت في اليومين الماضيين.

– "لكن اللورد جوانتيس لا يُعامل كضيف مكرم بشكل خاص هنا. احتاج لأتباعه الخاصين لتوفير الأمن في الأوبرا. وكان مراقبًا من قبل الشرطة السرية لـ «العشرة» أيضًا. يبدو الأمر وكأن «العشرة» يمنحونه الحد الأدنى فقط من التعاون."

قال فيل:

– "لكن لماذا يتعاون «العشرة» مع الـ جوانتيس أصلًا، إذا لم يدعموهم بالكامل؟ إذا كانوا يفضلون حكم أراضيهم على توسيع حدودهم، فهذا حقهم، لكن لماذا يتدخلون إذن في مخططات أكبر؟"

قالت إيرين:

– "لأن «العشرة» لا يمكنهم عدم التعاون مع الـ جوانتيس إذا بدا أنهم يقومون بحركة سياسية كبرى. سيكون الأمر مثل، أوه..."

حاولت تذكر التعقيدات السياسية لعالم فيل.

– "كما لو أن شخصًا ما قبض على جاسوس فرنسي كبير في وسط لندن وأعلن ذلك لكل الصحف. سيتعين على الحكومة التعامل مع الأمر بصرامة، حتى لو فضلوا كنسه تحت السجادة وإعادة الجاسوس لـ فرنسا، أو حتى مقايضته بأحد رجالهم. لعبة القوة لـ آل جوانتيس جعلت من المستحيل على «العشرة» هنا أن يكونوا محايدين، وإلا خاطروا بفقدان ماء الوجه والقوة. وإذا نجح الـ جوانتيس... فـ «العشرة» بالتأكيد سيكسبون من الحرب، جنبًا إلى جنب مع كل «الـفاي» الآخرين. أما إذا فشل الـ جوانتيس وأحرجوا أنفسهم، سيرغب «العشرة» في النأي بأنفسهم عنهم، مع الجميع."

قال فيل:

– "معقول. لكننا نحاول اختراق السجن الخاص لـ «العشرة» هنا يا وينترز. إذا نجحنا، سيكون لديهم كل سبب ليريدونا موتى بقدر ما يريد الـ

جوانتيس، إن لم يكن أكثر. نحن نضرب مباشرة في قاعدة قوتهم، حتى لو ألقينا اللوم على الـ جوانتيس في ذلك——"

ثم توقف وأشار لـ إيرين بالبقاء صامتة. في المسافة البعيدة، بالكاد مسموعًا رغم الصمت القمعي، استطاعت سماع صوت خطوات، حملتها إليهم خدعة ما في الهندسة المعمارية. حراس. أو مطاردون. أو كلاهما.

كانت مجموعة السلالم التالية وحشية. صعدت بزاوية ستين درجة ربما، كل درجة مكونة من رخام شاحب زلق وعالية بما يكفي لتؤلم ساقي إيرين قبل أن ينتصف الطريق. وصل فيل للقمة قبلها ونظر للخلف — لكن لم يكن أحد يتبعهم بعد.

سحبت إيرين نفسها للدرجة العليا. ثم، جازّة على أسنانها، فحصت القلادة مرة أخرى. كانت تشير أخيرًا لمكان ملموس — لعمود هائل يمين درجهم. كان العمود واسعًا، حوالي تسعين قدمًا عرضًا، وبقدر ما استطاعت التمييز، امتد من أرضية السجن لسقفه. برزت جسور منه كمهاميز بارتفاعات مختلفة، وكان مزخرفًا برايات ناتئة تحمل تصاميم غير مفهومة بالرمادي على الرمادي.

لكن عندما وصلوا إليه، لم تكن هناك حتى أي نوافذ أو شبكات واضحة تخترق داخله. مشت إيرين حوله، ممسكة القلادة بأمل، لكن بينما أشارت للعمود من كل اتجاه، لم تفضل أي مكان معين للبدء.

قالت بتردد:

— "يمكنني محاولة أمره. إخباره بأن يفتح أو شيئًا ما؟"

ينبغي أن ينجح ذلك، لكنه قد يفتح أيضًا كل باب مغلق آخر في نطاق صوتها. وهي حقًا لا تريد مقابلة السجناء الآخرين هنا.

انفعل فيل:

— "دعيني أفحصه أولًا."

كان كله تيقظًا الآن، متوترًا ومركزًا. جثا على ركبتيه أمام العمود، مائلًا حتى أصبح أنفه على بعد نصف بوصة من الأرض. هناك، زحف على أطرافه الأربعة، محدقًا فيه بغموض. بعد ما بدا دهرًا، قفز لقدميه، ممررًا أصابعه على الدرزة بين كتلتين من الحجر.

– "أنا... نعم، أعتقد أنني وجدته. هنا."

كان صوته هادئًا، لكن مشدودًا كوتر كمان مضبوط. نقر عند نقطة معينة، في مستوى العين تقريبًا.

– "وينترز، أعتقد أن هناك قفلًا من نوع ما هنا، والذي يتطلب عادة مفتاحًا، لكن في ظل الظروف..."

أومأت إيرين. خطت بجانبه ومالت حتى كادت شفتاها تلمسان الحجر. تمتمت:

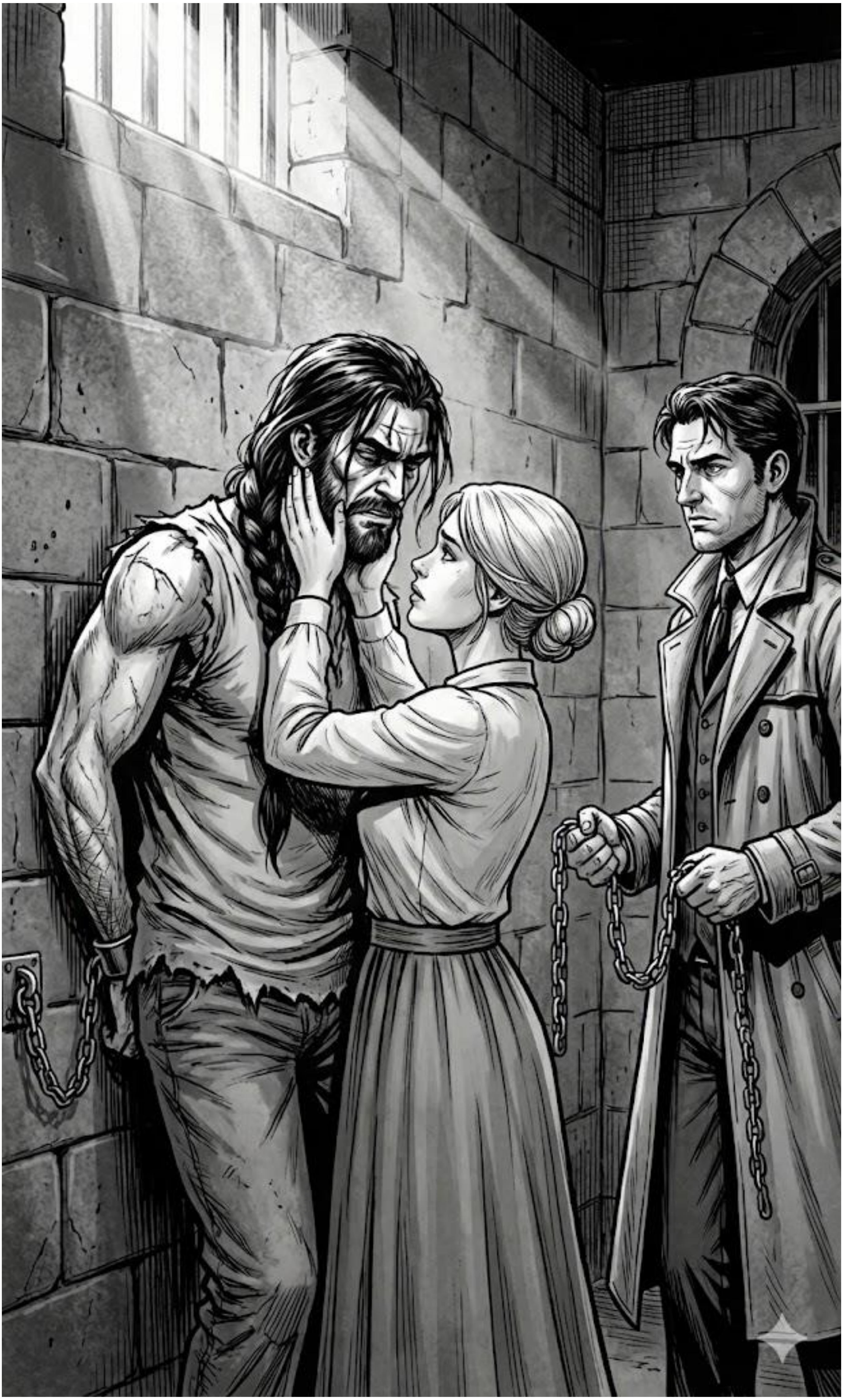
– "**قفـــل، افتــــــح**."

انفرجت الدرزة في العمود، وتأرجحت إحدى كتل الحجر للداخل لتكشف ممرًا قصيرًا مظلمًا مع مساحة مفتوحة مرئية بالكاد وراءه. كان المكان صامتًا تمامًا وهما يتسللان للداخل.

كانت الغرفة في مركز العمود باردة ومعتمة، مضاءة بشظايا رقيقة من الضوء، سقطت من شقوق في الجدران عاليًا بالأعلى. وهناك كان كاي أخيرًا، مقيدًا بالسلاسل ضد الجدار البعيد.

كان من الوقار التراجع للخلف وإلقاء ملاحظة ذكية، لكن إيرين تجاوزت الوقار. ألقت ذراعيها حول كاي، غير مكترثة بوجود أي أفخاخ، واحتضنته ببساطة للحظة طويلة.

كان يرتدي قميصًا وسروالًا رأيا أيامًا أفضل، وصدرية تتدلى مفككة، وكدمات تظهر زرقاء على وجهه. طوق ثقيل وداكن أحاط بعنقه، بلا قفل



مرئي، وأصفاد سميكة من الحديد قيدت معصميه للجدار. نظر لـ إيرين وفيل وكأنهما استحالة، وكأنهما قد لا يكونان هنا حقًا على الإطلاق.

أخذت إيرين نفسًا عميقًا. حرقت عيناها، وللحظة ظنت أنها ستشهق ببكاء محرج.

— "لست معجبة أبدًا بهذا المسكن،" قالت، دافعة نفسها بعيدًا عن كاي بجهد.

كان حيًا — شيء شكت فيه في أحلك لحظاتها. وضعت القلادة حول عنقها مرة أخرى.

— "فيل، هل تظن أنك تستطيع فتح تلك الأقفال؟"

بدا فيل عاجزًا عن الكلام، فشد على كتف كاي للحظة — ربما أقرب ما يمكنه فعله لعناق إيرين — ثم التفت لفحص الأصفاد الحديدية على معصمي كاي.

— "لو كانت أقفالًا عادية، فأنا واثق أنني كنت سأستطيع. لسوء الحظ، أشك أن عليها سحر «فاي». هل يمكنك إعطائي أي معلومات عنها يا سترونغروك؟"

فتح كاي فمه، ثم أغلقه، ثم فتحه مرة أخرى.

— "إيرين... فيل..."

كان صوته صدئًا وجافًا. نظر بينهما بيأس.

— "أنتما حقيقيان، أليس كذلك؟ لستما نوعًا من الوهم؟ لو طلبت منكما قرصي، فهل ستقرصانني؟"

قالت إيرين بحدة:

— "نعم. سأفعل. وسأقرصك بقوة تجعلك تتمنى لو لم تسأل أبدًا. كاي، نحن هنا — أنت لا تهلوس. لقد جئنا."

عانقته مرة أخرى، محاولة إقناعه.

– "وعلى الأرجح ينفد وقتنا. سأجيب على الأسئلة لاحقًا. هل تعرف أي شيء عن تلك الأصفاد؟"

قال كاي:

– "الطوق مسحور، ليبقيني في هذه الهيئة ويقيد قواي."

ثم توقف، هازًا رأسه. ارتجف صوته.

– "أنا آسف. ما زلت لا أستطيع... لا أعرف عن الأخرى. ربما إذا استخدمت إيرين «اللغة» – كيف وصلتما هنا؟ نحن في أقصى طرف الفوضى."

قال فيل، متراجعًا للخلف وساحبًا نفسه بصريًا تقريبًا من العروض العاطفية:

– "نحن في السجن القديم لمجموعة فاسدة بشكل خاص من «الـفاي»، عالمهم يحمل شبهًا بـ بندقية رومانسية من القرن السابع عشر. وصلنا بالقطار. وينترز، يمكنك التعامل مع السلاسل. من المستحيل بالنسبة لي فتح تلك الأقفال."

تمنت إيرين لو كان بإمكانها أن تكون مقتضبة في التفاصيل هكذا عند تقديم تقرير لـ كوبيليا. بالطبع، تقديم تقرير لـ كوبيليا يعني ضمنيًا أنها ستخرج من هنا حية...

– "هممم."

انحنت مقتربة ومحدقة في السلاسل.

– "قدراتي لا تسمح لي باستشعار أي شيء محدد حول هذه. فيل، قد نرغب في التراجع. سأجرب الطوق أولًا."

فكرت للحظة ثم، باستخدام أكبر قدر ممكن من الدقة، قالت:

— "**أيهـــا الطـوق حول عنق التنيـــن، افتـــح قفلــك وافترق وانفتح**."

غاص صوتها خلال الهواء كالحبر في الماء بينما تردد صدى «اللغة» في الغرفة. نوت التحدث بهدوء، لكن شيئًا ما جعل الهواء يرتجف كدقة طبل مكتومة. شعرت بـ فيل ينكمش ويتراجع للخلف، وشهق كاي ألمًا، وتقوس ظهره بينما ضاق الطوق حول عنقه.

أتيحت لـ إيرين لحظة للتفكير: لقد قتلت كاي، في نبضة قلب بدت وكأنها تمتد للأبد.

— "**أيهـــا الطـوق، افتـــح!**" صرخت، رامية بكل ثقل وتركيز يمكنها جمعه في الكلمات.

ارتجف الطوق، وسطحه يتموج ويلمع كحرير مائي، ثم تطاير مفككًا. أزت الشظايا للخارج، وجرح زوج منها ذراعي كاي المرفوعتين، ودفنت نفسها في الجدران الحجرية والأرضية. انهار كاي، معلقًا من السلاسل على معصميه، يسعل ويلهث. ظهر شريط أحمر جديد من الضغط بوضوح حول عنقه.

مستنزفة تمامًا، مدت إيرين يدًا لتوازن نفسها ضد الجدار، مترنحة وهي تقف هناك. كانت واعية لاندفاع فيل للأمام لفحص نبض كاي والتمتمة له، لكن في الوقت الحالي لم تستطع التركيز إلا على التنفس والبقاء منتصبة. كان هناك غرض من ذلك الطوق، وقد تطلب الأمر الكثير من قوتها لكسره.

— "إيرين؟" صوت كاي. خشن، لكنه يعمل.

قالت، ململمة شتات نفسها وماشية لتنضم لـ فيل وكاي:

— "دعني ألقي نظرة على تلك الأصفاد." أملت ألا تبدو مشيتها ترنحًا كثيرًا.

لاحظ فيل:

– "لنأمل أنها صممت لاحتجاز «فاي». إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تكون أقل فعالية في احتجاز سترونغروك."

قال كاي ناظرًا لمعصميه باشمئزاز:

– "لاحتجاز «فاي»؟"

قالت إيرين:

– "هذا سجن «فاي». أنت لست النوع المعتاد من النزلاء. حسنًا. لنفعل هذا."

كان الأمر مخيبًا للآمال دراميًا عندما سقطت الأصفاد دون مشاكل، بعد عبارة واحدة من «اللغة». سقط كاي للأمام على ركبتيه، لكنه سحب نفسه بسرعة للأعلى، فاركًا معصميه حيث حفر المعدن في جلده.

كان هناك شيء آخر في الغرفة الآن. كان مرتبطًا بالغضب المتنامي في عيني كاي وطريقة وقفته. كان نفس الضغط الذي شعرت به إيرين عندما حول عم كاي انتباهه الكامل إليها، لكنه أكثر فجاجة، وأخطر، وأكثر عرضة للانفجار في أي لحظة. سجنوا تنينًا. ماذا يحدث عندما يتحرر التنين؟ ظنت أنها تسمع دمدمة بعيدة في الخارج.

كان عليها إبقاءه مركزًا.

– "كاي. ابق معنا. لدينا خطة للخروج من هنا، لكن هناك رجال يقتفون أثرنا. نحتاج للعودة عبر البندقية للوصول لقطار «الفاي»، طريقنا للدخول والخروج من هناك، لكن لا أعتقد أنك تستطيع تحمل ذلك العالم في هيئتك الحقيقية."

نظر كاي إليها، وعيناه سوداوان بالكامل فجأة. للحظة كانت أنماط الحراشف السرخسية مرئية على جلد وجنتيه ويديه، وكانت خطوط وجهه شيئًا غير بشري ومرعبًا.

بادلته إيرين التحديق.

– "تمالك نفسك."

كان ليكون أسهل أن تأخذه من كتفيه وتطلب منه أن يكون الرجل الذي وثقت به. لكن ذلك كان ليكون معاملته كبشري، وفي الوقت الحالي كان بعيدًا جدًا عن ذلك.

همس كاي:

– "ليس لديكِ فكرة عما تطلبينه مني."

كانت هناك نبرة خفية في صوته، عميقة ورنانة، مثل الدوي المكبوت لأمواج بعيدة.

كانت إيرين واعية لتراجع فيل خطوة للخلف، لكنها لم تشح بنظرها عن كاي، لم تكسر تواصلهما البصري.

– "لا، لكنني أتوقع منك فعله، في كل الأحوال."

أخذ كاي نفسًا طويلًا لاهثًا من الهواء – ثم انكسر شيء ما وعاد بشريًا بالكامل، مترنحًا للأمام ليلقي ذراعيه حول كتفيها ويستند عليها، وجسده كله يرتجف. هز الرعد الهواء بالخارج، أقرب الآن.

– "أنا آسف،" همس، وصوته بالكاد مسموع. "أنا آسف يا إيرين، أردت أن أصدق أن شخصًا ما سيأتي، لكنني ظننت أنه لا توجد طريقة تمكن أي شخص من الوصول إلي هنا."

ارتجفت الأرض تحت أقدامهم. موجة بطيئة وهادرة ضربت عبر الحجر مثل نبض، أو، أدركت إيرين، مثل إنذار.

قال فيل بفظاظة، قبل ثانية من تمكنها من القول:

– "ليس لدينا وقت لهذا. هل تستطيع المشي يا سترونغروك؟"

سحب كاي نفسه بعيدًا عن إيرين، وتنفسه يتباطأ. ربتت على ظهره، محاولة أن تكون مطمئنة ومثل معلمة، بدلًا من إظهار مدى اهتمامها.

– "أعتقد أننا أطلقنا إنذارًا."

قال فيل:

– "إذن من الأفضل أن نسرع."

خطوا للخارج، وفجأة أصبح واضحًا أن الرعد في الجو والنبض عبر الصخر لم يكونا مجرد فضول جوي صغير. وجودهم داخل العمود حماهم من رياح العاصفة القمعية التي كانت تجتاح المكان الآن. هزت الهزات الأرضية الأرض. كانت إيرين تكره الهدوء العقيم من قبل، لكن هذه العاصفة المتخمرة الجديدة لم تكن تحسنًا. أغلقت باب الزنزانة بسرعة بـ «اللغة» لتغطية آثارهم، مخصصة لحظة انتقامية لتأمل أن يُصدم اللورد جوانتيس بالعثور على الزنزانة فارغة.

سقطت صخور في المسافة البعيدة، ورن دويها الأجوف عبر مشهد الجسور والأقواس مثل مدافع بعيدة. بدا وكأن الاهتزاز يقترب منهم. لا، لم تكن تتخيل ذلك. الاهتزاز كان يقترب منهم.

قالت:

– "من الأفضل أن نركض."

وفعلوا.

أعطى فيل كاي ملخصًا سريعًا لليومين الماضيين بينما قاموا بالرحلة الطويلة عائدين لمدخل السجن. تدخلت إيرين بكلمة هنا وهناك، لكنها وفرت أنفاسها للركض في المجمل. منحها ذلك أيضًا فرصة أفضل لفحص كاي. بدا في صحة بدنية معقولة، بلا إصابات خطيرة. كدماته لم تبدُ أسوأ من ضرب عرضي من بلطجي (شيء حدث لـ إيرين مرة أو

مرتين) — باستثناء العلامة الزرقاء التي خلفها الطوق حول عنقه. لكنه كان لا يزال متضائلًا. افتقر لثقته المعتادة بنفسه، يقينه غير المفكر فيه بأنه أقوى شيء في الجوار. ربما جيد لصحته على المدى الطويل، لكن مع ذلك... تمنيت لو لم يحدث ذلك. ولا أعرف كيف سيصمد في قتال.

بينما كانوا ينزلون مجموعة السلالم، لاحظ كاي شيئًا ما.

— "انتظروا. هل يمكننا التوقف للحظة؟"

تبعت إيرين نظرته. لم يكن هناك شيء سوى بركة ماء ساكنة. لم تستطع التخلص من الشعور بأنها مشؤومة للغاية، وربما مليئة بأشياء لديها الكثير من المجسات والكثير من الأسنان. رغم أن شيئًا لم يحاول أكلهم بعد.

— "لحظة فقط."

قطب فيل؛ تساقط الصخور كان يقترب.

— "الحراس الذين هزمناهم بالتأكيد أطلقوا الإنذار الآن. وذلك الضجيج، أيا كان——"

قالت إيرين:

— "إما أنه إنذار، ونحن مُطاردون. أو أنني أتلفتُ طبيعة هذا المكان الجوهرية باستخدام «اللغة» — لذا هو يمزق نفسه والسقف يسقط. لست متأكدة أن ذلك أفضل بكثير."

جثا كاي عند حافة البركة وكور الماء في يديه، ساكبًا إياه فوق رأسه. سال على شعره وفي جداول أسفل قميصه، لاصقًا القماش بجسده. تنهد بارتياح، مغلقًا عينيه وراشًا وجهه بالماء.

— "إنه آمن بما يكفي،" قال، ملتفتًا لـ فيل وإيرين وهو ينهض. "كنت بحاجة فقط لتنظيف نفسي. لا شيء حي في تلك المياه."

قال فيل:

– "أو في أي مكان آخر في هذا المكان. باستثناء السجناء، أخشى. هل تظنين أنهم قد يتحررون يا وينترز؟"

قالت إيرين:

– "سيكون من الغباء امتلاك نظام إنذار يطلق سراح كل السجناء حين ينطلق."

انجرفت رشة غبار من نتوء قوس فوقهم، وتحرك سطح البركة في تموجات داكنة طويلة. عدم الاستقرار كان يقترب أكثر بكثير.

– "فلنركض الآن، ونتحدث لاحقًا؟" اقترحت.

ارتجفت الأرض تحتهم وهم يبدأون الركض مرة أخرى. بدأت قطع من الجسور العلوية والأعمدة تتهاوى من الأعلى، مرتطمة بالأرض في انفجارات صوتية هائلة ورذاذ من شظايا الرخام. كان الأمر وكأنه تكشف بطيء لكابوس، حيث الصخور المتساقطة والرياح المتصاعدة دائمًا خلفهم مباشرة، مجبرة إياهم على التعثر للأمام، وعضلاتهم تؤلمهم، يلهثون طلبًا للهواء. لم يكن بوسعهم التوقف. الأعمال الحجرية كانت تنهار خلفهم بأقل من مائة ياردة الآن، مسقطة قطعًا في الفجوات الهائلة. جاء صراخ بعيد عبر عويل الرياح بينما صرخ سجناء غير مرئيين بغضبهم في العاصفة.

كل ما استطاعت إيرين التركيز عليه هو الركض، وضع قدم أمام الأخرى، وعلى المخرج أمامها. كان عليهم الخروج قبل أن يلحق بهم الدمار، وإلا ضاعوا جميعًا. يجب أن يكون هناك بضعة جسور فقط الآن بينهم وبين المخرج، وإذا استطاعوا فقط الوصول في الوقت المناسب...

ثم اخترق إدراك بارد عقلها. نحن لا نهرب. نحن نُساق كأرانب مذعورة. وحيث يوجد صياد يسوق أرانب، هناك فخ في الطرف الآخر.

أجبرت نفسها على النظر للأعلى وحولها، ماسحة الأفق بدلًا من الطريق للجسر أمامها مباشرة. وهكذا التقطت وميض الضوء على المسدس. بجهد جعل ساقيها تصرخان ألمًا، دفعت نفسها للأمام واصطدمت بـ فيل، مسقطة إياه أرضًا بينما ارتدت الرصاصة على بعد بضع بوصات فقط من رأسه.

الفصل الثالث والعشرون

ارتمى الثلاثة أرضاً بدرجات متفاوتة من الأناقة، وتمنت إيرين بشدة أن تحجب أعمدة الجسر ودرابزينه الرخامي أي طلقات عدا تلك التي يحالفها حظ أسطوري.

زحفت إيرين على بطنها، واختلست النظر عبر الدرابزين باتجاه إطلاق النار، لتلمح فرقة من ستة حراس يبدو عليهم الانضباط العسكري. كانوا يتمركزون على منحدر يلتف صعوداً حول جانب أحد الأعمدة، بمحاذاة منتصف الجسر، مما منحهم زاوية إطلاق نار مريحة أكثر مما ينبغي. كان الجندي الذي أطلق بندقيته الطويلة يعيد حشوها بفعالية باردة، بينما جثا الآخرون على ركبهم متأهبين للإطلاق.

هسهس فيل:

– "تبدو تلك كبنادق ذات تلقيم فوهي."

تمتمت إيرين:

– "ماذا تعني؟"

– "أعني أنها دقيقة جداً يا وينترز."

كانت الدماء الجديدة الناتجة عن مجهوده قد لوثت ضمادته المؤقتة.

– "تلك الطلقة لم تكن تهدف لإصابتي. بل كانت تهدف لإخافتنا."

صرخت إيرين بحدة، مضطرة لرفع صوتها ليطغى على صوت تحطم الصخور:

— "لو لم أطرحك أرضاً، لأصابتك! يا فيل، هم يريدون قطعاً أخذ كاي حياً، وربما يريدون أخذي حية، لكنني لا أعتقد أنهم يمانعون قتلك! بحق السماء، ابقَ منخفضاً!"

تمتم كاي:

— "سحقاً."

تلوى جانباً، رافعاً جسده قليلاً ليتفقد الطرف الآخر من الجسر.

— "والدرابزين ينقطع بمجرد وصولنا للطرف البعيد، مما يعني أننا سنكون هدفاً مكشوفاً. لكن إن كانوا لا يحاولون إسقاطنا، فهم هنا لإبقائنا محاصرين..."

ابتلع ريقه.

إلى أن يصل شخص آخر ليتولى أمرنا. نبض معصم إيرين الأيمن بألم ذكرى قبضة سابقة، فأسندته إلى الحجر البارد.

سألت:

— "هل يمكننا العودة؟"

زمجر فيل:

— "كنا على بعد أقل من عشر دقائق من المدخل. إذا عدنا الآن وسلكنا طريقاً مختلفاً، قد لا نتمكن من العثور على المدخل مرة أخرى، وسنخسر المزيد من الوقت على أية حال."

حاولت إيرين التفكير. لقد قطعوا كل هذه المسافة. ولن تقبل بالفشل.

— "كاي، إذا غيرت هيئتك إلى تنين..."

قال كاي بسرعة:

– "سأكون هدفاً سهلاً قبل أن أتمكن من الطيران. وحتى لو كانوا يوقفون النار عليّ الآن، لا يمكننا افتراض أنهم سيستمرون في ذلك."

تنهدت إيرين. لم تكن قد وصلت حتى للجزء المتعلق بـ "ثم تهرب أنت بمفردك، بينما أشق طريقي أنا وفيل بشكل منفصل"، لكنها شكت في أنه توقع ما ستقوله ورفضه.

قال فيل وهو يختلس النظر حول عمود ليرى ما يكمن تحتهم:

– "على الأرجح نحن في مكان أعلى من أن نحاول القفز من الجسر. همم. خزان آخر من تلك الخزانات الصناعية الضخمة. يبدو أنه يحوي الكثير من الماء، مما قد يخفف سقوطنا، لكن لا توجد طريقة لمعرفة عمقه. والعمود الذي سيطر عليه أولئك الجنود يكاد يلامس الجانب البعيد."

تساءلت إيرين إن كان هدوؤه مجرد واجهة. كانوا عالقين بين الدمار خلفهم والرجال أمامهم، مع بندول حلاقة يعد تنازلياً للوقت المتبقي لهم. كانت بحاجة للركض، للإسراع، لتجربة شيء ما، لو أنها فقط تعرف ماذا تفعل.

جاء صوت كاي آمراً فجأة:

– "انتظرا. دعوني ألقي نظرة."

انزلق كالأفعى نحو العمود التالي، ورفع نفسه ليفحص الماء بالأسفل.

– "همم. مائة قدم جيدة للأسفل. هذا لن ينفعكما، لا. لكن مسطح الماء هذا ضخم، يبدو كبيراً بما يكفي. وعميقاً بما يكفي."

سأله فيل:

– "عميقاً بما يكفي لماذا؟"

– "لإيقاظه. لا يوجد شيء حي هناك ليمنعني."

بدأت إيرين:

– "كاي..." لكنه كان يتحرك بالفعل.

– "ابقيا منخفضين."

بإيماءة لها ولـ فيل، نهض على قدميه، وتأرجح فوق الدرابزين في حركة واحدة. اصطدمت رصاصة، أُطلقت متأخرة جداً، بالحجر وفتتت جزءاً منه.

كبتت إيرين صرخة كادت تفلت منها، وهي تميل بين الأعمدة وتراقب كاي وهو يسقط. حول القفزة إلى غوصة برشاقة أي رياضي محترف وغاص في الماء. بدا وكأن الماء يرتفع لاستقباله، لامعاً كالزئبق السائل بينما اختفى هو في ظلمته.

للحظة لم يحدث شيء. انغلق حلقها، وبالكاد استطاعت البلع. أمسكت يدا فيل بأحد الأعمدة، واستطاعت رؤية مفاصل أصابعه تبيضّ من شدة الضغط.

ثم انتفخ الماء للأمام مشكلاً قبة، وارتفع كاي بداخلها. انجرف للأعلى دون أي جهد ظاهر حتى وقف على قمة القبة ذاتها، والماء يبدو صلباً كالزجاج. وجدت إيرين صعوبة في المشاهدة، حيث بدا الجنود المعلقون مقابل عمودهم قريبين جداً. لكن كاي رفع يده بينما كانوا يصوبون، وتدحرجت موجة عبر الخزان الغارق الضخم نحوهم. انطلقت كلسان أفعى، تكتسب سرعة كلما ارتفعت. امتدت للأعلى وللخارج استجابة لحركة يد كاي، وهوت على منصة الجنود الصغيرة بوزن غير طبيعي. شتت تدفق الماء شملهم، وتردد صدى الدوي الأجوف لسقوطه في أرجاء الكهف، مغطياً على صوت الصخور المتساقطة للحظة.

صاح فيل بحدة:

– "تحركي يا وينترز."

وكأنه لم يكن منبطحاً على وجهه يراقب كاي قبل لحظة. أمسك بكوعها لينهضها، وركض الاثنان بطول الجسر إلى السلالم في الطرف البعيد، يقرقعان نزولاً عليها دون أي محاولة للتخفي.

جاء كاي متمشياً عبر سطح الماء، الذي ارتفع الآن لمستواهم، لاستقبالهم. كان الماء يتدفق من ملابسه وشعره ويقطر من يديه، حتى تموج آخر جدول حوله كأفعى وتدفق عائداً إلى الجسم المائي الرئيسي الذي يحمله.

رفع يديه ليمررهما عبر شعره بتنهيدة وبلّغهم:

– "الحراس فاقدو الوعي أو مصابون. آه، هذا شعور جيد. لا أعتقد أن المياه بالخارج ستكون ممتعة هكذا. سيكون فيها الكثير من لمسة (الفاي)."

قالت إيرين، وقد خانتها الكلمات:

– "لم أكن أعلم أنك تستطيع فعل ذلك."

كانت تشعر بخفة في رأسها. ربما باتت لديهم فرصة الآن. كان بإمكانها تقبيل كاي – ثم تدخل منطقها السليم. هذا ليس الوقت المناسب.

تدخل صوت داخلي بشكل غير مفيد: ومتى هو الوقت أو المكان المناسب؟ لقد أنقذ حياتك للتو. إنه يقف هناك وثيابه ملتصقة به. الأمر ليس وكأنه سيحاول منعك. في الواقع، الطريقة التي ينظر بها إليك...

سأل فيل بإلحاح:

– "هل يمكنك فعلها مرة أخرى؟"

لف كاي كتفيه، وعضلات صدره تتقلص.

– "أوه نعم. المياه ستطيع إرادتي – هنا، على الأقل. قد أواجه صعوبة أكبر في الخارج."

حذرته إيرين:

– "لا أعتقد أنك ستكون قادراً على فرض سلطتك ضد (العشرة) في البندقية." ومرت اللحظة.

قال فيل، مشيراً لهم بالتحرك مرة أخرى:

– "كنت أفكر هنا، ليس هناك."

ارتجفت قطعة صخر وتشققت بعيداً بالقرب من قدميه، فأمسكت إيرين ذراعه لتثبيته.

– "وينترز، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، كان هناك مسطح مائي كبير آخر بالقرب من الدرج المؤدي إلى هذا المكان؟"

أومأت بالموافقة.

– "حسناً إذن، ماذا لو استطاع سترونغروك نقل الماء من حوضه ورفعه إلى مستوى ذلك الدرج؟ وحملنا معه؟ أعلم أنه يستطيع إبقاءنا آمنين في الماء، فقد فعلها من قبل. قد يستطيع (العشرة) إيقاف بضع بشر قادمين نزولاً على الدرج، لكنهم قد يواجهون صعوبة أكبر مع موجة مد عارمة تكتسح طريقنا."

وافق كاي:

– "أفترض أن الجاذبية ستتكفل بمعظم التهديدات."

تخيلت إيرين الأمر. المياه تندفع نزولاً عبر الدرج إلى ساحة القديس مرقس كسيل عظيم. أعجبتها الفكرة. لكن رغم تفاؤل فيل العابر، لم تستطع منع نفسها من الشعور بأنه قد تظل هناك بعض مشكلات السلامة الشخصية.

قالت بتفكير:

— "سنظل بحاجة للخروج من الكامبانيل إلى البندقية نفسها. سيكون من المدهش ألا يكون هناك حراس ينتظروننا بالخارج. لكن نعم، إذا كان زخم الماء عظيماً بما يكفي بعد تدفقه بطول البرج، فلن يتمكنوا من الوقوف في وجهه. كاي، هل يمكنك فعل هذا مع إبقائنا فعلياً — حسناً، على قيد الحياة؟"

أخذ كاي لحظة للتفكير في الأمر، وهو ما لم يكن مطمئناً بالقدر الذي تمنته إيرين، لكنه أومأ بعد ذلك.

— "قد يكون الأمر غير مريح، لكنكما ستكونان بأمان."

قال فيل:

— "ممتاز. آه، لقد وصلنا تقريباً. سترونغروك، بمجرد أن نعبر تلك المنطقة المفتوحة، سنصل إلى البحيرة الأخيرة التي ذكرتها. هناك جسر عالٍ أخير يقطعها، سيأخذنا تقريباً حتى المخرج. قد يكون لديهم حراس مسلحون متمركزون هناك — هذا ما كنت سأفعله. قد تحتاج لتهييج الماء لتغسلهم بعيداً أولاً. هل تظن أنك تستطيع فعل ذلك؟"

التفت ليلتقي بعيني كاي.

قال كاي:

— "سيكون ذلك من دواعي سروري. لكن هذا المكان ينهار. ماذا لو انتهى بي الأمر بإتلاف المخرج؟"

قالت إيرين بحزم، مقررة الاحتفاظ بمخاوفها لنفسها:

— "لا يزال خيارنا الأفضل. علاوة على ذلك، هل لاحظتما أن الهزات الأرضية قد خفت قليلاً؟ ربما كان هدفها دفعنا نحو الكمين..."

سقط المزيد من الحطام — كاد يسقط فوقهم هذه المرة — وارتجف الرصف الرخامي تحت أقدامهم، متشققاً إلى شظايا. جعلتهم هبة ريح ضخمة يترنحون جميعاً.

قالت إيرين بسرعة:

— "أو ربما لا. فلننجز هذا بسرعة."

لم تضف: لأنه ربما يستمع، لكنها استطاعت رؤية ذلك في وجوههم.

تحركوا للأمام معاً ركضاً. الحذر كان بلا طائل الآن، فصوت الحجر المتحطم والريح غطى على أي ضجيج يصدرونه — ولم يكن هناك أثر لحراس أو قناصة بينما كانوا يصعدون الجسر الأخير.

تقريباً لا أثر. التقطت إيرين ومضة حمراء، وكماً يُسحب بسرعة للاحتماء، واضحاً بعنف ضد الرخام عديم اللون.

سأل كاي، وصوته مضبوط ليكون مسموعاً بالكاد:

— "تظنين أن الطريق سالك؟"

قالت إيرين وهي تشير، وصوتها منخفض بنفس القدر:

— "لا، انظر هناك. سيكونون جالسين فوق المدخل، ينتظرون فقط قدومنا إليهم."

وافق فيل:

— "كان هذا محتملاً جداً. الآن، كما خططنا يا سترونغروك."

أومأ كاي. تاركاً آثار أقدام رطبة خلفه، انطلق عادياً إلى حافة الجسر وألقى بنفسه في البحيرة بالأسفل في غوصة سريعة، مختفياً تحت السطح. وبحركة كاسحة للأمام وللأعلى، بدأ الماء ينتفخ في موجة متنامية، تزداد ارتفاعاً مع كل لحظة.

اهتز طول الجسر المقوس تحتهم.

إذا تقدموا للأمام، فقد يركضون نحو كمين. وإذا بقوا حيث هم، فقد ينتهي الأمر بها وبـ فيل مسحوقين.

صرخت إيرين بأعلى ما تستطيع:

– "**أيهـــا الحجـــر، تماســـك!**"

لن يصل صوتها إلى السقف، لكن إذا تمكن فقط من إبقاء الجسر متماسكاً لفترة كافية، يمكن لـ كاي التعامل مع الجنود.

تناهت صرخات عبر ضجيج الصخور المتساقطة من أمامهم. تحت أقدام إيرين، ركض صدع طويل عبر الجسر، أسود ضد الرخام الأبيض، يخط طريقه عبره كخربشة طفل. أنّ الجسر تحتهم في هدير طويل من تكسر الحجر، لكنه بقي قطعة واحدة.

تبادلت إيرين وفيل نظرة، ثم قررا أن الكمين هو الخطر الأقل. كان الرصف الرخامي سطحاً متموجاً تحتهم وهم يركضون، لا يزال متماسكاً لكنه يرتجف ضد القوى التي تهدد بتمزيقه. كان من المستحيل تقريباً سماع أي شيء الآن، فوق قعقعة الحجر والريح الصارخة.

زأر كاي بصوت يكاد يكون أعلى من قدرة الرئتين البشريتين:

– "إلى هنا! لقد أخلت طريقنا!"

سُمع رنين واضح عندما ارتطم شيء بالدرابزين الرخامي بجانب إيرين. ظنت في البداية أنها شظية حجر؛ ثم ميزتها كرصاصة.

تمتمت:

– "أوه لا، لم يفعل."

صاح فيل عبر الريح:

– "قد يكون هذا أفضل ما يمكنه فعله."

كان قد توقف عند صوت الرصاصة، مثلها، وكان ينظر حوله بيأس.

– "وينترز، لا يوجد مخرج آخر من هنا. يجب أن نخاطر. هيا!"

كان ذلك صحيحاً تماماً. لكن أمين المكتبة لا يستطيع التحدث بسرعة كافية لإيقاف رصاصة. كانوا في منتصف المسافة تقريباً، لذا كان الطول المتبقي المعتبر من الجسر منحدراً، لكن ذلك لم يساعد كثيراً...

بلى، لقد ساعد.

صرخت:

– "كاي، استعد لالتقاطنا! **يا سطـــح الجســـر الرخامي، صـــر أكثر انزلاقـــاً بمائـــة مرة!**"

أطلقت نفسها في انزلاق يائس، وأوقعتها الهزة التالية على مؤخرتها. أدى ذلك فقط لزيادة سرعتها. كطفل ينحدر بتزلج على تلة، انزلقت بلا حول ولا قوة وبشكل لا يمكن إيقافه أسفل منحنى الجسر، أسرع بكثير مما لو كانت تركض. قذفها الحجر المرتجف أيضاً بشكل لا يمكن التنبؤ به من جانب لآخر. أملت أن يحبط ذلك القناصة وهي تندفع للأمام كالقذيفة. من الشتائم خلفها، كان فيل عاجزاً بنفس القدر عن التحكم في حركته، وتكسر وابل من الرصاص ضد الحجر على بعد بضعة ياردات خلفهم.

كان كاي واقفاً على السطح المتجعد الآن للخزان الغارق، حيث يلتقي طرف الجسر بالرصيف. وكان محاطاً بلفافة متحركة من الماء، شكلت نفسها كدرع حوله. كان نصف دزينة من الحراس ملقين فاقدي الوعي على الأرض، أو يئتون من آثار ضربهم بالموجة العملاقة. لا شك أن بارودهم كان مبتلاً مثلهم تماماً. وعلى بعد عشرين ياردة أخرى، كان هدفهم يلوح في الأفق أخيراً: الدرج المعدني الذي أحضرهم إلى هنا من البندقية، واقفاً منتصباً داخل الهاوية المظلمة الفاغرة التي تصبح الكامبانيل. الجسر المعدني الذي يمتد فوق تلك الهاوية ليتصل بالرصيف

كان أمامهم. أومأ كاي عندما لمحهم، وقفته مشدودة ومستعدة، وبينما كانت إيرين وفيل ينزلقان نحوه، قذف ذراعيه عالياً في الهواء.

انطلق الماء صاعداً حوله، مغلفاً إياه في عمود مائي صاعد. مثل إعصار غير طبيعي، تحرك الماء للأعلى نحو السقف البعيد بهدير كان مسموعاً حتى مع تساقط الحجارة. ثم توقف، وقوته مجمحة على حافة الانفلات. داخل قبضته، طفا شعر كاي حول رأسه وكأن ريحاً تذروه، وتموجت أكمام قميصه من قوة التدفق.

امتدت موجة لتبتلع إيرين وفيل، كانسة إياهما عن الرخام الأملس كالجليد وماسكة إياهما في قبضتها. أولئك الجنود الذين استطاعوا الحركة تدافعوا بحثاً عن ساتر، متخلين عن بنادقهم. صرخت إيرين والماء يغلي حولهم، وكافحت لإبقاء رأسها فوق الموجة، وتنورتها كتلة خانقة حول ساقيها.

رن صوت كاي في أذنيها، حتى عبر الماء المتلاطم:

— "استعدا! سأكون قادراً على التحكم في بداية النزول عبر الكامبانيل، لكن ربما ليس النهاية، لذا احبسا أنفاسكما!"

برزت فكرة هذا سيكون مؤلماً بوضوح وسط الفوضى. أفرغت رئتيها ثم سحبت أكبر قدر ممكن من الهواء، محاولة تخزين أكبر قدر ممكن من الأكسجين. كانت هي وفيل على ارتفاع عدة أقدام عن الأرض الآن، يسحبهم الماء نحو إعصار كاي. وهي معلقة فوق الأرض، شعرت بإحساس جديد بالرهبة. الأمواج الهائلة التي أثارها كاي كانت لا تزال تبدو ضئيلة مقارنة بضخامة هذا السجن، الذي كان مخصصاً لكيانات أضخم وأقوى منهم بكثير. أشياء، حتى لو تحررت، بالكاد يمكن أن تمر عبر درج صغير — كما كانت تأمل.

تقوست مياه الإعصار الزائف في قوس عالٍ فوق الجسر الحديدي، لتبقى متوازنة فوق الدرج حيث دخلوا السجن أصلاً. ثم هوت في الهاوية، تياراً متلوياً من الظلام السائل تمحور حول الدرج، جاعلاً الهيكل بأكمله يرتجف ويطن عندما ضرب الماء الحديد. كان الصوت عالياً جداً لدرجة أن إيرين رفعت يديها لتغطي أذنيها، محاولة حجبه. كان بإمكانها تخيل تدفق الماء وهو يتبع لولب الدرج. ستنبثق النوافير في كل الاتجاهات عبر الفجوات في الألواح، لكن القوة الرئيسية ستندفع دوماً للأسفل. وبينما يضيق العمود المظلم حول الدرج وينكمش ليعود لأبعاد الكامبانيل بالأسفل، سيكون هناك مساحة أقل للماء ليهرب. لن يكون هناك مكان يذهب إليه، سوى للأسفل وللخارج.

تمنت أن يمتلك أي شخص في الطريق الحس الكافي للركض.

ثم أومأ كاي نحوها ونحو فيل، وسحبهما الماء نحوه، كمجرد قشات علقت في تيار تحتي. أخذت نفساً عميقاً أخيراً، ومعدتها تعقدت في رعب خالص، ثم جرفهم اندفاع الماء ثلاثتهم بدوار عالياً عبر الهواء داخل قمع الماء. شعرت بالارتياح، لأنه طالما كان هناك هواء، فـ كاي يبقيهم آمنين كما وعد. تأرجحوا للأعلى وفوق الهاوية في قوس أملس واحد، كتحليق سهم، ثم غاصوا نزولاً في بئر الدرج.

في البداية كان الزخم سلساً بشكل مدهش. تكورت غريزياً، طاوية ذراعيها فوق رأسها وضامة نفسها في كرة. اختفى الضوء في لحظات، بينما جرف الماء ثلاثتهم حول المنعطفين الأولين في الدرج. لم يكن الأمر مثيراً للغثيان كما كان يمكن أن يكون. بدا أشبه بالانزلاق الموجه في زحلوقة حلزونية أكثر من أي شيء آخر، وكان من الواضح أن كاي يسيطر على الأمر. تشبثت بتلك الفكرة كتعويذة. كانت تنزل درجاً مرتفعاً للغاية تحت الماء بسرعة عالية في الظلام. لكن كان بإمكانها الوثوق بـ كاي. إنه يسيطر على الأمر، رددت لنفسها.



ثم فجأة أصبح الجو أبرد، ولم يعد الماء يحتضنها، بل ببساطة يحملها معه كقطعة من القش. لقد عبرنا الحدود إلى البندقية، فكرت بعبوس وهي تتمسك بآخر ما لديها من هواء. لا يمكن لـ كاي العمل هنا، لذا سيتعين علينا فقط اجتياز الباقي.

خبطها الماء الآن بالجانب الخارجي للدرج، ضارباً إياها نزولاً كحطام طافٍ وتدويرها أسرع فأسرع. ارتطمت بالدرج مرة أخرى، بالألواح، بالدرجات تحتها وبأسفل الدرج فوقها. كانت معظم الضربات على وركيها أو كتفيها، وأبقت رأسها مضموماً بإحكام، وأنفاسها تحرق رئتيها. لم يكن هناك مجال للتفكير، مجرد ذعر خالص وهي تتحطم نزولاً في الظلام.

فجأة بصقها الماء. قذفها دفق الماء خارجاً عبر رواق الكامبانيل الأنيق وبواباته المفتوحة وإلى الساحة وراءه. تدحرجت إيرين عبر الرصف لعدة ياردات قبل أن تتوقف. استلقت هناك في الماء الذي يجف، لا تزال متكورة، وأجزاء جسدها التي ارتطمت بالدرج تؤلمها. غسل الماء البارد خدها وهي تلهث طلباً للهواء. كان رأسها لا يزال يدور، وتقيأت، مفرغة القليل الموجود في معدتها على الحجارة المغسولة حديثاً.

كان فيل يصرخ بها، صوته يخترق الجلبة العامة:

— "وينترز! إلى هنا!"

نظرت حولها، مشوشة الاتجاهات. كان الليل حالكاً. ومضت الفوانيس وهي تتأرجح بجنون في الريح، وكانت الساحة في فوضى عارمة. مثلها، كان آخرون ممددين في الماء بينما كان آخره يتدفق خارجاً عبر الساحة. صب في المحلات والمباني العامة التي تحيط بها، أو جرى فوق الرصف وإلى البحر وراءه. كان الحراس بزيّهم الرسمي حول مدخل الكامبانيل يكافحون أيضاً للوقوف على أقدامهم. حجم الحشد أوحى بوجود غوغاء تقريباً — أو كان ليوحي بذلك، قبل إضافة فيضان هائل في

شبه الظلام. كانت غوغاء بالتأكيد الآن. حولت إضاءة البلدية الخافتة، جنباً إلى جنب مع الأقنعة التي كان معظم الناس يرتدونها، المشهد إلى كابوس.

كان كاي ملقى على وجهه، يئن. وفيل، الذي بدا محطماً لكن قادراً على الحركة، كان يضع إحدى ذراعي كاي فوق كتفيه ويحاول جره للوقوف. كون فيل لم ينجح في ذلك بعد، يشي بالكثير عن حالته هو الآخر. كانت ذراعه تنزف مرة أخرى. سحبت إيرين قناعها بينما تترنح لتنضم إليهم، مفاصلها تحتج مع كل خطوة، وحشرت كتفها تحت ذراع كاي الأخرى.

سعلت، متذوقة طعم المرارة مع كل كلمة:

– "صِلا.. صِلا إلى (القطار)."

انتهرها فيل:

– "لا داعي لتوضيح الواضح يا وينترز."

صاح اللورد جوانتيس من مكان ما في الظلام، وصوته غاضب أبعد من أي مظهر للسيطرة:

– "أمسكوا بهم!"

لا أظن أنني سأُدعى للأوبرا مرة أخرى.

ترددت إيرين، تحدد اتجاهاتها.

لهثت، مشيرة بيدها الحرة إلى حيث تقود الساحة نزولاً نحو الماء المفتوح:

– "هناك، إلى اليمين. ابقوا لليمين، وكأننا ذاهبون إلى مكتبة مارسيانا."

كان جسدها يؤلمها وكأن أحدهم ضربه بمنفضة سجاد.

نخر فيل:

– "بالطبع. سيظن جوانتيس أننا متجهون نحو مكتبة..."

كان يحمل من وزن كاي أكثر مما تفعل هي.

وفرت إيرين أنفاسها واكتفت بإيماءة حادة. كانت الغوغاء حولهم في كل مكان الآن، يتدافعون للخروج من الساحة. لم تكن هي وفيل الوحيدين الذين يسندون صديقاً شبه فاقد للوعي. حتى لو كانوا من بين أكثرهم بللاً.

أوحت صرخات الحشد خلفهم بأن أتباع جوانتيس يشقون طريقهم بالهراوات بسرعة – لذا احتاجت إيرين لإخفاء وجهتهم. ترنحت لتتوقف مع كاي وفيل بين فانوسين، قبل مخرج الساحة مباشرة. ثم أخذت نفساً عميقاً، مستجمعة قواها.

صرخت بأعلى صوتها:

– "**أيتهـــا الفوانيـــس، تحطمـــي وانطفئـــي!**"

حمل صوتها، حتى فوق ضجيج الحشد، وانفجرت الفوانيس بالأعلى منطفئة في وابل من الزجاج، وخمدت شعلاتها في نفس واحد. سقطت فوانيس أصغر أخرى في نطاق صوتها محطمة بشكل درامي، متفتتة حيث علقت في واجهات المحلات أو على الأكشاك، أو بينما كان يحملها الناس في الزحام.

أصبحت المنطقة فجأة أكثر ظلمة بكثير. وأصبح الغوغاء أكثر ذعراً وعرقلة، لكن لا يمكنك الحصول على كل شيء.

لهثت إيرين:

– "الآن نركض."

وركضوا بالفعل.

الفصل الرابع والعشرون

ركضوا هاربين عبر الظلام، الثلاثة يترنحون معًا. كان كاي شبه فاقد للوعي، أنفاسه تخرج لاهثة ومقرقعة في أذن إيرين، بينما كانت إيرين نفسها تتوق بشدة للانهيار ولو لبضع دقائق. لكن حتى لو استطاعت تجاهل اللورد جوانتيس وأتباعه الذين يطاردونهم، كان هناك شعور في الجو لم يعجبها، حدة محمومة تشوب الفوضى. كانوا على شفا أعمال شغب. أو شيء أسوأ.

بدت حجارة الرصيف وكأنها تسحب قدميها، لكنها صكت على أسنانها وواصلت السير. لن تكون السبب في القبض عليهم.

تمتم كاي:

— "مؤلم..."

لهثت إيرين مطمئنة، دون أن تكلف نفسها عناء التحقق من صدق ما تقوله:

— "لقد أوشكنا على الوصول. فقط اصمد قليلًا."

قال كاي، بصوت أوضح قليلًا الآن، وفيه نبرة ألم حقيقي:

— "لا... قدماي..."

توقف كل من إيرين وفيل، ودفعها فيل لتنظر إلى الأسفل. كان رصيف الطريق يرتفع حول حذاء كاي، وكأنه يقبض على قدميه وهو يغلي بطريقة مريبة في الظلام الدامس. نظرت إيرين بتوتر إلى قدميها، لكن أيًا كان ما يحدث، لم يبدُ أنه يؤثر عليها أو على فيل.

أخذ فيل نفسًا عميقًا وأمرها:

— "اتركيه يا وينترز. وكوني مستعدة لفتح الطريق أمامنا."

مع نخير جهد، انحنى وحمل كاي على كتفه بأسلوب رجال الإطفاء. بقع دماء جديدة لطخت الضمادة على ذراعه.

حسنًا. قد ينجح هذا. إذا لم تلامس قدما كاي الأرض فعليًا... كادوا يصلون إلى القطار. ربما خمس دقائق. لو تمكنوا فقط من الوصول.

شقت طريقها عبر الحشد، مستخدمة كتفيها ومرفقيها لفتح ممر لنفسها وللرجلين. خلفها، بدا الصراخ أعلى وأكثر توجيهًا، وحاولت ألا تفكر فيما سيحدث عندما يدرك جوانتيس أنهم لا يتجهون للمكتبة في الواقع. كان عليهم الوصول للقطار——واللورد جوانتيس قادر تمامًا على استنتاج ذلك. وأين الليدي جوانتيس؟ أملت إيرين ألا يكون جهلها بذلك قاتلًا.

بدت الأساور التي أعطاها إياها سيلفر وكأنها تهتز حول معصميها، تنبض بحرارتها الخاصة، وضغط قناعها على وجهها كيد خانقة. هل هي علامة على أن (العشرة) يبحثون عني أيضًا؟ تساءلت. يمكن أن يكونوا باحثين عن أي شيء لا ينتمي لهذا المكان. وليس هناك سوى هي وكاي هنا ممن ليسوا من الفاي أو البشر العاديين...

دفعت نفسها للأمام عبر الحشد وتعثرت في فراغ مفاجئ عند وصولها لجانب الماء. حتى الحشد كان لديه ما يكفي من الحس لعدم التدافع حتى الحافة، حيث امتد ظلام البحر في الأفق، وتلتقط قمم الأمواج ضوء الفوانيس في كشكشات شاحبة من الزبد. كانت أضواء الجزيرة في الخلفية مرئية كنقاط متوهجة بعيدة، تكسر امتداد الظل الطويل حيث لا يمكن تمييز سماء الليل عن البحر. كان القطار خطًا قاسيًا من الضوء ضد الظلام،

ونوافذه المضاءة تلمع كدعوة. لكن، من الناحية العملية، كان أبعد بمئة ياردة جيدة على طول الرصيف. على الأقل.

كان ضجيج الحشد يتغير، والتفتت إيرين لتنظر خلفها بينما سرت قشعريرة خوف أسفل ظهرها المبتل. كان هناك شيء ما في طريقتهم في التحرك—والكلام...

كانوا يتصرفون جميعًا بانسجام تام. كقطيع من الكلاب، يرفعون جميعًا شعيرات ظهورهم ببطء وهم يركزون على دخيل، كان الحشد يحدق بهم وكأن ذكاءً واحدًا يحرك كل فرد في الجموع. لمعت عيون أهل البندقية كعيون القطط في العتمة، وكانوا يتنفسون معًا—في همس مسموع أعلى من صوت تلاطم الماء. كان الهواء مشبعًا بانتباه غير بشري، حضور يجمد الدم ويشمل العقل بالذعر. (العشرة). (مجلس العشرة) وجدنا.

قال فيل بصوت خافت للغاية، وكأنه يخشى أن أي صوت أعلى سيفجر موجة عنف:

— "وينترز..."

بقيت عبارة "افعلي شيئًا" غير منطوقة.

رفضت إيرين بسرعة عدة احتمالات في رأسها. "اللغة" يمكنها تجميد الماء، لكن لا يمكنها تجميد البحيرة بأكملها، أو حتى ما يكفي للعبور إلى القطار. وتشويش إدراك هذا العدد الكبير من الناس يفوق قدراتها.

حتى المراكبية في الجندول كانوا يستديرون للتحديق...

كانت تتحرك قبل أن تفكر مرتين، رافعة تنانيرها وقافزة إلى أقرب جندول. لم يتوقع قائد الجندول ذلك، وصدمته بكتفها في معدته، دافعة إياه ليسقط في الماء وهو يترنح ويصارع لالتقاط أنفاسه. كان فيل خلفها مباشرة ويسحب كاي بالفعل إلى الجندول.

كان الحشد بأكمله لا يزال يحدق بهم في صمت مطبق. كان الأمر مشلًا للحركة. اختنقت إيرين، محاولة جعل فمها ولسانها يعملان بينما تصارع الأدرينالين الممزوج بالخوف، لكن الكلمات خرجت أخيرًا.

– "**حبـل الإرسـاء، انفـك. أيهـا الجندول الذي أقـف فيه، تحـرك نحـو القطـار.**"

كان الجندول يتحرك قبل أن ينفك الحبل (وكل الحبال الأخرى في نطاق السمع) تمامًا. للحظة مرعبة، توتر الجندول ضد مراسيه، لا يزال مربوطًا بالرصيف بينما اندفع الحشد للأمام بصرخة غضب واحدة متعددة الأصوات. استطاعت رؤية بياض عيونهم الواسعة الخالية من التعبير. حلقت طيور النورس صارخة من الأسطح والأفاريز، مندفعةً في حركة مفاجئة كزوبعة من الأجنحة الشاحبة في الظلام.

ثم انقطع الحبل، محررًا نفسه بانقطاعه، وارتج القارب منطلقًا في الحركة. انهار فيل في كومة مع كاي شبه فاقد الوعي، وسقطت إيرين على يديها وركبتيها بينما شق الجندول الماء كقارب بمحرك نحو القطار، وكان الانطباع مقنعًا لدرجة أنها كادت تصدق أنها تشم رائحة دخان.

اشتعل شك بغيض في عقلها، والتفتت لتنظر إلى كاي. كان خشب الجندول يتفحم ويدخن بالفعل حيث لمسه لحمه، وتلون مماثل كان ينتشر كطفح جلدي على جلده. إنه حساس تجاه هذا المكان بقدر حساسية المكان تجاهه. لم تكن هناك طريقة لإخفائه هنا والهرب لاحقًا. التفتت عائدة للقطار المقترب، بشعور ممزوج بالرعب والانزعاج من عقبة أخرى—كيف سيدخلون إلى الشيء فعليًا؟

ومع ذلك، التسلق إلى قطار من جندول محترق، عند مستوى البحر، كان مشكلة بسيطة مقارنة بما يتركونه خلفهم.

اصطدم الجندول بجانب القطار وتمايل بجنون، يرتفع وينخفض. في دعوة صامتة، فُتح أقرب باب للقطار فورًا، وأمسك به فيل، مثبتًا الجندول ضد جانب القطار بينما تسلقت إيرين إلى العربة. كانت قوارب جندول أخرى، مليئة بأهل بندقية زائغي العيون، تندفع عبر الماء نحوهم، في صمت مطبق كان مرعبًا أكثر من الصرخات أو التهديدات. سحبت كاي من كتفيه بينما دفع فيل، جارة إياه لداخل القطار بقوة معززة بالأدرينالين. بالكاد أدخلت جزءًا منه حين انهار الجندول المحترق تحت فيل. رمى بنفسه للأمام، متشبثًا بحافة المدخل بينما غاصت الألواح الخشبية تحته.

صرخت إيرين، تاركة كتفي كاي لتمد يدها إليه:

— "فيل!"

بصق فيل ماء البحر.

— "أستطيع التدبر." — قالها لاهثًا، راكلًا الماء ليرفع نفسه ويدفع جسده إلى العربة. — "اعتني بـ سترونغروك!"

جذبت إيرين كاي بجنون. كان ثقلًا ميتًا، وعيناه مغلقتان وجسده مرتخٍ، لكنها تمكنت من سحبه بالكامل لداخل العربة تمامًا كما أنهى فيل سحبَ نفسه للداخل أيضًا. من طرف عينها، استطاعت رؤية الحشد يقرع على أبواب جانب الرصيف. تجاهلتهم. لم تظن أن القطار سيسمح لهم بالدخول.

كان داخل القطار صامتًا، ووجدوا أنفسهم في عربة فاخرة، كلها مخمل عاجي وتجهيزات، مما جعل ملابسهم المبتلة والمشعثة تبدو أكثر نشازًا. لكن التحدي الآن هو الهروب من هذه البندقية قبل أن يتمكن (الراكب)، أو (العشرة)——أو أي شخص آخر——من إيقافهم.

حان الوقت. أخذت إيرين نفسًا عميقًا، ونهضت واقفة، وقالت بحزم:

— "أيها القطار، أيها الجواد، أيها الحصان... أو أيًا كان ما يجب أن أسميك به، أنا هنا لتحريرك لنتمكن من الهرب معًا. أرني كيف."

هزت صرخة العربة، أعلى من أن تكون بشرية، وصفقت إيرين يديها على أذنيها قبل أن تدرك متأخرة أن القطار ينفث بخارًا. هدأ الضجيج ليصبح ارتجافًا بالكاد محتملًا، والعجلات ترتعد في مكانها، لكنها لا تتحرك بعد بينما اهتزت المكابس في مساكنها.

سأل فيل دافعًا شعره المبلل عن وجهه:

— "لماذا لا يتحرك؟"

قالت إيرين:

— "لا أعتقد أنه يستطيع حتى أحرره."

نظرت حولها بحثًا عن أي مؤشرات واضحة وأملت ألا يتضمن الأمر الخروج مرة أخرى.

قطب فيل جبينه.

— "ماذا جربتِ من قبل——سرد قصة؟"

كبتت إيرين لحظة انزعاج من إخبار فيل لها بكيفية استخدام "اللغة"، وأومأت، مجمعة سردية. حسنًا، هذا هو الأمر.

— "وعادت الأميرة من سعيها، والأمير معها" — حسنًا، على الأرض — "وفارسها بجانبها."

لم تستطع المخاطرة بترك فيل خارج القصة، خشية أن يتركه القطار خلفه.

— "وقالت الأميرة للحصان: (أين لجامك وعنانك، لأحررك منهما؟)"

انفتح باب عربتهم على الممر. وبتنهيدة، رفع فيل كاي على كتفه مرة أخرى، مترنحًا تحت الثقل. كانت إيرين أول من عبر الباب——وانصفق

مغلقًا خلفها، كاد يمسك بأطراف أصابعها. استطاعت رؤية فيل وكاي على الجانب الآخر عبر نوافذ العربة، لكنها لم تستطع فتح الباب، مهما جذبت المقبض.

صرخت، وهي ترى وجوهًا في الظلام خلف فيل، على الرصيف خارج القطار:

– "اتركهم يذهبون!"

استقرت همهمة المحرك في إيقاع منتظم، اهتزاز تواق للمغادرة. ربما في هذه القصة كان على الأميرة تحرير الجواد بمفردها. لقد وثقت به حتى الآن—سيكون عليها فقط الاستمرار في الثقة.

بإشارة أملت أن تكون مطمئنة عبر النافذة، اتجهت إيرين عبر الممر.

قاد الباب في نهاية الممر إلى الظلام. ليس نوع الظلام الذي يمكن للمرء فيه تلمس طريقه بالكاد، بل ظلام دامس تام يوحي بأغوار تحت الأرض أو أقبية مخفية. لم تظن أن طلب تشغيل الأضواء سيكون مفيدًا كثيرًا.

بتنهيدة داخلية، خطت إيرين للداخل.

وجدت نفسها فجأة في عربة محرك القطار، التي كانت مظلمة أيضًا، لكنها استطاعت الآن الرؤية لمسافة أبعد قليلًا. كانت مليئة بعدادات وروافع معقدة، ومرجل يعمل بالفحم لتوفير البخار، والكثير من المكابس الزيتية اللامعة. نظرت حولها بحثًا عن أي أدلة واضحة للمضي قدمًا.

هناك. قفل فضي ثقيل وسلسلة مربوطان حول واحدة من أكبر الروافع، مثبتين إياها في وضعية عمودية. بدا الأمر زخرفيًا أكثر منه وظيفيًا، شيئًا يمكن لأي شخص رفعه بسهولة عن المقبض وإزالته. لكن، ذكرت نفسها، الرمزية قد تكون مهمة هنا. ذكرى سلسلة أخرى قبل أشهر، والفخ

الذي نُسج فيها، جعلتها تتردد. في تلك المرة أُصيبت بعدوى الفوضى الخام، ونجت فقط لأن كاي حررها. وهو ليس هنا الآن.

همهمت الآلات حولها. ثم انطلقت صرخة أخرى من صافرة البخار، وكأن—لا، كانت متأكدة من ذلك—القطار نافد الصبر من التأخير. لكن كيف كان من المفترض أن تحمي نفسها في بيئة عالية الفوضى، في حين يمكن لأي شيء تفعله أن يصيبها بالعدوى؟

حسنًا، ربما يمكنها تجربة حماية نفسها مسبقًا هذه المرة... غرفت بإصبعها كمية من الشحم الزيتي وكتبت اسمها بسرعة بـ "اللغة" على راحة يدها اليسرى، ثم كررت العملية على اليمنى. آملة أن تعريف نفسها بهذه الطريقة سيساعد في إبقاء الفوضى خارجًا. من الأفضل أن يفعل؛ لقد نفدت أفكارها.

نطقت وهي تثني أصابعها:

— "ورأت الأميرة لجام الحصان وعنانه."

همهمت الكلمات في فمها وتردد صداها في عربة المحرك بينما نطقتها.

— "وقالت للحصان: (الآن سأحررك من أسرك، وأنت بالمقابل ستساعدني ومن معي على الهرب)."

ارتفعت الهمهمة حولها، نابضة بصوت عالٍ بما يكفي لإيذاء أذنيها.

— "وأخذت الأميرة اللجام والعنان..."

كانت تضطر للصراخ الآن لتسمع نفسها فوق صوت المحرك. "اللغة" مزقت حلقها وضغطت على رئتيها. كان جسدها يتحرك بينما تتكلم، ولم تستطع، حتى من أجل سلامة عقلها، التأكد مما إذا كانت تتحرك بإرادتها أم لأن "اللغة" كانت تجبر الحركات عليها.

أغلقت يداها على السلسلة، وتحطمت الأساور التي أعطاها إياها سيلفر، متطايرة إلى شظايا ومتساقطة على الأرض في تناثر للحلقات. ذاب القناع المغطي لوجهها، مفتتًا إلى غبار التصق بجلدها المبتل. استطاعت الشعور باسمها بـ "اللغة" يحرق جلدها، لكن معدن السلسلة نفسه كان باردًا وعاديًا كأي شيء يمكن أن يكون هنا.

– "وسحبته من عنق الحصان..."

ارتفعت ذراعاها للأعلى، ساحبة السلسلة من حيث كانت تتدلى فوق المقبض المعدني كأنشوطة. للحظة طويلة بدت وكأنها تتشبث بقمة الرافعة، تجر ضدها وكأنها غير راغبة في الإفلات.

صكت على أسنانها وصرخت:

– "وتحرر!"

رن صوت رنين معدني صغير للسلسلة وهي تنفك عبر المقصورة، أعلى حتى من نبض المحركات. كانت الحلقات المعدنية زلقة ضد راحة يديها الآن، كزيت تجمد. التفت حول يديها، ملتفة حول معصميها بمودة تقريبًا.

ارتجف القطار طوليًا، وتذبذبت الحركة عبر العربة كفرقعة سوط. فقدت إيرين توازنها، وسقطت على ركبتيها. وكأنها كانت تنتظر لحظتها، اندفعت السلسلة نحو عنقها. صرخت بصدمة، مبعدة يديها المقيدتين الآن بإحكام بعيدًا عنها قدر المستطاع، ومتشبثة بيأس بالسلسلة لمنعها من الاقتراب أكثر. لامست أطراف السلسلة جلدها ببرودة، محاولة الاقتراب أكثر من حلقها.

فجأة انزلقت بين أصابعها، محررة معصميها، لكنها قذفت نفسها حول عنقها. تمكنت من إدخال أصابعها بين السلسلة وجلدها، لكنها

اشتدت ضدهم، قاطعة في لحمها في محاولة شريرة ومتعمدة للقتل. رن نبضها في أذنيها أعلى حتى من صراخ صافرة القطار.

أغلقت عينيها، دافعة الذعر للخلف، متمسكة بآخر خيط من الوعي. لا يزال هناك هواء في رئتيها.

لهثت، والكلمات تخرج في همس بالكاد مسموع:

– "**أيتهـــا السلسلـــة، ارتخـــي. ارتخـــي بمـــا يكفـــي لأتنفـــس**."

أرخت السلسلة قبضتها الخانقة، وتراجعت الأضواء الوامضة أمام عينيها. تحركت وانثنت ضد أصابعها، تتلوى حول عنقها وكأنها تحاول إيجاد طريق جديد للهجوم. إذا كانت حية بطريقة ما، فإن "اللغة" لن يكون لها تأثير دائم عليها. هل يمكنها رميها من النافذة ربما؟ أو، الأفضل، تدميرها؟ تأمرها بالتفكك؟ لكن ماذا لو أعادت تجميع نفسها؟

جذب باب المرجل نظرها، وترنحت نحوه وفتحته. اندفعت الحرارة للخارج، لافحة وجهها وجاعلة إياها تختنق مجددًا. اشتدت السلسلة وكأنها رد فعل، طاحنة أصابع يدها الأخرى ضد عنقها وجارة رأسها للخلف.

صرت على أسنانها، محددة بدقة قدر الإمكان:

– **"يا سلسلـــة الفـــاي الفضية، ارتخـــي! اسكنـــي! اثبتـــي!"**

ارتخت السلسلة بما يكفي لتنتزعها من فوق رأسها وتمسكها بقوة بكلتا يديها. كورتها وألقتها في الفرن، وقرقعت والتوت وهي تغادر يديها، محاولة التحرك والاندفاع نحوها. صفقت باب المرجل عليها، ويداها تؤلمانها من الحرارة الحارقة. طرقت على الباب، لكن بعد بضع ثوانٍ تلاشت آخر رناتها اليائسة.

ثم هبطت الرافعة العظيمة من تلقاء نفسها.

صرخت صافرة البخار، لكنها كانت صرخة تحرر بهيج، حرية جامحة سُمح لها أخيرًا بالانطلاق. اهتزت عربة المحرك بأكملها، وبدأ القطار في التحرك.

الفصل الخامس والعشرون

للحظة طويلة، لم تستطع إيرين فعل شيء سوى الانحناء، وإراحة يديها على فخذيها، والتنفس. كان القماش المبلل لتنورتها يلطف راحتي يديها الملتهبتين، وكان هناك خدر مؤلم عظيم في عقلها.

لقد فعلتها. القطار يتحرك. والثلاثة جميعهم على متنه بأمان. لقد فعلوها.

خارج النافذة لم تستطع رؤية شيء سوى ماء مظلم، يرتجف ويتلاطم، مع أضواء بعيدة تلمع على رغوة الأمواج. نأمل أن تكون رحلة العودة إلى لندن — عالم فيل — أسرع مما كانت رحلة المجيء إلى هنا في المقام الأول. لابد أن الغلاف الجوي للقطار سام لـ كاي تقريبًا بقدر سمية البندقية.

فتحت باب عربة المحرك، ثم ترددت. العربة التي تليها لم تكن تلك التي غادرتها للتو. لابد أن القطار أعاد ترتيب نفسه بطريقة ما، ليحضرها بسرعة إلى هذا الطرف من هيكله.

— "آه..." بدأت، وهي تشعر ببعض الحماقة لمخاطبة القطار بهذه الطريقة الحوارية. "من فضلك هل يمكنك إعادتي للعربة التي تحتوي على رفاقي؟"

كانت العربة صامتة.

حسنًا. كان ذلك على الأرجح لا، لذا أمامها مسيرة طويلة. الصراخ في وجه القطار سيكون مضيعة للوقت — لكن صفق الباب بقوة جعلها تشعر بتحسن.

تمامًا كما كان من قبل، كل عربة كانت مختلفة وتعرض مستويات جديدة من الفخامة. العنصر الرث الوحيد هنا كان هي. وبينما كانت تقطع طول القطار، بدا أنه يتحرك بشكل أكثر اضطرابًا من ذي قبل، بارتجاف واهتزاز قطار بخاري عادي. كل خطوة جعلت إيرين تترنح للحفاظ على توازنها.

المقصورة السادسة بدت فارغة أيضًا، حتى رأت شخصًا يتمدد باسترخاء على أريكة مخملية سوداء مع كأس من سائل أخضر شاحب. فقط لم يكن الشخص الذي كانت تتوقع رؤيته.

– "زايانا؟" قالت بذهول.

– "كلاريس!"

حاولت زايانا إخفاء كأس الشراب تحت الأريكة، لكن بعضه انسكب، وتركت القطرات المتناثرة علامات أزيز على السجادة. كانت قد عادت لارتداء البيكيني، وأطرافها البرونزية الطويلة معروضة بفن ضد سواد الأريكة، وشعرها ينسدل على كتف واحد.

– "كنت على وشك العودة للبحث..."

قطبت جبينها.

– "انتظري لحظة. كان من المفترض بي البحث عنكِ أنتِ."

– "حقًا؟"

حاولت إيرين التفكير في كذبة مقنعة.

– "حسنًا، لقد وجدتِني الآن، لذا لا داعي للقلق بشأن ذلك——"

ثم عمل عقلها. زايانا كانت على القطار، وتبحث عنها على ما يبدو. مما يعني أن آخرين سيبحثون عنها أيضًا. وعن فيل وكاي... هبطت معدتها.

— "لماذا كنتِ تبحثين عني؟"

أرادت بشدة أي إجابة عدا تلك التي توقعتها.

— "حسنًا."

كانت زايانا تفتل خصلة شعر بشرود، لكنها كانت تراقب إيرين أيضًا عن كثب من تحت رموشها المسبلة.

— "كانت هناك هذه الشائعة بأنكِ أنقذتِ التنين وكنتِ تهربين معه. يا عزيزتي. ونحن كنا معكِ سابقًا، لذا تَم تصنيفنا كمتآمرين محتملين — حتى وافقنا على المساعدة في البحث، فقط لنثبت مدى عدم تورطنا وعدم خيانتنا. يا عزيزتي."

بسطت إيرين ذراعيها على اتساعهما.

— "هل أبدو وكأنني أخبئ تنينًا في أي مكان؟"

— "لا،" قالت زايانا بسرعة. "سيكون ذلك لأنه محتجز الآن في مكان أبعد في القطار."

أخذت إيرين نفسًا عميقًا.

— "حسنًا إذن،" قالت، وفوجئت بمدى طبيعية صوتها.

أين كان السخط القالب للمعدة والمسبب للصداع — لا، بل الغضب العارم — عند وجود عقبة أخرى في طريقها، وتدخل لعين آخر من آل جوانتيس الملعونين؟

— "سأضطر فقط لفعل شيء حيال ذلك."

قطبت زايانا.

— "هل أنتِ متأكدة تمامًا أنه يجب عليكِ إخباري بذلك يا كلاريس؟"

— "انظري للأمر بهذه الطريقة."

سعت يد إيرين لمقبض المسدس الذي كان لا يزال مخفيًا بطريقة ما في تنانيرها المبللة. البارود سيكون مبتلًا تمامًا الآن، لكن زايانا لم تكن تعرف ذلك.

— "هل حقًا من مصلحتك الدخول في مواجهة مع شخص من نوع مسلح، وخطير، ومنقذ للتنانين مثلي؟ بجدية يا زايانا، ظننت أنكِ كنتِ تشتكين سابقًا لأنكِ لم تتمكني أبدًا من التفاعل مع الأبطال."

ابتسمت زايانا.

— "طوال عمري كنت أشتكي لأنني لم أحظَ أبدًا بفرصة إغواء الأبطال يا عزيزتي."

لوت خصلة شعرها مرة أخرى، وأسنانها تلمع وأكثر حدة قليلًا مما ينبغي.

— "لكن من اللطيف جدًا أنكِ كنتِ تستمعين حقًا."

قالت إيرين، مستسلمة ذهنيًا لاحتمال روتين إغواء غير ملائم:

— "سلميني لآل جوانتيس ولن تحصلي حتى على تلك الفرصة."

ومع ذلك، إذا كانت زايانا تشبه سيلفر في أي شيء، فربما ستستمتع بنفس القدر برفض إيرين لها — طالما كان الأمر دراميًا بما يكفي. لكن أولًا كان لديها هروب لتنظمه.

— "هل يوجد أحد في العربة التالية؟"

— "أتروكس فيروكس وأثانياس."

قطبت زايانا.

— "هل نتحدث عن إغواء جاد هنا؟ شيء حقيقي وعاطفي حقًا؟"

— "فرصة معقولة لحدوثه، إذا خرجنا من هنا أحياء."

قد تكون تبالغ قليلًا، لكن زايانا بدت وكأنها تصدق ذلك. ولكن إلى أي مدى يمكنها اقناع المرأة الأخرى؟

— "هل تعرفين ما إذا كان لـ أتروكس فيروكس أو أثاناياس رعاة يميلون للاستقرار، أم للحرب مع التنانين؟ وماذا عن راعيكِ؟"

عرضت زايانا دون تردد:

— "اللورد «القاضي» هو راعي أتروكس فيروكس، وهو يميل للاستقرار. لذا أتروكس فيروكس هنا للإبلاغ عن الأحداث، وليس بسبب أي تحالف مع آل جوانتيس دعاة الحرب. بلا شك يا عزيزتي، اللورد «القاضي» هو أحد تلك الكميات المعروفة التي يمكنك الاعتماد عليها. لكنني لا أعرف عن أثاناياس. أو راعيه. إذا كان لديه واحد."

— "وماذا عن راعيكِ؟" ألحت إيرين.

لم يكن لديها فكرة من هو اللورد «القاضي»، لكن حياده بدا مشجعًا.

تنهدت زايانا، وبدا تهدل كتفيها حقيقيًا تمامًا.

— "يا عزيزتي، هو لا يهتم. لهذا أرسل شخصًا مثلي بدلًا من أحد وكلائه الذين يثق بهم فعلًا. سينتهي به الأمر بالذهاب مع الأغلبية، كالمعتاد. بالطبع، لا يريدني أن أعرض مصالحه للخطر، لذا لا أريد أن أُضبط وأنا أفعل أي شيء لا ينبغي لي فعله، لكن عدا ذلك هو لا يكترث."

مما يعني عدم وجود فرصة لـ زايانا للتقدم... ما لم تعرض عليها إيرين فرصة للعب دور.

— "مما تقولين، هو ليس مهتمًا بالخاسرين،" قالت بلامبالاة. "إذا فشل آل جوانتيس، فلن يرغب في معرفتهم — سينكر حتى معرفتهم في المقام الأول."

قالت زايانا وعيناها تضيقان مرة أخرى:

– "حسنًا، بطبيعة الحال. ألن يفعل أي شخص ذلك؟"

– "صحيح."

كانت إيرين واعية لضخامة المخاطرة. لكن إذا نجحت، سيكون لديها فرصة فعلية. سحبت المسدس المبتل من تنورتها المتقاطرة وعرضته على زايانا، المقبض أولًا.

– "أحتاج لمساعدتك يا زايانا. كحليفتي. كصديقتي. أريدك أن تقفي خلفي وتستخدمي جسدي لإخفاء المسدس بينما أتحدث. وإذا لم ينجح الحديث، فسأحتاج منكِ تهديد الناس به."

ربما تلميح طفيف لتورط عاطفي قد يكون فكرة جيدة.

– "أرجوكِ؟" أضافت بأمل، مرفرفة برموشها بطريقة أملت أن تكون جذابة.

اتسعت عينا زايانا.

– "تريدين مني الوقوف خلفك بسلاح ملقم؟"

– "نعم،" قالت إيرين بحزم.

– "أوه يا عزيزتي."

ألقت زايانا بنفسها ضد إيرين، دافنة رأسها في صدرها ولافة ذراعيها حولها، متجاهلة أسمال إيرين المبتلة.

– "لم يقل لي أحد أبدًا شيئًا رومانسيًا كهذا في حياتي كلها."

فصلتها إيرين عنها برفق، منزعجة نوعًا ما من المسدس في يدها.

– "لنفعل هذا."

عقدت أصابعها ذهنيًا أملًا في أن تكون زايانا محقة بشأن حياد أتروكس فيروكس. فهو، في النهاية، الشخص الآخر الذي يحمل مسدسًا.

كان هو وأثاناياس يقفان في ممر العربة التالية عندما فتحت إيرين الباب، ورفع مسدسه فورًا. بدا مستقبليًا، وأنيقًا، وكبيرًا بشكل غير طبيعي — رغم أن ذلك قد يكون بسبب توجيهه نحوها.

رفعت يديها فوق كتفيها، واعية لـ زايانا خلفها مباشرة.

— "مساء الخير أيها السادة،" قالت بلطف.

— "كلاريس."

نظر إليها أتروكس فيروكس باتزان، وعيناه الداكنتان ضيقتان.

— "أم هل سيكون اسم آخر أكثر ملاءمة؟"

رائع، يتم تنميطي كجاسوسة بارعة في هذه القصة. أعتقد أنني فضلت أن يُستهان بي.

— "اسمي الحقيقي غير مهم،" قالت، هادفة لنبرة سلطة. "ما يهم هو سبب وجودي هنا."

تدخل أثاناياس:

— "مسألة خيانة عظمى، كما سمعت."

كان يرتدي عودًا معلقًا عبر جسده، وتوترت يداه فوق الأوتار وكأنه سلاح أيضًا.

— "هل هناك طريقة أخرى لرؤية الأمر؟"

خفضت إيرين يديها ببطء. لم يقم أتروكس فيروكس بأي حركة لإطلاق النار عليها، وكان إبقاؤهما مرفوعتين متعبًا.

— "شخصيًا، سأسميها محاولة إيقاف حرب. سواء كنت ستسمي ذلك خيانة عظمى أم لا يعتمد على الأرجح على سياساتك."

قال أتروكس فيروكس:

— "التوضيح سيكون مفيدًا. وإذا كان صادقاً سيفيد أكثر"

قالت إيرين:

— "اختطاف ابن ملك تنين لبيعه في مزاد لمن يدفع أعلى سعر هو حركة جريئة، سأعترف لهم بذلك."

التفتت لتواجه أثانياس، لكن أبقت أتروكس فيروكس في مرمى البصر.

— "قد تشعل حربًا. قد تشعل حتى حربًا يمكنكم الفوز بها. رغم أننا لن نخوض في العواقب بالنسبة للبشر العاديين عبر العوالم، أليس كذلك؟ سيكون ذلك محبطًا فقط. لكن اختطاف ابن ملك تنين ثم النجاح في فقدانه في وسط البندقية، في الأراضي الشخصية لـ «العشرة»؟ والسماح له بالهرب؟ لست منبهرة بشكل كبير باللورد والليدي جوانتيس، لست منبهرة على الإطلاق. إذا كان شخص ما سيبدأ حربًا، كنت آمل أن يكون شخصًا أكثر كفاءة قليلًا. القادة العظام حقًا لا ينبغي أن يتم إحباطهم بهذه السهولة. لو كنت مكانك يا أثانياس، لما سميت التدخل في مخططاتهم «خيانة عظمى». لسميته إجراءً بسيطًا سيوفر عليك الكثير من المتاعب لاحقًا."

قال أثانياس، وأصابعه تنجرف للأسفل، لامسة الأوتار:

— "لست مهتمًا بالفوز أو الخسارة في حرب. ربما مجرد المشاركة يكفي؟ من أجل الشهرة، من أجل القصة... لذا لست متأكدًا أنني أهتم حقًا بحجتك. إنها جهد لطيف، سأمنحك ذلك. لكنها ليست كافية لإنقاذك."

جاء صوت زايانا من خلف إيرين، قبل أن تتمكن إيرين من صياغة خط منطقي جديد:

— "ربما ليست كذلك. لكن هذا كافٍ. إذا عزفت نغمة واحدة، فسأطلق النار عليك."

ابتلع أثانياس ريقه.

— "أتروكس! لقد أصبحت خائنة هي أيضًا — أطلق النار عليها!"

قالت إيرين ببرود:

— "أطلق النار عليها، وستجر راعيها لهذا أيضًا. هل تريد ذلك حقًا؟"

انفعل أثانياس:

— "هي من تصوب المسدس نحوي، وليس العكس. وأما أنتِ — فنحن لا نعرف حتى من أو ماذا تكونين. على حد علمنا، أنتِ تنين آخر متنكر."

قالت إيرين متسائلة كم من الوقت لديها حتى يطلب أثانياس التعزيزات:

— "أنا متخفية فقط."

إذا كان هناك حراس في العربة التالية، فقد يتطلب الأمر صرخة واحدة فقط.

— "هذا لا يستحق وقتك. أفضل شيء يمكنك فعله هو التنحي والبقاء بعيدًا جدًا عن فشل آل جوانتيس. الناس يتذكرون الشهرة والقصص يا أثانياس، لكنهم يتذكرون الفشل أيضًا. اخرج بينما تستطيع."

رأت أتروكس فيروكس يتوتر، واستعدت للانحناء، لكنه تحرك في الاتجاه المعاكس، مديرًا مسدسه ليضرب بمقبضه رأس أثانياس في دوامة من الفولاذ الأسود والجلد. ترهل الرجل الآخر، وعيناه تنقلبان لأعلى في رأسه، وسقط العود ضد جسده بنعيق أوتار متنافرة.

أخذت إيرين نفسًا عميقًا قبل أن تقول:

— "شكرًا لك."

قال أتروكس فيروكس بحزم:

– "حجتك سليمة. لماذا إهدار الطاقة على قضية خاسرة؟ حتى الآن، لو أعيد السجين، فقد فُقد الكثير من القوة. اسم جوانتيس لم يعد كما كان."

وافقت زايانا:

– "أوه نعم. قفز من مقصورته في الأوبرا، وجُرف لنصف الساحة، واضطر للركض للحاق بالقطار – ليس ما يتوقعه المرء من راعٍ. يجب أن يكونوا فوق مثل هذه الأمور."

توقفت.

– "كلاريس، هل كان لكِ أي علاقة بأي من ذلك؟"

اعترفت إيرين بلامبالاة قدر استطاعتها:

– "قليلًا." مستمتعة بصورة اللورد جوانتيس وهو يُشطف عبر الساحة كخرقة مبللة.

لم ينكسر قناع أتروكس فيروكس الجامد تمامًا، لكن عينيه اتسعتا وبدا منبهرًا بشكل مرئي.

– "عندما شوهدوا آخر مرة، كان آل جوانتيس في العربة الرابعة للأسفل. كان لديهم سجينان – التنين، وآخر قواه غير معروفة لي. العربة محروسة. أيضًا، القطار مُطارد."

قالت إيرين بذعر:

– "مُطارد؟"

لم تظن أن الأمور يمكن أن تزداد سوءًا، لكن ها هم ذا. مجرد كرزة أخرى على الكعكة.

قال أتروكس فيروكس:

– "آخرون من بين عظمائنا يتدخلون. حتى أولئك الذين لم يكن لديهم اهتمام بالتنين سيرغبون في أخذ القطار لأنفسهم – ثم ربطه من جديد. و«الراكب» نفسه يأتي بقوة، لاستعادة ما هو له. ولهذا هو يهرب."

– "هل يمكنهم اللحاق به؟"

هز أتروكس فيروكس كتفيه، والضوء يلمع على التصفيح الفولاذي في بدلته.

– "ربما في غضون الساعة. وربما أقل، إذا حالفهم الحظ."

كبتت إيرين الرغبة في تمرير يديها خلال شعرها.

– "إذن، صحح لي إن كنت مخطئة. آل جوانتيس على متن القطار. لديهم رهينتان. هم في العربة الرابعة للأسفل من هنا مع... كم عدد الحراس الآخرين؟"

قال أتروكس فيروكس:

– "حارسان مسلحان. وسترينغتون. سأضع أثانياس لحظيًا حيث لن يُزعج."

فتح باب المقصورة وأودعه على أريكة كريمية اللون.

سألت إيرين محاولة تقدير معارضتها:

– "وكم عدد الحراس في كل عربة بيننا؟"

لكن مهما حسبت الأمر، بدت عبارة «أنتِ خاسرة» حتمية بشكل مقلق.

هز أتروكس فيروكس كتفيه.

– "نصف دزينة في كل عربة، ونفس العدد في العربات التي تليها. لابد أنكِ تركتِ انطباعًا قويًا جدًا."

كان حديثه أقل رسمية بكثير الآن، يأتي ويذهب، وتساءلت إيرين كم منه كان تصنعًا متعمدًا.

تنهدت زايانا واستندت لظهر إيرين، لافة ذراعيها حول عنقها.

— "يا عزيزتي، أكره قول ذلك، لكن هذا لا يبدو جيدًا. هل يمكنك سحر عيونهم؟"

اعترفت إيرين:

— "على الأرجح لا."

كان عددهم كبيرًا جدًا. تسابق عقلها عبر تكتيكات أخرى بدلًا من ذلك. لقد قرأت «صن تزو[18]» في النهاية، وكانت تعرف عدوها. بافتراض أن أتروكس فيروكس لم يكن يجهز فخًا — ناهيك عن زايانا، التي يمكنها الوثوق بها لمدى محدود فقط، إن وثقت بها أصلًا.

احتاجت للتفكير خارج الصندوق بطريقة ما. جعل أتروكس فيروكس وزايانا يرافقانها كـ «أسيرة» كان احتمالًا، لكن كان بإمكانها التفكير في طرق كثيرة جدًا قد تفشل بها الخطة.

شيء ما كان ينخس مؤخرة عقلها. خارج الصندوق. القطار كان أساسًا مجموعة من الصناديق. لذا هي بحاجة للخروج من القطار. لكن هل يمكنها...؟ نظرت لسقف المقصورة. كان هناك بابان مسحوران غير لافتين للنظر في السقف، واحد عند كل طرف من المقصورة.

حسنًا.

حثتها زايانا:

— "كلاريس؟"

وأدركت إيرين أنهم ينتظرون منها الكلام.

---

[18] صن تزو (*Sun Tzu*): فيلسوف وقائد عسكري صيني يُنسب إليه تأليف كتاب فنّ الحرب.

قالت:

— "أعتقد أن لدي فكرة." فكرة سيئة حقًا. "أحتاج لتقصير تنورتي، وأحتاج لدفعة للأعلى، وأحتاج لمسدس. أتروكس فيروكس، هل يمكنني استعارة مسدسك؟"

فكر للحظة، ثم سلمه لها.

— "إذا سأل أي أحد، سأقول إنكِ تغلبتِ علي وأخذتِه من جسدي،" حذرها.

قالت إيرين وهي تأخذه منه وتقدر وزنه في يدها:

— "هذا يبدو معقولًا جدًا. كم طلقة يحوي؟"

— "خمس عشرة. ستجدين أن ارتداده خفيف."

سألت زايانا:

— "ماذا تعنين بدفعة للأعلى؟ وأين دورنا في هذا؟"

أخرجت سكينًا من مكان ما — قررت إيرين عدم التساؤل كيف أخفته في البيكيني — وعرضته على إيرين.

دست إيرين المسدس تحت ذراع واحدة وبدأت بتقصير تنانيرها بوقاحة لمستوى الركبة بالسكين.

— "أعني أنني متوجهة لسطح القطار."

ساد صمت قاتل. أخيرًا قالت زايانا:

— "يا عزيزتي، هل أنتِ مجنونة تمامًا وكليًا؟ أعني، هذه شجاعة بشكل هائل منكِ، لكن——"

قالت إيرين والسكين يمزق تنانيرها المبللة، كاشفًا جواربها وحذائها:

– "القطار لم يحاول إيقافي حتى الآن. أعتمد على أن ذلك يعني أنني أستطيع التحرك على السطح. أنا ممتنة لما فعلتماه، لكن لا أريد توريطكما في المزيد من المتاعب."

كانت تلك كذبة، لكنها كانت أكثر أدبًا من محاولة التخلص منهما.

– "رغم أنه إذا تمكنتما من تدبير القليل من التشتيت، سأكون ممتنة."

أعلن أتروكس فيروكس:

– "ذلك يقع ضمن حدود اللياقة."

ضغطت زايانا بمفاصل أصابعها على فمها، وأسنانها تظهر بيضاء وهي تقضمها.

– "سأصرخ،" وعدت. "سنسحب بعض الحراس بعيداً عن الطريق. أوه، توخي الحذر يا كلاريس."

أنتِ تتبعين نمط «العذراء في محنة» بدلًا من وضع «الغاوية المظلمة» الآن، فكرت إيرين بسخرية. لكن كل ما قالته هو:

– "فقط توخيا الحذر."

دست مسدس أتروكس فيروكس في وشاحها.

– "كلاكما. من فضلكما."

أومأ الاثنان. ثم نزل أتروكس فيروكس على ركبة واحدة تحت الباب المسحور الأقرب، مقدمًا لها درجة ملائمة.

توازنت إيرين على كتفه، ناظرة للأعلى. كان الباب المسحور المستدير كبيرًا بما يكفي ليسعها بشكل مريح، بمزلاج ثقيل على جانب ومفصلتين سميكتين على الجانب الآخر. الميكانيكية كانت واضحة بما يكفي. الأدرينالين كان يغذيها مرة أخرى، ولذا، قبل أن تتمكن من تغيير رأيها، جذبت المزلاج بسرعة ودفعت، بقوة، المعدن البارد. تأرجح

متجاوزًا إياها بصرير عالٍ من المفصلات، وبملأ عويل الرياح المقصورة. لم يكن الأمر هادئًا بالضبطً – شيء يجب تذكره في الطرف الآخر.

نظرت لسماء الليل، المليئة بالنجوم والظلام.

– "الآن، من فضلك،" قالت.

نهض أتروكس فيروكس لقدميه تحتها، دافعًا إياها للأعلى بسلاسة. تلوتت خارجة لسطح القطار، وأصابعها تتلمس بحثًا عن ممسك.

كادت الرياح تمزقها عن السطح قبل أن تتمكن حتى من استعادة توازنها. سطحت نفسها بيأس ضد المعدن، منزلقة عبر سطح القطار بينما ارتطم الباب المسحور عائدًا لمكانه تحتها. دفعها زخمه لتصطدم بالسياج الزخرفي على أحد جوانب السطح، وتشبثت به بقوة الذعر. كان المعدن المصقول باردًا كالثلج، وللحظة بدأت يداها تنزلقان. أجبرت نفسها على الإمساك بقوة أكبر، وشفتاها تشكلان لعنات صامتة تذروها الرياح، فـ «اللغة» لا فائدة منها لها هنا. أخيرًا، تمكنت من حشر وركها في الفجوة الضيقة بين السياج وسطح القطار لتثبيت نفسها.

كثبان رملية شاحبة لا نهائية ومنحوتة مرت بسرعة تحت النجوم الباردة بينما حاولت إجبار نفسها على التحرك مرة أخرى. خوفها العملي والحاضر جدًا من الموت حارب حاجتها لإنقاذ أصدقائها. لكن الوقت كان ينفد. دفعت نفسها للأمام.

ضغطها تيار الهواء ضد السطح وكأنها في لعبة ملاهٍ متطرفة، لكن طالما بقيت مسطحة على السطح المعدني وهي تسحب نفسها، كان الأمر ممكنًا. ملأ صوت الرياح وعجلات القطار أذنيها، هازًا إياها حتى عظامها.

ثم حين وصلت لنهاية العربة، قبل القسم المغطى الذي يربطها بالتالية، رفعت رأسها لفترة وجيزة لتنظر بطول القطار. بدا وكأنه يمتد لعشرات العربات، تيار شبه لا نهائي من الزئبق والظلام يعبر الصحراء.

وراء ذلك، عند حافة رؤيتها مباشرة، رأت أتباعًا، وانقبضت معدتها. لم تستطع تمييزهم بوضوح، لكن بعضهم كان مظلمًا، وبعضهم ساطعًا؛ بعضهم ربما كان كلاب صيد أو ذئابًا، بينما آخرون ربما كانوا خيالة أو راكبي دراجات نارية، أو حتى سيارات. لكنهم كانوا منتشرين عبر الأفق، كلهم يتتبعون القطار بلا هوادة. وفي المقدمة كان شكل وحيد بمفرده، يركض على طول المسار.

«الراكب»، جاء لاستعادة «الحصان» وتحقيق قصته الخاصة.

رأت الفشل في تلك اللحظة. ما لم تتذكر شيئًا ما.

متخلية عن مقبض يد ثمين، كشطت أصابعها ضد وصلة في ألواح السطح المعدنية حتى شعرت بحافة خشنة تعلق بجلدها وتسيل الدم. ثم مدت يدها في صدر سترتها، واجدة القلادة التي أعطاها إياها عم كاي، وسحبتها فوق رأسها. علقت السلسلة في شعرها المتشابك والمعقد، واضطرت للجذب لتحريرها.

ماذا قال؟

ضعي قطرة من دمكِ عليها وألقيها للرياح...

طبقت إيرين يدها المكشوطة حول القلادة. لكن لم يحدث شيء. لم تكن هناك تغيرات درامية في درجة الحرارة، لا أضواء متوهجة — لا شيء. نوع من العلامة كان ليكون لطيفًا.

أرجوكِ فلينجح هذا، فكرت إيرين، وألقت القلادة في الظلام بالخارج. لمعت للحظة في نظرها، ربما شرارة سطوع من السلسلة الفضية، ثم اختفت.

تابعت الزحف أسفل القطار.

الفصل السادس والعشرون

بعد أن مرت خلال أربع عربات بعناء، كانت كل واحدة منها ترقص كالموت مع ترنح "القطار" واهتزازه العنيف، قررت إيرين أنها لا بد قد وصلت.

كان عليها الآن تفحص العربة من الداخل. ولحسن الحظ، صدقت الكليشيهات القديمة: الناس لا ينظرون للأعلى أبداً. ولن يتمكنوا من سماعها هنا في الأعلى أيضاً. تمركزت فوق الباب الأرضي الأقرب، وأحكمت قبضتها، وصرخت:

– "**أيها البـــاب الأرضي، صِـر شفافـــاً**."

استجاب الفولاذ. بدا الداخل دافئاً ومريحاً بشكل قاطع، بطريقة فولاذية داكنة. ربما كان ذلك بسبب الضوء الدافئ لمصابيح الغاز، والتباين مع الزحف البارد المظلم فوق العربات. والأهم من ذلك، منحتها زاوية رؤيتها مشهداً واضحاً لـ فيل وكاي. كان كلاهما مقيد اليدين والقدمين، ومعصماهما خلف ظهريهما. كانا ملقيين على الأرض في طرف العربة الأقرب إليها، وكلاهما بدا فاقداً للوعي. كانت ستيرينغتون تقف فوقهما، ومسدس مكشوف في يدها، في وضعية توحي بأنها قد تطلق النار عليهما لأدنى سبب. بدت، لعدم وجود كلمة أفضل، مشعثة. لذا يجب أن تكون خطوة إيرين الأولى هي تحييد ستيرينغتون، ومسدسها.

كان آل جوانتيس أبعد في العربة، باتجاه الطرف الآخر. كان اللورد جوانتيس جالساً، عابساً بحدة تجاه الرهائن، وكان تركيزه عليهم واضحاً. انظري بعيداً، حثتها غريزتها، وأجبرت نفسها على مراقبة الليدي جوانتيس

بدلاً منه. كانت المرأة تمشي ببطء من جانب لآخر في المقصورة، واضعة قدماً تنتعل خفاً رمادياً بتأنٍ أمام الأخرى. كانت جافة تماماً. (على عكس اللورد جوانتيس، الذي أظهرت ملابسه المخملية الفاخرة آثار بلل). حفت عباءتها الحريرية حول كاحليها وهي تمشي، وكان رداؤها الفروي مشدوداً بإحكام حول كتفيها؛ اشتدت يداها ذات القفازات على حوافه وهي تقول شيئاً لم تستطع إيرين سماعه.

صرخت إيرين بأهدأ صوت استطاعته:

– "**أيها الباب الأرضي، عُد إلى حالتك الطبيعية. وشكراً لك.**"

لم تكن تعرف مقدار الحرية الممنوحة لها لاستخدام "اللغة"، لكنها لم تكن لتجازف. ثنت يديها واحدة تلو الأخرى، لتستعيد بعض الإحساس بينما تستعد. حسناً. وضعها كان مأساوياً جداً. لكنها تملك عنصر المفاجأة، و"اللغة". ومسدساً.

رغم أن ستيرينغتون تملك مسدساً أيضاً. وربما الليدي جوانتيس واللورد جوانتيس مسلحان أيضاً.

ربما ينبغي أن تتأكد من أن لا أحد يملك مسدسات...

زحفت إيرين ببطء للخلف إلى حيث تلتقي العربتان. كان الفاصل مسقوفاً ومحاطاً بجدران من القماش، يتمايل بشكل ينذر بالخطر مع كل حركة لـ "القطار". لحسن الحظ، لم تكن بحاجة لاجتيازه، حيث كان هناك سلم فعلياً أسفل جانب العربة. كانت بعيدة عن الرياح وهي تتشبث هناك، وأزاحت شعرها المتشابك عن وجهها لتتمكن من الرؤية بوضوح.

كانت أقسام الوصل تفتح على ممرات العربات، بدلاً من المقصورات الداخلية. والممر سيكون مليئاً بالحراس، وفقاً لـ زايانا وأتروكس فيروكس. لكنهم لن يتوقعوا منها اقتحام جدار المقصورة – إذا

كان لديها ما يكفي من الأدرينالين المتبقي لاستجماع "اللغة" المناسبة. كان مقبض مسدس أتروكس فيروكس بارداً في يدها المتعرقة.

صرخت:

– "**جدار القطـــار الأمامـــي، افتـــح كبـاب واسمح لي بدخول العربة التي خلفك. ثم أغلـــق**."

لارتياحها، انفتح المعدن أمامها مطيعاً، وخطت إلى داخل العربة، على بعد ياردة واحدة فقط خلف ستيرينغتون والسجناء. تعثرت بسبب التوقف المفاجئ للضغط والرياح. لكن ستيرينغتون كانت تستدير بالفعل وترفع مسدسها، والليدي جوانتيس كانت تدور، ويدها تتحرك تحت ردائها، واللورد جوانتيس كان يقف. دحرجت إيرين مسدس أتروكس فيروكس أسفل المقصورة، مباشرة تجاه آل جوانتيس.

صرخت إيرين بينما كانت ستيرينغتون تصوب مسدسها نحوها:

– "**أيتهـــا المسدســـات، انفجـــــري**!"

دوت العربة بصوت كالرعد، واهتز "القطار".

كان الأمر فوضوياً. لم يكن هناك مفر من ذلك. صرخت ستيرينغتون من الألم بينما تحطم المسدس في يدها في زهرة من لهب. أمسكت بمعصمها الدامي، محاولة وقف تدفق الدم، والعظم يظهر أبيض من خلال اللحم النازف ليدها الممزقة.

كان اللورد والليدي جوانتيس ينهضان كلاهما عن الأرض. انفجر مسدس أتروكس فيروكس بعنف أكبر بكثير من مسدس ستيرينغتون، لكنهما لم يكونا قريبين منه بنفس القدر. كل ما تبقى من السلاح كان بقعة متفحمة، كبقعة غريبة، برزت بوضوح على الجدار الخلفي المغطى بالرمادي. مزقت شظايا المعدن وسائد الكراسي والسجاد السميك وخدشت الألواح الداكنة للنوافذ.

لكن كلا الزوجين جوانتيس بدا غير مصاب، باستثناء بعض الأضرار في ملابسهما. أياً كان ما تخفيه الليدي جوانتيس تحت ردائها، لم يكن مسدساً. سكين، ربما. لم تظن إيرين أنها من النوع الذي يسير غير مسلح.

– "**أيتهـــا الأبواب، أوصـــدي**."

سمعت نقرات بينما أغلقت أبواب المقصورة المؤدية للممر نفسها، مانعة أي أتباع من الدخول بحزم.

قالت إيرين بسرعة، وأذناها لا تزالان تطنان من الانفجار:

– "جربوا أي شيء، وسأفعل ما هو أسوأ. ستيرينغتون، اذهبي وقفي معهم."

ترنحت المرأة أسفل العربة نحو آل جوانتيس، ووجهها شاحب كالموت.

قال اللورد جوانتيس:

– "عزيزتي الآنسة وينترز. يبدو أنك استنفدت مواردك بالفعل."

تحدث بغطرسة عابرة، لكن الغضب العارم في عينيه والحدة في صوته فضحت تحكمه الهش بنفسه.

قاطعته إيرين قبل أن يتمكن من مباغتتها مرة أخرى:

– "لورد جوانتيس."

كانت الليدي جوانتيس تمنح كامل انتباهها لـ إيرين أيضاً، ولم يبدِ أي منهما حركة لمساعدة ستيرينغتون، التي كانت في حالة صدمة على الأرجح.

تابعت إيرين:

– "إذا أردت، يمكنني تحطيم النوافذ عليكما، وكسر الأرضية والسقف، وإشعال النار في الأثاث، وكسر كل عظمة من عظامكما."

وكان من الجيد أنها لم تكن تقول كل هذا بـ "اللغة"، لأنه لم يكن صحيحاً تماماً. لكن بعضه كان كذلك. ذهبت يدها إلى سكين زايانا، التي لا تزال عالقة في وشاحها.

– "ليس لدي أدنى وازع من استخدام كامل قواي."

سألت الليدي جوانتيس بتشكك وهي تتحرك ليمينها مبتعدة عن اللورد جوانتيس:

– "وهل يجب أن نفترض أنك خطيرة بقدر ألبيريتش؟"

كان هناك طرق على باب المقصورة.

أجابت إيرين:

– "يجب أن تفترضوا أنني خطيرة جداً بالفعل."

خطا اللورد جوانتيس خطوة لليسار. يحاولان تشتيت انتباهي.

قال بنبرة فضول مهذب:

– "إذن لماذا لا تستخدمين هذه القوى المذهلة؟"

– "سيعرّض ذلك جميع من في هذه العربة للخطر."

كان الطرق على الأبواب يزداد ارتفاعاً. أخذت نفساً عميقاً؛ كان عليها أن تبدو مسيطرة هنا.

– "لكن كوني سجينتكم سيكون أسوأ، لذا سأفعل إذا اضطررت. فهيا، لورد وليدي جوانتيس. أنا أطلب منكما أن تعرضا عليّ بديلاً أفضل. اسحبوا رجالكم. لنتحدث."

سألت الليدي جوانتيس ويدها تنزلق تحت ردائها مرة أخرى:

– "وإذا لم نفعل؟"

سحبت إيرين السكين من وشاحها:

— "إذن سأبدأ بأمر هذه السكين باختراق عين زوجك. ومهما حاولتِ يا سيدتي، سأسبقك."

لابد أن صدقها المطلق قد ظهر، حيث تباطأت الليدي جوانتيس، ويدها الآن ثابتة تحت ردائها، وأعطى اللورد جوانتيس زوجته إيماءة صغيرة.

من طرف عينها، رأت إيرين فيل يتحرك. رف جفنه مفتوحاً، ثم أغلق مرة أخرى — ليس الرمش المؤلم لشخص يستعيد وعيه ببطء، بل إشارة واضحة. إنه مستيقظ.

قال اللورد جوانتيس بحدة، رافعاً صوته ليصل عبر الباب:

— "أيها الحرس، تراجعوا! هذا أمر. الجميع، تراجعوا."

تردد صدى صوته في عظام إيرين، وكان عليها أن تصلب ذراعها لمنع يدها من الارتجاف.

— "سأنادي إذا كان هناك أي مشكلة إضافية."

حل الصمت في الممر، وقرقع "القطار" وهو يسابق الزمن، وظلال الأشجار العظيمة تتحرك وراء النوافذ. نظر اللورد جوانتيس لزوجته، ثم التفت عائداً لـ إيرين.

— "مقنع يا آنسة وينترز، لكنني لست على وشك الاستسلام."

قالت إيرين، وعقلها يسابق الزمن محاولة معرفة ما يجب أن تطالب به:

— "أنا لا أطلب الاستسلام. لابد أن هناك طريقة تمكن كلينا من الخروج من هذا. ربما تكون قد أشعلت حربك بالفعل. عائلة هذا التنين" —— وكزت كاي بقدمها —— "يعرفون بالفعل أنه خُطف بواسطتك."

رفع اللورد جوانتيس حاجبيه.

— "بواسطتي؟"

قالت إيرين بإنصاف:

— "وبواسطة الليدي جوانتيس، بالطبع. أراني عمه صوراً لكما. لم تعودوا بحاجة لـ كاي بعد الآن — لقد أوصلتم رسالتكم بالفعل."

عبس اللورد جوانتيس.

— "تقولين إنك حددتِ هويتنا شخصياً له؟"

— "أنتما مشهوران. كان لديه صور لكما. والمكتبة لديها سجلات عنكما. أنا لست الشخص الوحيد الذي وجه أصابع الاتهام. وحتى لو حدث لي شيء، ستظلان مسجلين كالمسؤولين."

قال اللورد جوانتيس بلطف:

— "إذن إطلاق سراحك لن يحدث فرقاً. وإذا تركناك تذهبين، سيكون لديك المزيد لتبلغي عنه."

وجدت إيرين نفسها تسترخي بحديثه، وعضت لسانها وهي تشعر بموجة من إرادته تغمرها. كلما سمحت له بالتحدث لفترة أطول، منحته فرصة أكبر لاستخدام سحره.

ضغطت قائلة:

— "لكنه لا يستطيع الوصول إليك إذا بقيت في عوالم الفوضى العالية، أليس كذلك؟"

بدأ اللورد جوانتيس:

— "ستفاجئين بمدى ما يمكن لملك تنين الوصول إليه..."

قاطعته الليدي جوانتيس:

— "حبيبي، لنبقى مع الأساسيات. لنفترض أننا عقدنا صفقة تسمح لكِ بالمغادرة. ما الذي سنحصل عليه منها؟"

كادت إيرين تتنهد بارتياح. ابتسمت مشيرة بسكينها:

– "حسناً، سأسمح لكما بالمغادرة."

قالت الليدي جوانتيس:

– "هذا كل شيء؟"

قالت إيرين بجمود:

– "يمكنكما صياغة الأمر كما تشاءان. أنا مهتمة فقط بالخروج من هنا ووضع كاي تحت حماية عمه. أريد قسمكما على سلامتنا. قولا إننا توسلنا، زحفنا، لويتمونا حول إصبعكما الصغير – قولا ما شئتما لـ (الفاي) الآخرين – لن نناقض ذلك. ادعيا أنكما تغلبتما علينا طوال الطريق. لن أجادل. لن أكون هناك لأجادل."

قال اللورد جوانتيس بتفكير:

– "قد يساوي ذلك شيئاً. أوه، توقفي عن النحيب واربطي يدك يا ستيرينغتون. لكنني سأحتاج للمزيد."

قالت إيرين بمرارة:

– "لقد قدمتما استفزازاً كافياً للحرب." ما لم أستطع إقناع عائلة كاي بأن عودته سالماً كافية لحفظ السلام...

– "لقد طاردتماني خارج البندقية. وكشفتما جاسوسة للمكتبة كانت تحاول التسلل بين (الفاي)، إذا أردتما صياغة الأمر هكذا. ويمكنكما بسهولة القول إننا أتفه من تضييع الوقت في مطاردتنا، أو بدلاً من ذلك نسب الفضل لأنفسكما في جعلنا نهرب. خياركما."

طالبت الليدي جوانتيس:

– "وما هو القسم الذي تريديننا أن نحلفه؟"

خطت خطوة تجاه إيرين، ويداها فارغتان الآن، وعيناها على السكين في يد إيرين.

علمت إيرين أن الأمر قد يفسد كل ما عملت لأجله إذا لم تضبطه بشكل صحيح. إذا سمحت الصياغة بأي مساحة للمناورة، فمن شيمة "الفاي" استغلالها.

— "أريد منكما كلاكما أن تقسموا بأن تسمحوا لنا — أنا، وفيل، وكاي" —— أشارت إليهم وهي تتحدث —— "بمغادرة هذا المكان هنا والآن، بسلام، دون منع أو عرقلة منكما أو من آخرين تحت إمرتكم أو متحالفين معكم، بفعلكما أو بتقاعسكما، للعودة بسلام إلى العالم الذي خُطف منه كاي."

عند هذه النقطة ستقوم بتهريب كاي، وفيل أيضاً إذا لزم الأمر، عبر أقرب مدخل للمكتبة. قد يضطرون لقضاء السنوات القليلة القادمة متخفين أو في زيارة عوالم أخرى، لكنهم سيكونون أحياء.

قال اللورد جوانتيس:

— "هذا تعهد شامل للغاية يا آنسة وينترز."

تراجع خطوة ليقف بجانب ستيرينغتون، ملقياً نظرة على يد المرأة المحطمة.

— "همم. وماذا ستتعهدين في المقابل؟"

قالت إيرين:

— "مغادرة هذا المكان دون اتخاذ أي إجراء إضافي ضدكما وضد من يخصكما. وسأتعهد أنا وحليفيّ هنا بعدم السعي للانتقام منكما، بفعلكما أو بتقاعسكما."

لن يعجب ذلك كاي، لكنه سيكون مديناً لها. ومع ذلك، ما ستفعله عائلته سيكون شأنهم الخاص. أملت إيرين أن يبقوا آل جوانتيس مرعوبين للقرون القليلة القادمة.

اقترحت الليدي جوانتيس:

— "لا عروض خدمة؟"

— "مطلقاً. أقسامي السابقة للمكتبة تمنع ذلك."

سأل اللورد جوانتيس:

— "هل تتحدثين باسم المكتبة؟ يبدو أنك تفاوضين نيابة عن نفسك هنا يا آنسة وينترز. أنا مندهش لسماعك تقدمين مثل هذه الاقتراحات الشاملة دون أي سلطة حقيقية. ماذا سيقول رؤساؤك؟"

شعرت إيرين بضغط إرادته مرة أخرى وعلمت أنه وجد نقطة ضعف. كانت هنا بمفردها. لقد هربت لإنقاذ كاي دون أوامر. إذا توصلت لصفقة خاصة معهم، فوق صفقتها مع "القطار"، فقد تكون في ورطة أكبر عندما تعود — إذا هربت أصلاً...

سحبت نفسها من حافة الشك الذاتي.

قالت بحدة:

— "هراء! هذا هراء كامل ومطلق. أعلم أن رؤسائي لا يريدون حرباً، وهذا ما يؤول إليه الأمر كله. ألقوا بكل التلميحات التي تريدونها. لكن افهموا أنني هنا والآن، أتحدث باسم المكتبة."

طنت الكلمات في هواء العربة كسلك عالي التوتر في عاصفة رعدية. وانتظرت أن تعاقبها "اللغة" على أكاذيبها، لكن الكلمات ظلت صادقة. كلاهما، اللورد والليدي جوانتيس، جفلا، وحتى ستيرينغتون، المشتتة بألمها، انكمشت على نفسها.

قال اللورد جوانتيس، وهالة قوته قريبة بشكل غير مريح:

– "الصفقة لا تزال لصالحك بشكل صارخ."

نظرت إيرين بعيداً عنه عمداً، إلى الليدي جوانتيس، التي كانت قريبة بشكل غير مريح أيضاً.

– "لكن ربما يمكننا التفاوض. مع لاعب مثلك على الجانب الآخر، قد يفكر المرء حتى في ترتيبات طويلة الأمد..."

قاطعته الليدي جوانتيس:

– "هذا سيفي بالغرض."

أخذت نفساً عميقاً.

– "حبيبي، يجب أن نفعل ما بوسعنا، بالخيارات المتاحة. أوصي بقبول صفقة الآنسة وينترز."

بدأ اللورد جوانتيس:

– "ربما..."

ثم أنّت ستيرينغتون من ألم خالص. نظرت إليها إيرين تلقائياً – ورأت أن اللورد جوانتيس قد انحنى ليطحن إبهامه في يد ستيرينغتون المهروسة.

كان ذلك عندما قامت الليدي جوانتيس بحركتها. اصطدمت المرأة بـ إيرين، مغطية المسافة بينهما أسرع مما ظنت إيرين أنه ممكن. طرحت إيرين أرضاً، مثبتة إياها بوزن جسدها. كافحت إيرين للحفاظ على قبضتها على سكينها بينما تمددت الليدي جوانتيس فوقها، لكنها تلقت ضربة كوع وحشية في معدتها، وكافحت لمجرد التنفس. ثم صدمت الليدي جوانتيس رأسها بالأرض، مكممة إياها بفعالية بساعد عبر فمها. أمسكت يدها اليسرى بمعصم إيرين الأيمن لأسفل، مبعدة السكين عن اللعب.

عضت إيرين بقوة وتذوقت دم الليدي جوانتيس.

كشرت الليدي جوانتيس، ووجهها بالكاد يبعد قدماً، والانتصار يلمع في عينيها وهي تضغط لأسفل بقوة أكبر.

– "توقفي عن تضييع وقتك يا آنسة وينترز. لستِ أفضل من أي شخص آخر – تتشتتين بسهولة بالغة. حبيبي، هل يمكنك المجيء وإفقادها الوعي من فضلك؟"

عضت إيرين بقوة أكبر ورفعت يدها اليسرى، لاوية ذراع الليدي جوانتيس اليمنى. لكن المرأة الأخرى كانت تملك ميزة القوة، والوزن، والرافعة. استطاعت إيرين سماع خطوات اللورد جوانتيس غير المستعجلة وهو يقترب، فوق أنين ستيرينغتون. كافحت بضراوة، لكنها لم تستطع إرخاء قبضة المرأة الأخرى. ثم وقف اللورد جوانتيس فوقها، مختاراً لحظته. حاولت إيرين نتر رأسها جانباً، لتحرير وجهها لتتمكن من الكلام، لكن الليدي جوانتيس أبقتها مثبتة.

لكن في طرف رؤية إيرين، تحرك فيل، ثانياً ساقيه ليصدم جانبياً اللورد جوانتيس، متدحرجاً مع الحركة ليضع وزنه فيها. سقط اللورد جوانتيس للأمام بنخرة ساخطة، متهالكاً ضد الليدي جوانتيس وإيرين. اختل توازن الليدي جوانتيس، وتمكنت إيرين من نتر رأسها لجانب واحد. سال الدم من ذراع الليدي جوانتيس من فمها، وبصقته إيرين وهي تصرخ:

– "**أيهــا (الفــاي)، ابتعـدوا عنـــي!**"

جاءت الكلمات دون تفكير، من مكان من الغضب والرعب، لكنها نجحت. أمسكت "اللغة" بآل جوانتيس وقذفت بهما كلاهما بعيداً عن إيرين – طارحة إياهما بعيداً، لتتركها ممدة على السجاد، تحاول استعادة أنفاسها. رأت فيل يكافح للوقوف على ركبتيه، وقد تمكن بطريقة ما من

مناورة يديه المقيدتين أمامه، لكن كاي كان لا يزال فاقداً للوعي. اشتدت يد إيرين على مقبض سكينها وهي تدفع نفسها لركبتيها.

ثم كان اللورد جوانتيس فجأة أمامها وأمسكها من حلقها. أمسك عنقها حيث حاولت السلسلة خنقها، وعلاماتها لا تزال ملتهبة، وجرها لتقف على قدميها، مجبراً رأس إيرين للخلف لتلتقي بعينيه، لكنها لم تستطع إخراج كلمة. ولم تستطع إدخال أي نفس. استطاعت الشعور بنبضها يطرق في دماغها، يقرقع أسرع من عجلات "القطار" — بينما ثبتتها نظرته كدبوس يخترق فراشة. كان يملك كل القوة الآن.

ومع ذلك كانت لا تزال تملك سكيناً.

رفعتها إيرين للأعلى وللأمام، لا تقاوم القبضة على حلقها، بل تتحرك بداخلها بدلاً من ذلك. كانت سكيناً حادة، وجيدة، وزلقتها للأعلى وداخل صدر اللورد جوانتيس، تحت الأضلاع وباتجاه القلب. كان الأمر وكأن أحداً رسم لها خريطة لتتبعها. كانت هذه هي الطريقة التي تنتهي بها هذه الحكاية الخرافية بالتحديد.

ارتخت قبضته وسقطت للأمام مرة أخرى، كل نفس مؤلم. سمعت الليدي جوانتيس تصرخ، لكنه كان مجرد خلفية للحثها الخاص طلباً للهواء.

ثم كان فيل بجانبها. استطاعت رؤية القيود على معصميه. أعادتها شرارة من المنطق السليم لنفسها، وهمست بألم:

— "**أيتهـــا القيــود، غادري معصمـــي وكاحلـي فيـل وكـاي**."

كانت الليدي جوانتيس جاثية على الأرض الملطخة بالدماء، تحتضن زوجها بين ذراعيها. كانت عيناه مغلقتين ولم يكن يتحرك، ومقبض السكين لا يزال بارزاً من صدره. بدا وكأنه لا يجب أن يكون هناك. غير لائق. بشري بطريقة ما.

نهضت إيرين على قدميها، مع فيل يسندها. أرادت التنصل من المسؤولية، قول "حاولت أن أعرض عليه صفقة"، لكنها لم تستطع إنكار واقع المشهد أمامها. كان هناك دم على عنقها من قفاز اللورد جوانتيس، ودم على يدها من ضربتها القاتلة. استطاعت الشعور به، رطباً ولزجاً.

أراحت الليدي جوانتيس رأس زوجها ببطء على الأرض وخلعت قفازه الأيمن من يده برفق، طاوية إياه وداسّة إياه في صدريتها. سالت الدموع على وجهها، لكنها كانت هادئة جداً — هادئة بما يكفي لجعل معدة إيرين تتقلص اشمئزازاً.

قالت:

— "لن أقاتل وأُقتل، لكن هذا لم ينتهِ."

أرادت إيرين قول شيء يخفف تلك الدموع وذلك الهدوء المريع ويوقف ثأراً خاصاً. لكن حتى "اللغة" لم تكن كافية.

قالت:

— "ارحلي. لن نوقفك."

أومأت الليدي جوانتيس. نهضت على قدميها.

— "ستيرينغتون؟"

— "آه، لا يا سيدتي."

كانت ستيرينغتون جاثية في المقعد في مؤخرة المقصورة، تبدو عاجزة عن الفعل سواء مع أو ضد أي شخص.

— "يؤسفني أنني يجب أن أسحب خدمتي. هذه اللعبة أكبر من طاقتي."

أومأت الليدي جوانتيس.

— "إلى اللقاء إذن. آنسة وينترز. سيد فيل. أيها التنين."

خطت عبر الباب، ويدها القفازة على المقبض.

– "لن أزعج نفسي بإطلاق حراسي عليكم. يبدو أن هناك القليل من الجدوى الآن، وأفضل تركّكم لمطاردين أكثر فتكاً بكثير. وسيكونون فوق رؤوسكم قريباً جداً."

ابتسمت حينها، وكانت ابتسامة تقشعر لها الأبدان.

– "إذا نجوتم منهم، فسنلتقي بالتأكيد مرة أخرى."

قالت إيرين:

– "**مزالــج البـــاب، افتحـــــي**."

آخر ما أرادته هو إبقاء الليدي جوانتيس في العربة.

خطت الليدي جوانتيس إلى الممر، مغلقة الباب خلفها.

سأل فيل:

– "هل نحن مطاردون؟"

قالت إيرين باقتضاب:

– "نعم. من قبل (الراكب) – والعديد من (الفاي) الآخرين. لابد أنهم فوق رؤوسنا تقريباً الآن."

شعرت فجأة بالإنهاك، ومواردها شبه مستنفدة. تذكرت الشخص الآخر في الغرفة.

– "ستيرينغتون، هل تشكلين خطراً علينا؟"

كانت ستيرينغتون تمسك بمعصمها مرة أخرى، محاولة وقف سرسوب الدم.

قالت:

– "أنا بالكاد صديقتكم." استطاعت إيرين رؤية كفاحها لتبقى مهذبة.

– "لكنني لن أحمل ضغينة لأنني ورطت نفسي في شؤون شخص آخر."

أومأت إيرين.

– "إذن من الأفضل أن نأمل فقط أن يوصلنا (القطار) لعالمنا قبل فوات الأوان."

عرضت ستيرينغتون بضعف:

– "لقد وصلنا إلى المجالات المتنازع عليها. قد يكون من الأفضل لكم القفز من (القطار) – والهروب سيراً على الأقدام. هم يعرفون أنكم هنا، بعد كل شيء."

سأل فيل:

– "وينترز؟"

هزت إيرين رأسها.

– "كانوا قريبين بما يكفي لأراهم. لذا إذا قفزنا الآن، سيلاحظوننا. لن ننجو أبداً."

قالت ستيرينغتون:

– "آه حسناً."

لم يبدُ أن هناك ما يقال لذلك، وخفضت إيرين رأسها بتعب. جسدها كله يؤلمها.

لم يكن هناك أي ضجيج من الممر بالخارج. لابد أن الليدي جوانتيس أخذت حراسها معها. كان هناك فقط طرقات "القطار". لقد نفدت أفكارها. لم يبق سوى الأمل.

حركت كلمات ستيرينغتون ذكرى. رفعت رأسها مرة أخرى وسألت:

– "المجالات المتنازع عليها؟"

أومأت ستيرينغتون.

– "تلك المجالات التي لا تنتمي بالكامل لا لنا ولا للتنانين. كلا الطرفين يمكنه العمل داخل هذه الأراضي."

كانت إيرين قد أرسلت نداء استغاثة واحداً. ربما حان الوقت للصراخ مرة أخرى، في حال كان أحد يستمع.

قالت:

– "عذراً."

ورفعت نفسها من حيث انهارت على أريكة.

– "فقط للتأكد من أننا فعلنا أقصى ما بوسعنا."

عرجت نحو النوافذ، مسندة يديها ضد إطار.

قالت وحلقها لا يزال ملتهباً ومكدماً:

– "**أيتهـــا النافـــذة، افتحــــــي**."

انزلقت النافذة لأسفل في إطارها، كاشفة عن المشهد المار. كانت غابة تعصف بها الرياح الآن، مليئة بأشجار داكنة وأوراق متطايرة. تساءلت عما إذا كان مطاردوهم سيبدون كـ "صيد بري" إذا استطاعت رؤيتهم الآن.

ركزت عقلها بينما التفت يداها بإحكام حول إطار النافذة. وصرخت بأعلى صوتها في الليل بالخارج:

– "**آو شون! ملك تنانين المحيط الشمالي!**"

اهتز "القطار" بضجيج كالرعد بينما انقضت ظلمة أعظم من الليل أو الغابة مع الريح، وأجنحة عظيمة مفرودة وهي تدور حول "القطار". كان سيلاً طويلاً من الظل، بجسد أفعواني أسود وأجنحة أبنوسية. لمعت عيون شاحبة ببرود حتى من تلك المسافة، وحام فوق "القطار" وهو يجري على

سكته بين العوالم. خلف "القطار"، تراجع مطاردوهم، والشخصية في المقدمة تبطئ بينما فرد التنين أجنحته.

ترنحت ستيرينغتون لتقف وتحدق للخارج، وجهها أبيض وعيناها متسعتان من الصدمة – وتحرك فيل للأمام ليضع ذراعاً داعمة حول كتفي إيرين. كانت بحاجة إليها.

بالكاد استطاعت إيرين سماع صوتها. ما تبقى من قوتها كُشط حتى الفراغ، وفقط ذراع فيل أبقتها منتصبة. لكنها تمكنت من القول:

– "أعتقد أن لدينا رفقة آمنة."



الفصل السابع والعشرون

دخل القطار إلى لندن وسط صرير وارتجاف، تمامًا كما وصل سابقًا. كانت إيرين تراقب من النافذة الناس وهم يهرعون على طول الأرصفة، والحراس يلوحون بالأعلام بجنون. كانت ساعة الذروة قبل الفجر، والسماء الشاحبة مشقوقة بخيوط الضوء الأولى، مع بقايا قمر يحتضر ينجرف داخل وخارج الغيوم.

استعاد كاي وعيه قبل حوالي نصف ساعة، لكنه تحرك وتحدث كرجل يعاني من نوبة إنفلونزا—يميل بجسده للأمام وكأن مفاصله تؤلمه، ويفرك جبهته باستمرار. كانت بشرته معلمة بكدمات وآثار حمراء تشبه الحروق. أطلعه فيل على مصير اللورد جوانتيس. اكتفى كاي بالإيماء، لكن عينيه تحولتا لبرهة إلى شيء غير بشري، متوحش ومشبع بالرضا.

حاولت إيرين نفسها النوم، لكن المفارقة أنها كانت منهكة لدرجة تعجز معها عن النوم. فكرة حمام ساخن تراءت في مستقبلها كوعد بعيد الميلاد أو كتاب جديد في سلسلتها المفضلة. وتخيلت البراندي أيضًا. لكن الأمان يأتي أولًا.

كان ظل التنين المرشد للقطار قد فارقه قبل عشر دقائق من الوصول إلى لندن، حين ذاب المشهد من بانوراما حضرية غير مألوفة إلى حقول ظليلة طويلة، ثم إلى معامل الغاز والمصانع التي تميز ضواحي المدينة. رأت إيرين تلك العيون الفضية البعيدة مرة أخرى، بينما انفصل الشكل التنيني الطويل وارتفع مبتعدًا، باسطًا أجنحة شاسعة بدت وكأنها تذوب في

غيوم رمادية ممطرة عند أطرافها. المستقبل يحمل في طياته مقابلة مع ملك تنين، ولم تكن تتطلع لذلك، حتى وإن نجحت في إنقاذ كاي.

قالت سترينغتون:

– "سأبقى مع القطار."

كان فيل وإيرين قد ضمدوا يدها أخيرًا أثناء الرحلة، وكانت تضم طرفها المضمد بحماية نحو صدرها.

– "لا شيء لي في هذا العالم."

أومأت إيرين. لا شك أن سترينغتون ستنقل التفاصيل الكاملة لما حدث إلى أسيادها من الفاي، لكن في هذه اللحظة، لم تستطع إيرين حمل نفسها على الاكتراث.

فتح فيل الباب المؤدي للرصيف، وتدفق هواء لندن إلى المقصورة، محملًا بكل روائح الزيت والبشر.

قال:

– "يجب أن نغادر وسيلة النقل هذه ما دمنا نستطيع."

تبعت إيرين كاي خارج المقصورة، مع إيماءة أخيرة لـ سترينغتون.

– "شكرًا لك." – قالتها للقطار وهم يغادرون—غير متأكدة مما إذا كان يستمع، لكنه خدمهم جيدًا في النهاية.

أطلق القطار البخار مرة أخرى وبدأ الحركة فورًا، عجلاته ترتجف على القضبان وهو ينساب خارج المحطة.

التفتت إيرين لتنظر إلى فيل وكاي. لم يختفيا بمجرد أن أدارت ظهرها لهما—وكانا جميعًا أحياء وبشكل ما قطعة واحدة. ثم لاحظت التحديق في اتجاههم. كانوا بالفعل في حالة يرثى لها، قذرين، وملطخين

بالدماء. وكان حارس يقترب، ناظرًا باستنكار لتنانيرها القصيرة، فاتحًا فمه بالفعل للشكوى.

قال فيل بنفاد صبر، قاطعًا تذمر الحارس بفعالية قبل أن يبدأ:

— "نعم، نعم، تمامًا. وينترز، أقترح أن نأخذ عربة أجرة."

قالت إيرين بحرارة، واعية بكل العيون المسلطة عليهم:

— "فكرة رائعة. ويجب أن نستخدمها لإعادة كاي إلى المكتبة فورًا."

بدأ كاي:

— "أوه، لا تبالغي..."

انفجرت إيرين غضبًا فجأة:

— "اسمع. لا أعرف كم من الفاي الآخرين يعرفون مكانك. لا أعرف ما قد يفعلونه. حتى أعرف، المكتبة هي المكان الوحيد الذي يمكنني إبقاؤك فيه آمنًا."

أدركت أنها تصرخ فخفضت صوتها:

— "أم هل لديك أي أفكار أخرى؟"

جاء صوت مألوف من خلفها:

— "ربما يمكنني المساعدة."

استدارت إيرين، مستعدة لإلقاء رد لاذع.

لكن لي مينغ كان يقف هناك. هو—أو هي (لم تكن إيرين متأكدة بعد من الضمير المناسب)—كان يرتدي ملابس لا تشوبها شائبة لهذا العالم، ببدلة رمادية فضية وربطة عنق سوداء. انحنى انحناءة رسمية لـ كاي، ثم نصف انحناءة لـ إيرين وفيل.

— "سموك، لدي وسيلة نقل محلية تنتظر بالخارج، ورتبت مكانًا يمكنك فيه مقابلة سيدي عمك. هناك مسائل حرب لمناقشتها."

اعتدل كاي في وقفته ورد بإيماءة مهذبة:

– "شكرًا لك، لورد لي مينغ. هذا لطف كبير منك. لكن أصدقائي..."

قال لي مينغ:

– "بالطبع يمتد عرض الضيافة لكم جميعًا."

تساءلت إيرين عما إذا كان حضورهم إلزاميًا. عبارة مسائل حرب كانت تتردد في رأسها كالرعد. لا، لا، لا. ظنت أنهم تجاوزوا ذلك. هل هي وفيل شهود؟ أم أن هذه الدعوة هي في الواقع نوع من الحجز الوقائي؟ لكن لم يبدُ هناك أي تهديد فوري في كلماته—أو على الأقل ليس تهديدًا لهم—ولا حتى تلميحًا لاستياء رسمي.

– "سيدي عمك يرغب في منح الاحترام الواجب لرفاقك. الآنسة وينترز والسيد فيل مرحب بهما جدًا."

قال فيل:

– "شكرًا لك. أنت لطيف للغاية."

نظر كاي إلى إيرين طلبًا للموافقة. يضع المسؤولية عليّ مجددًا، فكرت بمرارة. حين أعطته نصف إيماءة، التفت عائدًا لـ لي مينغ.

– "إذن يسعدنا القبول."

كانت رحلة العربة مشحونة بالتوتر. رفض لي مينغ مناقشة مسألة العداوات بين الفاي والتنانين، مدعيًا أنها مسألة تخص عم كاي، وبدلًا من ذلك استجوب كاي حول الأحداث الأخيرة. جلس فيل متجهمًا في الزاوية، يمسح لي مينغ من حين لآخر بتلك النظرة المتفحصة التي توحي بأنه يجمع البيانات. قدم كاي نسخة مختصرة عما حدث، فاركًا كدماته دون وعي.

وجلست إيرين في الزاوية المقابلة لـ فيل تفكر في الحرب. بالتأكيد سيكون آو شون مستعداً لقبول حل سلمي؟ لقد أنقذوا كاي. أم أن بعض التنانين يريدون الحرب بقدر ما يريدها بعض الفاي؟

إذا أراد ذلك، فإن هذا العالم، ومئات غيره مثله، قد يكون محكومًا عليهم بالفناء.

حجز لي مينغ جناحًا في فندق سافوي. الخدم الموثوقون لملوك التنانين يملكون على ما يبدو حسابات نفقات ضخمة، فكرت إيرين بحسد—فهي بالتأكيد لم تكن لتتحمل تكلفة إقامة بهذا المستوى. كانت الغرفة جميلة جدًا، بيضاء ومذهبة بالكامل، مع سجادة خضراء فاتحة نظيفة لدرجة بدا معها المشي عليها جريمة. الستائر المخملية البيضاء الثقيلة كانت مسحوبة بأناقة عن النافذة، وجعل ضوء الصباح المكان كله ساطعًا جدًا. كانت هي وفيل وكاي بقعًا فوضوية في أناقتها الباهظة. بقع مع قهوة، مما ساعد قليلًا.

ثم قاطع لي مينغ أفكارها بالإعلان الذي كانت تخشاه سرًا:

— "جلالة ملك المحيط الشمالي يشرفكم بحضوره."

نهضت إيرين، ثم انحنت في تحية ملكية كاملة، واعية لـ فيل وهو ينحني بينما انفتح الباب.

ضم كاي قبضته اليمنى لكتفه الأيسر وجثا على ركبة واحدة بعفوية تامة، حانيًا رأسه.

— "سيدي عمي. حضورك شرف لا أستحقه. أطلب عفوك عن أي إزعاج قد سببته لك."

نظرت إيرين لأعلى من خلال رموشها، منتظرة إشارة للنهوض، ومصلية أن تأتي قبل أن تتشنج ساقاها وتفقد توازنها.

مثل لي مينغ، كان آو شون مرتديًا ملابس تناسب هذا العالم، لكن بدلته السوداء الحالك التي لا تشوبها شائبة، مع الوشاح الحريري الأبيض، لا يمكن أن تكون إلا من خياط ملكي. ظهر أيضًا بهيئة بشرية كاملة هذه المرة، كما لاحظت إيرين بارتياح، رغم أن التأثير المهيب لحضوره لم يقل إلا قليلًا نتيجة لذلك.

قال أخيرًا، مشيرًا لهم بالوقوف:

— "لكم شكري على أفعالكم في الدفاع عن ابن أخي. لقد جئت لمناقشة ما حدث، قبل طرح مسألة الحرب مع إخوتي."

قالت إيرين، ورأت كاي يكبت تشنجًا. بلا شك ليس من اللائق لأي شخص غير الملك أن يقود الحديث.

— "جلالتك، أطلب إذنك للتحدث."

صوب آو شون نظره إليها، وشعرت وكأنها في مرمى مدفع.

— "أفعالك استوجبت اعتبارنا. ما الذي يقلقك؟"

قالت إيرين، مراقبة إياه بينما تتحدث، محاولة قياس رد فعله على كلماتها، باحثة عن أي تلميح لمشاعر:

— "جلالتك، الاختطاف كان بسبب شخصين فقط. أحدهما ميت الآن على يدي. والأخرى أقرت بهزيمتها وهربت. ابن أخيك عاد إليك. كما ساعدنا آخرون من الفاي ممن لم يسعوا للحرب. جلالتك، أنا لا أطلب الرحمة لصالح الفاي. لكني أتوسل إليك أن تنظر لكل البشر في كل العوالم بينك وبينهم. أرجوك، لا تجعل هذا سببًا للحرب. سيكون رد فعل غير متناسب."

بحثت عن كلمات قد تؤثر في تنين:

— "و، أظن، غير عادل."

اشتعلت عينا آو شون باللون الأحمر عند كلمة غير عادل، وأظلمت السماء بالخارج استجابة لذلك بينما حجبت الغيوم المتجمعة الشمس.

– "كلماتك مسموعة. ومنظورك طبيعي، كواحدة من المكتبة."

شعرت إيرين بضغط استيائه، جاثمًا بثقل خطير في الهواء، واضطرت لإجبار نفسها على المتابعة.

– "بالطبع يا جلالتك، أنا موالية للمكتبة. وبصفتي هذه، يمكنني ويجب عليّ التحدث لمصلحتها. لكني أود القول أيضًا إن الفاي عانوا من انتكاسة شديدة، مما يثبت أنه من غير الحكمة اختطاف أي تنين، ناهيك عن واحد من سلالتك الملكية. أرجوك اعتبر هذا كافيًا يا جلالتك."

أدار آو شون رأسه قليلًا، ناظرًا بعيدًا عنها.

– "لقد قمتِ بواجبك تجاه ابن أخي كطالبتك. مسؤولياتك في هذا الأمر انتهت. لا حاجة لكِ لاتخاذ إجراءات أخرى."

استطاعت إيرين رؤية كاي ينظر إليها، بتعبير أرجوكِ، أرجوكِ اخرسي الآن على وجهه. على جانبها الآخر، كان فيل جامد الملامح.

– "لقد أتممت واجبي تجاه طالبي. ولدي أيضًا واجب تجاه المكتبة، وتجاه الناس في العوالم التي تمسها."

خاطب آو شون كاي، وصوته يحمل حدة واضحة:

– "وماذا عنك يا ابن أخي؟"

امتلأت الغرفة فجأة بتوتر كثيف——ضغط على إيرين، واستطاعت رؤية أن فيل يضطر لتربيع كتفيه ليصمد أمامه. ارتعش الرعد في الهواء بالخارج.

– "هل لديك أي أفكار حول هذا الأمر؟"

تحرك حلق كاي وهو يبتلع ريقه.

— "سيدي عمي..." — تلعثم، ثم قوى صوته. — "معلمتي تتحدث بصدق. سيكون من الظلم أن يلحق الأذى ببشر لم يكن لهم يد في هذه العداوات. أولئك الفاي المسؤولون دفعوا ثمن أفعالهم. الزمن سيثبت صحة طريقنا وضعف طريقهم. إذا كان لابد من القصاص، فليقع اللوم عليّ لحماقتي في السماح بأسر نفسي."

قال آو شون، والهواء يرتجف قليلًا عند كلماته:

— "حماقتك، أم إهمال معلمتك؟"

قالت إيرين بحزم، وطعم الخوف مر في فمها:

— "سأتحمل المسؤولية عن أي خطأ يخصني."

قال فيل:

— "بالتأكيد أصدقاؤه يجب أن يتحملوا بعض اللوم أيضًا يا جلالتك. أمثالي، على سبيل المثال."

نظر آو شون بين الثلاثة. كانت أنماط الحراشف تظهر عبر جلد خديه ويديه، وأظافره أطول وأغمق مما كانت عليه قبل لحظة. انكسر المطر ضد النافذة بصفعة ريح.

كان هناك طرق على الباب.

تحرك لي مينغ ليفتح.

— "أخشى أنك أخطأت الغرفة..." — بدأ.

— "لا أظن ذلك."

كان صوت كوبيليا. كوبيليا، هنا. شعرت إيرين وكأنها تستطيع فجأة التنفس.

— "اسمي كوبيليا، وأنا من كبار أمناء المكتبة. أطلب مقابلة جلالة ملك المحيط الشمالي."

قال آو شون قبل أن يستدير لي مينغ حتى لاستشارته:

– "لتدخل. أرحب بنصيحة كبيرة أمناء من المكتبة."

دلفت كوبيليا إلى الغرفة، بملابس أنيقة من ثوب مخملي داكن وعباءة مناسبة لتحية الملوك، ويدها الخشبية مخفية بقفازها. ورغم أن ظهرها كان مستقيمًا بصرامة، إلا أنها استندت على عصا برأس فضي وهي تمشي. التهاب مفاصلها يؤلمها مجددًا. داخل المكتبة، كانت معلمة وصديقة. خارج المكتبة، كان من الأصعب نسيان أن كوبيليا امرأة عجوز للغاية، راكمت سنوات من الإصابات كأمينة مكتبة ميدانية.

أعطت آو شون نصف انحناءة، مضطرة لدعم نفسها بعصاها.

– "جلالتك. أرجو أن تغفر لي قلة رسميتي. كنت لأنحني بشكل لائق لو كنت شابة مثل هؤلاء الأطفال."

قال آو شون:

– "لا حاجة للغفران. حضورك مرحب به للغاية. هل تتفضلين بالجلوس؟"

كان المطر يخف بالخارج.

إنه يعاملها كسفيرة محترمة، إذن هي بالتأكيد في مرتبة أعلى مني، قررت إيرين. لكن الحمد للرب أن كوبيليا ظهرت.

قالت كوبيليا:

– "أنا هنا لفترة وجيزة فقط يا جلالتك. جئت لاصطحاب زميلتي للمثول أمام تحقيق رسمي. آمل ألا يكون ذلك غير ملائم؟"

شعرت إيرين بالدم يهرب من وجنتيها. إذن عليها مواجهة عقوبة عما فعلته. حاولت إقناع نفسها أنها كانت تتوقع ذلك طوال الوقت، لكن المحاولة بدت جوفاء. لم تكن مستعدة على الإطلاق.

قال آو شون:

– "ليس لدي سبب للشكوى من أفعالها. لقد تصرفت بشكل لائق طوال الوقت، وأدين لها بامتناني لما فعلته."

هتف كاي:

– "مدام كوبيليا، لا يمكنك فعل هذا! إيرين فعلت كل ما بوسعها لإخراجي من هناك. لم يكن خطأها أنني اختطفت. إذا كان يجب لوم أحد على هذا، فهو أنا."

صفق آو شون بيده المفتوحة على ذراع كرسيه.

– "كاي. صمتًا!"

بدا مندهشًا أكثر منه غاضبًا من أن كاي امتلك الجرأة ليتحدث فعلًا.

– "إذا كان هذا شأنًا داخليًا، فليس من مقامك التدخل."

قال كاي، وجلده يبدأ في اتخاذ مسحة تنينية هو الآخر:

– "لا أزال متدربًا في المكتبة. ما لم، وإلى أن أُزاح من هذا المنصب، الذي وافق عليه والدي بنفسه..."

ترك الجملة معلقة بمعنى واضح.

حاولت إيرين تفسير نظرة الإحباط المربك المفاجئة على وجه آو شون. والد كاي هو شقيقه الأكبر. ومن حيث احترام التنانين للتسلسل الهرمي الذي رأته، هذا يوحي بأن آو شون لا يستطيع مناقضة أوامره. الوضع كان يتدهور بسرعة نحو طريق مسدود لا رابح فيه.

شخص ما يجب أن يتحمل المسؤولية.

قالت إيرين:

– "بالطبع سأعود للمكتبة."

قطع آو شون وكاي تحديقهما المتبادل لينظرا إليها. خاطبت كوبيليا:

— "أعترف أنني كسرت قواعد المكتبة بزيارة عالم عالي الفوضى دون إذن. وأقر أيضًا بأنني فشلت في الإشراف بشكل صحيح على متدرب كان تحت مسؤوليتي، مما أدى لاختطافه من قبل أفراد من الفاي، وأوشك أن يقودنا هذا إلى حرب."

قالت كوبيليا:

— "هذه تهم خطيرة."

كان صوتها صارمًا كقاضي إعدام، لكن كان هناك بريق في عينها ميزته إيرين كاستحسان.

— "جلالتك، يجب أن أطلب إذنك للمغادرة. إيرين وأنا بحاجة للعودة بأسرع ما يمكن."

كان آو شون يقطب جبينه. لديه نفس تكشيرة كاي، الآن وقد فكرت إيرين في الأمر.

— "هل من الضروري لها أن تعود؟ ربما يمكن ترتيب مهمة منفصلة؟ لا أرغب في رؤيتها تعاقب على أفعالها. بل ويسرني أن تكون في خدمتي الخاصة."

قالت كوبيليا:

— "جلالتك كريم للغاية. أفعالها جدية جدًا. وأنا واثقة أنها هي نفسها لن ترغب في تجنب الإجراءات القانونية الواجبة. أليس كذلك يا إيرين؟"

يمكنها إلقاء نفسها تحت رحمة آو شون وقبول عرضه. لكن حينها سيتعين عليها توديع المكتبة—وهو أمر مدمر تمامًا كما لو طردها كبار أمناء المكتبة. في كلتا الحالتين، ستخسر. قد تحتفظ بـ كاي كطالب بتلك الطريقة، لكنها ستخسر مع ذلك.

أو ربما كان هناك مخرج من هذا لا يعتبر خسارة تامة. الأمر يعتمد على ما إذا كان آو شون يشعر فعلًا بنوع من الامتنان لأفعالها، وإلى أي مدى يمتد ذلك.

قالت بحزم:

— "لن أتخلى عن واجبي الآن. أفعالي وإهمالي قد يسببان حربًا تهدد مئات العوالم. أنا أسلم نفسي لأي عقاب مطلوب."

بدا فيل على وشك قول شيء. التقطت عينه وحدقت فيه بيأس، مع هزة صغيرة جدًا برأسها. إذا كانت هذه المقامرة الضخمة ستنجح، فلابد أن يكون التهديد الموجه لها حقيقيًا.

أومأت كوبيليا:

— "لم أكن أتوقع غير ذلك. تعالي إذن."

للحظة ساد الصمت الغرفة؛ ثم قال آو شون:

— "انتظري."

استفسرت كوبيليا:

— "جلالتك؟"

كان تعبير آو شون وكأنه نحت من صخر.

— "أطلب، كخدمة ولمصلحة العدالة، ألا يُحكم على هذه الأمينة بقسوة شديدة. أستطيع القول ببعض الثقة أنه لا يوجد خطر فوري لنشوب حرب."

أخذت إيرين نفسًا عميقًا من الارتياح لتلك العوالم البشرية——ولنفسها. كان الرفع المفاجئ للثقل عن كاهلها مصيبًا بالدوار. لن تكون هناك حرب. يمكنها النجاة من عقوبة——وقد لا تكون بتلك السوء، نظرًا

لما قاله آو شون للتو. لكنها تذكرت الطبيعة الصارمة لانضباط المكتبة، وهبط قلبها.

أعطت كوبيليا نصف انحناءة وقورة.

— "شكرًا لك يا جلالتك. سيؤخذ هذا بعين الاعتبار في الحكم عليها. إيرين، إن كان لديك أي وداع لرفاقك، يرجى إتمامه."

التفتت إيرين لـ كاي وفيل.

— "سأعود إذا، وعندما، أستطيع. لا تفعلا أي شيء غبي."

قد لا تكون هذه اللغة المناسبة تمامًا للاستخدام أمام ملك، لكن سيطرتها كانت تفلت. وظل التحقيق يخيم عليها.

أخذ كاي يديها في يديه ووعد:

— "سأكون بانتظار عودتك هنا. بإذن عمي، بالطبع."

أضيفت الجملة الأخيرة بسرعة، ولم تبدُ صادقة بشكل خاص لـ إيرين. وبالحكم من التكشيرة على وجه آو شون، لم تبدُ صادقة جدًا له أيضًا.

لمس فيل كتفها باقتضاب.

— "سأبقي عيني على سترونغروك في غيابك. آمل ألا تتأخري طويلًا يا وينترز. خبرتك باللغات مفيدة بشكل مدهش."

تضيق حلق إيرين. لن تحرج نفسها.

قالت بوضوح:

— "شكرًا لكما. آمل ألا أتأخر طويلًا أيضًا."

وكان لا يزال لديها أمل. لأن آو شون لم يخرج كاي من المكتبة، ولأن كوبيليا جاءت لمساعدتها——ولأنه، مهما كانت العقوبة التي قد تفرضها المكتبة، لم تظن أنهم سيطردونها. لا تزال جزءًا من المكتبة، وتحدثت

باسم المكتبة حين كانت الأمور في أسوأ حالاتها. وبمساعدة المكتبة، أوقفوا حربًا قبل أن تبدأ. ولأنه، رغم كل ما وُضع ضدهم، هي وفيل أنقذا كاي.

ألقت تحية ملكية أخرى لـ آو شون وتبعت كوبيليا خارج الغرفة—— عائدين نحو المكتبة.

-تمت-

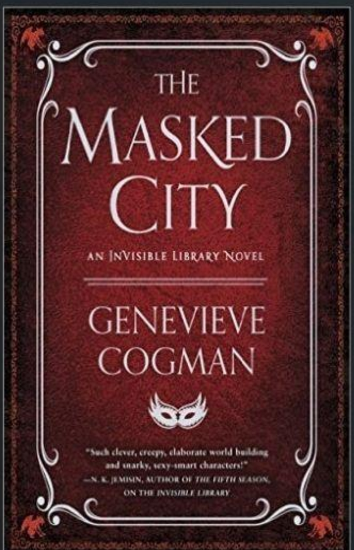
مدينة الأقنعة

جينيفيف كوجمان

بينما تمارس الجاسوسة وأمينة المكتبة "آيرين" عملها متخفية في نسخة بديلة من لندن، يختفي مساعدها "كاي" فجأة، لتتكشف أمامها حقيقة مرعبة: لقد وقع في قبضة "الفاي".

لكن الكارثة لا تتوقف عند حياة "كاي" فحسب، بل إن التداعيات تنذر بدمار قد يطال عوالم بأسرها. فدماء التنانين التي تجري في عروق "كاي" وإن كانت تمنحه حلفاء أقوياء، إلا أنها جعلت منه هدفاً ثميناً لأعداء لا يرحمون. وبهذا العمل العدواني، يوشك "الفاي" على إشعال فتيل حرب طاحنة بين قوى "النظام" وقوى "الفوضى".

الآن، وفي سباق محموم لإنقاذ "كاي" ومنع نهاية العالم، يتوجب على "إيرين" التوغل في نسخة مظلمة من مدينة "البندقية"، حيث يسود كرنفال أبدي غامض. هناك، وسط الأقنعة والظلال، ستُجبر "آيرين" على استخدام كل ما في جعبتها من حيل: الابتزاز، **اللـغــة**، والقتال المستميت... وإلا، فالموت بانتظارها.



ترجمات مكتبة الوادي

t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks